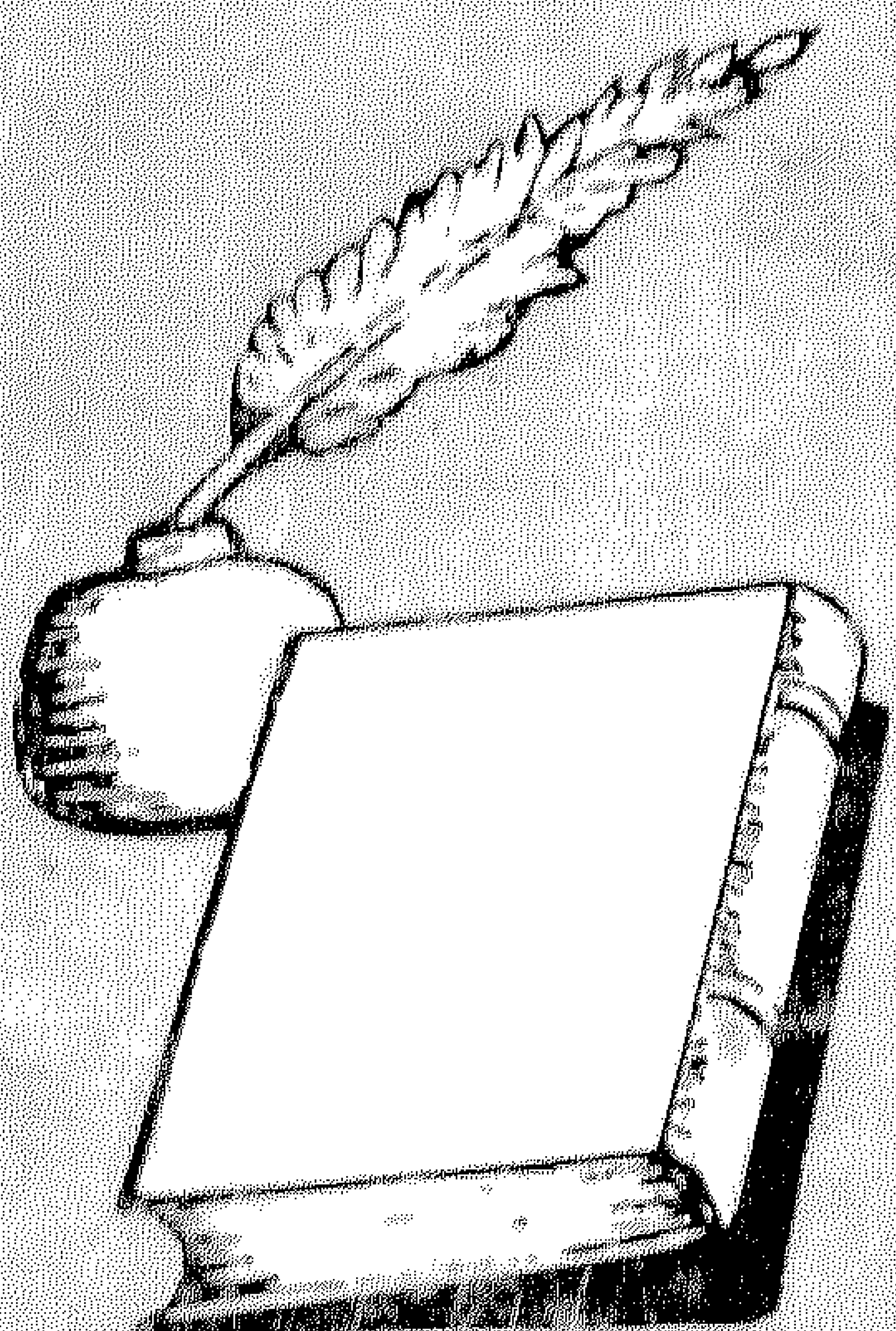
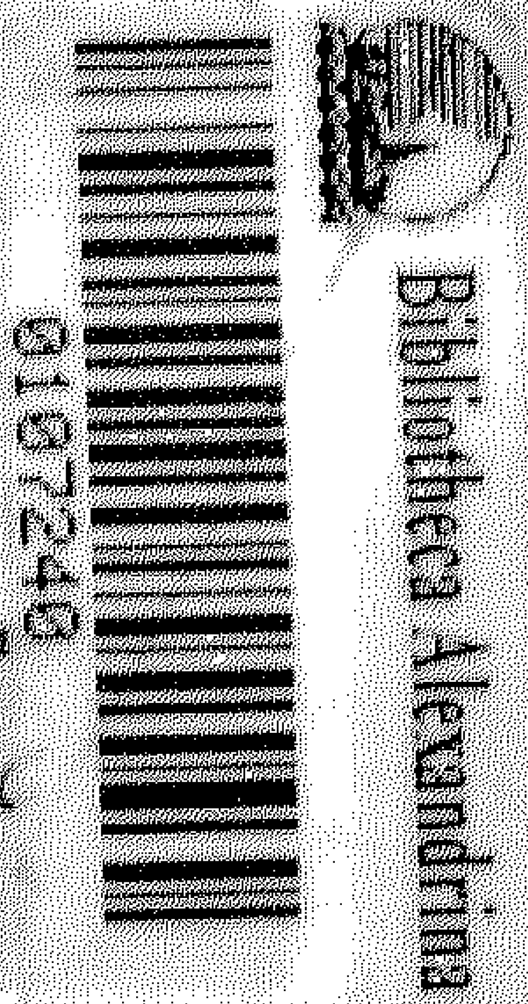
موسوعة التاريخ الإسلامي

٤

- الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها
- المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا : من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر
- السنوسية : مبادئها وتاريخها

تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج
التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة
والفائز بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى
لكتاباته في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية





Bibliotheca Alexandrina
0107240

مكتبة النهضة المصرية
شارع عدلي ـ القاهرة

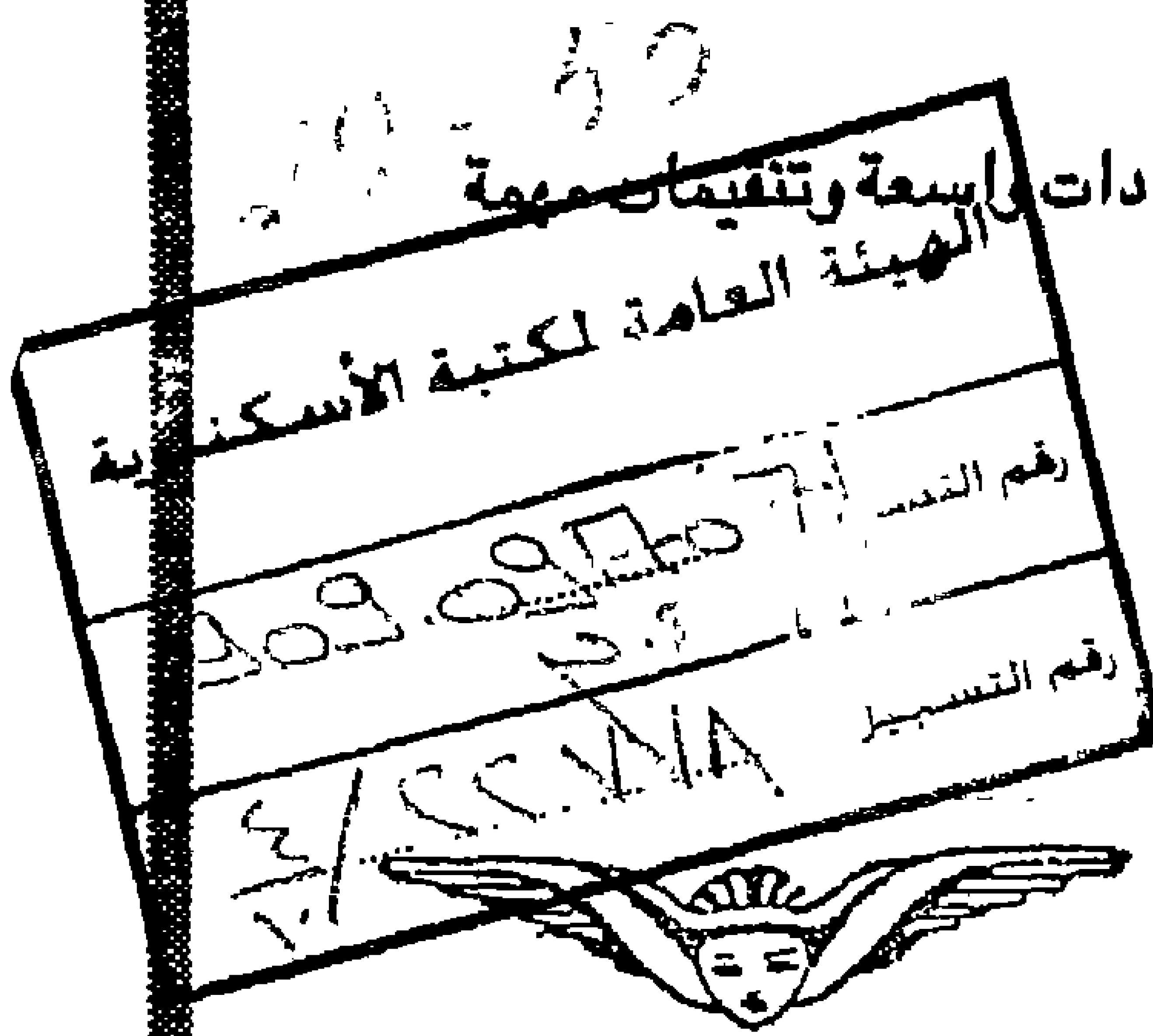
موسوعة
التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى .



ـ الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها
ـ المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا : من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر
ـ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

الطبعة العاشرة (١٩٩٥) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة


الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

تأليف

الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى
والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة [illegible]

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧

الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٤

الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٨

الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

خطة البحث فى هذه الموسوعة

، خطة البحث التى أتبعها فى كتابة « التاريخ الإسلامى » خطة جديدة ومريحة ، سرنى أن أبرزها فى التخطيط التالى ليعرف القارئ كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة إذ أن العالم الإسلامى وحدة واحدة .	جـ ١	العرب قبل الإسلام ـ السيرة النبوية العطرة ـ عصر الخلفاء الراشدين
	جـ ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	جـ ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات) فى الأجزاء الخمسة التالى لأن العالم الإسلامى انقسم إلى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الإسلامى . بحيث يتناول تاريخه من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الإسلامى للدول الإسلامية غير العربية بآسيا : إيران ـ أفغانستان ـ الباكستان ـ بنجلاديش ـ ماليزيا إندونيسيا ـ الأقليات الإسلامية بالصين والأقطار السوفيتية والهند والفلبين	الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية ـ عمان ـ اليمن ـ دولة الامارات العربية قطر ـ البحرين ـ الكويت ـ ثم العراق (حرب العراق والكويت ١٩٩٠ ـ ١١) .	الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن دراسة عن : - وسائل انتشار الإسلام بقلب إفريقية الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربى - الدول الإسلامية الحالية : موريتانيا ـ السنغال ـ جامبيا ـ غينيا ـ مالى ـ النيجر ـ نيجيريا ـ تشاد ـ السودان ـ الصومال ـ جيبوتى ـ أريتريا	مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر - الحروب الصليبية : دوافعها أدوارها ، نتائجها الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	- الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية منها إلى أوروبا . - المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وتاريخها .

وتختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات

كتب للمؤلف

أولاً : موســـوعة التــاريخ الإســـلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات تشمل تاريخ العالم الإسلامي كله . من مطلع الإسلام حتي الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشر)

الجــزء الأول : العصر الجاهلى ـ السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين

الجـزء الثانى : الدولة الأموية وإنصاف تاريخها .

الجزء الثالـث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول .

الجزء الرابـع : الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية عن طريقها إلى أوربا ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا من مطلع الإسلام حتى الآن

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حت الآن ـ الحروب الصليبية ـ تاريخ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن .

الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن موريتانيا ـ السنغال ـ جامبيا ـ غينيا ـ مالى ـ النيجر ـ نيجيريا ـ تشاد ـ السودان الصومال ـ جيبوتى ـ ارثيريا

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن . المملكة العربية السعودية ـ اليمن ـ عمان ـ دولة الإمارات العربية ـ قطر ـ البحرين ـ الكويت ـ ثم العراق (أحداث العراق والكويت ١٩٩٠ ـ ١٩٩١) دراسة محايدة .

الجزء الثامن : الدول الإسلامية غير العربية بآسيا : إيران ـ أفغانستان ـ الباكستان ـ بنجالاديش ـ ماليزيا ـ إندونيسيا ـ منذ دخلها الإسلام حتى الآن الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم . عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات .

كتب للمؤلف

ثانياً : موســـوعة الحضارة الإســـلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية ، والعسكرية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك .... (الطبعة العاشرة) .

الجـزء الأول : موجز عام للحضارة الإسلامية ـ المناهج الإسلامية : أصولها الصحيحة ـ انحرافاتها ـ وجوب تصحيحها .

الجـزء الثـاني : الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره ، مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية .

الجزء الثالـث : السياسة فى الفكر الإسلامى ـ مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة

الجـزء الرابـع : الاقتصاد فى الفكر الإسلامى ـ مع المقارنة بالنظم الاقتصادية الحالية ، ومع دراسة القضايا الاقتصادية المعاصرة (شهادات الاستثمار ..)

الجزء الخامس : التربية واالتعليم فى الفكر الإسلامى .

الجزء السادس : المجتمع الإسلامى : تكوينه وعلاج مشكلاته فى الفكر الإسلامى .

الجزء السابع : الحياة الاجتماعية فى الفكر الإسلامى : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالخطبة والمهر وحقوق الأولاد والتبنى وكالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ......

الجزء الثـامن : التشريع والقضاء فى الفكر الإسلامى (مع دراسات واسعة عن مصادر التشريع الإسلامى وبخاصة عن القرآن الكريم وتدوينه ومعجزاته) .

الجزء التاسع : العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى وماذا قدّم الإسلام فى نطاق هذه العلاقات للمجتمع البشرى .

الجزء العاشر : رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

ثالثاً : التفسير الميسّر للقرآن الكريم

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم إذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب للمؤلف

رابعا : مقارنة الإديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد علي آدق المصادر بمختلف اللغات وتمتاز دراستها بالجيدة والعمق وتشمل :

الجـزء الأول : اليهودية : (الطبعة العاشرة)

ـ دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهنونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى إسرائيل ، يهوه إله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

ـ **مصادر الفكر اليهودى :** العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

ـ **اليهود فى الظلام :** الاغتيال ، التحسس ، الماسونية ، الروتارى ، الليونز ـ شهود يهوه ، البابية والبهائية

ـ من صور التشريع فى اليهودية .

الجـزء الثـانى : المسيحية : (الطبعة العاشرة)

ـ المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

ـ بولس واضع الميسحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

ـ شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقة للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، والرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة العاشرة)

ـ الله فى التفكير الإسلامى ـ النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام ـ آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبعة العاشرة)

« الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية »

ـ تقديم عن : جعرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

ـ دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

ـ أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجود .

ـ تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

خامسا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

ـ كيف تكتب بحثاً أو رسالة .

دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

(الطبعة الثانية والعشرون ـ مع ثلاثة ملاحق مهمة)

ـ الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الان :

عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الإسلامى عبر العصور .

الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيته : زوج مثالي ـ زوجاته ـ أولاده ـ أحفاده ـ خدمة

ـ أحداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات ، وما السبيل للتغلب عليها ـ

دراسة تاريخية نفسية محايدة (الزهراء للإعلام العربى)

كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ISLAM : Belief - Legislation - Morals .
- History of Muslim Education .

وباللغة الفرنسية

- Islam : Croyance - Législation - Morale .

مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

- Nagara dan Pemerintahan Dalam Islam .
- Masharakat Islam .
- Hukum Islam .
- Sedjarah dan Kebudajann Islam I
- Sedjarah dan Kebudajann Islam II
- Sedjarah dan Kebudajann Islam III
- Perbandingan Agama (Jahudi)
- Perbandingan Agama (Maslhi)
- Perbandingan Agama (Islam)
- Perbandingan Agama (Agama2yang
- Terbesar di India : (Hindu - Jaina - Buddha)
-Sadijarah Pendidikan Islam
- Politik dam Ekonomi Dalan Islam
- Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
- Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
- Perang Salib
- Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
- Pengajian Al Quraan
- Sedjarah Kchakiman Dalam Islam

Pustaka National (Singapore)

كتب المؤلف

سادسا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرؤها كل فرد من أفراد الأسرة ظهر منها ٧٧ جزءاً كالآتى :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءاً)

وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها تُدَوّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشّرون بالجنة (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدوينة ـ القرآن والعلم ـ فضائل القرآن ـ إعجاز القرآن ـ الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم . (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف (٥ أجزاء)

لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموى ؟ وكيف أُعَدْتُ كتابته .

المجموعة السادسة : شخصيات إسلامية

صقر قريش ـ هارون الرشيد ـ الخليفة المأمون ـ الناصر لدين الله ـ عبد الرحمن الناصر .

المجموعة السابعة : صراع وشهداء وانتصارات

- من شهداء الإسلام .
- الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن .
- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة الثامنة : الإسلام والمرأة (٥ أجزاء)

حالة المرأة فى الحضارات غير الإسلامية ـ ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟

نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة سكينة » ونماذج فى السياسة والأدب والعلوم والفنون ـ زيجات شهيرة فى التاريخ : « زبيدة ـ بوران ـ قطر الندى » .

المجموعة التاسعة : كتب متفرقة :

مكة المكرمة : من التهيؤ لاستقبال دين جديد إلى التنكيل بمن اتبعه (٣ أجزاء فى مجلد واحد) .

- الميراث فى الشريعة الإسلامية : دراسة شاملة .
- تاريخ الطب فى الإسلام .
- حركات من منطقة فارس ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور (٣ أجزاء فى مجلد واحد)
- تطوير دراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ودور « دار العلوم » فى هذا المجال
- مع أنبياء الله الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وعددهم ٢٥ نبيا لإبراز التوجية الإلهى والقدوة الحسنة .
- الإسلام فى أوربا خلال التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث .
- الصحوة الإسلامية : مظاهرها ـ معوقاتها (الحرب والتطرف) ـ الصحوة تستعيد نشاطها .
- السلفية : من روائع السلفية ـ تعثُّر السلفية أحياناً .
- مدن مقدسة إسلامية : مكة المكرمة ـ المدنية المنورة ـ القدس الشريف (منذ ظهورها حتى الآن) .
- صرخة تحذير : المسلمون الذين يتعرضون للقهر فى عدة أمكنة .
- علماء وأدباء من خراسان وبلاد ماوراء النهر عبر التاريخ .
- السيـرة النبـويـة للناشئـة (اربط حياة أولادك بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم)
- الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق .
- تعلم اللغة العربية لغير العرب .
- قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .

محتويات الكتاب

مراكش (المغرب)

حركات المقاومة للاستعمار :

الجزائر

فهرست الخرائط والصور واللوحات

مقدمة الطبعة الأولى

باسم الله العلى العظيم أقدّم هذا الجزء من «موسوعة التاريخ الإسلامى» وإنى أحس بسرور بالغ حين أتقدم به للقراء الأعزاء ولاشك أن إقبالهم العظيم على الأجزاء التي ظهرت من هذه الموسوعة قد دفعنى إلى مواصلة الجهد لأخطو للأمام خطوات أخرى ، ويعلم الله أننى منحت هذه الموسوعة كل وقتى وكل جهدى ، واعتبرت نفسى مرتبطاً بوعد مع القراء الأفاضل ، والله أدعو أن يساعدنى لأوفّىَ هذا العهد ، وأنجز هذا الوعد .

وأنا أشعر بفيض من السعادة مع هذا الجزء قلّ أن عرفته فى كل الكتب التى كتبتها ، وذلك لإحساسى أنه سيملأ فراغاً كبيراً فى الدراسات التاريخية والإسلامية ، ولما أتوقعه له من نجاح نتيجةً للاعتبارات الآتية :

١- سار هذا الجزء فى دراسة البلاد التى انتظمها منذ مطلع صلتها بالإسلام حتى العهد الحاضر ، ومن الحق أن نقرر أن هذا عمل لم يعمله على هذا النمط مؤرخ من قبل ، وإذا كان هناك مؤرخون أفاضل اشتركوا معى فى موضوعات الجزء الأول (صدر الإسلام) أو الجزء الثانى (الخلافة الأموية) أو الجزء الثالث (الخلافة العباسية) مثلا فإن أحداً منهم لم يسر بمؤلفه حتى العهد الحاضر ، وطبيعى أن هذا العمل كان شاقاً للغاية ، إذ احتاج إلى مراجع تختلف باختلاف العصور وباختلاف البلدان ، وعندما وصلنا السنين الأخيرة احتاج البحث إلى أحدث المراجع وإلى كثير من الوثائق والصحف والنشرات .

٢- وضع هذا الجزء موضع التنفيذ منهاجنا الذى اتبعناه فى «موسوعة التاريخ الإسلامى» وخلاصة هذا المنهاج أن نتبع الدراسة الزمنية طالما كان العالم الإسلامى وحدةً واحدة ، فقد خُصص الجزء الأول من هذه الموسوعة لدراسة صدر الإسلام ، والجزء الثانى للدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها ، والجزء الثالث للخلافة العباسية .

ومن المعروف أن العالم الإسلامى تفكّك بعد العصر العباسى الأول ، ومرت به بعد ذلك حركات تجمّع وتفكّك ، ومن ثم أصبح نهجنا ابتداء من هذا الجزء

« الجزء الرابع » أن نتبع الخط الجغرافي وليس الخط الزمني ، أي أن نتكلم عن قطاع جغرافي من قطاعات العالم الإسلامي مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق ، ونظل مع تاريخ هذا القطاع من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

وفي القطاع الجغرافي الذي خُصص له هذا الجزء سندرس الأندلس منذ فتحها المسلمون حتى سقوطها في أيدي الفرنجة ، ثم نتكلم عن الشمال الإفريقي كله كلاماً عاما من ناحية التاريخ والحضارة ، وبعد ذلك نفصّل القول في تاريخ كل دولة من دوله مبتدئين بالمغرب فنتحدث عن المغرب من هذه الموسوعة من الفتح الإسلامي حتى العهد الحاضر ، ثم ننتقل كذلك إلى الجزائر فتونس فليبيا ، وقد خصص الجزء الخامس للقطاع المجاور (أي مصر سوريا) ، وهكذا حتى وصلنا في الجزء الثامن إلى إندونيسيا في أقصى الشرق ، والحمد لله .

٣- حقق هذا الجزء هدفاً كان غير واضح في أذهان كثير من الباحثين ، ذلك هو الإطار الزمني لما يسمى « التاريخ الإسلامي » ، فقد كانت هناك اتجاهات خاطئة تقف بالتاريخ الإسلامي عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ونحب أن نقولها بقوة إن التاريخ الإسلامي يشمل تاريخ الدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر ما دام الإسلام ديناً لها ، فما يسمى التاريخ الحديث أو المعاصر لمصر وسوريا والسودان .... إنما هو جزء من التاريخ الإسلامي وعلى هذا يلزم أن يزوَّد الباحث في التاريخ الإسلامي بالمناهج الحديثة للبحث في التاريخ الحديث ، بالإضافة إلى تعرُّفه على المنهج الذي لابد منه للباحث في التاريخ الوسيط ، وقد قلنا في تحديد نطاق التاريخ الإسلامي إنه يشمل تاريخ الدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر مادام الإسلام ديناً لها لنقرر مع الأسف أن التاريخ الإسلامي توقف أحياناً في بعض الأقطار لتوقّف الإسلام بها ، كما حدث في الأندلس وفي قطعة من فلسطين نرجو أن يعود لها سريعاً ضوء الإسلام والتاريخ الإسلامي .

* * *

وقد عنيتُ في هذا الجزء بالموضوعات الحضارية المتصلة بتاريخ هذه المنطقة ،

وعقدت لها دراسات مستقلة ، وذلك كحضارة المسلمين بالأندلس وكمشكلة الجنس واللغة فى الشمال الإفريقى وكالسنوسية ، وغير هذه من الموضوعات .

وأرى لزاماً على أن أتقدم بموفور الشكر للمستشارين الثقافيين بعدد من السفارات العربية بالقاهرة ، الذين تفضلوا بإمدادى بكثير من الوثائق التى كانت المعين الوحيد فى تصوير الحلقات الحديثة من تاريخ هذه الدول .

والله أرجو أن يحقق النفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

المعادى فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٦٣

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة العاشرة

صدرت الطبعات السابقة من هذا الجزء ، فأقبل عليها القراء إقبالاً أشكر الله عليه ، وأحمده للقراء الأفاضل الذين شجعوا « موسوعة التاريخ الإسلامى » واستقبلوا كل أجزائها بترحاب وشوق ، ومثل هذا الإقبال يدفع المؤلف إلى مزيد من الجهد والإجادة ، ويسرنى اليوم أن أقدم الطبعة العاشرة وفيها تعديلات ذات بال تشمل ناحيتين مهمتين :

الناحية الأولى : تتصل بتاريخ الأندلس ، فقد زدت فى دراسته عمقاً وبحثاً وإسهاباً من طبعة إلى طبعة ، وفى الطبعة العاشرة التى أقدمها اليوم يسرنى أن أضيف إضافات واسعة عن تاريخ الأندلس ، فقد أتيح لى زيارتها عدة مرات إحداها فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ عضواً فى الوفد الذى مثّل مصر فى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد فى مدينة قرطبة ، وفى خلال هذه الزيارة استطعت أن أحصل على معلومات شديدة الأهمية تضيف الكثير للتاريخ الإسلامى بهذه البلاد كما كتبتُ بحثينٌ طويلين أحدهما عن « صقر قريش » ورحلته من الشام إلى الأندلس وجهوده وجهود مولاه بدر فى تأسس السلطة الأموية بالأندلس .

والبحث الثانى عن الخليفة عبد الرحمن الناصر ومواهبه والسفارات التى دارت بينه وبين ملوك أوربا ، وقد أضفتُ هذين البحثين لهذه الطبعة العاشرة .

الناحية الثانية : متابعة الأحداث بدول المغرب العربى ليكون الكتاب مشتملا على المعالم المهمة لتاريخ هذه المنطقة حتى يوم صدور هذه الطبعة ففى هذه الطبعة دراسة عن ماجدّ من مشكلات حول بلاد المغرب ،علاقاتها بأسبانيا من جهة ومناطق الصحراء من جهة أخرى ، وفيها دراسة عن الأحداث التى جرت بالجزائر من أواخر عهد الرئيس الشاذلى بن جديد حتى عهد الرئيس على كافى ، وانتقال السلطة فى تونس من بورقيبة إلى زين العابدين بن على ، وفيها عرض للأحداث التى جرت حول ليبيا وعلاقاتها بدول الغرب .

والله ولى التوفيق ...

المعادى فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٩٥

المؤلف

تفكك الدولة الإسلامية فى القرن الهجرى الثانى

عرض سريع :

ظلّ العالم الإسلامى وحدة واحدة طيلة عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية ، وكان الخليفة فى المدينة أو دمشق مسئولا عن جميع أرجاء هذا العالم ، يدبّر أمره ويعيّن له الولاة ؛ وبسقوط الدولة الأموية بدأ التفكك فى العالم الإسلامى ، فلم تخضع للعباسيين كل الأرجاء التى كانت تابعة لبنى أمية ، إذ لم يمتدّ سلطانهم إلى الأندلس ، بل ظلت بعد سقوط الأمويين فى حالة الاضطراب والصراع الداخلى مدة ست سنوات ، حتى قفز إليها عبد الرحمن الداخل واستقل بها عن بنى العباس الذين غلبوا أجداده فى باقى البقاع وأقصوهم عن السلطان .

وفَتحت الأندلس الباب لتمرد المقاطعات واستقلالها ، وحدثت ظروف مختلفة ساعدت على مزيد من التفكك واستقلال البلدان من حين إلى آخر ، وتمت فى العالم الإسلامى حركات انحلال واسعة ، كما تمت به أحياناً حركات اندماج [1] ؛ وسنحاول أن نلم بهذه الحركات فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه .

وتاريخ حقبة الانحلال صعب للغاية ، لغموض بعض فتراتها ، ولطول هذه الحقبة وكثرة التعقيد فى تاريخها ، وسنسير فى دراستها تبعاً للمنهاج الجغرافى التاريخى الذى شرحناه فى المقدمة ، وسنقف عند كل دولة لها شأن فى نشر الإسلام ، أو أثر فى الحضارة الإسلامية لنمنحها دراسة وافية وبياناً شافياً ، أما الدول غير ذات الخطر في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية فلن تطول معها وقفتنا .

والله المسئول أن يسدد خطانا ويلهمنا التوفيق .

---

(١) كالذى تم على أيدى البويهيين والسلاجقة فى مطلع عهد هؤلاء وأولئك .

الأندلـــــس

مقـدمة :

عاش المسلمون بالأندلس حوالي ثمانية قرون ، كانت الأندلس خلال فترة طويلة منها قبلة العلوم ومصدر الأزدهار والتقدم في شتى الميادين ، وقد تسبب عن ذلك أن جذبت هذه البلاد كثيرين من علماء الشرق ، وأن نشأ بها كثيرون من العلماء الأفذاذ ، وكانت نتيجة ذلك أن دُوِّنَ تاريخ الأندلس وتاريخ الفكر الإسلامي بالأندلس في مجموعة خصبة من المراجع ، في قمتها ما دونه المقري [1] وابن خلدون [2] وابن القوطية [3] والضبى [4] وابن بسام [5] وصاحب أخبار مجموعة [6] والسلاوي [7] وابن عذارى [8] والمراكشى [9] .

وغربت شمس الإسلام بالأندلس فهزّ هذا الحادث نفوس المسلمين ، وأثار أحزانهم وآلامهم ، ولم يجدوا من وسيلة - علي مر الزمن - إلا الحديث عن الأندلس : تاريخها ، وحضارة الإسلام فيها ، وظهرت نتيجة لذلك مؤلفات عدة كتبها الباحثون المسلمون ، شملت مختلف النواحي عن الأندلس وحضارتها ، ولا تزال المؤلفات عن ذلك الموضوع تظهر حتي الآن ، والأندلس قطعة من أوربا ، فلا عجب أن يهتم بتاريخها المؤرخون الغربيون فيما دونوه من أبحاث ودراسات ، وكثير منهم أنصفوا الحكم الإسلامي ، واعترفوا بأفضاله علي التقدم الأوربي ، وسجلوا أن الأزدهار العلمي بالأندلس كان من أهم أسباب النهضة الأوربية .

وقد تركت لنا هذه العناية بجوانبها المختلفة مجموعة ممتازة من المؤلفات ،

---

(١) نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب .

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس .

(٤) بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس .

(٥) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .

(٦) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس (مجهول المؤلف) .

(٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

(٨) البيان المغرب فى أخبار المغرب .

(٩) المعجب فى تلخيص أخبارالمغرب .

شملت مختلف النواحي السياسية والعلمية والعمرانية والأدبية للفردوس المفقود .

ومن أجل هذا يعتبر تاريخ الأندلس أكثر وضوحاً من تاريخ كثير من الدول الإسلامية ، وهو في الوقت نفسه يجعل الموضوع خصباً يمكن أن تكتب فيه مجلدات ضخمة تُخصص له ، ونحن هنا سندون خلاصة هذا التاريخ ، إذ لا يتسع كتابنا هذا للتفاصيل الدقيقة عن كل الأقطار الإسلامية ، ولكننا مع ميلنا ألي الإيجاز لن ندع حادثاً ذا بال دون أن نسجله ونعلق عليه .

* * *

وقد تحدثنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن فتح الأندلس [1] في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وأصبحت الأندلس بعد فتحها جزءاً من إمارة إفريقية ، إذ أن أمراء إفريقية هم الذين فتحوها ، فاعتبرت لذلك امتداداً لولايتهم ، غير أن الأندلس أخذت شيئاً فشيئاً تكوّن شخصيتها وتأخذ استقلالها الإداري ، فاستقلت عن افريقية وأصبح لها والٍ خاص يتبع الحكومة المركزية بدمشق ، بل خطت خطوة أخري فأخذ أهلها يعينون هذا الوالي وليس للخليفة إلا أن يوافق عليه [2] ، وظلت كذلك حتي سقطت الدولة الأموية بدمشق ، فاستقلت الأندلس استقلالاً تاماً عن المشرق .

الأندلس فى رحاب الإسلام :

وقبل أن نسير في دراستنا عن الأندلس الإسلامية يجدر بنا أن نتكلم عن التغيير السريع الذي حدث للمجتمع الأسباني بعد أن أصبح المسلمون أصحاب السلطان فيه ، وطبيعي أننا لا نقصد هنا أن نتكلم عن الحضارة الإسلامية بالأندلس ، فلهذا الموضوع مكان آخر ، وإنما نقصد التغيُّر السريع الذي أحدثه المسلمون بالمجتمع الأسبانى ليساير الفكر الإسلامي والاتجاه العقائدى للفاتحين .

ولعل Stanley Lane-Poole خير من يحدثنا عن هذا الموضوع ، فمنه نقتبس

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٣١ من الطبعة العاشرة .

(٢) انظر المجمل فى تاريخ الأندلس للأستاذ عبد الحميد العبادى ص ٦٢ .

بضع فقرات عن العلاقة بن الفاتحين والسكان الأصليين ، وعن التغيير الذي أحدثه المسلمون بالمجتمع الأسباني إثر دخولهم فيه ، قال [1] :

– يجب ألا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم كما فعل المتوحشون قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حُكمت في عهد العرب الفاتحين .

– ولم تكن ميول الأسبان إلي المسيحية عميقة ، فقد فرضها قسطنطين عليهم فرضاً ، وكان كثيرون منهم يحنون للوثنية ، علي أنهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلي دين جديد ، بل كانوا في حاجة إلي العيش في أمن ورغد ، وقد منحهم المسلمون هذين الأمَلَيْن .

– وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم وعُيِنَ لهم حكام من أنفسهم ، يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وكان التسامح الديني سائداً ، فلم يدع للأسبان سبباً للشكوي .

– ودفع النصاري واليهود الجزية وهي مقدار ضئيل يتدرج حسب منزلة المطالبين بها فهي تبدأ من اثني عشر درهماً إلي ثمانية وأربعين ، وقد قسمت اثني عشر قسطاً يجبي قسط كل شهر للتخفيف عن الرعية ، أما ضريبة الأراضي فقد كانت تتفاوت حسب جودة الأرض ، وقد فرضت بعدل ومساواة علي النصاري واليهود والمسلمين جميعاً ولم تمتد يد المسلمين إلي أملاك الأهلين التي كانت لهم قبل الفتح فيما عدا الإقطاعات ، وظفر السكان الأصليون بحق لم يكن لهم أيام القوط وهو نقل ملكيتهم لسواهم عندما يشاءون .

– أما فرح العبيد بما طرأ علي نظام الحكم من التغير فقد كان عظيماً حقاً بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان ، فتركهم المسلمون أحراراً يزرعون الأرض كما يشاءون علي أن يقدّموا للدولة نصيباً من الغلة ، أما عبيد المسيحيين فقد راحوا يتخلصون من الرق عن طريق إعلان إسلامهم .

---

(١) العرب فى أسبانيا ص ٣٨ ، وما بعدها .

– وكان الفتح العربي في جملته نعمة ورخاء علي الأندلسيين المحكومين ، لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة وحولّها ملكيات صغيرة ، ثم إن هذا الفتح رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطي ، واكتفي منهم بالجزية (علي غير المسلمين) ، ثم حث علي تحرير العبيد والرفق بهم .

– وكان من أثر هذه المعاملة وهذا التسامح أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب علي حكم الإفرنج أو القوط حتي أن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدي التألم لحكم العرب كما يدل علي ذلك التاريخ المنسوب إلى (ايزيدور الباجى) الراهب الصالح .

العوامل التى ساعدت على تأسيس الدولة الأموية بالأندلس :

امتازت الأندلس من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والقلاقل من حين إلي حين ، وقد ظلت هذه العوامل تثور حيناً وتُكْبَح حيناً ، كانت تثور فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح فتعود الأندلس إلي الوحدة والقوة ، ولكنها في النهاية اشتدت وأدّت إلي الكارثة الأليمة وهي غروب الإسلام من الأندلس . وسنشرح فيما يلي بإيجاز عوامل الانحلال لنبين كيف مهدت لإمارة الأمويين بالأندلس ، ثم استمرت هذه العوامل حتى استولى الفرنجة على الأندلس كلها .

وأول ما نذكره أن المسلمين لم يُكملوا فتح الأندلس ، وأغرتهم المساحة الشاسعة التي دانت لهم بما فيها من خصوبة ودفء ، فتركوا الشمال الغربي من شبه الجزيرة للمسيحيين ، وهذا الجزء هو المسمي (جليقية) Glicai وهو جزء قاحل وعْر جبلي شديد البرودة ؛ وعلي هذا عاش المسلمون مع أعدائهم دون أن يحاولوا محاولة جادة أن يقضوا عليهم ، وقد أوي القوط الفارّون من الزحف إلي هذه المنطقة ؛ ويبدو أن المسلمون لم يهتموا بها لانعزالها وجفافها ، ولأنهم لم يهتموا بالقوط الفارين لضعف شأنهم عند الفتح ، ولكن هذه المنطقة أصبحت مركزاً تربي فيه دهاة المسيحيين وأبطالهم ، ومنها خرج المحاربون الذين استطاعوا أن يستردوا أسبانيا فيما بعد .

وبالإضافة إلى هذا فإن الأوروبيين خافوا الزحف الإسلامى ، فوقفوا يؤيدون مسيحيى أسبانيا ويمدونهم بالعتاد والرجال للدفاع عن المسيحية أو لحراسة أوروبا من المسلمين الغزاة ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك عندما اجتاحوا أوروبا من الشرق .

والمسلمون الذين دخلوا أسبانيا جاءوا من الشمال الأفريقى ، ويتكوَّنون من عنصرين رئيسين هم العرب والبربر ، وقد بدأ الخلاف بين العرب والبربر من مطلع عهد المسلمين بالأندلس ولم يتوقف قط ، ثم إن العرب يمنيّون أو مضريون ، وهم فى خلاف لا ينقطع حول الإمارة والمال والسلطان ، وقد أخذوا بذور هذا الخلاف معهم من الجزيرة العربية ، والبربر تجمعهم هذه الكلمة (البربر) ولكنهم فى الواقع قبائل ، يميلون دائماً للحياة القبلية ولا يطول ولاؤهم للسلطة المركزية البعيدة عنهم .

وهناك أخيراً المسلمون من الأسبان . وهؤلاء اعتنقوا الدين الإسلامى ولكنهم لم يندمجوا اندماجاً تاماً مع العرب ؛ وحاولوا من حين لآخر أن يكوّنوا لهم جبهة خاصة [1] .

وهناك كذلك الصقالبة ، والصقالبة فى الأصل سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار ، ثم اكتسب اللفظ مدلولا خاصا فى أسبانيا الإسلامية ، فصار يطلق على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى أيدى الجرمان ويباعون للمسلمين فى شبه الجزيرة ... وكانوا يندمجون فى سلك الجندية ، أو كانوا يوجَّهون للخدمة فى القصور [2] ، وبعض هؤلاء دخلوا الإسلام ، وبعضهم ظل على دينه ولكنهم على كل حال كانوا عنصر قلق واضطراب ، وظلوا متميزين دون أن يندمجوا فى أية طائفة أخرى .

هذه العوامل كانت تثور من حين لآخر ، وكانت إحدى ثوراتها مشتعلة عندما أعلن بنو العباس دولتهم ، ولكن بنى العباس كانوا فى شغل عن إخماد هذه

(١) عن هذه الخلافات اقرأ ابن خلدون : العبر ، والمقرى وابن عذارى فى صفحات متعددة واقرأ كذلك « أخبار مجموعة » ص ٥٧ بعدها .

(٢) دكتور لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٣٦ .

الفتنة ، إذ قابلتهم عقب قيام دولتهم مشكلات جمة صرفتهم عن الأندلس ، فظلت الأندلس تموج فى الاضطراب والفتن مما هيأ للفتى المغامر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس ؛ وأن يقيم بها ملك بنى أمية ، أو قُلْ أن يمنح الحياة والاستمرار لملك بن أمية فى هذه البلاد بعد أن توقف سلطانهم فى غير الأندلس من بقاع . وكانت الأندلس بذلك أول مقاطعة انشقت على الخلافة العباسية .

الحكام الأمويون بالاندلس :

عندما استقر أمر الأندلس لعبد الرحمن الداخل بعد صراع طويل كوّن بها ملكاً لبنى أمية توارثه أبناؤه وأحفاده ، واستمر حتى سنة ٤٢٢ هـ ومن الطبيعى أن ملك بنى أمية بالأندلس مرَّ خلال هذه الفترة بعصور قوة وعصور ضعف ، وفيما يلى أسماء الحكام من بنى أمية بالأندلس ، وتواريخ بدء سلطانهم ، مع إشارات سريعة لأهم الأحداث المتصلة بهم ، ثم يتلو ذلك حديث عن الأندلس فى خلال حكم كل منهم :

عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)	١٣٨ هـ	
هشام (الأول) بن عبد الرحمن	١٧٢ هـ	
الحَكَم (الأول = الربضى) بن هشام	١٨٠ هـ	
عبد الرحمن (الثانى = الأوسط) بن الحكم	٢٠٦ هـ	
محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ هـ	ظهرت بعض الدويلات شبه المستقلة إبان هذه الفترة كدولة بنى حجاج بإشبيلية ذى النون بالولايات الغربية ، وقد أعادها عبد الرحمن الثالث الى الطاعة .
المنذر بن محمد	٢٧٣ هـ	
عبد الله بن محمد	٢٧٥ هـ	
عبد الرحمن (الثالث = الناصر) بن محمد بن عبد الله (حفيد عبد الله بن محمد)		أزهى عصور الأمويين بالأندلس

الحكم (الثانى = المستنصر) بن عبد الرحمن ٣٦٠ هـ

هشام (الثانى بن الحكم) ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ

وفى عهد هشام هذا ظهرت « الدولة العامرية » ، وعُزل هشام مع نهاية هذه الدولة ، وأصبح خلفاء بنى أمية دُمى تحركها القوى المختلفة حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ وبدأ عهد ملوك الطوائف .... كما سيظهر من الدراسة التالية .

الأندلس فى عهد الحكام الأمويين

نظرة عامة :

استعملنا كلمة حكام لتشمل الأمراء قبل إعلان الخلافة وتشمل الخلفاء بعد إعلانها ، وقد شغل عبد الرحمن الأول (الداخل) وابنه هشام وحفيده الحكم الإمارة الأموية بالأندلس خلال أكثر القرن الهجرى الثانى (١٣٨ ـ ٢٠٦) وشغل عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد وحفيداه المنذر وعبد الله الإمارة الأموية بالأندلس خلال القرن الهجرى الثالث (٢٠٦ ـ ٣٠٠) ، أما عبد الرحمن الناصر (الثالث) وابنه الحكم وحفيده هشام فقد شغلوا هذا المنصب خلال القرن الرابع الهجرى (٣٠٠ ـ ٣٩٩) .

وقد جدَّ عبد الرحمن الداخل ليبدأ الإمارة الأموية ويدعمها ، وكذلك سار ابنه وحفيده ، ولذلك يعتبر القرن الثانى عهد دعم الإمارة ، أما القرن الثالث فقد انتهى الأمر فيه إلى الانحلال والتفكك من الناحية السياسية وبخاصة بعد عبد الرحمن الأوسط ، أما من الناحية الحضارية والفكرية فقد خطت الأندلس خطوات واسعة للأمام بسبب جهود عبد الرحمن الأوسط سالف الذكر .

ثم يجىء القرن الرابع الذى يعتبر أزهى عصور الحكم الإسلامى بالأندلس من الناحية السياسية والحضارية ، وكان السلطان فيه لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم (المستنصر) من بعده ، ثم لهشام بن الحكم الذى استبد المنصور ابن أبى عامر وابناه بالسلطة دونه ، ولكن مع نجاح كبير .

الفتن الداخلية والحروب الخارجية :

تحدثنا آنفا عن الاضطربات التى سادت الأندلس عقب فتحها وساعدت على قيام الإمارة الأموية ، وقد استمرت هذه الاضطرابات فكانت خلف كل هزيمة مُنِىَ بها المسلمون ، ولذا نرى أن نعود لها هنا بمزيد من الإيضاح مذكّرين القارئ أنَ هذه الفتن صحبت تاريخ المسلمين بالأندلس من أوله إلى نهايته ، فالكلام عنها هنا يغنى عن تكرار الحديث عنها فى كل عصر من عصور الإسلام بالأندلس .

لم يكن هناك ارتباط قوى بين العناصر الإسلامية التى وفدت إلى الأندلس ؛ فالعرب كانوا في جانب والبربر فى جانب ، والعرب ليسوا وحدة واحدة وإنما هم شيَعٌ وأحزاب وكذلك كان البربر ، ثم نبعت عناصر إسلامية فى الأندلس من الصقالبة ومن السكان الأصليين ، ولكل من هؤلاء وأولئك طابع واتجاهات ، ويمكننا أن نقول بوجه مجمل يحتمل كثيراً من التفاصيل لو اتسع الوقت والفراغ : إن الصخب والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر بدأ مبكراً واستمر استمراراً يكاد يكون متصلا ، ولم يهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وكان يهدأ ليبدأ ثورة عارمة عندما تتوانى أو تضعف هذه القوة .

وقد نقل المقرى عن مؤرخ أندلسى إسمه (الحجارى) نسْبةً إلى وادى الحجارة بالأندلس أن شارل مارتل قال لقومه من الفرنجة حين شَكَوْا إليه وقوف العرب على أبواب بلادهم : انتظروا ، لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم ، فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة ، وحصانة ضد الهزائم ، فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ويأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرّق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكّنون منهم بأقل مجهود ، ويعقّب المقرى على ذلك بقوله : فكان والله ذلك [1] .

وقد بدأت هذه الحركات منذ عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى قُتل فى شوارع إشبيلية بتدبير بعض أعدائه ، واستمرت هذه الحركات فأكلت كثيراً

---

(١) انظر : المجمل فى تاريخ الأندلس : للاستاذ العبادى ص ٦٤ .

من الحكام والولاة وكثيراً من الرجال والنساء ، وقاد هذه الحركات زعماء كثيرون منهم : الصميل بن حاتم من بنى قيس ، وأبو الصباح اليحصبي ، وهشام بن عزرة من الفهريين ، ومحمد بن عبدان ، وسعيد بن الحسين الأنصارى ، ومطروح بن سليمان بن يقظان ، وبنو حفص ، وأسرة بنى ذى النون من البربر وغيرهم كثيرون .

نموذج من الثورات الداخلية :

ونعرض فيما يلى للقارئ نموذجاً من الثورات التى انبثقت من أسرة واحدة هى أسرة فرتون بن موسى ، وفى مدينة واحدة هى سرقسطة :

موسى بن موسى بن فرتون	كثير الفتن والثورات مات سنة ٢٤٨ هـ
فرتون بن موسى بن موسى	ثار فى وجه الإمام محمد وخلعه واشتدت الحروب بينه وبين الإمام حتى مات سنة ٢٦٠ هـ
لب بن موسى بن موسى	كثير الثورات ، قتل عرب سرقسطة من قبائل شتى إذ أخرجهم إلى مرج يعرف بمرج العرب فقتلهم به ، مات وهو يصطاد سنة ٢٦١ هـ
إسماعيل بن موسى بن موسى	ثار فى أيام الإمام محمد بن عبد الرحمن وأيده إخوته ودمَّر وقتل ، ومات سنة ٢٧٦ هـ

محمد بن لب بن موسى	ثار فى عهد الإمام محمد حتى قتله أحد أتباعة الحانقين عليه سنة ٢٨٥ هـ
لب بن محمد بن موسى	كثير الثورات قتل سنة ٢٩٤ هـ
عبد اله بن محمد بن لب	مات مسموماً سنة ٣٠٣
مطرف بن محمد بن لب	ثائر قتل سنة ٣٠٣ [١]

ذلك نموذج للثورات التى انبثقت فى كل مكان والتى كان من نتائجها ضياع الأندلس ، ولاشك أن الاختلافات والصراع يضعف بها المنتصر والمهزوم وتعود بالوبال على الجميع فى النهاية ،

ولعل هذا الدرس يعلمنا فى حاضرنا ومستقبلنا حتى لا تتكرر المأساة ، وبخاصة أن عدواً صهيونياً يعيش بيننا وينتفع بأخطائنا ويرسم خططه ليسرق أرضنا الطيبة .

الخلاف على ولاية العهد :

وهكذا كانت الثورات داء عميق الغور ، وكان بجانب هذا الداء داء آخر ليس أقل غوراً من الثورات ، ذلك هو الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء ، وقد بدأ هذا الخلاف مبكراً أيضاً ، بدأ عقب وفاة عبد الرحمن الداخل نفسه ، إذ ثار ولداه سليمان وعبد الله فى وجه أخيهما هشام بن عبد الرحمن واستمر هذا النوع من الثورات ينخر فى جسم الأمة طيلة عهد المسلمين بالأندلس تقريباً حتى شهدناه فى أيامها الأخيرة بعد وفاة أبى الحسن على بن سعد بين أخيه وابنه ، وكان فى اختلافهما نهاية الحكم الإسلامى بالأندلس .

طلب العون من الأعداء :

وحقيقة مخجلة نوردها هنا قبل أن نتجاوز هذا الداء إلى سواه تلك هى أن فرق المسلمين المتحاربة طالما اتصلت بأعدائها المسيحين يطلبون منهم العون

والنصرة ضد أبناء دينهم ، وكان المسيحيون يستجيبون بطبيعة الحال فيفتنون بعض المسلمين بالبعض ويقفون موقف المتفرج الذى يرى فى انتصار أىّ من المتصارعين انتصارا له .

ثورات المسيحيين :

وداء ثالث منيت به الأندلس وهو مسيحيو الأندلس الذين فروا إلى جليقية أو الذين أقاموا فى المدن المختلفة مغلوبين على أمرهم ، ولم يدخلوا الإسلام واجدين فى الفكر الإسلامى ما يتيح لهم البقاء على دينهم لو دفعوا الجزية ، وسرعان ما وجد هؤلاء وأولئك الفرصة للثورة والثأر لهزائمهم من المسلمين ، وكانت الفرصة تتاح للمسيحيين بسبب الثورات الكثيرة التى قام بها المسلمون والتى قللت من شأن المسلمين وهدّت قواهم ، وشغلتهم عن المسيحيين العدو الحقيقى ، وفى هذا الجو جمع هؤلاء المسيحيون جموعهم ، وبدءوا يضربون ضرباتهم التى لم تُضِعْ فرصة دون أن تنتهزها ، وكانت ضرباتهم مثابرة عنيدة ، وشجعهم عليها ما حققوه من نجاح متصل ، وكان المسيحيون بالمدن الإسلامية يهبون ثائرين ، فإذا اتجهت القوة الإسلامية لإخماد ثورتهم زحف مسيحيو جليقية منتهزين فرصة انشغال الجيش بالحركة الداخلية .

أوروبا كلها تصارع المسلمين :

وداء رابع هو دول أوروبا التى أحست منذ عهد الفتح الإسلامى للأندلس أن أسبانيا ليست غاية وإنما هى طريق إلى أوروبا كلها ، ولذلك وقفت المسيحية تدافع عن نفسها بإصرار ، فهاجمت المسلمين كلما أتيحت لها الفرصة ، وعقدت المسيحية الأوروبية العهود والمواثيق والصلات مع خلفاء بغداد نكاية فى إمارة الأندلس الإسلامية التى كانت قذى فى عيون هؤلاء وأولئك [1] .

* * * *

(١) تاريخ الأندلس ص ٧٤ .

وبعد : هذا شعاع يبين الخط الذى سارت فيه أحداث الأندلس ، ولو أردنا التفصيل فى هذا الموضوع لوجدنا مادة واسعة ، ولكنها ـ فيما نرى ـ ستكون تكراراً لأحداث متشابهة لا يختلف فيها إلا الأشخاص ، أما الدوافع فهى هى لم تتغير : إنها العنصرية والقبلية والأنانية فى الجانب الإسلامى يقابلها انتهاز الفرص من الجانب المسيحى .

وقد أحسن ابن الشباط حين يقول : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا ، وإنما خذلهم التحاسد ، وفرط الخلاف ، والتباغض فيما بينهم [1] .

(1) تاريخ الأندلس ص ٧٤

تعريف بالحكام الأمويين وبفترات حكمهم

القرن الهجرى الثانى

صقر قريش : عبد الرحمن الداخل :

إن الحوار الذى دار فى مجلس الخليفة أبى جعفر المنصور عن عبد الرحمن الداخل يعتبر - فى تقديرى - مدخلا مهما يصوِّر لنا حياة الرجل الذى عقدنا عنه هذه الدراسة ، فلقد روى أن المنصور فى ليلة من ليالى سمره سأل سُمَّارة : -

من هو صقر قريش ؟

قال أحد السمار : إنه أنت يا أمير المؤمنين ، سكّنت الزلازل ، وأبَدْتَ الأعداء ، وحسمت الداء .

قال المنصور : ليس هذا بشئ فقد حقّقْت ما حققناه بسند ضخم من الخراسانية والهاشمية والعباسية ، وجموع الكوفة والبصرة .

قال آخر : أنه معاوية يا أمير المؤمنين ، فقد انتصر بباطله على أصحاب الحق ، ولعب بالسيف والحيلة حتى هزم أعداءه وحقق لنفسه النصر .

قال المنصور : وهذا أيضا ليس بشئ ، فقد كان مع معاوية أهله الذين هاجروا إلى الشام من الحجاز ، ونهض معاوية بمركب حَمَله عليه عمر و عثمان ، وكان معه مال وثراء جمعه من ولاية طالت بدمشق ، وكان جنود أهل الشام لا يعرفون سواه ولا يدينون لغيره ، وقَوِىَ معاوية بدهاء عمرو بن العاص وإخلاص المغيرة بن شعبة ، وما كان معاوية لينجح بدون هذه العوامل .

قال ثالث : إذن هو عبد الملك بن مروان الذى انتقل من فقيه بالمدينة إلى قائد بطل واجه قوًى متعددة كالزبيريين ، والمختار بن ابى عبيد ، وجموع الخوارج ، واطماع الروم وثورة ولى العهد عمرو بن سعيد الأشدق ، ويروى أن أخبار هزائم جيوش عبد الملك فى تلك الميادين وصلته فى ليلة واحدة فلم يتطرق اليأس إلى قلبه ، ولم يُرَ فى ليلة قبلها أشدُّ ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة ، وواجه كل هذه الأحداث وتغلب عليها

قال المنصور : وهذا أيضا ليس شيئا ، فقد كان عبد الملك فى بلده ، وبين أهله وتحته مال دمشق ، وعن يمينه وشماله جند الشام ، وهناك قحطانية يتألفها وقيسية يداريها وكان قبل كل شئ ولى عهد أبيه الذى أسهم فى توطئة الأمور له.

قال الحاضرون : فمن هو إذن صقر قريش يا أمير المؤمنين ؟

قال المنصور : صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذى عبر البحر وقطع القفر وحيداً ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً فمصَّر الأمصار ، وجنَّد الأجناد ، ودون الدواوين وأقام فى الأندلس ملكاً عظيماً بعد انقطاع من أسرته بحسن تدبيره وشدة شكيمته .[1]

نعم ذلك هو صقر قريش الذى عقدنا عنه هذه الدراسات القصيرة . ولنعد للقصة من أولها :

دهاء الأمويين :

من الحق أن نعترف أن فى الأمويين فطنةً ودهاء للخروج من الأزمات ، فمنذ قامت الثورات فى وجه عثمان بن عفان اتجه الكثيرون من الأمويين إلى الهجرة إلى دمشق حيث المأمن الذى يطمعون بالسلامة عنده ، فقد كان معاوية أميراً للشام وكان واسع الجاه فأحسن استقبالهم وكوَّن بهم قوة واجه بها الأحداث .

وتكرر هذا الوضع عندما شالت كفة الأمويين فى أواخر العهد الأموى بسبب صراع أبى مسلم الخراسانى فى خراسان ، فوجد الأمويون أن مأمنهم يكون فى الهجرة إلى الغرب البعيد ، إلى الأندلس التى فتحوها بجهودهم ، وهناك لن يكونوا فى متناول يد السلطات الهاشمية التى كان انتصارها قد بدأ ، ومن هنا فإن عبد الرحمن بن معاوية فكر عقب سقوط الأمويين في اللجوء إلى الأندلس حيث تجمع العديد من أسرته .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢

مقاتل الهاشميين :

ولكن هل كان من الضرورى أن يفرّ عبد الرحمن وغيره من وجه العباسيين ؟

والإجابة أن ذلك كان ضروريا جدا فقد تم انتصار الهاشميين بسيوف الفرس وبقيادة أبى مسلم الخراسانى ، ومعنى ذلك أن القيادة الجديدة تكره العرب عموما والأمويين بوجه خاص . ثم إن تاريخ الأمويين يسجل عليهم أنهم قتلوا وفتكوا بالكثيرين من الهاشميين فلهم ينسب مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه ومقتل زيد بن على زين العابدين ومقتل ابنه يحيى ومقتل إبراهيم الإمام وهو أخو السفاح والمنصور ، وقد قُتِلَ مع هؤلاء كثيرون من أهليهم وأتباعهم .

وربما اتجه العباسيون أحيانا إلى العفو عن بعض الأمويين الذين لم ينسب لهم عدوان على الهاشميين ، ولكن هواة الدم من الشعراء كانوا يذكّرون العباسيين بضحاياهم وبعدوان الأمويين على العديد منهم ، فتثور الرغبة فى الثأر وسفك الدماء :

يروى أن سديف الشاعر دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه ، فقال سديف :

لا تغرنّك ما ترى من رجال   إن تحت الضلوع داء دويا

جرّد السيف وارفع العفو حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان بن هشام لسديف : قتلتنى يا شيخ ...... ودخل السفاح وأخذ سليمان وقُتل [1] .

وإذا كان سديف أثار ضغائن العباسيين دون أن يذكر ضحاياهم ، فإن شاعرا آخر دخل على السفاح وعنده بعض آل أبى سفيان وكان أبو العباس السفاح قد عفا عنهم ، لبُعدهم عن الصراع ، فأنشد الشاعر قصيدة جاء فيها :

كيف بالعفو عنهمُ وقديما   قتلوكم وهتّكوا الحرمات

---

(١) الأغانى : ٤ : ٩٤   وابن الأثير ٥ : ١٦١

أين زيد وأين يحيى بن زيد ... يا لها من مصيبة وتراتِ

والإمام الذى أصيب بحران ... إمام الهدى ورأس التقات

قتلوا آل أحمد لاعفا الذنبَ ... عنهم غــافرُ السيئــات

فلما سمع السفاح هذه القصيدة جدد القتل والتنكيل بمن كان قد عفا عنهم من قبل .

ومن هنا يتضح أن فرار عبد الرحمن الداخل كان طبيعيا ، فهو شاب يُخْشَى أن يقود حركة مضادة للعباسيين ، وتضيق به بلاد الشرق لوقوعها تحت سيطرة المنتصرين ، ولذلك كان لابد لعبد الرحمن من الفرار ، فلنعرِّف بهذا البطل الذى أثنى عليه أبو جعفر المنصور مع مكانة المنصور وجلال قدره ، ثم لنتتبَّعْ خطواته إلى الأندلس :

من هو عبد الرحمن الداخل ؟

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، فهو سليل الأبطال من الأسرة الأموية ولقبه "الداخل" لانه اقتحم الصعاب ودخل الأندلس على الرغم من كل المتاعب .

وأبوه معاوية كان أحد الأبطال الأمويين ، وينسب له أنه كان يغزو الصائفة والشاتية ، وقد مات معاوية فى حياة أبيه هشام فمنح هشام مزيدا من العناية لابنى معاوية عبد الرحمن وأخيه الوليد .

وأم عبد الرحمن من البربر من قبيلة « نفزاوة » بطرابلس فى الشمال الإفريقى .

وقد وُلد عبد الرحمن فى مكان قريب من « تدمر » وهى مدينة تارتخية نعرِّف بها فيما يلى :

تدمر :

مدينة قديمة تقع فى الشمال الشرقى لدمشق ، وكانت واحة تقع بين سوريا وبابل شمال الصحراء السورية ، وتعتمد الواحة على ماء الينابيع ، ولها أهمية تاريخية لوقوعها بين حوض الفرات ووادى دمشق ، ويقال إن فى تدمر استقبل النبى سليمان موكب بلقيس ، ويقال كذلك أن بلقيس دُفنت فى تدمر وأن تابوتها أكتشف فى زمن الخليفة الوليد ، وكانت تدمر عاصمة الزبَّاء (زنوبيا) ومن آثار تدمر معبد الشمس وقلعة المَعْنى التى يُنْسَب بناؤها إلى فخر الدين المعنى ، وكانت تدمر مكانا تاريخيا صحىّ الهواء بنى فيه خلفاء الأمويين قصورا للمتعة والراحة.

وعلى هذا فقد تنفّس عبدُ الرحمن أنفاسه الأولى فى مركز من مراكز الحضارة العربية العظيمة ، وكان مولده سنة ١١٣هـ أى أن قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ قد بدأ وعبد الرحمن على مشارف العشرين من عمره .

عودة للتعريف بعبد الرحمن :

وامتاز عبد الرحمن بمزايا جسدية وعقلية ، فقد كان شبابه قويا لا يعرف الخوف ولا التردد كما كان شجاعا لا يعرف الضعف ولا التراجع ، وكان قاسيا على أعدائه رفيقا بأتباعه وأصدقائه .

وهذه الصفات التى تراوحت بين القسوة والوفاء كانت طبيعية فى الرجل ، فهو فتى شريد فرَّ من القتل عدة مرات ، رأى أهله يُقتَلون ، وأمجاد قومه تغتال ، وعايش مجموعة من المشكلات ؛ فسلطان قومه ينهار ، والدولة الجديدة معها سيوف الفرس التى لا تعرف الرحمة بالعرب ، وهو يندفع فى صحراء إفريقية وقفارها ، ويتجه للأندلس وهى حافلة بالاضطرابات ، فلا غرو أن يكون قاسيا وأن يحاسب بالشبهة ، ثم أن يكون رفيقا بمن آزره وأيده فى محنته .

ونبغ عبد الرحمن فى الثقافة العربية التى أخذ منها قسطا عظيما أمدَّه بالفصاحة والبلاغة وجودة الأداء على إن رحلته من الشام إلى الأندلس فى هذه الظروف الحالكة زادت من بطولته وضاعفت تجاربه وجعلت منه شخصية أسطورية

فريدة .

نبوءة لعبد الرحمن من مسلمة بن عبد الملك :

جاء فى كتاب "أخبار مجموعة" أن مسلمة بن عبد الملك تنبأ لعبد الرحمن الداخل وهو صبى بأن دولة بنى أمية ستحيى على يديه بعد انهيار ، وأن مسلمة رأى ذلك فى رؤيا تكررت ، وكان يذيعها .

ونبوءة أخرى لرجل يهودى عراف :

ويذكر صاحب كتاب أخبار مجموعة أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية اشتد فى طلب عبد الرحمن لأن عرافا يهوديا كان يقول : يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن ، له ضفيرتان ، وقد أرسل عبد الرحمن ابن حبيب ضفيرتين رجاء أن يكون هو الغالب على الاندلس ، ولكن اليهودى قال له : لست أنت لأنك لست من أبناء الملوك ، فلما عثر عبد الرحمن بن حبيب على عبد الرحمن الداخل ووجد له ضفيرتين قال هو هذا سأقتله . فقال اليهودى : إن قتلته فليس هو لأن لم يصل للأندلس ولم يحكمها (أخبار مجموعة ص ٥٦)

رحلة البطل :

سقطت الدولة الأموية عقب موقعة الزاب ، وفر مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير من هذه الموقعة إلى مصر فلاحقه صالح بن على ودارت المعركة الأخيرة بين فصيلة من جند العباسيين وبين مروان وفلول جنده فى قرية "بوصير" بمركز الواسطى بمحافظة بنى سويف فسقط مروان وبموته انتهى ملك بنى أمية وأصبح السلطان للخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح .

واتجه الأمويون عقب ذلك إلى القضاء على الأمويين وأنصارهم ، وكانت سيوف الفرس تواقة للنيل من الأمويين والقضاء على القوة العربية ، وسقط الكثيرون من الأمويين صرعى حتى أولئك الذين نالوا العفو من الخلفاء العباسيين فى أول الأمر كما ذكرنا من قبل أما عبد الرحمن بن معاوية فكان من الشباب الأموى الذى لم يتوقع عفوا ولا صفحا فكان لابد أن يعتمد على نفسه وعلى جهده .

وكان بعض أقارب عبد الرحمن ورفاقه قد اتخذوا طريقهم إلى الأندلس عندما رأوا ميزان قوة الأمويين يشيل ، ولكن عبد الرحمن لم يقبل أن يهرب من المعركة ، وآثر أن يحمل العبء فيها حتى آخر لحظة ، فلما انتهت دولة بنى أمية اتجه تفكير عبد الرحمن إلى أن يتجه لأخواله فى الشمال الإفريقى ومن هناك يواصل مسيرته إلى الاندلس .

ومن الواضح أن فكرة الرحلة إلى الاندلس كانت مغامرة ، ولكن ما يمكن أن يحدث لصقر قريش لم يكن أكثر مما شاهد من نوائب ومتاعب ، ولذلك لم يتردد فى سلوك هذا الطريق ، ثم إن الهدف كان عظيما ، فهو يسعى لملك ، أو قل إنه يؤسس دولة بعد ضياع ، وهذا سهّل له كلَّ صعب .

ولعل عبد الرحمن الداخل تصور جدَّه البعيد معاوية بن أبى شفبان ، وهو يبنى الدولة الأموية ويأخذ زمام الحكم فى العالم الإسلامى ، وينتقل من والٍ مثل عشرات الولاة إلى خليفة ، فاتخذ عبد الرحمن من معاوية قدوة له ، ولكن ظروف معاوية كانت على كل حال أيسر من ظروف عبد الرحمن .

وفى مطلع رحلته وهو على حافة نهر الفرات أوشكت خيول العباسيين أن تدركه هو وأخاه فألقى بنفسه فى اليم هو وأخوه ليحملها اليم إلى جانب الغربى ، وقد أمّنه العباسيون على نفسه لو استسلم ولكنه لم يثق فى تأمينهم ، أما أخوه المسكين فيبدو أنه وثق فى وعدهم وأيمانهم فلم يستمر فى السباحة وسلم نفسه لهم فقتلوه ، وأما عبد الرحمن فقد وصل إلي الجانب الآخر ، ثم تنكر واتجه إلى الشمال الافريقى .

إن هروب الشاب وحيداً من وجه دولةٍ أصبح لها نفوذ وسلطان ليعد قدرة هائلة بجميع المقاييس ، وأصبح فى هذه المسافة الشاسعة شخص واحد يقاوم دولة فتية فى مطلع حياتها وأزهى أيامها .

وقام الجواسيس والعيون بدور واسع ليسدوا الطريق فى وجه عبد الرحمن ، وفى نفس الوقت ظهر شخص فيه ملامح قريبة من ملامح عبد الرحمن فكان عبد الرحمن يظهر فى بلد ، ويظهر شبيهه فى بلد آخر مما يولد الشكوك حول المكان

الحقيقى الذى يوجد فيه عبد الرحمن .

فى الشمال الافريقى :

ووصل عبد الرحمن إلى منتصف السلامة عندما وصل إلى أخواله من قبيلة نفزة أو نفزاوة بالشمال الافريقى ، وهناك ألقي لهم زمام أمره ، وأحس الخليفة العباسى أن هذا الشاب فى طريقه إلى الاندلس فبذل أقصى الجهد حتى لا يصل عبد الرحمن إلى غايته ، وقام صراع فكرى بين عامل العباسيين على الشمال الإفريقى وبين عبد الرحمن ، فضيق العامل النوافذ على عبد الرحمن ، ويقال أن جند عامل العباسيين وصل إلى البيت الذى كان يختفي فيه عبد الرحمن ولم تكن هناك وسيلة لإخفاء عبد الرحمن إلا بأن تدخله امرأة تحت ثيابها ، ولم يخرج من تحت ثياب المرأة إلا بعد أن غادر جند العباسيين المكان بعد أن فتشوه بعناية .

وهدأ البحث عن عبد الرحمن بالشمال الافريقى نوعا ما ، وانشغل العباسيون عن عبد الرحمن بمتاعبهم وثاراتهم بالعراق والشام ، كما أن محاولة خلق الاستقرار لدولة العباسيين التهم الكثير من وقتهم وجهدهم ، وهذا أعطى فرصة لأحداث تتصل بإفريقية وينبغى أن نقف هنا وقفة لنعرض بعض هذه الأحداث :

١- الأندلس والعباسيون :

يمكن القول إن الاندلس كانت منقطعة الصلة بالعباسيين فالدعوة الهاشمية والدعاية الهاشمية كانت تدور فى خراسان وبلاد فارس ، أى كانت تدور فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، وكانت دمشق عاصمة الأمويين تقف فى طريق هذه الدعاية ، فلم تستطع الدعوة لآل البيت أن تتخطى السور الأموى فى الشام ليكون لها أثر فى مصر أو الشمال الإفريقى أو فى الأندلس وعندما قامت دولة العباسيين وسقط النظام الأموى لم يتبدل شئ إلا الولاة الذين ولاهم العباسيون أو بعض الجنود التى أرسلوها ، أما احساس الجماهير فلم يتغير تقريبا ، بل ظل متعاطفا مع الأمويين .

وكان بُعْد الأندلس عن مركز الخلافة يدفع هذه البلاد لتتجه للاستقلال ،

وبخاصة أن المركز الجديد للخلافة اتجه للمزيد من البعد عندما اندفع للشرق أى إلى بغداد .

٢- الشمال الافريقى والأمويين :

فإذا جئنا للشمال الافريقى وجدنا هذه المنطقة تدين للأمويين ، فالفتح الإسلامى بها كان عملا أمويا ، ومن هنا كانت هذه المناطق لا تعرف غير الأمويين ، وكانت المصاهرة بين بنى أمية والبربر فى الشمال الافريقى تدعم هذه الاتجاه .

ومما يدل على ضعف الارتباط بين الشمال الافريقى والعباسيين ، أن مناطق الشمال الافريقى بدأت تستقل عن العباسيين بعد فترة ليست طويلة من قيام الدولة العباسية ، فقد ظهرت الدولة الرستمية بالجزائر سنة ١٦٠هـ وأعلنت استقلالها عن العباسيين ، ثم قامت دولة الأدارسة فى المغرب سنة ١٧٢هـ ، وتوقع العباسيون زحفا مضاداً لهم يجئ من هاتين الدولتين ، فأقاموا فى تونس دولة شبه مستقلة هى دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ لتقف فى وجه استقلال المنطقة .

وكل هذا يدل على اتجاه الشمال الافريقى للانفلات من العباسيين .

٣- عبد الرحمن الداخل ورحلته :

إن اختيار عبد الرحمن للاتجاه للغرب اختيار ذكى ، فهو يمشى مع التيار ويسابقه ، وكان هذا هو الاتجاه الذى حاول مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، أن يلجأ إليه ، بل لجأ له أيضا أمويون آخرون فروا أو حاولوا الفرار من العنف العباسى .

ولكن فرار عبد الرحمن لم يكن ليطلب السلامة فقط كما فعل الآخرون من بنى أمية بل كان سعيا لتأسيس ملك أموى فى الأندلس بدل ملك الأمويين الذى انهار فى الشرق ، وكان عبد الرحمن يسير ومعه أمجاد قومه ، غير حافل بما عرفه وسمعه من عنت العباسيين ، فهو لم يتأثر بالخوف أو الذعر من الدماء التى أراقها المنتصرون ، بل رسم لنفسه هدفا ، يعتبر تعويضا عما فقده قومه ، وهذا يدل على بطولة هذا الشاب الذى جمع تجربة الشيوخ مع دماء الشباب .

وكانت الصراعات فى الاندلس تنادى عبد الرحمن أن يستغلها ليحقق أطماعه، كما كانت الاندلس تتطلع إلى قطع التبعية بالخلافة النائية وإقامة حكم مستقل بها رجاء تحقيق الاستقرار .

٤- شخيصة عبد الرحمن الداخل :

من أمجاد عبد الرحمن الداخل أن انتصارات العباسيين وعنفهم لم تنل من شخصيته ولم تهز كيانه ، وقد قابلهم عبد الرحمن وهم فى قمة أمجادهم ومطلع فتوتهم واستطاع أن يحقق أمله على الرغم منهم ، وقد اعترف الخليفة المنصور ببطولته وعظمته وسماه « صقر قريش » كما ذكرنا فى مطلع هذا البحث ، كما أن المنصور مع جلال قدره أخذَ بشيء من الخوف عندما رأى رؤوس أعوانه ملقاة أمامه ، ودُهش من جرأة عبدَ الرحمن وقدرته على توصيل هذه الرؤوس إلى باب الخليفة العباسى، وقال قولته الشهيرة « الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحراً » كما سنرى فيما بعد .

ويقول الباحثون إن البطل يُعْجَب بالبطل ، وقد كان المنصور بطلا فى ميدان الحرب وميدان السياسة ، هدَّد أبا مسلم الخراسانى وقضى عليه ، وانتصر على أبطال العرب بقيادة ابن هبيرة ، ومن هنا كان يرى نفسه فى عبد الرحمن ، ويشاهد فيه صورته .

ومن صفات عبد الرحمن الجسمانية أنه كان أعور ، أصهب (شعره يميل للحمرة) خفيف العارضين ، له خال فى وجهه ، وله ضفيرتان من ذوائب شعره .

ومن أبرز الصفات التى تتضح فى شخصية الداخل الدهاءُ البارع ممزوجا بالحزم مع القمع ، وإدراكه أن أتباعه لا بد أن يكونوا مستعدين للنظام والسلام ، فلن يفلت منه من خان أو اتجه للخداع أو الكسل وكان يدرك أن الشدة هى وسيلته الوحيدة لينجح فى أهدافه .

ومع ما عرف به من شدة وغدر وعنف فإن هذه الصفات كانت ضرورية لرجل فى مثل حالته ، ومع هذا فان ابن حيان مؤرخ الاندلس (ت ٤٦٩) يضفى عليه مجموعة من الصفات الرائعة ، فيقول كان عبد الرحمن راجح الحلم ، راسخ

العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجب سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعا مقداما ، بعيد الغور ، شديد الحذر، قليل الطمأنينة ، بليغا ، مفوها ، شاعرا ، محسنا ، سمحا ، طلق اللسان،

وسنرى هذه العبارة فيما بعد عندما نتكلم عن الحكم على عبد الرحمن بين الاعتدال والقهر .

لباسه وخاتمه ولقبه :

كان عبد الرحمن جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ، ويهتم به ، ويعود المرضى ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم يتوقف عن ذلك إلا فى أخريات عهده حينما نصحه بعض مشيريه ، وذكر له ضرورة الترفع استبقاء لهيبه الملك وحذراً من شر المتآمرين .

وكان نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » .

وقنع عبد الرحمن بلقب الداخل والأمير ولم يتخذ الألقاب التى كانت شائعة كالمظفر أو الناصر أو المنصور .

٥ - وصول مولاه بدر :

ومن أهم الأحداث التى أنعشت عبد الرحمن فى فترة الاختفاء بالشمال الإفريقي وصول بدر التابع الامين لعبد الرحمن ، وكان بدر يحمل لسيده الأموال والجواهر التى أرسلتها أخت عبد الرحمن إليه ، واسمها « أم الإصبع » وبدر من جانب والاموال من جانب آخر كانا عونا عظيما لعبد الرحمن لبلوغ أهدافه ، فبدر فيه الولاء والوفاء من جانب والقوة والتجربة من جانب آخر ، والمال ضرورى فى مثل أزمة عبد الرحمن ، وينتظر أن يجلب الأتباع ويرد عنه بعض الذين يلعب المال بأذهانهم ، وقد سعد عبد الرحمن بوصول تابعه بدر، وسعد بدر باللحاق بسيده عبد الرحمن ، وكان بدر بالنسبة لعبد الرحمن يمثل الناصح الأمين

، والتابع الشفوق ، وبدآ معا يرسمان خطة المستقبل وكان وصول بدر إلى مكناسة "حيث كان عبد الرحمن يقيم آنذاك .

٦- رسائل عبد الرحمن إلى الأمويين بالأندلس :

وهناك حدث آخر اتفق فيه رأى عبد الرحمن ومولاه بدر ، وهو ارسال رسائل إلى جماعات الأمويين فى الأندلس ، وربما لغيرهم أيضا من ذوى الشأن ، ويحمل بدر هذه الرسائل ، فيقدمها ويشرحها ويغرى الناس هناك بالاستجابة للأمير الذى سيصل إلى الأندلس فيوحّدها ، ويرفع شأنها ، وكان فى بدر كفاءة الإقناع والانتصار فيما يديره من حوار .

كما كان الأُمويون بالأندلس يحتاجون إلى دم جديد يقوّى وحدتهم ويشحذ عزيمتهم ، ويرجح كفتهم أمام القوى العربية والبربرية الأخرى التى تميل للعباسيين أو تتجه للاستقلال عن العباسيين والأمويين جميعاً .

كلمة عن الأندلس آنذاك :

وإذ بدأت الصلات بين عبد الرحمن الداخل والأندلس عن طريق مولاه بدر ، فمن الأفضل أن نتعرف على أحوال الأندلس آنذاك .

بين فتح الأندلس سنة ٩١ - ٩٢ هـ وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ أربعون سنة لم تكن كافية لخلق الاستقرار فى هذا القطر النائى ، ومن دلائل عدم الاستقرار أن الولاة فى هذه المدة وصلوا إلى عشرين أميرا ، وقد استُدعِىَ فاتح الأندلس موسى بن نصير إلى دمشق ، وبدل أن يكافأ على هذا العمل البطولى نُكّل به ، وكان موسى قد عَيَّنَ ابنه عبد العزيز نائبا عنه فى إدارة البلاد حتى يعود إذ كان يطمع فى العودة ، ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك قيل إنه أرسل من قتل عبد العزيز بن موسى فى شوارع إشبيلية ، وفتح هذا الغدر بابا لدماء اتصلت عقب ذلك .

ومن مشكلات الأندلس أن المسلمين لم يكملوا فتح الأندلس كما قلنا من قبل وأغرتهم المساحة الشاسعة التى دانت لهم بما فيها من خصوبة وثراء ، فتركوا الشمال الغربىّ من شبه الجزيرة للمسيحيين ، وهذا الجزء هو المسمى

(جليقـيـة) Glicai وهو جزء قـاحل وجبلى شديد البرودة ، وعلى هذا عاش المسلمون مع أعدائهم دون أن يحاولوا محاولة جادة أن يقضوا عليهم ، وقد أوى القوط الفارون من الزحف إلى هذه المنطقة ، ويبدو أن المسلمين لم يهتموا بها لانعزالها وجفافها ، كما أنهم لم يهتموا بالقوط الفارين لضعف شأنهم عند الفتح ، ولكن هذه المنطقة أصبحت مركزا تربّى فيه دهاة المسيحيين وأبطالهم ، ومنها خرج المحاربون الذين استطاعوا أن يستردوا أسبانيا فيما بعد وبالاضافة إلى هذا هناك ما ذكرناه من قبل من موقف الأوربيين وانضمامهم إلى أهل جليقية فى مواجهة المسلمين ، وهناك كذلك المسلمون الفاتحون وما كان بينهم من خلاف ثم المسلمون من الأسبان والصقالبة ومشكلاتهم ، وكل هذه القوى قد تجمعت فى أسبانيا آنذاك .

وكان آخر الولاة الأمويين بالأندلس هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وهو مضرى ، وقد وصل إلى الإمارة بعد خلافات طائلة بين اليمنيين والمضريين ، واتفق الطرفان أخيرا على أن تكون الإمارة عاما لهؤلاء وعاما لأولئك ، واختير الفهرى سنة ١٢٩ بناء على هذا الاتفاق ، فلما انقضى الحول وأراد اليمنيون الاستيلاء على الامارة قَتَلَ الفهرىّ كثيرين من زعمائهم واستبد بالأمر [١] .

رسائل عبد الرحمن إلى الأندلس :

أشرنا آنفا إلى الوفادة التى أرسلها عبد الرحمن إلى الأندلس ، وكانت رسائل عبد الرحمن لزعماء الأندلس يحملها مولاه بدر ، وكان بدر جديرا يحمل هذا العبء ، فأخذ بدر يسلم الرسائل إلى أصحابها ويقدّم معها الأمانى والوعود ، وواجه فى هذا الشأن مشكلات جمة نظرا للخلافات بين المسلمين هناك ، ولكن عزيمته لم تفتر .

وكانت رسائل عبدالرحمن بارعة فى أسلوبها السياسى فهى لم تكن على نمط واحد ، وإنما كانت حافلة بالأمانى والوعود ، وتخاطب أهواء الزعماء من عرب

(١) أبن الاثير حوادث سنة ١٣٠

وبربر ، وتمدّلهم فى الأمل ، حتى تنافَسَ أغلبُ الزعماء فى الترحيب بالبطل الذى توقعوا على يديه كل خير .

ولعب بدر دوراً هاماً فى إزالة الشكوك من نفوس بعض الزعماء الذين أحسوا بأن البطل القادم من الشرق سيزيل سلطانهم ويقضى على نفوذهم وتأخرت عودة بدر من الاندلس للشمال الافريقى بسبب تلك المتاعب ، وهذا بعث القلق فى نفس عبد الرحمن ، وكان هذا يتجه للبحر ليستقبل عودة تابعه الأمين ، وبينما كان بين اليأس والرجاء لمح مركب بدر قادمة من بعد ثم ظهرت ابتسامة بدر التى تحمل الأمل لعبد الرحمن .

وعندما كان بدر بالأندلس يتصل بالزعماء والقادة ليجذبهم إلى جانب سيده عبد الرحمن الداخل كان عبد الرحمن يعيش فى طنجة على مقربة من أرض الأندلس ، يعايش أريجها ويدرس تاريخها ومشكلاتها ويخطط لحياة جديدة فيها .

وصول عبد الرحمن للأندلس :

ولم تمضِ بعد ذلك أيام حتى كان عبد الرحمن ينتقل من الشمال الإفريقى إلى ساحل البيرة بالأندلس ، أو قل ينتقل من ميدان الصراع النفسى إلى ميدان صراع عكسرى ، وكان ذلك سنة ١٣٨ هـ والتف حوله الأمويون بالأندلس واتخذ عبد الرحمن جانب اليمنية لأنهم مغلوبون على أمرهم ، أمام يوسف الفهرى الذى ينتمى للمضرية ، واتخذ عبد الرحمن أهبته لمعركة فاصلة كما اتخذ يوسف الفهرى أقصى الاستعداد لتلك المعركة الخطيرة .

عبد الرحمن الداخل والصميل بن حاتم :

عندما نزل عبد الرحمن بلاد الاندلس بدأ يتصل بالزعماء ورؤساء القبائل ، وكان ممن اتصل بهم الصميل بن حاتم وهو من زعماء المضريين ، فمال الصميل إلى الاستجابة وقال لمن حمل له دعوة عبد الرحمن : إن عبد الرحمن بن معاوية

---

(١) دكتور لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ص ٣٦ .

(٢) أبن الاثير حوادث سنة ١٣٠

حقيق بالأمر ، وأنا مستعد لتأييده على أن يكون لى من الأمر شيئ وأزوجه ابنتى ، فيصبح واحدا منا ، فإن فعل قبلنا منه ، وعرفنا حقه وإن كره هان علينا ، على أن الصميل عاد وراجع نفسه وقال : إن عبد الرحمن من نسل قوم لا نستطيع مجاراتهم ولا الحياة بجانبهم [1] .



(١) أخبار مجموعة ص ٦٠ ، وربن القرطبية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٨ بتصرف .

أول بيعه لعبد الرحمن :

يذكر أبن القوطية أن أول بيعة لعبد الرحمن كانت في كورة ريّه ، وكانت رياسة العرب في هذه المنطقة إلى جدار بن عمر القيسي ، وكان ذلك يوم عيد الفطر ، واجتمع الناس في المسجد لصلاة العيد ، فقال جدار للخطيب : اخلع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، واخطب لعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام ، فهو أميرنا وابن أميرنا ، ثم التفت جدار إلى الحاضرين بالمسجد وقال : يا أهل ريّة ما تقولون ؟ فأجابوا نقول ما تقول ، فخطب الخطيب له وبايعه الحاضرون عند انقضاء الصلاة ، وبعد ذلك أخذت البيعات تتوالى عليه من هنا وهناك ، فكثر أتباعه ، ولم يبق إلا السيف ليقضى بالأمر بين الزعيم الأموى وبين الفهرى [٢] .

يوسف الفهرى يحاول التقرّب من عبد الرحمن الداخل :

عندما أحس يوسف الفهري بازدياد الحركة الموالية لعبد الرحمن الداخل حاول أن يقترب منه فأرسل له وفدا يدعوه للمعاهدة والمعاونة ويتعهد له بعدم الغدر ، ولكن اتباع عبد الرحمن الداخل حذّروه من الاستجابة وذكروا له أن الصميل بن حاتم هو وزير الفهرى وهو لا يؤمن على شئ [٣].

معركة المصارة :

تعتبر هذه الموقعة هي الباب الذي فتح الطريق لعبد الرحمن ليصل إلى قرطبة ، وكان عبد الرحمن قد سار بجيشه تجاه القرية المسماه (المصارة) ومعه جيش‌عرمرم من الأمويين ومن اليمنيين ومن والاهم ، وصاح عبد الرحمن فى جيشه يقول : هذا اليوم هو أساس ما يبنى عليه ، فإما ذل الدهر ، وأما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون .وكان أمير الاندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وصاحبه الصميل فى الشمال لإخماد بعض الفتن المحلية ، ولكن زوجة يوسف طيّرت الخبر إلى زوجها فعاد مسرعا ومعه الصميل ودارت المحاولات السلمية التى أشرنا إليها ولكنها

---

(٢) ابن القرطبة ٤٩ ـ ٥٠ ، وابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

لم تنجح ، ووقف الجيشان وبينهما نهر الوادى الكبير عند قرية المصارة ، وكان ذلك يوم وقفة عيد الاضحى سنة ١٣٨ هـ ، واتجه عبد الرحمن إلى الحيل التى عرف بها ونبغ فيها فأرسل إلى يوسف الفهرى رسالة يقول فيها : نحن فى أيام مباركة ولا ينبغي لنا أن نتحارب وأن يذبح بعضنا بعضا ، فى الوقت الذى جرت فيه سنة الإسلام أن يذبح المسلمون الضحايا فى هذا العيد المبارك ، وأبدى عبد الرحمن استعداده للقاء مع يوسف لإجراء مفاوضات رجاء كشف غمه الحرب عن المسلمين .

وأخذ يوسف الفهرى بهذا الأسلوب فوافق عليه ودعاه لعبور النهر ، وأرسل له ولجيشه قدراً كبيرا من المؤن والذخائر .

وعندما عبر عبد الرحمن بجيشه أعلن هذا أن المفاوضة تكون على أساس ترك السيادة والرياسة لعبد الرحمن فهو بها أولى ، وهو صاحب الحق الشرعى وسليل فاتحى الأندلس ، ولم يكن من الممكن أن يوافق يوسف على هذا المبدأ فبدأت المعركة .

ومما يتصل بهذه المعركة أن عبد الرحمن كان يركب حصانا فارها ، فسمع همسا بأن هذا الشاب لا خبرة له فى الحرب ، وأنه من الممكن عندما يحس بهزيمة أو تقهقر أن يسرع بالنجاة بفرسه الفاره .

وحينما سمع عبد الرحمن ذلك الهمس ، نظر فيمن حوله فوجد رجلا يركب حصانا أعجف فناداه واستبدل معه حصانه ، وأدرك الذين كانوا يتهامسون صلابة عبد الرحمن وإصراره ، وأن الموت أهون إليه من الفرار .

وقامت المعركة فحقق فيها عبد الرحمن نصرا عظيما ودخل بعدها مدينة قرطبة فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ .

أما جيش يوسف والصميل فقد وقعت عليه الهزيمة وفر يوسف والصميل وقد جددا حملاتهما بعد ذلك ولكن دون جدوى ، وقتل يوسف سنة ١٤٢ هـ وسجن

الصميل حيث مات فى السجن .

ومن أسباب الانتصار فى هذه المعركة أن اليمنيين كانوا فى قمة الحماس والرغبة فى الانتصار على المضرية التى كانت قد هزمتهم هزيمة منكرة قبل ذلك فى موقعة « شقنده » .

عبد الرحمن و ابنة يوسف الفهرى :

ومما يذكر أنه بعد هزيمة يوسف وفراره اندفع جند عبد الرحمن فدخلوا القصر وأخذوا ينهبون ويغنمون مما فيه دون مراعاة حرمة أو قيم ، وقد جاءت ابنة يوسف تشكو إلى عبد الرحمن فاستقبلها استقبالا طيبا واعتذر لها ، وأمر بأن يُرَدَّ إليها كل ما أخذ من القصر ، وأعاد عبد الرحمن الابتسامة إلى فمها ، فشكرته ، وأهدت له جارية جميلة اسمها « حلل » ، أصبحت أم ابنه هشام الذى تولى الملك من بعده .

ويصف ابن الشباط [1] فترة الصراع التى اجتازها عبد الرحمن فى مطلع عهده بالاندلس بقوله :

وفى الاندلس تجمع حول عبد الرحمن كل من كان من بنى أمية بها ، ومن يقول بقولهم ، ومن يَجِدُ على يوسف الفهرى موجدة لمظلمة جرت عليه ، أو لتقصير قصَّر به ، أو لعطاء حُرِمه ، فاجتمع عنده جمع كبير وقصد بهم قرطبة دار إمرة الفهرى ، فبرز إليه الفهرى فى جيش لا يحصى كثرة ، فاقتتلا وتحاربا ، وهزم الفهرى فى النهاية وهرب ، واستبيح عسكره ، وقتل أكثره ، ودخل عبد الرحمن قرطبة ، ودانت له الاندلس بأسرها ، وتعرف الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها عبد الرحمن على يوسف الفهرى باسم « المصارة » وكانت فى منتصف مايو ٧٥٦م (١٣٨) .

---

(١) تاريخ الأندلس ص ٥٦ .

محاولة العباسيين استرداد الأندلس :

شجع العباسيون واليهم على إفريقية " العلاء بن مغيث " على إخضاع الأندلس والقضاء على عبد الرحمن الداخل ، وإعادة الأندلس لتكون خاضعة وتابعة لوالى العباسيين بالقيروان ، ورغبة فى تحقيق النصر اتفق العلاء بن مغيث مع هشام بن عبد ربه الفهرى والى طليطلة على التعاون ضد عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن سارع فقضى على حركة هشام وقبض عليه وصلبه ، ثم استدار لمواجهة العلاء بن مغيث الذى عبر البحر من إفريقية سنة ١٤٦ بجيش قوامه سبعة آلاف من المحاربين الأشداء ، وفى جنوب الأندلس استقبل العلاء كثيرين من العرب والبربر الساخطين على عبد الرحمن .

واتجه عبد الرحمن بجيشه لمواجهة العلاء ، وقبل أن تبدأ المعركة سمع عبد الرحمن همسا باحتمال أن يهرب عبد الرحمن وأصحابه من هذه المعركة ، فأمر عبد الرحمن بإشعال نار عالية ، وقال لأصحابه سنخرج إلى العلاء خروج من لاتحدثه نفسه بعودة ، فإما انتصار وزحف وإما نهاية مشرّفة ، ثم أخرج سيفه من غمده وألقى قراب السيف فى اللهب وتأثر رجاله بذلك فألقوا أيضا بأغماد سيوفهم فى النار ، وكسب عبد الرحمن المعركة ، وقَتَلَ العلاء بن مغيث وكثيرين من أتباعه .

وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرة منهم إلى القيروان ومكة المكرمة فألقيت في أسواقها سرا ومعها اللواء الأسود [1] وقد أشرنا لذلك من قبل .

شارلمان ومؤامرة الخونة :

تقص علينا المراجع التاريخية خبر هذه المؤامرة الدنيئة التى اشترك فيها بعض العرب الموتورين من عبد الرحمن الداخل والذين صغرت نفوسهم ، فحاولوا الانتصار عليه ولو بالتآمر مع شارلمان ضده ، وهؤلاء الخونة هم سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى حاكم برشلونه ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وأبو

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٢ .

السعود الفهرى ، وأبو الاسود بن يوسف [1] ، وقد اتصل هؤلاء بأبى جعفر المنصور وطلبوا عونه فأعانهم بجيش من شمالي افريقية ، واتصلوا بشرلمان الذى كان يتطلع لهذه الفرصة ليمد سلطانه إلى أسبانيا وليرضى الكنيسة ، وكان الاتفاق يقضى بأن يهاجم الفهرى جنوب أسبانيا بجيش من افريقية ، وأن يمهد الكلبى لشرلمان ليغزو أسبانيا من الشمال ، وسارت المؤامرة فى طريق التنفيذ غير أن تحديد الوقت لم يتم بدقة كافية ، فقد نزل الفهرى جنوب أسبانيا قبل أن يهاجم شارلمان شبه الجزيرة فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضى على الفهرى، وينقلب فيقضى على الكلبى ، فلما وصل شارلمان لم يجد حلفاءه فى انتظاره ، ورأى أسبانيا مستعصية عليه ، وفى الوقت نفسه بلغه خبر ثورة السكسون ضده فى الشمال ، فانسحب متكبدا أمام عبد الرحمن خسائر فادحة ، وعاد هذا الجيش يجر أذيال الخيبة ، وزاد على ذلك أن اعترضته قبائل البشكنسن وهو يعبر ممرات البرنيز ، ويقال أن ذلك تمّ بتدبير عبد الرحمن الداخل ، وقد أنزلت هذه القبائل بمؤخرة جيش شارلمان الدمار ، ومزّقتها شر ممزق ، وقتل من قواد شارلمان قائد بطل اسمه رولان Rolan وهو الذى أوحى لشاعر فرنسى بالملحمة التى سُميت « أغنية رولان » ويعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية فى الأدب الفرنسى [2] **وقد أحسن المؤرخ الأندلسى ابن الشباط حين يقول : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلاهزم وانصرف مغلولا ، وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض فيما بينهم** [3] وقد ذكرنا كلمات ابن الشياط من قبل ونحن نكررها رجاء العبرة فى عصرنا الحاضر .

---

(١) Stanley Lane-Poole : Muslims in Spain p 29

(٢) اقرأ اخبار هذه المعركة فى :

١ - أخبار مجموعة ص ١١٣ .

٢ - ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣ - الأستاذ العبادى : تاريخ الأندلس ص ٧٤

صلح ودعوة للمصاهرة :

التقى عبد الرحمن عقب ذلك بشرلمان ، وكان عبد الرحمن يعرف قدر الرجال ، فوجد فى شارلمان ما يدعو للتقدير والإعجاب ووجد فيه شارلمان ما يدعو للتقدير والإعجاب أيضا ، فتودد له عبد الرحمن مع ما كان له من الفوز والانتصار عليه، فتمت بين الاثنين معاهدة ألزمت شارلمان ألا يتطلع لأسبانيا ، وخطرت فكرة مصاهرة بين الاثنين بأن يتزوج عبد الرحمن بنت شارلمان ، ولكن عبد الرحمن كان فى شغل عن الاهتمام بالمرأة والحريم ، فلم تتم المصاهرة ولكن تمت المعاهدة .

عبد الرحمن يدعو للخلافة العباسية :

ومما يذكر أن عبد الرحمن واجه المشكلات الكثيرة التى رآها فى الاندلس بأن يدعو للخلافة العباسية رجاء أن يتغلب على الأصوات التى كانت لا توافق على انقسام فى العالم الإسلامى ، وكذلك ليرضى بعض أتباع العباسيين ، ويخفف من حنقهم عليه ، وقد ظل فى دعوته هذه فترة ستة أشهر ، ثم عدل عنها وواجه المشكلة بصراحة .

لم يعلن نفسه خليفة :

بعد أن أعلن عبد الرحمن استقلاله بالأندلس لم يعلن نفسه خليفة ، إذ كان من المصطلح عليه أن يكون فى العالم الاسلامى خلافة واحدة يستحقها من يحكم أغلب العالم الإسلامى ، ويسيطر على الأماكن المقدسة ، ولم يتكرر المنصب فى الدولة الإسلامية إلا عندما أقام الفاطميون دولتهم بالشمال الافريقى، وأعلنوا أن الخلافة من حقهم ، فهم آل البيت ، وأن الأمويين غاصبون، وفتح الفاطميون بذلك الباب للتعدد فى منصب الخلافة ، وهذا أتاح لعبد الرحمن الناصر فيما بعد أن يعلن نفسه خليفة بالأندلس .

المبادئ الاسلامية وخياناتها :

لقد رأينا خيانة مريرة قام بها أولئك الذين ارتبطوا بشرلمان ليقضى على حركة عبد الرحمن الداخل ، وقد أثبت التاريخ للأسف الشديد صورا من هذه الخيانات قام بها المسلمون والمسيحيون جميعا، فالانتصار الشخصى عند بعض الناس كان أهم من انتصار الدين وأتباعه وإذا كان العصر الوسيط قد شهد مثل هذه الخيانات ، فإن العصر الحديث لايزال يشهد نظائر لها ، وهو عيب يسقط فيه من صغرت نفوسهم ، ومن تسلطت عليهم الأنانية وهؤلاء يستحقون اللعنة دائما على ما ارتكبوا من اثم .

ومن أحداث الخيانة التى ترتبط بالأشخاص الذين نتدارس الآن سيرهم ما حدث من خلفاء بغداد المنصور والمهدى والرشيد الذين أقاموا علاقات طيبة مع معاصريهم من ملوك الفرنجة بفرنسا بيبن وشارل مارتل وشارلمان وتبادلوا معهم الهدايا ، وذلك نكاية فى أمراء المسلمين بالأندلس وتهديدا لهم ، وذلك فى مقابلة حلف آخر بين البيزنطيين بالقسطنطينية وبين الأمويين بالأندلس للنكاية فى خلفاء بغداد .

ويعتبر هذا وذاك من نتائج ضعف الإحساس الدينى ومن دوافع الأنانية الشخصية .

صور أخرى من صراع عبد الرحمن :

من أهم الانتصارات التى حققها عبد الرحمن الداخل ما ذكرناه من انتصاره على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، الذى كان والى العباسيين على الاندلس ، وعلى مساعده الصميل الكلابى وكذلك انتصاراته على الجيش الذى أرسله المنصور لاستعادة الأندلس بقيادة العلاء بن مغيث كما مر . ثم انتصاراته على شارلمان والخونة ، ولكن ذلك لم يضع حدا لمتاعب عبد الرحمن الداخل فطبيعة

الحياة فى الاندلس كانت تستدعى حروبا متصلة تقريبا ، وكثرة الحروب وعنفها وتسلسل الغدْرِيّات فى عبد الرحمن قسوة بالغة واتجاها للنصر بأى ثمن ، ويحار الباحث هل يلوم الظروف التى دفعت عبد الرحمن للمبالغة فى القسوة والعنف أو يلوم عبد الرحمن الذى سيطر العنف والتنكيل على نفسه حتى أفقده الأحاسيس الطيبة أحيانا ، وسنرى فيما يلى مجموعة من الثورات التى هبت فى وجه عبد الرحمن وصورا من الحروب التى خاضها طيلة حياته ، وللقارىء بعد ذلك أن يري رأيه في لومه أو الاعتذار عنه :

ـ فى سنة ١٤٣ واجه عبد الرحمن ثورة شديدة قادهارزق بن النعمان الذي نجح فــى الاستيلاء على اشبيليه ، فحاصره عبد الرحمن ، ثم قبض عليه وقتله ـ وما كاد عبد الرحمن يحقق هذا النصر حتى ثار ثائر جديد سنه ١٤٤ هـ فى إشبيليه أيضا هو عبد الغفار اليمان ، وقد احتاجت هذه الثورةلجهد كبير حتى تمَّ القضاء عليها .

ـ وفى سنة ١٤٧ هـ ثار على عبد الرحمن واليه على طليطلة حياة بن الوليد ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يأسره ويقتله .

ـ وشهدت سنة ١٤٨ ثورات ثلاثا قام بها سعيد المطرى صاحب لِبْلَة واستولى على إشبيليه وغياث بن علقة صاحب شذونة ، وابن خراشة الأسْرى صاحب جيان، وقد هزمهم عبد الرحمن جميعا بعد جهود مضنية .

ـ وفى سنة ١٤٩ ثار على عبد الرحمن حليفه السابق أبو الصباح اليحصبى الذى خرج بإشبيليه بعد هزيمة سعيد المطرى ، ولم تنته هذه الثورة إلا بعد حيل كثيرة قام بها عبد الرحمن .

ـ هناك دعى بربرى اسمه شقيا بن عبد الواحد اتخذ لقب الامام وادعى أنه من نسل فاطمة الزهراء ، وقد ثار فى غرب الأندلس وطالت ثوراته واستولى على ماردة وقورية سنة ١٥١ هـ وهزم الجيش الذى أرسله له عبد الرحمن ، فخرج له

عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢ هـ فلاذ الدعي بالهرب إلى الجبل ، فلاحقه عبد الرحمن سنة ١٥٤ هـ وشدد فى مطاردته ولكن دون جدوى .

وعاد المدَّعِىّ فكوّن جيشا هزم جيش عبد الرحمن الذى كان يقوده عبيد الله بن عثمان ، وفر هذا القائد ، وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ .

ـ وفى سنة ١٥٦ ثار حيوة بن ملابس ومعه عمر بن طالون واتخذا من اشبيليه مركزا لنشاطهما ، وقد حاربهما عبد الرحمن وشتت شملهما .

وفى سنة ١٥٧ هـ ثار سليمان والى برشلونة وتحالف مع الحسين الأنصارى والى سرقسطة ضد عبد الرحمن وانتصر عليهما عبد الرحمن وقبض على بعض أتباعهما وأعدمهم وسليمان هذا هو الذى تحالف مع شارلمان ، وقد لقى سليمان حتفه سنة ١٦١ .

ـ وفى عهد الخليفة المهدى العباسى حاول العباسيون مرة أخرى تهديد الأندلس فعبر عبد الرحمن بن حبيب القهرى البحر من إفريقية إلى مرسيه ولكن هذه الحملة فشلت تماما .

هذه صورة من الثورات المتلاحقة التى واجهت عبد الرحمن الداخل والتى لم تسمح بأن تهدأ له نفس أو يغمض له جفن وكان دائما مهدّداً ، ولعل هذا هو الذى دفعه للعنف ، وقد وصل العنف إلى خلافه أو بالأحرى تنكيله بمن كان أحب الناس إليه وهو مولاه بدر .

الخلاف بين صقر قريش ومولاه بدر :

ولقد حمل بدر مع سيده كل العبء من أوله حتى سنة ١٥٦ : أتى له بالمال والجواهر التى لعبت دورا كبيرا فى جذب الأعوان ، وذهب إلى الأندلس مخاطرا بنفسه وعارضا أمر سيده علي بنى أميه بالأندلس وعلي سواهم حتى أقنعهم ، ثم عاد يدعو سيده للرحلة بعد أن مهد الطريق إليه .

وقد أمضى بدر ربع قرن في التخفّي والصراع والحروب (من سنة ١٣٢ إلي سنة ١٥٦) تقدمت سنّه وكلّ عوده ، ولكن عبد الرحمن كان لايزال متشبثا بالشباب فلم يرحم مولاه وحسبه تخلى عنه فعاقبه وقسا عليه ونفاه إلى الشمال حتى مات ، يالقسوة الحظ ونكران الجميل .

ولكن هذه النهاية لم تأت فجأة ، بل دار حوار طويل بين بدر وبين رفاقه فى الحروب ثم بين الامير وبين بدر وهاك صورة هذا الحوار الذى تخيله الباحث كالآتى:

(بدر مع مجموعة من القادة زملاء المعارك)

١ - لقد حققنا الكثير من الانتصارات ، ودانت لنا أكثر البلاد ، وإنى أتساءل : أما لهذه الحروب من آخر ؟ وأما آن لنا أن نهدأ ونعيش فى استقرار؟

٢ - أن ربع قرن من الزمان مرَّ علينا دون أن نهدأ فى بيت أو نذوق راحة السلام .

٣ - ما لك يابدر لا تتكلم ؟ وهل لا يرضيك كلامنا ؟

بدر : أنا أحس بما تحسّون به ولكن مولاى الأمير لم يحقق غاياته بعد .

١ - عليك يابدر أن تنصحه ، وأنت رفيق صباه وشبابه ، حملت له المال من أخته ، ومهدت له الطريق فى الأندلس قبل أن يراها ، وطالما تعرضت للأخطار، وقُدتَ معه الجيوش وخضت المعارك ، فليس أحد يجرؤ على الكلام معه مثلك ، ولا يقبل الأمير من أحد ما يقبله منك .

بدر : كيف أنصحه بالكف عن القتال وأنا أرى حماسته تتزايد وأطماعه تتضاعف ، وأكاد لا أراه إلا والزرد حول جسمه والسيف فى يده .

٢ - إذا كان أميرنا لايزال ينعم بالشباب فنحن يابدر نتجه للأفول ، ان

الامير فى الاربعين من عمره أو تخطى الاربعين بقليل ولكننا يابدر تجاوزنا الخمسين .

٣ - لقد ذكّرتنى ، لقد وصلت إلى هذه السن ولم أنعم بعد بالراحة وشغلنى الطعان والصراع عن حياة الاستقرار .

٢- هل لازلت تطمع فى الاستقرار أم أنك تقول وداعا لحياة الدعة والأسرة والراحة ؟

١- ضاع العمر كله سعيا وراء السلام ويبدو أن السلام لن يجئ .

٢- ليس العمر فقط يا رفيقى ولكن الجسم مزقته الحراب والطعنات ولم يبق فيه موضع لطعنة رمح أو ضربة سيف .

بدر : رويدكم أيها الرفاق حتى يقنع أميرنا بما قنعنا به ، فنحن لن نتركه ولن نتخلى عنه .

١- نحن لا نريد ولا نستطيع أن نتخلى عنه ، فحبه ينساب فى دمائنا ، وأوامره حبيبة إلى نفوسنا ، ولكننا نرجوك أن تنصحه أن يتدارس أحوالنا وأحوال هذا الوطن الذى تعبنا حتى وصلنا به إلى الحالة التى هو عليها الآن .

٢- لقد حققنا كثيرا من النجاح يمكن أن نعيش فى جنباته ، وليس من الضرورى أن نهبَّ كلما ظهر خائن ، فأغلب أعدائنا تنقضى ثوراتهم من نفسها أو بجهود محلية .

٣- ويجب أن يتضح أننا فى حاجة للراحة بعد هذا الجهد الطويل ، فالناس يتعبون ليستريحوا فى النهاية ، أما إذا امتد التعب وضاع الأمل فى الراحة فإن التعب يصبح عديم الفائدة .

بدر : أرجوكم أن نظل على الولاء والوفاء لأميرنا ، وأعدكم أننى سأنتهز

أقرب فرصة لأرفع إليه مشاعرنا وأضع أمامه آمالنا .

الجميع فى صوت واحد : شكرا لك يا بدر ونرجو لك التوفيق .

وسارت حياة عبد الرحمن فترة عقب ذلك على نمط حياته ، كفاح من جانب ومحاولة التقاط الأنفاس والنيل من متع الحياة من جانب آخر ثم حدث اليوم المشهود الذى قطع ما كان متصلا ، فقد استدعى الأمير مولاه بدراً ، فهُرع هذا للقائه كالعادة ، وصوت رفاقه يدب فى نفسه ويلاحق بدرا فى مسيرته للقاء سيده .

الأمير : يا بدر طال الصراع مع الدعى البربرى شقيا بن عبد الواحد وقد أرسلنا الجيش بعد الجيش ولكنها لم تقهره ، وجاء الدور على أنا وأنت وصفوة رفاقك لنذهب له . فأعدّوا أنفسكم بأقصى ما تستطيعون من سرعة .

بدر : سمعا وطاعة يا مولاى ... ولكن .

الأمير : (بحدّة) لكن ماذا يا بدر ؟ أن كلمة لكن منك شئ غريب لم أتعوده منك ، قل ماذا عندك .

بدر : يا سيدى أنت تعرف مكانك منى وطاعتى لك ..

الأمير (مقاطعا) كأن هذه الطاعة أتت إلى نهايتها .

بدر : معاذ الله يا سيدى أن تتوقف هذه الطاعة ، فقد كنت تابعك الامين منذ انفلتنا من الشام حتى الآن وكل ما أرجو أن تعطينى أذنك لحظة لأنقل لك ما فى نفسى (يجهش بالبكاء) .

الأمير : أعطيك أذنى يا بدر ليس لحظة بل ، حتى تُفرغ ما عندك (ينادى)

يا حارس لاتُدْخِل أحداً علينا حتى نفرغ من جلستنا .

الحارس : لبيك يا سيدى .

بدر : (فى تأثر) يا مولاى إن الناس يعملون فترة ليستريحوا فى نهاية الأمر، ونحن كافحنا طويلا فمتى نستريح .

الأمير : هل أخذ منك الجهد مأخذا وأتى على كل جهدك .

بدر : تذكَّرْ يا مولاى أبطال الإسلام ـ كم سنه كافحوا ؟ كم سنة جالد خالد بن الوليد وأبو عبيدة وعمرو بن العاص ؟ وكم سنة جاهد جدك العظيم عبد الملك ، وقارن ذلك بربع قرن رأينا فيه من الأهوال ما تعرف فمتى نستريح ؟

الأمير : يا بدر كنت أعدك جزءا منى ولكن يبدو أننى أخطأت فنحن اثنان ولسنا واحداً .

بدر : أنه من الشرف أن أكون بعض سيدى ومن الشرف أن أكون تابعه المخلص الامين ولكن الطاقة البشرية ..

الأمير : يا بدر لم نكمل خطتنا ولم نحقق أهدافنا بعد .

بدر : لقد أقمنا ملكا منذ جولتنا الأولى بهذه الديار ، وسيدى هو قائد هذا الملك وسيده ، وهزمنا أعداءنا فى المشرق وأعدائنا في المغرب ، وأصبح لنا الأمر كله ، وفى تقديرى أن علينا أن نستريح ، أما الحركات التى تظهر فيضربها جيشنا وقادتنا الذين ربيناهم .

الامير : أنا يا بدر لا آمن لأحد وسأقود بنفسى جيوشى وكنت أتمنى أن تكون معى .

بدر : سيدى تختلف الأفلاك والأشجار فى قوة احتمالها فإذا كان سيدى لايزال به الفتاء والقوة فإنى أحس أن عظمى قد وهن .

ومولاى يعرف أننى فى الشام وفى افريقية وفى الاندلس لم أسع لمال أو جاه وإنما سعيت لأكون فى خدمة مولاى ، وكم نزفت الدماء منى فى الحروب وكان يمكن ألا تبقى فى جسمى بقية ، ولكننى عشت ، بيْدَ أنى أحسُّ أن جسمى لم يعد يقوى على مواصلة الجهد ونفسى لم تعد تحتمل إزهاق الأرواح وسفك الدماء .

الأمير : إذا تراخيت أنت يا بدر فإنى أحس أن مهمتى لم تنته بعد فلتُبْعِد بيننا الأقدار ، وإذا كانت قرطبة مركز حياتى فلتتخذ لك مكانا فى أقصى الشمال تعيش فيه ما بقى من عمرك .

بدر : كان يطيب لى أن أبقى بين يديك حتى يحين الأجل ، ولكن لكل شئ نهاية فوداعا يا سيدى وأنت تعرف أننى ما خنت ولا خدعت ولكنى كنت صادقا مع مولاى ومع نفسى .

الامير : وداعا يا بدر فلتكن لك الراحة ولى الجهد والحرب فلكل منا هدف يسعى إليه والطاقة بقدر الأمل .

* * * * *

واختفى بدر من الساحة وواصل عبد الرحمن جهوده ويحس الباحث باللوعة تنتاب الأمير لفقده أحب الناس إليه والذى كان أكثر الناس إخلاصا له ، وأكثرهم عونا له فى الملمات ، ولكن الأمير وجد أنه من المستحيل أن تُفْرَض عليه وصاية، وأن يحس أحد من أتباعه بسيطرة عليه ، وتلك هى طبيعة الزعماء بالنسبة لأنصارهم الأقربين ، فأبو سلمة الخلال بذل جهدا كبيراً حتى قامت الدولة

العباسية ، ولكن لا يجتمع السيفان فى قراب واحد كما يقولون ، فكان لابد أن يختفى أبو سلمة وأبو مسلم الخراسانى ليكون الأمر كله فى يد العباسيين ، ومثل هذا حدث مع جوهر الصقلى الذى هيأ كل شئ للخليفة المعز لدين الله الفاطمى ؛ فَتَحَ مصر ، وبنى القاهرة ، ووضع أساس الأزهر الشريف ، فلما وصل المعز مصر كان لابد لجوهر أن يتجه إلى الظل .

إنها الحقيقة سجلها التاريخ عدة مرات ، فالزعامات لا تقبل أن تقتسم النفوذ مع الآخرين .

وربما تعن للباحث نقطة أخرى هى أن الأمير أحس أنه لو تساهل مع بدر فان ذلك سيلزمه بالتساهل مع الآخرين الذين قدموا له ألوانا من المساعدات تقرب مما قدمه بدر إليه ، والزعامات قاسية القلب ، جاحدة ، لها نظائر فى التاريخ القديم والوسيط والحديث وقد رأى عبد الناصر ـ فى التاريخ الحديث ـ أن محمد نجيب سيلتقط الزمام منه فعزله وسجنه دون جريرة وأنزل به أبشع أنواع الضر ليخلو الأمر لعبد الناصر .

وهكذا كان اختفاء بدر من الساحة ضروريا .

سياسة عبد الرحمن وبطولته :

أن دراسة تاريخ عبد الرحمن تدعو للاعتقاد أنه كان داهية ذكيا ، وكان شخصا مناسبا تماما للظروف التى أحاطت به ، وهو كذلك شاب تنساب فى شرايينه دماء السيادة التى انحدرت له من أبى سفيان قبل الإسلام ومن معاوية وعبد الملك والوليد بعد الإسلام .

ولقد كان من سياسة عبد الرحمن أنه بدأ انتصاراته فى الأندلس بالدعوة للعباسيين لتستقر له الأمور مؤقتا حتى يهيئ نفسه لجولة جديدة ، ومن سياسته

أنه لم يتخذ لقب خليفة حتى لا يتضاعف أعداؤه وقنع بلقب الأمير ليطمئنَ العباسيين أنه لا يسعى لسلب الخلافة منهم فيكتفى بذلك شرهم .

ومن سياسته أنه كان حلو الحديث يجذب إليه رفاقه ومحدثه ويؤثّر فيهم ، وكم استطاع عن هذا الطريق أن ينال ثقة خصومه وأن يقلل من حماستهم ضده .

ومن سياسته أنه أحاط بالقوى المتعددة التى تحيط به ، من يمنية ومضرية ومن جماعات البربر واستطاع أن يمسك بالخيوط كلها فى يده حتى يظل يضرب على مختلف الأوتار تبعا للظروف والاحتياجات .

ومثل هذا يقال بالنسبة لأقاربة من الأمويين المقيمين بالأندلس ، فقد حاول أن يجمعهم حوله ، ويُسعِدهم ويسعد بهم ، ولكن عندما ظهرت خيانة من بعضهم فإنه انقلب ناراً تلتهم وعذابا لا يبقى ولايذر .

ومن سياسته أنه كان فى جيشه يبدو واحدا من الجند ، يقف فى الصفوف الأولى غير هياب ، وهذا يدفع جنده إلى حبه والارتياح له ، وقد رأيناه من قبل يركب حصانا أعجف ليدل على أنه لن يترك صفوف الجيش وليس مستعدا للهرب بحال من الأحوال ، ورأيناه كذلك يستشير قبل المعارك ويهتف : من منكم يعاهدنى على دخول المعركة دخول من لا تحدثه نفسه بالحياة ؟ ويجيبه بضع مئات باستعدادهم لذلك ، فيشعل نارا يلقى بها قراب سيفه ، ويقلده ، أتباعه بإلقاء أغماد أسيافهم فى النار ، ويخوضون المعركة بهذا الوضع فيحققون النصر .

ومن سياسته أنه كان عند اللزوم يضرب بقسوة حتى يضمن السلامة ، وقد رأيناه يصلب والى طليطلة هشام الفهرى حتى لا يقدم غيره على ما أقدم عليه، ويقتل العلاء بن مغيث ، ويرسل رأسه إلى الخليفة أبى جعفر المنصور فيهدّد بذلك كل قوة تحاول الهجوم عليه من المشرق أو المغرب .

ومن سياسته أنه أذل النصارى وحقق عليهم أعظم صور الانتصارات وأرغمهم على دفع الجزية إليه وعندما أمن جانبهم سمح لهم بممارسة شعائر ديانتهم ، وسمح لهم بإقامة الكنائس ودور العبادة .

وعندما أراد بناء مسجد ، بقرطبة واختار له مكانا تشغله إحدى الكنائس القديمة اشترى أرضه من النصارى ولم يقبل أن يصادر هذه الأرض مع إمكانه أن يفعل ذلك .

ومثل هذا حدث مع شارلمان ، فبعد أن انتصر عبد الرحمن عليه استجاب للعرض الذى قدمه شارلمان للتصافى والود وكتب معه معاهدة أعلن فيها شارلمان نبذه لفكرة ضم الأندلس إلى ممتلكاته وتعهد عبد الرحمن بعدم الهجوم على أرض شارلمان .

لقد كان عبد الرحمن شيخا فى تجارته ، شابا فى فتوته وصلابته .

بقى أن نقول عن عبد الرحمن الداخل إنه كان فى الحروب بطلا مغوارا ، وأن أرض المعارك كانت بالنسبة له حرما مقدسا ، وأن المعركة كانت له صَلاةً يتفانى فيها ويندمج ، ولا يشده عنها أى إحساس بمال أو ولد أو نعيم ، مثلما يفعل العابد المخلص فى صلاته وتسابيحه .

جوانب إنسانية فى عبد الرحمن :

إن الصعوبات القاسية التى عاناها عبد الرحمن الداخل لم تمنعه من أن يستمتع بجوانب إنسانية عالية ، وقد رصد التاريخ مجموعة من هذه الجوانب جديرة بالتسجيل ، ولعل من أهمها تلطفه لجذب الأنصار ، فقد كان فى حاجة

إلى المؤيدين والرفاق، ولذلك اتجه بكل مواهبه لجذب الأنصار ، وقد ظهر المجاهد ذاك منذ كان في الشمال الافريقي حيث جمع حوله مجموعة من الأقوياء الأشداء أضفوا عليه الحماية ثم ارتحلوا معه إلى الأندلس ، وهناك في الأندلس جذب الكثيرين من الأنصار من العرب والبربر حتى استطاع بهم أن يحقق أعظم نصر على أعدائه ومنافسيه .

ومن جوانبه الإنسانية أنه أحسن استقبال الفارّين من أهله وأقربائه ، وأولئك الذين وفدوا إليه من إفريقية أو الذين استطاعوا الإفلات من دمشق ، وينسب له أنه قال في ذلك : « من أعظم ما أنعم الله تعالى به عليَّ تمكّني من إيواء من يصل إليَّ من أقاربي ، والتوسع في الإحسان إليهم ولعلي بذلك أرضى الله والرحم .

ومن جوانبه الإنسانية رحمته بأفراد من أسرة (غيطشة) فقد وفد عليه أخو (غيطشة) فرآه عبد الرحمن في حالة تدعو للرثاء ، فسأله عبد الرحمن عن أسباب مظهره المتدهور ، فأجاب بأن رجال عبد الرحمن سلبوا ضياعه وثراءه ، وتذكر عبد الرحمن على الفور أفضال أسرة غيطشة على الزحف الإسلامي على الأندلس ، ولولا عونهم لتعثر هذا الزحف ، فتأثر عبد الرحمن لذلك وأمر بأن يُرَدَّ إلى أخي غيطشة كل ما سُلب منه من مال أو ضياع .

ومن جوانبه الإنسانية أنه كان يقعد للمظالم ، وينصف من له حقّ دون تردد أو تهاون ، ويرد المعتدي أيا كان ذلك المعتدي ، وكان فيه جانب عظيم من الارتباط بشعبه أو ما يسمى بالديمقراطية ، فكان يجالس الناس ويتحبّب إليهم في أوقات يسره ، ولا يبعده عنهم إلا طغيان الحروب التي التهمت أكثر وقته .

ومن هذا الجانب كذلك ما يروى أنه كان يزور أصدقاءه ويعود المرضى ، ويشيع الجنازات ويواسي الحزين [1] .

ومن جوانبه الإنسانية أنه مرة أسر واحداً من الذين ثاروا عليه ، وأركبه بغلا

(١) المقري نفح الطيب هـ ١ ص ١٥٧ .

وهـو مقيـد بالسلاسل ، ولحق البغـلُ وراكبه ُبعبد الرحمـن وهو يمتطي حصانـا فارها ، فالتفت عبد الرحمن إلى الأسير وقال :

يا بغل ، ماذا تحمل من النفاق والشقاق ؟

فقال الأسير :

يا فرس عبد الرحمن ، ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟

فاهتز عبد الرحمن لذلك وعفا عنه .

اتجاهات عبد الرحمن العاطفية :

كان الجانب العاطفي في عبد الرحمن قوياً جداً ، فمع ما خاض من حروب وما أزهق من أرواح ورأي من دم ، كان رقيق القلب متدفق العواطف ، لم يستطع المجد الذي أحرزه أن ينسيه ملاعب الصبا ، ولم تستطع حدائق الأندلس أن تزيل من نفسه شغفها بشواهق النخل ونهر بَرَدَي .

وكان عبد الرحمن محباً للحياة متطلعاً لمظاهر الجمال في الزهرة والمرأة والماء فكان إذا انفلت من قعقعة السيوف سرعان ما تجذبه زهرة أو ابتسامة أو خرير مياه ، وسنري عندما نتكلم عن شعره ما قاله في نخلة رآها بالأندلس فأحس أنها غريبة مثله ، جذورها في الأندلس ولكن هواها في دمشق .

ومن اتجاهاته العاطفية أنه يأخذ بالفأل ؟ ويروَي أنه كان يقف علي سواحل طنجة ينتظر عودة مولاه بدر من الأندلس ، راجياً أن يحمل له من الأخبار ما يدفعه إلي الإبحار للأرض الجديدة التي تمني أن يقيم بها ملكاً يعوضه عما فقده أهله بالمشرق .

وجاءت السفينة التي تحمل بدرا ، وكان مع بدر رفيق جاء معه من الأندلس ، فسأل عبد الرحمن عن اسمه فقيل إن اسمه تمام أبو غالب ، فصاح عبد الرحمن سعيداً وقال : لقد تمَّ أمرنا وغلبنا ان شاء الله .

ثقافة عبد الرحمن وشعره :

عبد الرحمن الداخل أمير من أمراء بني أمية ، وهو حفيد لهشام بن عبد الملك ، نشأ في بيئة عربية ، وفي بيت السيادة والشرف ، فانسابت له أفانين الثقافة العربية ، طالع الشعر العربي وجلس مجالس الأدب والفن ، فانعكست كل هذه الثقافة علي شخصيته .

ثم جاءت فترة التشرد والغربة فشحذت ذهنه ، وفتّقت ملكات الأدب والشعر فيه وقد روت لنا كتب الأدب والتاريخ نماذج من شعره وأدبه ، وسنسوق فيما يلي بعض ما دونته هذه المراجع من أدب عبد الرحمن .

وأول ما نعرضه بيتان من الشعر قدمهما عبد الرحمن لولديه سليمان وهشام وهذان البيتان يدلان علي اطلاعه ، وتذوقه للشعر العربي ، وعلي محفوظاته من هذا الشعر ، فقد أنشد عبد الرحمن مرة بيتين من الشعر هما :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا	ومن خاله أو من يزيد ومن حُجَرْ
سماحة أصل مع وفاء لفرعه	ونائل هذا إن صحا أو إذا سَكِرْ

وسأل عبد الرحمن ابنه سليمان لمن هذان البيتان يا سليمان ؟ وماذا ترى فيهما من فكرة ؟ فأجاب سليمان : يبدو أنهما لأحد أجلاف العرب وما كنت لأتتبع مثل هذا الشعر وأحفظه وأعرف قائله .

وتقدم عبد الرحمن بنفس البيتين لابنه هشام وسأله نفس السؤال ، فأجاب هشام : البيتان يا سيدي لامرىء القيس ملك كنده من قصيدة يمدح بها سعد بن الضباب . وأضاف هشام هذان البيتان يا سيدي ينطبقان على مولاي الأمير ، فهذه الشمائل هي شمائله وشمائل آله وأجداده .

وكان هذا الموقف ونظائره من الدواعي التى دعت عبد الرحمن أن يختار هشاماً لولاية عهده ، فقد كانت الثقافة عنصراً مهماً لدي السادة وأمراء البيوتات .

وقد روى الرواة بعض شعره وهو يدل على صفاء نفسه ، وارتباطه بأرض العرب على الرغم من أنه جدّد في الأندلس ملكا بدل الملك الذى فقده ، وجاها عريضا بدل الجاه الذى حرمه .

ولعل من أجمل ما قال من شعر تلك القصائد التى ترتبط بنخلة رآها فى بستانه فهيجت لواعج شوقه وذكّرته بوطنه البعيد ، فقال فيها أبياتا تعد من روائع الشعر العربى ومن روائع الشعر الذى يبرز عواطف الأمير ويصور حرمانه من وطن يملك عليه لبه ويحيط بجنانه ، قال عبد الرحمن :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهى فى التغرّب والنوى ... وطولِ التنائى عن بنىّ وعن أهلى

نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبة ... فمثلكِ فى التقصاء والمنتأى مثلى

ويبدو أن الأمير كان يري فى هذه النخلة غُربته وبعده عن الوطن الحبيب ، وكان ذلك يدفعه لتكرار المناجاة والإحساس بأنه هو والنخلة غريبان عن الديار ، ومن أجل هذا كرر الشعر مناجيا النخلة فقال فى قصيدة أخرى .

يا نخل أنتِ غريبةٌ مثلى ... فى الغرب نائيةٌ عن الأهل

فابكى ، وهل تبكى ملبّسةٌ ... عجماءُ لم تطبَع على أمل

لو أنها تبكى إذن لبكت ... ماء الفرات ومنبت النخل

ذكريات الهوى عند عبد الرحمن :

وعبد الرحمن كما سبق القول ترك بلاد الشام وهو فى حوالى العشرين من العمر ، وأمير فى مثل هذه السنّ لابدّ أن يكون له فى بلاد الشام حب وهوى ، وإذا كان عبد الرحمن قد استطاع أن يفلت من العباسيين ، وأن يتخطى الأهوال عبّر مصر وشمال أفريقية حتى وصل الأندلس فما كان لفتاته وحبه أن تغامر مثل ما غامر عبد الرحمن ، ونحس من قصيدة قالها عبد الرحمن أن جراح الهوى

يذكره بحبه فى دمشق ، ولذلك قال قصيده بعث بها مع الريح الذى يطوى البلاد طيا وينتقل غير خائف ولا مذعور ، قال عبد الرحمن فى هذه القصيده :

أيها الراكب الميمِّم أرضى أقْرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمتَ بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدَّر البينُ بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غَمْضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

عبد الرحمن بين الجد واللهو :

مما يرتبط بشعر عبد الرحمن ما ذكره صاحب أخبار مجموعة أن عبد الرحمن كان فى غزوة من غزواته ، فوقعت بعض الطيور من الغرانيق إلى جانب عسكره ، وكان بعض أتباع عبد الرحمن يعرفون شغفه بالصيد فجاءوا إليه يحثونه على اصيطادها ولكن عبد الرحمن فكر قليلا ثم انطلق يقول [1] :

دعنى وصيد الطير والغرانق
فإن همى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان أو فى حالق
إذا التظت هوائج الطرائق
وغبت عن روض وقصر شاهق
بالقفر والإيطان فى السرادق
فقل على مَنْ نام فى النمارق
إن العلا شدت بهمٌ طارق
فاركب إليها ثبج المضايق

(١) أخبار مجموعة : ص ٧ : ١٠

ومن شعر عبد الرحمن قصيدة قالها حين بلغه أن بعض أصدقائه يمنُّ عليه ويدعى أن ما حققه عبد الرحمن كان بدافع الحظ لا بدافع الجهد :

سَعْدِى وحَزْمى والمهنّد والقنا ومقـــادرٌ بَلغــتْ وحــالٌ حـائل

إن الملوك مع الزمان كواكبٌ نَجـــمٌ يطـالعــنا ونجـم آفـــلُ

والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيسروم تدبيَر البريـــةِ غـافــلُ؟

ويقـول قـوم سعـدُه لا عقـله خير السعادة ما حماها العاقل

على أن صراع عبد الرحمن الداخل لم يسمح له بالأهازيج التى كان يمكن أن يقولها لو كان عنده فراغ من الوقت ، أو ربما قال ولكن الرواة شغلوا بمعاركه وصراعاته فلم يدوّنوا لنا إلا القليل من شعره ، ذلك القليل الذى صور نبض قلبه وشدة ارتباطه بالوطن الذى نأى عنه .

عبد الرحمن في نظر الباحثين والدارسين :

كانت حياة عبد الرحمن حافلة بالمتاعب والآلام منذ فر من الشام سنة ١٣٢هـ حتى وصل إلى الاندلس سنة ١٣٨ ثم كانت حافلة بالجهد والقلق بعد ذلك ، لقد كان فى المرحلة الأولى فردا يواجه دولة ، وكان فى المرحلة الثانية يواجه مع هذه الدولة صراع العرب والبربر ونصارى الأندلس وشارلمان ... وهذا الكم الهائلُ من الأعداء ربّى فى نفسه الذعر والأرق ، ودفعه إلى الاعتقاد بأن السلامة لا تكون إلا بالقسوة والعنف .

والدارس لتاريخ عبد الرحمن قد يلومه لقسوته ، وقد يعتذر عنه بسبب الظروف التى دعت لهذه القسوة ، وسنلمّ فيما يلى ببعض أعماله التى جلبت عليه سخط بعض المؤرخين ثم نتجه للحكم عليه بما نراه وبما يراه بعض الباحثين الذين تحدثوا عنه ووصفوه .

وأول ما نورده هو غدره ببعض أقاربه ، فقد قتل عبد السلام بن يزيد بن هشام وهو ابن عمه ، وقتل ابنى أخيه أبان بن معاوية ونفى أخاه الوليد ...

ولكن عبد الرحمن يعتذر عن هذا فى أبيات من قصيدة له يوضح فيها جهده وإكرامَه لأهله ثم خيانَتَهم له يقول عبد الرحمن :

وجُنـد الجند فى ثبـات　　　ومصَّر المصـر حين أجلى
ثـم دعـا أهـله جميعـا　　　حيث كانـوا أن هلمَّ هلاً
فجـاء هذا طريَد جـوع　　　شديد رَوْع يجاف قتـلا
فنال أمْنـاً ونـال خيـراً　　　وحـاز مـالا ونـال أهـلا

ويبدو أن المنافسة لعبت ببعضهم فزلَّ ، فلاقى نتيجة الزلل ، أو شدَّه باطل فهوى .

وعلى كل حال فنحن أمام حدث لا نعرف بالضبط سببه حتى يكون حكمنا منصفا ، ولكنا نعرف بالتأكيد أن عبد الرحمن فتح صدره لأهله ، واشتد عضده بهم ، ولا نرى أنه انقلب على بعضهم إلا بسبب يلجأ له عادة أولئك الذين يقيمون دولا ، وقد قضى المنصور على عمه عبد الله بن على عندما زل هذا عن الطريق الصواب .

ومع القصيدة السابقة يقول عبد الرحمن كلمات فى معناها توضح موقفه من أهل بيته ، ثم عقوقهم الذى استوجب إنزال العقوبة بهم ، يقول عبد الرحمن : ما عجبى إلا من قوم هيأنا لهم الأمن والنعمة بعد أن خاطرنا بحياتنا حتى تحقق لنا الأمل ، ثم أشركناهم فيما نلنا ولكنهم سرعان ما واجهونا بسيوفهم ومؤامراتهم ، ونازعونا ما منحه الله لنا ، فأطلعنا الله على عوراتهم فعاجلنا هم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرئ منهم ، وساء ظنه أيضا فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه .

ومن الغدر الذى ينسب لعبد الرحمن أنه أغرى أهل طليطلة بأن يعقدوا معه صلحا ، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم لتوقيع عقد الصلح ، ولما وصل له هؤلاء الرؤساء صلبهم جميعا .

والحق أن الذى يتابع تاريخ طليطلة يجده حلقات متصلة من الثورات ضد عبد الرحمن مما يكون قد دفعه للتخلص من هؤلاء الزعماء الذين طالت معارضتهم وتسببت فى فيض من الدماء .

وكان عبد الرحمن قد استعان باليمنية عندما دخل الأندلس لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ضد المضرية ، وبعد أن قضى عبد الرحمن على يوسف الفهرى زعيم المضرية وعلى زعيم المضرية الثانى "الصميل" أحس أن اليمانية تَدلّ عليه وتفاخر بأنها السبب فى انتصاراته ، فأغرى بهم البربر وأوقع بهم هزيمة كبرى سقط فيها عدة آلاف دفنوا فى قبر واحد .

وليس من السهل أن نعدّ ذلك جرما ارتكبه عبد الرحمن فمؤسس الدولة يريد أعوانا مخلصين لا يَدلّون عليه إن نصروه ، ولا يُشْعِرونه بأفضالهم عليه ، فإن ذلك يضعف مكانته بين رجاله .

والآن بعد أن عرضنا صورا من الغدر وصورا من الاعتذار عنه نتجه لنقتبس من الآخرين موقفهم من عبد الرحمن فى هذا الشأن :

وأول من يقابلنا Stanley Lane - Poole فى كتابه Mnslims in Spain الذى ترجمه الأستاذ على الجارم بك ، وفى هذا الكتاب هجوم ونقد أحيانا واعتذار عن عبد الرحمن أحيانا أخرى ومن الهجوم واللوم قوله :

حقق عبد الرحمن كثيرا من النصر ، وأثبت غير منازَع أنه سيد الموقف ولكن ظلما قاسيا ناكسا للعهد كظلم عبد الرحمن لابد أن يجر وراءه عقابه وآلامه ، فان الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ، ولكنه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم ، والملك الذى ينال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف فقد نفر الناس من الامير الأموى بعد أن تجرعوا مرارة حكمه ، وأبى الأمناء من رجال الدولة أن يدخلوا فى خدمة رجل خداع فتاك مثله ....[1]

---

(١) Arabs in Spain P. 55

ثم يعود Lane Poole فيعتذر عنه ويقول :

وقد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسدت طبيعته العربية السمحاء ، ولم يستطع أن يحتفظ بملكه بين العناصر المضطربة المشاغبة إلا بأن يكون سريعا عند الخطب قوىّ العزيمة غير متحرج إذا صمم ، شديد البطش لا يرعى إلاً ولاذمة ، سياسيا داهية ، أعد لكل مفاجأة عدتها ، وكثيرا ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلا هماما .

وإذا تركنا الجارم ولين بول وانتقلنا إلى غيرهما من الباحثين والمؤرخين ، نواجه مدحا وثناء على عبد الرحمن ، يقول أبو جعفر المنصور بطل العباسيين وقاهر أعدائهم :

لا تعجبوا لامتداد أمرنا بل العجب من الفتى القرشى ، الفذ فى جميع شئونه . ذلك الذى قذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة نائية المحل ، عصبية الجند ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بسياسته حتى انقاد له عصيّهم ، وذلّ له أبيّهم ، فاستولى فيها على السلطة قاهرا لأعدائه حاميا ذماره ، مانعا لحوزته جاذبا الرعية إليه بالرهبة والرغبة ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه .

ويقول عنه ابن حيان :

كان عبد الرحمن ناجح الحلم ، واسع العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجز سريع النهضة متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دَعَةٍ ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ولا ينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعا مقداماً ، بعيد الغور شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغا مفوها ، شاعرا محسنا ، سمحا سخيا ، طلق اللسان ، هابه وليُّه و عدوّه ، وكان يحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويؤم الناس إذا كان حاضرا صلاة الجمعة أو الأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ويكثر معاشرة الناس .

وهكذا نرى فيضا من المدح يذكره المؤرخ الأندلسى ابن حيان ، وإذا كان ابن

حيان قد قنع بذكر المحاسن ، ولم ير فى الأمير انحرافا يدافع عنه ، فإن المقرى تحدث عن الحسنات والمساوئ فى عبد الرحمن ، وذكر أن شدته كانت ضرورية لعصره وظروفه يقول المقّرى :

إنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلا أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبى العرب والبربر ، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف لأن كلا الفريقين لم يَعْتَدْ الحكم المنظم .

ومما يدل على أن شدة عبد الرحمن كانت رد فعل لانتفاضات أتباعه وانحرافهم ما سبق أن أوردناه عن تسامحه مع النصارى ، ومعاهدته مع شارلمان ، فهؤلاء قنعوا بالهزيمة وأرادوا أن يعيشوا بعدها حياة آمنة ، فأمّنهم عبد الرحمن وسمح لهم ببناء كنائسهم ومباشرة طقوس دينهم دون أى عدوان عليهم .

نفوذ الفقهاء على عبد الرحمن الداخل :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحمن الداخل كان قاسيا ، وكانت القسوة وسيلته لإحكام السيطرة على بلاد تكثر فيها الخلافات والفتن ، ولكن هذه القسوة كانت تختفى بالنسبة للفقهاء إذ كان على عبد الرحمن أن يصطنعهم ، ويروى أن عبد الرحمن كان مع رعيته سريعا إلى العقاب والبطش ، ولكنه كان طويل الصبر واسع الحلم مع الفقهاء ، فيروى أن قاضيه عبد الرحمن بن طريف اليحصبى تحدى رغبته وحكم فى إحدى القضايا ضد رغبة الأمير ، فقد كان للأمير صنيعة من صنائعه ، وقد اختلف هذا مع شخص آخر فى ملكيةضيعة مهمة ، وأشار الأمير بالتأنى فى الحكم ومحاولة إرضاء صنيعته ، ولكن القاضى أسرع فأصدر حكمه على غير ما يهوى الأمير ، وأضاف القاضى شيئا من لوم عبد الرحمن إذ قال : أيها الامير ، ما الذى يحملك على أن تقف بجانب أحد رعيتك ضد واحد آخر من الرعية ، وأنت تجد وسيلة ترضى بها صنيعك من مالك دون حيف ، وقد أخذ عبد الرحمن بهذا الرأى فاشترى الضيعة من صاحبها وأهداها لصنيعته [1]

(١) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٣ ـ ٤٤ .

وهناك مثل آخر يدل على ما استمتع به الفقهاء من مكانة فى ذلك العهد ، فقد رفض المصعب بن عمران أن يتولى القضاء لعبد الرحمن الداخل مخافة تدخله في القضاء على ما وصفنا آنفا ، فلما جاء هشام بعد أبيه طلب هشام من المصعب أن يتولى القضاء فقال له : إنه على غير أخلاق أبيه ، بل زاد على ذلك أن اشترط على نفسه شرطا قاسيا فقال : ...... ونفسى طيبة بما تفعل لصلاح الأمور ، ولو وضعت المنشار على رأسى لم أعترضك . (٢)

جهود عبد الرحمن فى مجال الحضارة :

وضع عبد الرحمن أساس الجهود التى بنيت عليها حضارة شاهقة علّمت أوروبا صورا من التقدم والمعرفة ومن هذه الأعمال الحضارية التى قام بها عبد الرحمن أنه أكمل سور قرطبة وأنشأ فيها دارّالسكّ النقود ، واهتم اهتماما كبيرا بأمر البريد وإصلاح طرق المواصلات وجلب كثيرا من البذور والنباتات الشرقية فطور بها الزراعة بالاندلس .

ومن مفاخر عبد الرحمن أنه كوّن جيشا هائلا يخيف المتمردين من العرب أو البربر أو النصارى ثم بنى أسطولا ضخما ليدفع عن سواحله أى غزو ، وليهدد به أى معتد ، وكان جزء من هذا الأسطول يعمل فى التجارة مما رفع شأن البلاد فى الجانب الاقتصادى .

ومما يذكر عن أسطول عبد الرحمن أنه كان الدعامة التى اعتمد عليها الأسبان بعد تحول السلطة من العرب إليهم فاستطاعوا أن يتسلطوا بهذا الاسطول على البحر المتوسط ثم أن يكتشفوا الأرض الجديدة فى النصف الثانى من العالم .

ومن أهم أعمال عبد الرحمن العمرانية أنه أسس الجامع الكبير بقرطبة وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، فأصبح هذا الجامع بعد أن أنجزه خلفاؤه ووسعوه ، وزادوا فى زخرفته ، قبلةً للمسلمين فى الغرب وأصبح جديرا بأن يقول فيه بعض المؤرخين ، إنه ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة .

ومن أعمال عبد الرحمن المعمارية أنه جمل المدن فى مملكته ، وبنى للماء

العذب قناة لتحمله إلى العاصمة ، وشيد مدينة أسماها الرصافة فى ظاهر قرطبة على نمط القصر الذى كان جده هشام قد بناه فى الشمال الشرقى من الشام ، وجلب عبد الرحمن المياه للرصافة كما أدخل فيها النباتات الأجنبية ، وبخاصة النباتات الشرقية .

ومن أهم الجهود الحضارية التى تنسب لعبد الرحمن أنه وضع بذور الحركة الفكرية فى الاندلس تلك الحركة التى جعلت الأندلس مركزا هاما من مراكز الثقافة العالمية والتى ظهرت بصورة واضحة أيام خلفاء عبد الرحمن .

وفاة عبد الرحمن :

لكل شىء فى هذا العالم نهاية ، وعبد الرحمن الداخل الذى ترك الشام عند سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ أمضى ما يقرب من نصف قرن فى صراع وقلق وحروب ودماء ، والقليل من عهده كان فى جنبات المتعة والنعيم ، ولكن عبد الرحمن كان يرى متعته فى الانتصارات والمعارك وفى التفوق ، وليس نقط فى الكا س والطاس كما يفعل الآخرون ، ومن أجل هذا نقول : إن الفترة من هربه سنة ١٣٢ إلى عام وفاته سنة ١٧٤ ، كانت فترة رائعة عند الرجل ، قابل الأحداث وحده فى أول الامر ، ولكن سرعان ما أصبحت معه قوة ترهب الآخرين ، وعندما نام عبد الرحمن نومته الأخيرة ارتسمت أمامه معاركه وانتصاراته ، فملأت نفسه سعادة لاقى بها ربه .

لقد شبهه بعضهم [1] بالنّسر ، وأجمل ما جاء فى هذا التشبيه أن وفاة عبد الرحمن تركت فيضا من الزمجرة والقوة وأتاحت لابنه هشام من بعده أن يحكم حكما هادئا ، وأن يعيش على صدى قوة أبيه .

وعندما أسلم عبد الرحمن الروح لبارئه كان ابنه وولى عهده هشام فى (ماردة) يصارع بعض الثائرين فصلى سليمان بن عبد الرحمن عليه ، وأخذ البيعه لأخيه ، ودفن عبد الرحمن فى ضواحى قرطبة ، وسرعان ما عاد هشام

(١) دكتور على شلق : عبد الرحمن الداخل ص ١٢٦ .

ليتولى ملكا ثبّت أبوه أركانه ورفع معالمه .

إن البطل يستحق الثناء والدعاء وعبد الرحمن بطل بكل المقاييس لقد دخل الاندلس فردا ، وسرعان ما دانت الجموع له ، فهو من صفوة أبطال المسلمين وخيرة الشجعان فيها .

رحمه الله رحمة واسعة .

مجالس العلم والأدب فى عهد عبد الرحمن :

إن مجالس العلم والأدب التى ازدهرت فيما بعد بالأندلس والتحق بها طلاب من كل دول أوروبا هذه المجالس بدأت فى عهد عبد الرحمن الداخل ، ومن العلماء والمشاهير فى هذه الفترة يحيى بن أبى عيسى وقد بدأ نشاطه من عهد شبابه .

ومن أدباء العصر بالأندلس تمام بن عامر ، وقد تولى الوزارة فيما بعد وغيرهم .

ومن علماء عصر عبد الرحمن الداخل محمد بن يحيى السبأى ، وعبد الوهاب بن أبى هند ، ويحيى الغزال الجيانى ، وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة ، ولقب بالغزال لأناقته وقد عاصر عبد الرحمن الداخل وابنه هشاما وحفيده الحكم كما عاصر عبد الرحمن الأوسط بعد ذلك ، وكان شعره يميل للدعابة والتهكم اللاذع وبه نزعة فلسفية ، وكان متضلعا فى علوم عصره يأخذ بقسط من الفلسفة والفلك والتنجيم ، وكان يتناول فى شعره أحيانا قضايا تثير الريبة ، وكان عباس بن فرناس من أهم أصدقاء الغزال .

وقام صراع بين الفقهاء المتعصبين وبين المفكرين المستنيرين كالغزال وعباس ، ووصل الحال إلى أن قدم عباس للمحاكمة بتهمة الزندقة ، ولكن القضاء برأه ، ومن أقوال الغزال يهاجم الفقهاء .

لست تلقى الفقيه إلا غنيا   ليت شعرى من أين يستغنونا
يقطع البرَّ والبحارَ ـ طِلابُ   الرزقِ والقومُ هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضربًا غاب عنا   لم يُصِبْ قصدَ وجهه الراكبونا

عبد الرحمن
اسم لثلاثة من الحكام العظام بالأندلس
فى العهد الأمـوى

حُكمت الأندلس الإسلامية فى العهد الأموى بمجموعة من الحكام تفاوتت مكانتهم قـوة وضـعـفـا ، والذى يهـمنا هنا أنه كـان من بينهم ثلاثة من الحكام العظام كل منهم يسمى عبد الرحمن وهم : ـ

ـ عبد الرحمن الأول (الداخل) ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ

عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ

عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ

وقد تكلمنا عن عبد الرحمن الداخل فيما سبق وهنا نتحدث عن عبد الرحمن الأوسط ثم عن عبد الرحمن الناصر

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الأوسط :

هناك أحداث ذات بال حدثت فى الفترة بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط ، وهى ترتبط بحكام هذه الفترة ، وسنقص فيما يلى خبر هؤلاء الحكام وما جرى فى عهدهم من أحداث حتى نصل إلى عبد الرحمن الأوسط .

هشام بن عبد الرحمن

ولى عهد أبيه :

كـان عـبـد الرحـمن الداخل يدرك أن إمـارة الأندلس ليـست كـغـيـرها من الإمارات، لأنها تقع أمام عدوين لدودين هما القوط فى جليقية والمسيحيون فى فرنسا ، ثم لأنها بلاد كثرت بها العناصر البشرية ، وبالتالى كثرت اضطراباتها واتصلت ، من أجل هذا حرص عبد الرحمن على اختيار أكفأ أبنائه لهذا المنصب الخطير ، ووقع اختياره على هشام متخطيا ابنه الأكبر سليمان ، وقد درَّب عبد الرحمن ابنه هشام على فنون السياسة والحرب ، ووضعه أميرا على منطقة ماردة

غير بعيد من الأعداء بالشمال ليكون على خبرة بخططهم الحربية .

وعاد هشام من ماردة عقب موت أبيه وتولى إمارة أسبانيا ، ولكن أخويه ـ سليمان الذى كان واليا على طليطلة منذ عهد أبيه وعبد الله الذى كان فى قرطبة عند وفاة عبد الرحمن وولاه هشام ولاية ماردة عقب بيعته ـ حنقا عليه واجتمعا علي الثورة فى وجهه ، وقد استطاع أن يخضعهما بعد نضال طويل ، وصالحهما على أن يرحلا من أسبانيا نظير مبلغ كبير نصيبا لهما من تركة والدهما ، وعبد الله هذا كان يعرف بعبد الله البلنسى لأن أباه كان قد ولاه على « بلنسية » وقد امتد العمر بعبد الله فثار على عبد الرحمن الأوسط كما سنرى فيما بعد .

اتجاهات هشام الداخلية :

اتخذ هشام عمربن عبد العزيز نموذجا له ، وزاده ميلا إلى الخير وبذل العناية فى الإصلاح ماتكهن له به أحد المنجمين من أن ما بقى من عمره لا يزيد عن ثمانى سنوات ، لذلك تفرغ الأمير فى هذه المدة للاستعداد للدار الآخرة ، فكان له من أعمال التقوى والصلاح ما لا يحصر عدا ، آوى المضطهدين ، وأرسل الوعاظ والدعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعين بالمدن عسسا لمنع الشجار ومنع ارتكاب الجرائم ، وكان يعود المرضى ، وكثيرا ما كان يخرج فى الليالى العاصفة وهو يحمل الطعام لمريض من الزهاد حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يؤنسه ويرعاه (١) ، وكان يختلط بالرعية ويتحسس أخبار الناس وينظر فى مطالبهم ، وكان يرسل من يثق فيهم من رجاله إلى كور الأندلس ومدنها يسألون الناس عن أحوالهم وسيرة عماله فيهم ، فإذا انتهى إليه أن أحدهم أسرف على الرعية حل عليه سخطه وعزله عن عمله ، كما كان يهتم بالزكاة فيجمعها ويوزعها فى وجوهها.

وقد عنى هشام باللغة العربية ونشرها حتى أصبحت تدرس بمدارس اليهود ، وكان يطوف شوارع قرطبة ويختلط بالرعية ، وينظر بنفسه فى المظالم ، ويشيع جنائز الموتى (٢) .

---

(١) Lanee-Poole : The Aralis in Spain P.P

(٢) العبادى : المجمل فى التاريخ الأندلس ص ٨٦ ـ ٨٧

عصر نفوذ الفقهاء :

وانتشر مذهب مالك فى عهده بسرعة واسعة ، ويرجع ذلك إلى أن الامام مالكا ـ وكان معاصرا لهشام ـ كان يثنى على اتجاهات هشام ويذكره بالخير ، ومن أجل هذا رحب هشام باتجاهات مالك فى الفقة وشجع على الأخذ بها واتباعها ، كما شجع هشام تلاميذ مالك الذين أخذوا عنه بالمدينة وفى مقدمتهم زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن يحيى الليثى على نشر مذهب مالك فى مختلف النواحى ، وانتهز يحيى هذه الفرصة فوسَّع نفوذه ، مستغلا تقوى الأمير وميْله للخير ، وعلى هذا أخذت الفتاوى تصدر على مذهب مالك ، وأصبح يحيى مصدر هذه الفتاوى وخطا هذا بنفوذه خطوة أخرى فأخذ يعين تلاميذه فى المناصب القضائية المختلفة وأحيانا فى المناصب السياسية ، وبذلك زاد نفوذ الفقهاء واستفحل حتى سُمِّىَ هذا العصر : « عصر نفوذ الفقهاء » وسنرى أثر هذا فى عهد الحكم بن هشام .

وهكذا كان العنصر الدينى جزءا من الحياة السياسية ، ولم يكن الالتزام الدينى متروكا للرؤساء ولضمائرهم ، بل كان الفقهاء يقفون بجانب الحكام للإشراف على تنفيذ الاتجاهات الدينية .

ويرى بعض الباحثين أن هذا وضع طبيعى ، فان دولة إسلامية تتمرد على الخلافة الإسلامية ببغداد لابدَّ أن تتظاهر بالتدين ليكون ذلك وسيله لتثبيت أركانها ، وبدون ذلك تهتز ويضعف أمرها .

إصلاحات هشام :

وصرف هشام أكثر عهده فيما يعود على بلاده بالخير ، فجمَّل مدينه قرطبة وزينها بالمبانى الفخمة والبساتين النضرة ، وجدد القنطرة التى بناها السمح بن مالك الخولانى ، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل فى إحكام البناء [١] . ولما قيل إن الناس يهمسون بأنه اهتم بهذه القنطرة ليسهل عليه الوصول إلى الصيد ، أقسم ألا يعبرها مرة أخرى ، وبرَّ فى قسمه [٢]

(١) المقرى : نفح الطيب خاص ص ١٦٠

(٢) Lane-Poole P. 92

موقفه من أهل الذمة :

وتسامح هشام مع أهل الذمة من المسيحين واليهود بالمملكة ، فأذن لهم بإنشاء المدارس والمعابد واستعمل عددا منهم فى وظائف الدولة .

حروبه الخارجية :

تأثرت حروب هشام الخارجية باتجاهه للتقوى والصلاح ، فقد أعلن هشام الجهاد ضد أعداء الدين وخاض معاركه ضد المسيحيين بالشمال الغربى باسم السياسة ، وقداستجاب لدعوته آلاف من المسلمين فهبوا معه للجهاد ، كما قدّم الأغنياء أموالا وعتاداحربيا كثيرا وقد قاد هشام بنفسه شطر الجيش وخاض المعركة ضد مسيحيى جليقية فأحرز النصر المؤزر ، كما قاد وزيره عبد الملك بن مغيث الشطر الثانى وهاجم فرنسا ، وقد حقق هذا وذاك صورا من الانتصارات وعادا بغنائم كثيرة . (١)

الحكم بن هشام

يقول ابن خلدون (٢) عن الحكم بن هشام إنه « أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشى ، وارتبطت الخيول على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعون أحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين .

صلة الحكم بن هشام بالفقهاء :

على أن صلة الحكم بالفقهاء لم تكن كصلة أبيه ، فقد كان يجلهم ولكن على أن يدبر هو الأمور ويستعين بمن يراه فى ذلك من رجال الدين وغيرهم ، لذلك لم يدع فى أيدى رجال الدين ماكان فى أيديهم من نفوذ أيام أبيه ، وقد سخط عليه رجال الدين لذلك وساعدهم على سخطهم أنه كان يحب الصيد والرياضة والترف

Pozy : Histong to Mnslin is S painp . 242 (١)

(٢) انظر ابن الاثير حوادث سنة ١٧٩ مع ملاحظة ان ابن الا ثير يجعل جيش جليقية بقيادة عبد الملك

(٣)العبر : حـ ٤ ص ١٢٧

والطرف فتقولوا فى حقة ، واشتركوا فى مؤامرة لإسقاطه ، وقد أدى هذا التحدى إلى موقعة الربض وتسمى هذه الموقعة « ثورة الفقهاء » وفيما يلى حديث عنها .

ثورة الفقهاء أو موقعة الربض :

ترتبط الثورة بضاحية من ضواحى قرطبة تقع فى الجنوب منها واسم الضاحية « الربض » ولذلك أصبح الحكَم يسمى « الربضى » بعد هذه الحادثة ، وقصة هذه الثورة أنه كان يسكن فى الربض مجموعة من الفقهاء ، كما كان يسكن فيها كثيرون من الأسبان الذين دخلوا الإسلام حديثا ، وأغلبهم لم يكن الإسلام قد تمكّن من نفسه ، إذ كان قد دخله لأغراض سياسية أو اقتصادية .

وكان هشام (أبو الحكم) ورعا تقيا يقرّب الفقهاء ويجلّهم ، وقد حصل هؤلاء على سلطان كبيرفى عهده كما سبق القول ، فلما تولى الحكَم لم يكن كأبيه فى زهده وورعه ، إذكان شابا له شغف بالمرح والصيد ، ثم اتجه فى معاملة الفقهاء اتجاها يغاير مسلك أبيه ، فقد سلبهم ما كانوا قد حصلوا عليه من نفوذ ،وكان يرى أن الإسلام لا يعرف طبقة دينية كهذه الطبقة ، لها كهنوت خاص ، وبيدها وحدها تفسير القرآن وإصدار الأحكام ، ومن أجل هذا أوقف نشاط هذه الطائفة ، فنقمت عليه .

واتخذ الحكم حرسا من الزنوج وأشباههم كانوا يعرفون « بالخُرْس » لأنهم لا يتكلمون العربية و كانوا قساة يكرهون الجماهير ، وتكرههم الجماهير .

وفى مثل هذا الجو كان الربض يقف موقف العداء من الأمير وحرسه ، وفكر الفقهاء فى عزل الأمير وتولية آخر ، ولكن هذه المؤامرة اكتشفت وأنزل أقصى عقاب بمدبّريها ، وزادت هذه الحادثة من التوتر والكراهية بين سكان الربض وبين الأمير .

وحدث مرة أن ضرب أحد جنود الحرس بعض العامة من سكان الربض ، فثار الناس على الحرس وهبَّ الفقهاء يحتجون على الاعتداء ، وقادوا الجماهير فى ثورة عارمة هاجموا بها القصر ، ودارت معركة بين الثوار وبين الحرس كان جانب

الثوار فيها أقوى وأشد ، وشوهد الحكم آنذاك وهو يضمخ رأسه بالعطر ، فسأله أحد خدمه : أهذا وقت الغالية يامولاى ؟ فأجاب الحكم : اسكت أيها الغرّ ، كيف يعرف العصاة رأسى من بقية الرؤوس إذا لم يتميز برائحته العطرة .

ودبَّر الأمير وسيلة أنقذته من الهزيمة ، فقد أرسل بعض أتباعه فأشعلوا النار فى مساكن الربض وأسرع الثوار يُنقذون زوجاتهم وأولادهم من النار ، فلحق بهم الحرس ضربا وتقتيلا [1] و كانت موقعة الربض سنة ٢٠٢ هـ .

ويقول Lane-Poole [2] : وقد نجّى الحكم بهذه الضربة القاصمة مقره وسلالته ، وكان كريما قبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره ، وهدم الربض ونفى سكانه من الأسبانيين إلى خارج البلاد ، إلى الاسكندرية واقريطش وفاس ، وعفا عمن نجا من الفقهاء

ومن الأحداث البارزة أيضا التى وقعت فى عهد هشام حادثة الخندق أو الحفرة ، وفيما يلى وصف موجز لها :

الخندق أو الحفرة :

اشتهرت طليطلة بالفتن التى يتلو بعضها بعضا ، وبالاضطرابات والعصيان والتمرد ، فقد كان بها طائفة من النبلاء الأسبان يثيرون هذه الفتن ، ويشعلون هذه الثورات ، وقد استقر رأى الأمير الأموى « الحكم » على أن يتخلص من هؤلاء ، فولى على المدينة رجلا أسبانيا مسلما اسمه عمروس بن يوسف ، وأوصاه أن يدبر مؤامرة يتخلص فيها من النبلاء الثائرين فى ولايته ، وحدث أن ذهب ولى العهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط فيما بعد) لزيارة المدينة وهو غلام فى منتصف العقد الثانى ، فأقام له عمروس مأدبة دعا إليها الرؤساء والنبلاء ، وتوافد هؤلاء على الوالى .

ولكن الوالى كان قد أعدَّ استقبالا غير الذى يتوقعونه ، فقد حفر لهم فى القصر خندقا عميق ، وعندما بدأت طلائع النبلاء تَفِدُ إلى القصر ، كان أتباع

---

(١)المقرى ؛ نفح الطيب جـ١ ص ١٦٠

(٢) Arahs in Spain p . 66

عمروس يقودونهم إلى هذا الخندق ، حيث تضرب أعناقهم ويطرحون به ، و تخلص الحكم بذلك من كثيرين من مثيرى الشغب فى طليطلة وهدأت المدينة بعد ذلك .[1]

هل يجوز هذا الغدر ؟

الإجابة على هذا سهلة ، فقد تكررت أمثال هذه الأحداث فى التاريخ القديم والحديث ودنيا السياسة تستبيح مالاتبيحه الأديان .

ويرى الذين يوقعون بأعدائهم بمثل هذا الطريق أنهم توقعوا منهم فتنة تأكل العديد من الناس ،فتخلصوا من القليلين لحماية المجموع . وهى وجهة نظر على كل حال .

القرن الثالث الهجرى وعبد الرحمن الثانى (الأوسط)

ونجىء الآن إلى عبد الرحمن الأوسط وهو ابن الحكم بن هشام ، وأمه أم ولد اسمها « حلاوة » وقد ولد بمدينة طليطلة سنة ١٧٦ إذ كان أبوه آنذاك أميرا عليها فى عهد جده هشام .

وكان أبوه قد جعله وليا لعهده ، ولما مات والده نودى به حكما على الأندلس وأخذ له البيعة الوزير الحاجب عبد الكريم سنة ٢٠٦ هـ وظل حاكمًا حتى توفى سنة ٢٣٨ هـ .

وعهد عبد الرحمن الأوسط كان حافلا بالمفاخر الحضارية كما كان حافلا بالصراع والثورات ، ومن مفاخره الحضارية أنه أول من أسس قواعد البلاط الأموى بالأندلس ، وأحاط مراسم الخلافة بالهيبة والفخامة ، ووضع نظام الفروسية الذى اقتبسته أوربا بعد ذلك ، ورتب تقاليد مهمة للوزارة ، وشجع الحركة العلمية ، وهو الذى أسس مسجد إشبيلية وعمّر أسوارها ، كما أنه أضاف بهوين إلى أبهاء جامع قرطبة ، وأسس مساجد أخرى فى كثير من مدن أسبانيا .

---

(١) ابن خلدون حـ ٤ ص ١٢٦ أو ابن القوطية ٩٠ ص ٤٥ ـ ٤٦

وعنى عبد الرحمن الأوسط بجلب الكتب والمخطوطات من الشرق ، كما أنه جلب إلى الأندلس روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد إذ أنتهز فرصة مقتل الأمين وغيبة المأمون عن بغداد فابتاع كل ما وصلت له يده من تحف قصور الرشيد .

ومن الجوانب الحضارية ماذكره الرازى المؤرخ الأندلسى من أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين تعمير قرطبة وتجميلها ، وبين الصيد فى سهول الوادى الكبيره ، وبين مجالس العلم والآداب والموسيقى ، وكان يرسل رسله لبغداد ليصفوا له ما وصلت إليه العاصمة العباسية من تقدم ويحاول تطوير الحياة فى قرطبة على هذا النمط .

من نفوذ الفقهاء فى عهد عبد الرحمن الأوسط :

كان للحكم والد عبد الرحمن الأوسط جارية تنال إعجاب الحكَم وتقديره أسمها « عُجْب » وكان لها ابنُ أخ طائش بدرت منه عبارة تمس الذات الإلهية ، فأُلقيَ القبضُ على هذا الفتى الطائشَ ، وظهر أنه سيحاكم بقسوة على استهتاره ، وحينئذ تقدمت « عجب » تشفع له لدى عبد الرحمن الأوسط ، فقال لها : مهلا يا أماه ، فلابد أن يكشف أهل العلم عما يجب عمله فيما قال ، فإنا معشرَبنى مروان لا تأخذنا فى الله لومة لائم ، ومانرى أن الله رفع ملكنا وجمع فى هذه الجزيرة شتاتنا ، وأعلى فيها ذكرنا ، إلا بإقامة حدوده .... وحكم المفتيان : عبد الملك بن حبيب وإصبع بن خليل على الفتى بالصلب ونفذ الحكم .

وفى رأى الفكر الإسلامى أن هذا الحكم قاسٍ إذ كان لابد أن يستتاب هذا الفتى المخطىء قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام .

ومن أشهر فقهاء هذا العصر محمد بن وضاح وتقى بن مخلد وكان الأخير لا يقنع بالفقة المالكى ولا بموطأ مالك، فقد قرأ كتاب الأم للإمام الشافعى ، وقام بتدريسه ورأى الفقهاء فى ذلك خروجا على نمط الحياة ومدعاة للبلبلة الفكرية والسياسية ولجئوا إلى محمد بن عبد الرحمن فى ذلك ذاكرين أن ذلك يقود إلى اختلاف كلمة الناس واستعان الفقهاء بالعامة ضد تقى بن مخلد ، فاستدعاه الأمير وسأله وقرأ مسند ابن أبى شيبه الذى كان تقىّ يعتمد عليه فارتضاه

الأمير ونسخ منه نسخة لمكتبته وأمر الفقهاء ألا يعرضوا لتقى بن مخلد ، وانتهز تقى هذه الفرصة فراح يؤلف ويوسع نفوذه الفكرى ، واتسع مع هذا قدر الأمير فأصبح يسمى الإمام وإمام الجماعة وقد كان هذا اللقب خطوة تجاه الخلافة التى أعلنها عبد الرحمن الناصر فيما بعد .

وبلغ من اهتمام علماء الأندلس بالحديث الشريف أن حبيب بن الوليد المعروف بـ « دحون » قابل فى المدينه فى أثناء رحلته بالمشرق جارية ضليعة فى علوم الحديث فتزوجها وعاد بها للأندلس وكأنما عاد بثروة هائلة .

زَرْياب :

جانب مهم من جوانب الحضارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط وهو جانب يرتبط بالموسيقى والفنان العظيم زَرْياب ، وقد آن لنا أن نتحدث عن هذا الرجل وعن دوره الحضارى فى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط .

وكان زرياب مولى الخليفة المهدى ثالث خلفاء بنى العباس ، وكان تلميذا لإسحق الموصلى ولكنه امتاز بمواهب عالية وبفكر خلاق ، وتقدّم فى الغناء والموسيقى تقدما محسوسا حتى ادّعى أن الجن هى التى تعلمه الأصوات ، وحدث أن قدمه إسحق للرشيد فأعجب به الرشيد ، وهتف : هذا طِلْبتى ، وبعد فترة دبت الغيرة فى نفس إسحق ، وخاف أن يحتل زرياب مكانه فى البلاط ، فصاح فيه أن يختار واحدة من اثنين ، إما الهجرة فى أرض الله الواسعة بمواهبه وفنه ، وإما أن يبقى مراغما فيستهدف غضب إسحق وسخطه ، ولم يقو المغنى الناشىء على الثانية فآثر الأولى ، واتخذ طريقة إلى الشمال الإفريقى حتى وصل القيروان .

وعرف الحكم بن هشام خبره فاستدعاه وأمّله ، واستجاب زرياب وأخذ طريقة إلى قرطبة ، ولكن الحكم مات قبل أن يصل زرياب ، فتردد هذا فى مواصلة السير ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أرسل له يحثه على مواصلة السير ويعده خيرا ، فقدم زرياب وأحسن عبد الرحمن الأوسط استقباله وهيأ له مقاما طيبا .

وكان زرياب موسيقيا بارعا ومغنيا رائعا ، وله فى الموسيقى والغناء

ابتكارات ممتازة ، فهو الذى زاد وترا خامسا على أوتار العود ، وقد أحدث فى بلاط قرطبه جوا جديدا كما علّم أولاده وبناته فنونه ، وعلّم غير بناته من الجوارى حتى انتشرفنه وذاع صيته وطبقت شهرتُه آفاق الأندلس .

ولم يكن زرياب مغنيا وموسيقيا فحسب ، ولكنه كان أبعد من ذلك ، كان رجل « اتيكيت » ومنشئا لتقاليد سيطرت على المجتمع ، فزيه أصبح الزى المفضل لدى الطبقة العليا ، وتسريحة شعره اقتبسها منه الرجال ، وأخذ الناس عنه إعداد الموائد ، وتقديم الطعام ، وترتيب أثاث البيت ، وغير هذه من شئون المجتمع .

وإذا كان زرياب منح الأندلس هذا الفكر الجديد المتلون فقد منحته الأندلس الجاه من خاصته والثراء ، وقربه الأمير حتى عُدّ من خاصته ، وبلغ من ثرائه انه كان يركب فى مائه غلام .

صلات المسلمين بأوربا المسيحية :

ومع أن الإسلام واجه المسيحية وجرى صراع بين المسلمين والمسيحيين فإن السياسه تدخلت أحيانا ، فقام وفاق بين البيزنطيين بالقسطنطينية وبين الأمويين بالأندلس لمواجهة حلف آخر بين خلفاء بغداد وبين الفرنجة بفرنسا مما يوحي بتغلب السياسة على الدين أحيانا .

رحلة بعض مفكرى المشرق للأندلس :

إن التطور السريع الذى حصلت عليه الأندلس فى ميدان الحضارة خلال القرن الثانى ، وما عُرف عن هذه البلاد من رخاء وخير ، ثم منافسة الأمويين بالأندلس للعباسيين ببغداد ، كل هذا دفع بأفواج من المفكرين إلى الرحلة من المشرق للأندلس ، وقد رحب بهم عبد الرحمن الأوسط أيما ترحيب ، فكان عهده ـ كما قلنا من قبل ـ مطلع التقدم الحضارى الخصب الذى عرفت به الأندلس ، وبخاصة إذ كان عبد الرحمن الأوسط رجلا واسع الثقافة محبا للمعرفة ، رفيع الذوق

ثورات فى عهد عبد الرحمن الأوسط :

كانت الثورات متتالية فى الأندلس ، لم يوقفها إلا حزم الحاكم ، وقد شهد عصر عبد الرحمن الأوسط عدة ثورات نشير لها إشارة سريعة فيما يلى :

- ثورة عم أبيه عبد الله البلنسى أحد أبناء عبد الرحمن الداخل فى بلنسية سنة ٢٠٨ .

- الفتنة بين المضريين واليمنيين وقد استمرت من سنة ٢٠٨ الى سنة ٢١٣ .

- ثورة ماردة بقيادة بعض زعماء البربر .

- ثورة طليطلة سنة ٢١٤ بقيادة هشام الضراب .

- حملات ضد أمراء الشمال المسيحيين .

على أن هناك حركتين خطيرتين كانتا شديدتى الأثر فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وهما :ـ

١ ـ ثورة قرطبة (حركة الاستشهاد)

٢ ـ غارات النورمانديين .

وفيما يلى حديث عن كل منهما :

١ ـ ثورة قرطبة (حركة الاستشهاد) .

يقرر مؤرخو العرب أنه لم يُعْرَف عن الاسبانيين شيء من التحمس الدينى للمسيحية قبل انتشار الإسلام بأسبانيا ، إذ أن المسيحية مسَّتهم مسًا خفيفا ، حتى أن الكثيرين منهم هرعوا إلى الإسلام راغبين راضين ، وعاش المسلمون والمسيحيون فى اختلاط وصداقة وحسن معاملة ، وأخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية ويصدفون عن آدابها ، وتعلموا اللغة العربية وأحبوا آدابها [١] .

أما الأسبان الذين بقوا على المسيحية فقد عاملهم المسلمون خير معاملة ،

---

(١) Dozy : The Muslin is Spain P.P 279 - 280

تركوهم أحرارا فيما يعبدون ، لم يتدخلوا قط فى عقائدهم ، وكان المسلمون لا يذكرون اسم عيسى إلا أتبعوه بالصلاة عليه ، وكانوا يحيطون اسمه بالإجلال والتبجيل ، وفى الوقت نفسه تُركَ المسيحيون أحرارا يتّجرون كما أرادوا ، ويجمعون الثروة حيثما وجدوها .(١)

وكان من الطبيعى إذن أن عاش المسلمون والمسيحيون فى أمن ومودة ، وفجأة ظهر فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط قس مسيحى اسمه (يولوغيوس) ، اشتهر بالتعصب والجرأة بل بالتهور ، فأخذ يسبُّ الإسلام ، ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويحبب لأتباعه الاستشهاد فى سبيل الحط من الإسلام والهجوم عليه ، وساعده على ذلك شاب غنى بقرطبة اسمه (الفارو) وتبعته فتاة جميلة اسمها (فلورا) وقسيس آخر اسمه (برفكتوس) وكانت الفتاة مسلمة فارتدتْ عن الإسلام وأخذ برفكتوس يسب محمدا ، ويسب القرآن ، ويحط من قدر الإسلام ، فحوكم وأعدم ، وأثار أعدامه ثائرة زملائه المتعصبين ، فعدّوا هذا القسيس قدّيسا ، وتلاه قسيس آخر اسمه إسحق جاء لنقاضى يدّعى أنه يريد الدخول فى الإسلام ، ولما مَثَلَ أمام القاضى أطلق لسانه يشتم محمدا صلوات الله وسلامه عليه ويسبُّ الإسلام والقرآن ، فحكم عليه أيضا بالإعدام ، وتوالت بعد ذلك الأحداث المماثلة وطالما رأى قضاء المسلمين ألا يقابلوا هذه النزعة بالعنف ، فأخذوا يهدئون من ثورة المنحرفين ويحكمون بالحبس بدل الإعدام ، ولكن الثائرين كانوا يطلبون الموت بإصرار ليلحقوا بمن سموهم الشهداء ، حتى أن القاضى رفض أن يحكم بالإعدام على (فلورا) ولكنها ثارت ، وطالبت بالموت ، وراحت ترغى وتزبد وتتمادى فى هجومها على الإسلام ، حتى حكم عليها بالإعدام ، وهكذا أعدم فى هذه الحركة أحد عشر متعصبا فى شهرين .(٢)

وقد تدخلت الكنيسة نفسها لإيقاف هذه الموجة الحانقة ، ويقول Hitti (٣) إن هذا الشوق الهستيرى إلى التضحية بالنفس لم يتوقف حتي أعدم أسقف قرطبة يولوغيوس نفسه سنة ٨٥٩ بأمر من محمد الأول (٨٥٢ ـ ٨٨٦) الذى انتهج

(١) Dozy : The Muslins is Spain P.P 279 - 280

(٢) History of the Arabs P. 615

سياسة صارمة مع هؤلاء ،ويبلغ عدد الذين أعدموا فى هذه الحركة نحو أربعة وأربعين .

غارات النورمان :

وفى عهد عبد الرحمن الأوسط بدأت غارات النورمان على أسبانيا ، والنورمان قوم من أهل الشمال موطنهم الأصلى البلاد الاسكندنافية ، وكانوا في ذلك الوقت متوحشين لامدنية لهم ، يركبون مراكب صغيرة ذات أشرعة سوداء ، ثم يلقون أعنة مراكبهم على الساحل ويهجمون على السكان كالجراد يقتلون السكان ويحرقون المساكن وينهبون ما يستطيعون الحصول عليه ، ويعودون بسرعة إلى مراكبهم وقد أشعلوا النيران خلفهم ، وكان المسلمون لذلك يسمونهم المجوس (عبدة النار) وفى عهد عبد الرحمن الأوسط هاجموا لشبونة وإشبيلية وأوقعوا الرعب فى الأهالى ، ثم امتدت غاراتهم حتى شملت الجانب الشرقى من الأندلس ، وشملت كذلك بلاد فرنسا وانجلترا وجنوب إيطاليا وصقلية فى القرن التاسع الميلادى .

وكان من أثر غارات النورمان علي أسبانيا أن أنشأ المسلمون بحريّة كبيرة لتحمي لهم الشواطىء من مثل هذه الهجمات البربرية المدمرة ، وكان جزء من هذه البحرية يتخذ البحر المتوسط مركزا له لحماية أسبانيا الشرقية ، والجزء الآخر ينزل بمياه المحيط الأطلسى ليحمى أسبانيا الغربية .

وقد عاد النورمان للهجوم على أسبانيا فى عهد محمد بن عبد الرحمن ، وكانت الفوضى والضعف قد انتشرت فى البلاد ، ولذلك استطاع النورمان أن يهاجموا مالقة ورنده وأن يدمروا المبانى والمساجد وينهبوا كثيرا من الثروات ، وقد تصدى لهم الأسطول الإسلامى فقلّل من خطرهم واستعاد بعض ما نهبوه واستولى المسلمون على بعض مراكبهم ، ولولا اضطراب الأحوال فى أسبانيا لكان من الممكن حماية الشاطىء تماما من غارات هؤلاء المعتدين .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط بقرطبة سنه ٢٣٨ بعد عهد حافل بالحضارة وحافل بالثورات ، وسنتحدث فيما بعد عن الحضارة فى عهده .

من عبد الرحمن الأوسط إلى عبد الرحمن الناصر :

(٢٣٨ ـ ٣٠٠ هـ)

نريد أن نتكلم بإيجاز عن الفترة التى وقعت بين عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر على نحو ماتكلمنا من قبل عن الفترة بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط .

محمد بن عبد الرحمن وابناه المنذر وعبد الله :

وحكام هذه الفترة هم محمد بن عبد الرحمن الأوسط وابناه المنذر وعبد الله ، ويمكن الكلام عن هؤلاء الحكام تحت عنوان واحد ، وذلك للتشابه فى أحداث هذه الفترة ، فقد بلغت الاضطرابات ذروتها خلالها وبدأ التفكك الكامل يظهر ، وهبت الثورات من العرب ومن المستعربين ونشطت قوة المسيحيين .

وقد بدأت هذه الأحداث متصلة بمحمد بن عبد الرحمن الذى تولى الإمارة بعد أبية عبد الرحمن الأوسط ، وكان محمد هذا بخيلا ، حرص على جمع المال من أى طريق حتى أنقص مرتبات الموظفين وقلّل الإنفاق على مصالح الدولة ، وكان فى الوقت نفسه كثير الشراب محبا للدعة ، فهب الأنصار والأعداء فى وجهه ، وقام محمد يدافع عن سلطانه فأوقع بالمسيحيين الذين يقودون حركة الاستشهاد ويسبون الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وبينما كان محمد يقضى على حركة الاستشهاد ، ويحارب طليطلة ، كانت الثورات قد ظهرت فى كل مكان ، فأمضى محمد هو وابنه المنذر حياتهما فى نضال مستمر ، مرة ضد الثوار العرب وبخاصة بنوحجاج الذين أعلنوا استقلالهم بإشبيلية ، ومرة ضد الثوار البربر الذين استقلت كل قبيلة منهم بمكان وبخاصة أسرة ذى النون فى الولايات الغربية وابن تاكيت بماردة ، ومرة ضد المستعربين وبخاصة ابن حفصون فى الجنوب الغربى (مالقة ورندة) ومرة ضد عبد الرحمن بن مروان بماردة ولشبونة ، ثم العدو الكبير فى الشمال .[1]

وجاء عبد الله بن محمد إلى السلطة وقد بلغ الاضطراب غايته ، ومما زاد فيه

(١) اقر اخبار هذه الحروب فى ابن خلدون حـ٤ ص ١٣٥ ـ ١٣٦

أنه كان شيخا قد تقدّمت به السن ، وكان مترددا بين الشدة والخنوع ، ثم إن محمدا ومطرفا ابني الأمير عبد الله لم يكونا على وئام ، وكان المطرف كثير السعاية ضد أخيه محمد عند أبيهما حتى إذ تمكّنت سعايته وظهر سخط الأمير عبد الله على ابنه محمد هرب هذا ولحق بابن حفصون ثم استأمن وعاد ،ولكن هذا أكد للأب الخوف من ابنه ، واستمر المطرف في السعاية حتى أصدر الأمير أمره بحبس محمد ببعض حجرات القصر ، وخرج الأمير لبعض غزواته وترك ابنه المطرف نائبا عنه في العاصمة ،فانتهز هذا تلك الفرصة وقتل أخاه ، وقد حزن الأمير عبد الله على ابنه وأدرك أنه مظلوم [1] فاحتضن ابنه (عبد الرحمن بن محمد الناصر) وكان طفلا رضيعا ، وعني بتربيته ، وكأنما كان يعدُّه للنهضة الكبرى التي شملت البلاد وأنقذتها من الاضطراب الذي أوشك أن يقضي عليها.

القرن الهجري الرابع

ويدخل القرن الرابع الهجري ، وهو أزهى عصور المسلمين بالأندلس ، وكان النجاح فيه تاما في ميداني السياسة والحضارة ، وقد تولى عبد الرحمن الناصر الحكم في الأندلس طيلة النصف الأول من هذا القرن فأثبت أنه أكفأ الحكام الأمويين بالأندلس ، وجاء بعده ابنه الحكم فحفيده ، هشام ، وكان هشام صغير السن فتولى الحُكْمَ باسمه المنصوربن أبي عامر وأولاده ، وكان المنصور من أقوى الرجال الذين برزوا في تاريخ الإسلام ، وهكذا حفل هذا القرن بخيرة الرجال الذين ازدهى بهم ملك الاندلس ، والذين كان كل واحد منهم غرة في مفرق زمانه وسنتكلم عن حكام هذا القرن من الأمويين ثم نتبعهم بحديث عن « الدولة العامرية » التي تنسب لابن أبي عامر .

عبد الرحمن الناصر

بطل من أعظم أبطال التاريخ الإسلامي ، وعلم من أشهر أعلام بني أمية بالأندلس ، خَلَفَ جده عبد الله بعهدٍ منه ، وكان عبد الله قد أحس - كما قلنا - بخيانة يدبرها ابنه (والد عبد الرحمن) فأوعز لابنه الثاني بقتله ، أو انتهز

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٣٧

الابن فرصة سخط أبيه على أخيه فقتله ليخلو له الجو ، وكان عبد الرحمن طفلا فاحتضنه جده ورعاه وأصبح أثيرا عنده ليعوضه عن فقد أبيه .

ولما شب ألقى جده خاتمه إليه وآثره على أبنائه [١] ولم يعترض على ذلك أحد [٢] ، فقد كان الملك آنذاك حافلا بالمرارة والقسوة فلم يكن يطمع أحد فيه ، ثم كان فى شباب عبد الرحمن وشخصيته مايبعث الخوف والتردد فى نفوس من يتجهون إلى التمرد ، فرحب به أعمامه وأعمام أبيه ، وشاع البشر والتفاؤل بهذا الفتى الرشيد .

الأندلس قبل عبد الرحمن :

ويصف المقرى حال الأندلس عند تولية عبد الرحمن ، كما يصف الجهود التى بذلها عبد الرحمن والنتائج التى حصل عليها بقوله : وكانت الأندلس كثيرة المخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، وقد خاض غمار حروب طويلة ضد اللصوص والمارقين وأخضع هؤلاء وأولئك كما هاجم المسيحيين فأذلهم وأعادهم الى معاقلهم ، فسلّم له البربر والعرب .

والملك العظيم ـ كما يقول Lone-Poole ـ [٣] أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسها ، وازد حمت أيامها بالكوارث ، جاء الملك العظيم ينقذ قومه من براثن الخطر ، ليعيد إليهم الرفاهية والأمن ، وكانت الأندلس أحوج ماتكون إلى منقذ ومعين فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، فقد انتشر العصيان فى دويلات الأندلس ، وتناوب عرش المملكة أمراء لاغناء فيهم آخرهم عبد الله جد عبد الرحمن الذى كان متقلبا مضطربا ، يتأرجح بين الشدة والاستخذاء دون أن ينجح فى أى منهما ، فاهتبل كل نبيل أو زعيم من العرب أو البربر والأسبان فرصة ضعفه وسوء حكمه وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضى فاختص نفسه بقسم من المملكة وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه .

---

(١) ابن عذارى حـ ٢ ص ١٦٠ .

The Arabs in Spain P. 88 (٢)

The Arabs in Spain P. 88 (٣)

ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعا ظاهريا بحيث إذا جاوز المرء قرطبة لم يجد عربيا واحدا يرجى منه أن ينصر الأمير أو يدافع عن الدولة الأموية . (١)

وفى وسط هذا الاضطراب السياسى اضطرب الاقتصاد ، فقد قلت العناية بوسائل الرى واضطرب الأمن ، وانتشر اللصوص الذين سرقوا الماشية والمزارع ، وأحالوا الحقول إلى قفر يباب ، كما انتشر قطاع الطرق الذين هاجموا التجار وسطوا على قوافل التجارة .

وهكذا تطلع الناس فوجدوا أنهم لم يجنوا شيئا من هذا التفكك إلا الخراب والدمار ، ولم يبق لهم من أمل إلا أن يظهر حاكم قوى يضرب على أيدى العصاة ، ويعيد الاستقرار والوحدة والأمن ، وكأنما عاهد كل منهم نفسه أن يكون جنديا من جنود هذا الحاكم لو ظهر هذا الحاكم للعيان .

عبد الرحمن شعلة نور بين الظلام :

وجاء عبد الرحمن الناصر كالشعلة انبثقت بين الظلام الحالك ، وكان مملوءا بالفتاء والذكاء ،والإخلاص والوفاء كما كان أكبر من هذه الأحداث ، وسرعان ما أعلن سياسةً واضحة لاتقلب فيها ولاغموض ، كانت هذه السياسة ترسمه نارا متأججة مدمرة على من يناصبة العداء وترسمه وفيا صديقا لمن يستسلم له ويتعاون معه ، وقد وضح عبد الرحمن هذه السياسة فى منشور بعث به هنا وهناك يدعو المتمردين إلى الطاعة ويَعدهم بالعفو والعون إن استجابوا ، ويهدد وينذر من يعاند ويؤثر العصيان ، وقد وفى عبد الرحمن بما وعد فأيما أمير استجاب لنداء عبد الرحمن قربّه عبد الرحمن وأغدق عليه وأنزله بقرطبة معززا مكرما مع أسرته وذويه (٢)

وكأنما دفعت الشعوب حكامها إلى الطاعة ، فقد كان هؤلاء الحكام يدركون ماآل له أمر الشعوب من بؤس وشقاء ، ولذلك نجد عبد الرحمن يجول هنا ، وهناك فيخضع له أكثر الحكام وتلتف حوله أكثر الولايات .

Ebid P. 89 (١)

(٢) المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

صراعه ضد المارقين :

أما الحكام الذين استمروا فى تمردهم فقد لاقوا من عبد الرحمن صرامة هدَّتهم وعنفا قضى على استبدادهم ، ويتمثل هؤلاء فى ابن حفصون الذى استبد فى « ببشتر » ثم صارعه عبد الرحمن بعنف حتى سقط ، وسيأتى حديث عنه وعن أولاده فيما بعد ، ويتمثَّل كذلك فى طليطلة التى عرفت دائما بكثرة الثورات والتمرد ، وقد شدد عبد الرحمن عليها الحصار وأحكمه وأطاله ثم أقام على الجبل القريب منها حصنا سماه « مدينه الفتح » ليعلن للثائرين أنه لن يتركهم ولن يتخلى عن حصارهم حتى يستسلموا ، وفعلا لم تجد المدينه الثائرة غير طريق الاستسلام فألقت السلاح بعد أن أعيت ثورتُها كثيرا من الأمراء قبل عبد الرحمن . (١)

وفى خلال الاضطراب الداخلى الذى سبق إمارة عبد الرحمن ، ثم فى مطلع عهد هذا الحاكم انتهز المسيحيون فرصة هذا الاضطراب فحقَّقوا كثيرا من الانتصارات ، وكانوا قساة فى انتصاراتهم ، فقد دمراوا وقتلوا الأسرى ، وهدموا المساجد وأحرقوا الكتب ، ولذلك هب عبد الرحمن لتأديبهم ، فأرسل لمملكة ليون جيشا بقيادة أحد قواده اسمه ابن أبى عبيدة ، وقد حقق هذا نصرا كبيرا فى أول الأمر ثم خرَّ فى الميدان ، إذ كان فى جيشه بعض المرتزقة الذين لم يصمدوا فى المعركة وآثروا الفرار ، وبقى ابن أبى عبيدة مع صفوة جنده ، يقاتلون ويواجهون عددا كبيرا فقد آثر القائد البطل الموت على الهزيمة والفرار وكان له ما أراده ، وسرعان ما أرسل عبد الرحمن جيشا ثانيا بقيادة أحد خواصه فثأر لابن أبى عبيدة ولم يكتف عبد الرحمن بذلك بل سار بنفسه وأوغل فى مناطق المسيحيين ونكل بهم وشتت شملهم ودمر حصونهم وانضم أمير مسلم خائن اسمه محمد بن هاشم لمملكة ليون ، وكان هذا الأمير حاكما لأرجونه ، فسارع عبد الرحمن ينكل بالمتحالفين وحقق نصرا كبيرا ، ولما استسلم محمد بن هاشم عفا عنه الأمير العظيم . (٢)

---

(١) انظر الأدب الأندلسى للدكتور احمد هيكل ص ١٩٩

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ١٤١ ـ ١٤٢

ويلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان يقود جيشه بنفسه فى كثير من الأحوال ، وكانت جولاته العسكرية تمتد أحيانا عدة أشهر ، وهذا ترك أثراً عظيما فى نفوس جنده لأنه احتمل معهم أهوال الحرب ، وعاش حياتهم الخشنة ، وتعرض لما يتعرض له المجاهدون من شظف العيش ومن القلق والتضحية .

وقد هزم عبد الرحمن فى إحدى مواقعة مع مملكة ليون وهى موقعة الخندق ولكنه سرعان ما استعاد قوته وسيطرته مما دعا الممالك المسيحية إلى طلب الصلح معه ، وتم هذا الصلح على النحو الذى أراده المسلمون .

أحداث بارزة فى حياته :

وهناك أحداث بارزة فى حياة عبد الرحمن الناصر جديرة بالشرح والإيضاح وهى

١ ـ موقفه من مجاعة ألمت بالبلاد .

٢ ـ الصراع مع ابن حفصون .

٣ ـ لقب الخلافة .

٤ ـ رد خطر الفاطميين .

وسنتكلم عنها بشىء من التفصيل فيما يلى : ـ

١ ـ موقفه من مجاعة نزلت بالبلاد : ـ

فى مطلع عهد الناصر وبالضبط سنه ٣٠٢ هـ حل بالأندلس قحط شديد فعزّت الأقوات وارتفعت الأسعار ، ومن الممكن أن نتخيل أو نعتقد أن الناصر كان على صله بتاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما قام به ابن الخطاب فى عام الرمادة من جهد للتغلب على المجاعة التى نزلت بالمسلمين فى الجزيرة العربية فقد هبَّ الناصر طيلة هذه الأزمة يوزع الأقوات ، وفتح خزائنه لعون الناس دون حدود ، وقلده القادرون فى هذا الموقف النبيل مما خفف من حدة الأزمة ، ومما زاد الشعب ارتباطا بزعيمه الذى يُرْوَى أنه عانى معهم الجوع حتى انتهت المحنة .

٢ ـ الصراع مع ابن حفصون : ـ

عمر بن حفصون ، ينحدر من أسر النبلاء الأسبان ، كان مسلما أو هكذا كان يدّعى أول أمرة ، وكان يعمل فى الجيش بقرطبة ، ولكنه رأى فترة الضعف التى مر بها الحكم الإسلامى بالأندلس بين عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر (أى عهد محمد والمنذر وعبد الله) فثار فى وجه حكام قرطبة . وانضم له كثير من الأسبان المسلمين ، والنصارى الحانقين على حكم العرب ، وحارب جيشَ الخلافة وانتصر عليه عدة مرات ، وأصبح بذلك زعيم المقاطعة الجنوبية واستطاع أن يعزل قرطبة عن بقية الأندلس ، واتخذ حصن ببشتر مركزا له . (١)

ولما خطا ابن حفصون شوطا طويلا فى النصر العسكري ، أراد أن يحقق نصرا سياسيا فاتصل بالعباسيين وعمالهم الأغالبة فى إفريقيه مؤملا أن يقلدوه إمارة الأندلس(٢) ، ولكن هؤلاء كانوا يدركون عدم إخلاصة ، فلم يستجيبوا له .

واندفع ابن حفصون يعلن سنة ٢٩٩ نصرانيته التى كان يُسرُّها من قبل كما يرى ابن عذارى (٣) وأحس المسلمون بالخطر يحدق بعرويتهم ودينهم ، وأصبح ابن حفصون يعتبر لدى الأسبان الحامى الذى يذود عن الوطن المنكوب . (٤)

وساقت الأقدار لحكم أسبانيا آنذاك البطل عبد الرحمن الناصر ، وقد دارت بينه وبين ابن حفصون معارك شديدة انتصر عبد الرحمن الناصر فى أكثرها حتى تقلص سلطان ابن حفصون إلى قلعته الجبلية فى ببشتر حيث مات سنه ٣٠٥ هـ وسلم أولاد ابن حفصون القلعة بعد ذلك للأمير العظيم ، وعادت الأندلس تدين بالولاء لأعظم ملوك الأمويين الذين حكموها .

ومن الواضح أن انشغال عبد الرحمن الناصر بحرب ابن حفصون أعطى فرصة للنصارى فى الشمال للعبث والفساد والعدوان على المسلمين ، وعندما انتهى الناصر من ابن حفصون اتجه بقوة إلى هؤلاء الغادرين فأنزل بهم صنوفا من

---

(١) انظر اخبار مجموعة ص ١٥٠ وابن خلدون : ١ : ١٣٥

(٢) إبن خلدون : العبر حـ ٤ ص ١٣٥

(٣) البيان المغرب فى اخبار المغرب ٢ : ١٤٣

(٤) فيليب حتى حـ ٣ ص ٦٧١

الهزائم ، ولا يتسع المقام لتتبع ضرباته القاصمة هنا وهناك فى أرض النصارى ، ولكننا نقول بإجمال إنه أذلهم وقضى على شوكتهم وألزمهم الخشوع ، واستولى على الكثير من حصونهم ومعاقلهم .

ولابد أن نذكر أن انتصارات عبد الرحمن الناصر العسكرية كان مرجعها إلى مابذل من جهد فى إعداد جيشه ، فقد اهتم الناصر بحشد عدد ضخم من الرجال فى جيشه ، وأمّر عليهم من يثق فى إخلاصة وبطولته ، وأسبغ النعم على الجيش حتى لا يتطلع رجاله لمزيد من النعيم ، وأمد الجيش بالعدة والآلات بسخاء ، ثم ـ وهذه نقطة مهمة جدا ـ تولى عبد الرحمن بنفسه قيادة الجيش فى حالات كثيرة ، فكان نعم القدوة ، وكما اهتم عبد الرحمن بالجيش اهتم بالأسطول ، فدعم وحداته وضم لها وحدات جديدة مما ضمن للأندلس أسطولا قويا يحمى الشواطىء الطويلة التى تحيط بالبلاد من أكثر الجهات أو من كلها .

٣ ـ لقب الخلافة :

قنع عبد الرحمن الداخل وستة ممن خلفوه فى الحكم بلقب أمير ،إذ كان من المصطلح عليه أن تكون فى العالم الإسلامى خلافة واحدة يستحقها من يحكم أغلب العالم الإسلامى بما فى ذلك الأماكن المقدسة ، ولكن الفاطميين عندما بدأت دولتهم بالشمال الإفريقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٢٩٦ ـ ٢٩٧ هـ) اتخذوا الخلافة لقبا لهم ، لأنهم شيعة يرون أن الخلافة من حق أولاد على من فاطمة ، ولا يعترفون لغيرهم بالخلافة إلا تقيّة ، وبهذا فتح الفاطميون باب التعدد فى الخلافة ، فأتاح ذلك فرصةً للأمراء الأمويين بالأندلس ليدّعوا لأنفسهم هذا اللقب وساعد على ذلك أن ملك الأمويين بالأندلس كان قد وصل إلى الذروة والاستقرار فى عهد عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع بينما فقد الخلفاء العباسيين كل سلطان وأصبحواأقرب إلى الضعف وانهيار السلطان ، وبالإضافة إلى هذا فإن عبد الرحمن الناصر رأى أنه لا يسلب لقبا من أحد ، وإنما يستعيد لقب آبائه وأجداده ، بل عاب على السابقين من الأمراء الأمويين بالأندلس عدم التمسك بهذا اللقب ، ويظهر ذلك فى المنشور الذى أعلنه سنة ٢١٧ هـ وفيه يقول :

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورُّوها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، متَّسم بما لا يستحقه، وكان هذا اللقب حقا أضعناه واسما ثابتا أسقطناه . (١)

٤ ـ خطر الفاطمين : ـ

قامت الدولة الفاطمية فى الشمال الإفريقى وامتدّ سلطانها حتى المحيط الأطلسى فى يوم من الأيام ، وكان ذلك قبيل عهد الناصر وخلاله ، وقد وقفت بذلك وجها لوجه أمام الأمويين بالأندلس ، ومما زاد الأمر حرجا بالنسبه لعبد الرحمن الناصر أن الفاطميين ورثوا عن الأغالبة أسطولا كبيرا كانوا يهددون به سواحل أوربا وأسبانيا .

وقدّم ابن حوقل الرحالة الشيعى تقريره عن أسبانيا ، وكان تقريرا يغرى بالزحف عليها فقد جاء فيه أنها بلاد غنية طيبة الهواء كثيرة الماء وأن حكومتها ضعيفة ، وقد بدأ الفاطميون لذلك يرسلون إليها دعاتهم ويمدون الطرف إليها .

وفطن عبد الرحمن إلى هذا الخطر فاتجة لإشعال ثورات واضطرابات بالشمال الإفريقى ليشغل الفاطميين عن بلاده ، وبخاصة أنه أدرك أن عدوة المغرب التى وصل لها الفاطميون كانت دائما قاعدة لغزو الأندلس ، ومن أجل هذا اتجه عبد الرحمن إلى ثغر « سبتة » واتصل ببعض زعماء البربر بالشمال الإفريقى فأيدوه ، وحالف أمير مكناسة ، ووصل الأمر إلى أن دُعِيَ له على منابر المغرب ، وهكذا لم يقف عبد الرحمن جامدا حتى يهاجمه العدو ، بل هاجم هو العدو ، وذلك أعلى نمط فى السياسة العسكرية ، على أن السبب الأهم الذى أبعد الخطر الفاطمى عن الأندلس هو أن اتجاه هؤلاء كان إلى قلب العالم الإسلامى إلى مصر والشام والعراق حيث يمكن أن يسيطروا على العالم الإسلامى كله .

بقيت فى أحاديثنا عن عبد الرحمن الناصر موضوعات ذات بال نتدارسها فيما يلى : ـ

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦

١ ـ أعوان الناصر : ـ

إن الحركات الثورية المتصلة تقريبا والتى قام بها العرب والبرر بشكل مستمر تقريبا جعلت عبد الرحمن الناصر يفقد كثيرا من الثقة فى هؤلاء وأولئك ، وألزمته أن يتجه إلى الموالى والصقالبة ليتخذ منهم خدمه ومساعديه ، وكان هؤلاء قليلى الأطماع لأنهم ينحدرون من منابت وضيعة ويقنعون بالقليل من المال والنفوذ وبعض الثراء ، وكان هؤلاء من الصقالبة غالبا ، والصقالبة فى الأصل هم من الأسرى الذين ينتمون للأجناس الصقلية السلافية ، ثم اتسع نطاق استعمالها بالأندلس فأصبحت تطلق على المسيحيين الذين ينتسبون إلى بلاد مختلفة ، وكان هؤلاء يؤتى بهم فى عهد طفولتهم وصباهم ويربون تربية إسلامية ، وقد تدرج سلطانهم فى الحياة من خدم فى القصور حتى أصبحوا قادة الشرطة والجيش ومن مشاهيرهم « أفلح » رئيس الخيالة و « درىّ » صاحب الشرطة و « ياسر » و « تمام » وكان فى يدهما الشئون الخاصة للأمراء والملوك .

٢ ـ عهد رخاء :

إن استقرار الأحوال عقب انتصارات الناصر الباهرة ، حقق الأمن ، فازدهرت التجارة والزراعة والصناعة ، وتبعا لذلك أصبح عهد الناصر عهد ازدهار ورخاء وأصبح الناصر أغنى ملوك عصره ويذكر دوزى أن الناصر قسم الجباية ثلاث أقسام قسم لنفقة الجيش ، وقسم للبناء والمنشآت العامة ، وقسم يدخر للطوارىء

٣ ـ أهم منشآت الناصر : ـ

كان من مظاهر العظمة أن اتجه الناصر إلى التشييد والبناء ، وفى مقدمة منشآت الناصر مدينة الزهراء فى الشمال الغربى لقرطبة ، وكانت ضاحية مهمة من ضواحى قرطبة ، ويقال إنه سماها باسم جارية كانت حظية عنده اسمها « الزهراء » وبنى الناصر قصرا جديدا فاخرا أسماه : دار الروضة كما أنشأ فى الزهراء مسجدا عظيما ومجموعة من المنشآت الحربية ومنشات الترفية ، ومما ينسب للناصر من المنشآت معاهد قرطبة التى كانت من أهم المعاهد العلمية التى كسبت الأمجاد للمسلمين بالأندلس .

وللأسف كان عهد الزهراء قصيرا فقد عاشت حاضرة الملك منذ انتقل لها الناصر سنة ٣٢٩ هـ إلى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، وبعد المستنصر أصبح محمد بن ابى عامر وصيا على الخليفة الطفل هشام المؤيد ابن الحكم ، وانتقل ابن ابى عامر إلى ضاحية جديدة بناها هو اسمها « الزاهرة » وانتهى بذلك مجد الزهراء التى فاقت قصور ألف ليلة وليلة والتى لم يعرف لها نظير فى الإسلام .

ومما يدل على شغف الناصر بالعمران والمبانى تلك المقطوعة الشعرية التى تنسب للناصر وهى : ـ

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

أوما ترى الهرمين قد بقيا ، وكم ... ملك محته حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

٤ ـ جوانب حضارية فى عهد الناصر : ـ

وامتداداً لأحاديثنا عن منشأت الناصر نتحدث عن بعض الجوانب الحضارية المرتبطة بالفكر والثقافة فقد ظهر فى عهد الناصر مجموعة من الشيوخ الذين برزوا فى الجانب الفكري ، ومن هؤلاء قاسم بن اصبغ البيانى (سنة ٣٤٠ هـ) ويقولون عنه إنه جمع من العلم أضعاف ما جمع غيره ، وعلا قدره فى عهد الناصر حتى جلس الناصر للاستماع منه ، وجلس كذلك أمامه الأمير الحكم المستنصر قبل أن يلى الخلافة .

ومن هؤلاء كذلك محمد بن عبد الملك بن أمين (ت ٣٤٠ هـ) وكان فقيها عالما ، ومن هؤلاء أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الحباب (ت ٣٢٢ هـ) وكان يوصف بأنه إمام وقته غير مدافع فى الفقه والحديث وكان مع هذا رجلا متواضعا منصرفا عن الدنيا .

ومن أطباء ذلك العصر يونس الحرانى وأبو الحكم المغربى وسلمة بن أحمد ، وكانوا يعالجون المرضى ويعلمون الطب .

٥ ـ سفارات عهد الناصر : ـ

إن تبادل السفارات والبعوث كان ابتكارا إسلاميا ، قام به الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام السابع للهجرة [١] ، وسار عليه المسلمون بعد ذلك كما وضحت فى مكان آخر (كتاب العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى) وقد جرت مناوشات وحروب بين المسلمين بالأندلسي بين المسيحيين فى الشمال الغربى لأسبانيا وكذلك بين المسلمين والفرنجة ، ولكن انتصارات عبد الرحمن الداخل جعلت المسيحيين فى أمكنة متعددة يلجأون للوسائل السلمية من معاهدات وسفارات بينهم وبين قرطبة ، وسنورد فيما يلى حديثا عن أهم هذه السفارات .

أ ـ سفارة امبراطور القسطنطينية : ـ

فى سنة ٣٣٦ هـ وفدت إلي الناصر سفارة الامبراطور قسطنطين السابع وكانت تحمل هدايا ثمينة ، واحتفل الناصر بقدوم هذه السفارة ، فزين القصر بأبدع زينة ، وأعد موكب العسكر إعداداً جيدا . وجلس الناصر على عرشه الضخم يحيط به كبار رجاله ، وقد أخذت السفارة بهذه المناظر البديعة وقدمت كتاب الامبراطور للخليفة المسلم .

وقد بعث الناصر سفيرا من عنده يحمل أعظم الهدايا للامبراطور قسطنطين السابع ردا على سفارته .

وكانت هذه السفارة تجديدا للعلاقات بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام بالأندلس ، وكانت تحمل لونا من التحالف بين القوتين ضد الدولة العباسية التى كانت خصما للطرفين ، كما كانت توحيدا لقوة الطرفين فى مواجهة الدولة الفاطمية التى بدأت تثير المتاعب ضد البيزنطيين فى البحر المتوسط ، وتثير المتاعب أيضا ضد حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى وقد أشرنا إلى مثل هذه العلاقات من قبل .

---

(١) اقرأ الجزء التاسع من موسوعة الحضارة الإسلامية عن العلاقات الدولية فى الفكر الاسلامى

ب ـ سفارة ملك الصقالبة : ـ

كان ملك الصقالبة يدعى بطرس أو بيتر وكان ملكا لبلغاريا التى كانت تعرف آنذاك بمملكة الصقالبة ، وكان لهذه السفارة أثر كبير فى توطيد مكانة الصقالبة بالدولة الإسلامية والثقه بهم .

جـ ـ سفارة ملك فرنسا : ـ

أرسل ملك فرنسا « لويس الرابع » سفارة إلى الخليفة الناصر ، وكان هدفها طلب الصداقة والمودة وعدم الاعتداء ، وقد استجاب الناصر لهذه الأهداف .

د ـ سفارة امبراطور المانيا : ـ

حدثت هذه السفارة سنة ٣٤٢ هـ وكان امبراطور المانيا هو « أوتو » وكان آنذاك يعتبر زعيم النصرانية ، وهدف هذه السفارة كان منع التوغل الإسلامى فى سويسرة وغيرها من القطاعات التابعة لامبراطور المانيا .، وكان سفير الامبراطور حَبْرا يدعى « يوحنا » وكان يحمل مجموعة من الهدايا الثمينة ، وقد عُيِّن وفد لاستقبال السفير ، ولكن الخليفة رفض مقابلته لأن أوتو سبق أن اعتقل سفير الخليفة مدة ثلاثة أعوام ، وذكر الخليفة أنه سيعتقل رسول أوتو ضعف هذه المدة لأنه أرفع مقاما من ملك المسيحيين وقد قابله الخليفة عقب ذلك واستعرض معه القضايا التى أثارها .

هـ ـ سفارة ملك ليون : ـ

فى سنة ٣٤٤ هـ أرسل ملك ليون « اردرفو الرابع » سفارة للخليفة الناصر يرجو عقد معاهدة سلام ومودة ، وقد استجاب الناصر لذلك .

د ـ سفارة مملكة نافار برياسة ملكتها « طوطة » : ـ

وفى سنة ٣٤٧ هـ حضرت ملكة نافار بنفسها على رأس سفارة من المملكة فاستقبلهم الناصر واستجاب لمطالبهم فى التصالح والمساعدة .

ز ـ سفارة البابا يوحنا الثانى عشر : ـ

وفى نفس العام ٣٤٧ وفدت للناصر سفارة البابا يوحنا الثانى عشر ، وكانت تطلب السلم والتعاون بين المسلمين والنصارى ، فأجابهم الناصر الى ما طلبوا (١) .

وهكذا كانت هذه السفارة أوضح دليل على جلال الدولة الإسلامية وهيبتها .

وهكذا بعد جهاد عنيف أصبح عبد الرحمن الناصر سيّد الأندلس كلها ، فالأمراء يدينون له بالطاعة التامة ، والممالك المسيحية خرت أمامه مهزومة أو عقدت معه صلحا أرضاه وباتت هذه الممالك تنظر له نظرتها إلى السيد الأعلى ، بل كانت تحتكم إليه فيما يدبُّ بينها من خلافات ، وقد طلب منه ملك نافار طبيبا يعالجه من السمنة المفرطة فاستجاب له عبد الرحمن وأرسل له طبيبا كان طبه كبير الفائدة ، ويقول ابن خلدون عن عبد الرحمن : أنه أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج مالم يطأه فى أيام سلفه ، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان ، وأوفدت إليه رسلهم وهداياهم من رومة ومن القسطنطنية على سبيل المهادنة والسلم والاحتمال فيما يعنّ من مرضاته ، ووصل إلى سُدته ملوك الجلالقة من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين ، فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه .

ولعبد الرحمن دور فريد فى خدمة الحضارة الاسلامية بالأندلس سنتكلم عنه فيما بعد .

خلفاء عبد الرحمن الناصر

ابنه الحكم المستنصر ثم هشام بن الحكم

اهتم الناصر بتنشئة ابنه الاكبر « الحكم » تنشئة تؤهله لقيادة البلاد من بعده فوكل تعليمه إلى أحد مشاهير العصر وهو أبو على القالى ، وأشركه معه فى حروبه وفى إدارة الدولة ثم أعلن اختياره وليا للعهد ، وكان الناصر شديد الحرص

(١) هناك مزيد من التفاصيل عن هذه السفارات فى ابن خلدون والبيان المغرب ونفح الطيب وتراجم إسلامية للأستاذ محمد عبد الله

على استقرار الدولة ، وبلغ من حرصه على ذلك أنه قتل ابنه الثانى عبد الله عندما عرف تدبير هذا لمعارضة أخيه ، ويقول ابن خلدون : كان الناصر قد رشح ابنه الحكم المستنصر وجعله ولى عهده ، وآثره على جميع ولده ، ودفع إليه كثيرا من التصرف فى دولته ، وكان أخوه عبد الله يساميه فى الرتبه فغُصَّ لذلك ، وأغراه الحسد بالنكث فنكث ، وداخل مَنْ فى قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه ، وكان منهم ياسر الفتى وغيره ، ونُمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلى فيه فقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى وعلى من انضم لهما وقتلهم أجمعين ، وهكذا ضحى عبد الرحمن الناصر بابنه من أجل سلامة بلاده أحسن الله جزاءه .

وهكذا تولى الحكم في حالة استقرار يكاد يكون تاما ، فقد مهد له أبوه كل شىء فى الداخل والخارج ، وكان الحكم نفسه بطلا عظيما فحافظ على ما آل له من سلطان ، ولم يقو أحد على التمرد عليه سوى المسيحيين فى الشمال الذين ظهر عليهم شىء من النكث بالعهود فى مطلع عهد الحكَم ظنا منهم أنه ليس كأبيه شجاعة ومقدرة ، ولكن سرعان ما سارت لهم جيوشه تدك الأرض ، فعادوا إلى الخضوع وسلموا حصونهم التى كان عليهم أن يسلموها .

على أن الدور الضخم الذى لعبه الحكم المستنصر كان فى ميدان العلم والحضارة واستقدام العلماء ، وإنشاء المكتبات ، وتزويدها بأنفع الكتب مما كان له بالغ الأثر فى الرقى الحضارى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وبعد الحكم جاء ابنه هشام ،وكانت سنه عند ما آل له الأمر عشر سنوات فقام الحاجب المنصور بالوصاية عليه ، وبدأت بذلك « الدولة العامرية » التى سنتكلم عنها فيما يلى :ـ

الدولة العامرية

مؤسس الدولة العامرية هو محمد بن عبد الله بن أبى عامر القحطانى ، ينحدر من أسرة لها شرف ووجاهة ، وبجانب أسرته كان هو طموحا ذكيا ظاهر التفوق على أقرانه ومعاصريه ، رحل محمد إلى قرطبة حيث التحق بجامعتها

وكان أبوه مدرسا بها ، ويحكي المراكشي [1] أنه كان جالسسا مع ثلاثة من زملائه الطلبة فقال لهم : إني سأكون حاكم الأندلس ، ولكل منكم أن يتخير خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر ، فاختار الأول ولاية ربه ، واختار الثاني حسبة السوق ، وطلب الثالث ـ ساخرا ـ أن يطاف به قرطبة على حمار ووجهه إلى الخلف ، فلما أفضى الأمر إلى المنصور بلّغ كلا منهم غايته .

ولما انتهى محمد من دراسته فتح دكانا بجوار قصر الخلافة كان يكتب فيه للناس شكاواهم وعقودهم ، واتصل به في هذا الدكان بعض خدم القصر ، وعن طريقهم اتصل بالسيدة « صبح » زوجة الخليفة الحكَم ، ووكلت إليه السيدة القيام ببعض أمورها فأظهر حذقا ومهارة فيما وكل إليه ، فأوصت الخليفةَ به ، فولاه قضاء بعض النواحي ، وبدأ نجمه يسطع ، ودفعه تفوقه إلى كرسي الوزارة ، فأظهر كفاءة ممتازة . [2]

ومن منصب الوزارة مهّد الطريق لابن أبي عامر ، وقام بمؤامرات عديدة متلاحقة أخلت له الجو ، وفيما يلي سرد موجز لهذه المؤامرات التي حلقت به وإن كانت قد خلت من عنصر الأخلاق .

١ ـ لما مات الحكم اتجه صقالبة القصر إلى البيعة لأخيه « المغيرة » أو عمه ولكن ابن ابي عامر خنق المغيرة بتحريض السيدة « صبح » وجعفر المصحفي الحاجب ، وأعلنت البيعة لهشام وهو طفل صغير .

٢ ـ تآمر مع المصحفي للقضاء على صقالبة القصر والخصيان وكانوا ثمانمائة ، وقد تمت نكبتهم وإخراجهم من القصر .

وبقي أمام ابن أبي عامر رجلان كبيران هما المصحفي الحاجب (رئيس الوزراء) وغالب بن عبد الرحمن قائد الجيش فأدخر كيده ضدهما إلى حين ، وفي هذه الأثناء ظهرت مهارته العسكرية ونجح نجاحا كبيرا في حملاته ضد نصارى الشمال ، حتى أصبح معروفا لدى الجند بأنه القائد الذي لا يغلب (ولذلك لقب المنصور) وأحبه الجند وأحاطوا به ، وساعده ذلك على السير نحو

(١) تلخيص أخبار القرب ص ١٧ ـ ١٨ باختصار .

(٢) العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٤٧ ـ ١٤٨

هدفه بالاستمرار في مؤمراته للتخلص من باقى منافسيه .

٣ ـ أوقع بين غالب والمصحفى ، تزوج بنت غالب و اتهم المصحفى بالخيانة والسرقة فحكم عليه بالسجن ، وظل سجينا حتى مات ، وتولى ابن أبى عامر الحجابة عقب سجن المصحفى .

٤ ـ استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن حمدون صاحب الزاب بمن معه من البربر وظل يناوئه حتى قتله .

٥ ـ قتل جعفرا هذا بمساعدة ابن جهور وابن ذى النون .

٦ ـ قدم البربر وأخر العرب وأسقط بعضهم من مراتبهم وجعل البربر عماد جيشه وموضع ثقته .

٧ ـ وهنا يجىء تصرف مدمر قام به ابن أبى عامر ليكمل به حرصه على أن تخلو الزعامة له ، وذلك هو القضاء على زعامات الأمويين الموجودين بالاندلس ، إما بقتلهم أو ابعادهم إلى الشمال الافريقى ، واتخذ لذلك حجه هى تأمين الخليفة من أولئك المتطلعين للسلطة الذين اتهمهم بمؤامرات لم يقوموا بها .

وكان من نتيجة هذا العمل الظالم أنه بعد خلع هشام بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٩٩ هـ لم يكن فى الساحة من يملأ الفراغ من الأمويين ، ولذلك سرعان انتهت الخلافة الأموية وظهر عصر ملوك الطوائف الذى أسلم لمزيد من الضعف والانهيار لمكانه المسلمين بالاندلس .

وإنها كانت أنانية دفع المسلمون ثمنها دماء سالت وأرواحا أزهقت، فليتعظ بذلك أولئك الذين يعيشون لأنفسهم ويحسبون أن الدنيا خالدة فى أيديهم ، فإذا مدحنا بطولات ابن أبى عامر فإننا نسخط عليه ونستنزل عليه اللعنات لظلمه ولمواقفه التى وضعت الأساس لنهاية ملك المسلمين بالأندلس .

ودانت له بذلك كل الأمور فجلس على سرير الملك ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمّى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، وعند ماشب الخليفة اتجة إلى القراءة والكتب وترك الأمر كله للمنصور ، وكان المنصور جديرا بما وصل

إليه من سلطان [1]

ويقول عنه ابن الشباط ، كان ابن أبى عامر فى غاية من الذكاء والشهامة والشجاعة ، فرأى هشاما صبيا غرا ، مشتغلا باللعب والخلاعة ، فحجر عليه ، وضرب على يديه بعد أن استمال الأجناد بالإحسان إليهم ، والرعاية لهم والامتنان عليهم ، فمالوا معه جملة ، واتفقوا على هذه الفعلة ، فبنى لنفسة قصرا [2] ونقل إليه بيت المال ، واستكتب الكتاب ، واستعمل الحساب وأنفذ إلى جميع الأعمال من وثق بأمانته من العمال ، ولم يترك لهشام سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم .

ثم سمت به همته وشجاعته إلى قود العساكر التى هى فى طاعته وغزا بلاد الروم ، إلى أن ذلل منها كل صعب ففتح الله على يديه برشلونه Borcelona وقتل ملكها بورل Borell وسبى أهلها وخربها ، وغنم منها غنائم كثيرة من عبيد وخدم ومال وسلاح وثياب وبهائم وآب إلى قرطبة سالما غانما ، ثم غزا عدة غزوات وقتل فى الروم جملة حتى دانت له أقاصى بلاد الشرك ، ودخلت بالسلم تحت سلطانه ووافاه رسول صاحب القسطنطينية العظمى ورسول صاحب روما وقشتاله بهدايا وألطاف ، وغرائب أتحاف ، وكلهم يخطب أمانه ويطلب أن يتحاشى مكانه ، وأقام على هذه الحال مع هشام ثمانى وعشرين سنة . [3]

ويقول الاستاذ العبادى [4] عنه : كان المنصور يتولى الغزو بنفسه ، ولم يهزم قط فى الخمسين غزوة التى غزاها طوال حكمه البالغ خمسا وعشرين سنة ، وهو لذلك يعد قائدا من الطراز الأول وما رأى أسبان الشمال هزائم ولا مذلة كهزائمهم على يديه ، فمدنهم الكبيرة قد دمرها ، ووصل إلى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا حيث بلدة القديس يعقوب التى هدمها كلها إلا قبر القديس ، ومن هنا جاءه لقب المنصور ، وهذه الانتصارات التى لم ير الأندلسيون مثلها فى اى عهد سابق جعلته عند المسلمين محبوبا فقد رد إليهم كرامتهم .

(١) انظر ابن خلدون : العبر حـ ٤ ١٤٧ ـ ١٤٩ وابن الخطيب : الاحاطه حـ ٢ ص ٦٧ وما بعدها

(٢) القصر المعروف باسم المدينة الزاهرة فى شمال شرقى قرطبة .

(٣) الامبراطور هو بازيل الثانى

(٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٥٢ ـ ١٥٣

وقد تحدث ابن الدلائى بشىء من التفصيل عن هذه الغزوات الناجحة .

ابنا المنصور : -

توفى المنصور سنة ٣٩٢ هـ فتولّى مكانته ابنه عبد الملك ، وكان كأبيه كفاءة ومقدرة وظل فى سلطانه سبع سنوات ثم مات فتولى أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن هذا كأبيه أو كأخيه فى الكفاءة والمواهب ، ومع هذا فقد كان أكثر طمعا فى المناصب منهما فيروى أنه أرغم الخليفة على أن يعهد إليه بالخلافة ، فأصدر الخليفة قرارا بتوليته العهد ، وكان فى ذلك حتفه ، إذ ثار عليه العرب وبخاصة المضريون ، وانفض جنده من حوله ، وقتله بعض منافسيه سنة ٣٩٩ هـ وبموته انتهت الدولة العامرية وانتهى ملك الخليفة أيضا إذ عزله المضريون [1] .

وقد ذكرنا من قبل أن المنصور ابن أبى عامر كان قد قتل وشرد زعماء الأمويين ، ولهذا لم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ ، ومن أجل ذلك انتهت الخلافة الأموية تماما بالأندلس سنة ٤٢٢ هـ وأسلم ذلك لعصر ملوك الطوائف كما قلنا من قبل ، وحدثت حروب داخلية بين طوائف المسلمين ، وانتهز العدو المسيحى هذه الفرصة فتعاظم وتجبر واتجه سلطان المسلمين بالأندلس نحو الأفول

وهنا نعيد كلمة ابن الشباط مؤرخ الأندلس ونصها : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مفلولا ، وانما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف بين بعضهم البعض .

ونقول إن كلمات ابن الشباط تصف داء لا يزال موجودا حتى اليوم ، ولا يزال أقوى سلاح يعتمد عليه أعداء الإسلام والمسلمين .

(١) ولم يعد بنو أمية بعد ذلك إلادمى لا نفوذلها .

نهاية الخلافة الأموية بالأندلس :

ولم يعد خلفاء بنى أمية بعد ذلك إلا دمًى تحركها القوى المضطربة ، فقد ولىّ المضريون بعد عزل هشام خلفاء ضعافاً كما يبدو فيما يلى :

محمد (الثانى) بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر	٣٩٩ هـ
سليمان بن الحكم	٤٠٠
محمد (الثانى) [للمرة الثانية]	٤٠٠
هشام (الثانى) [للمرة الثانية] (الذى كان قد عزله المضريون)	٤٠٠
سليمان [للمرة الثانية]	٤٠٣ - ٤٠٧

الأندلس بعد الأمويين

بنو حمود :

وهنا تقفز إلى السلطة أسرة بنى حمود ، وهى أسرة يتصل نسبها بأدارسة شمالى إفريقية ، وكانت تقيم فى سبتة على الشاطئ الإفريقى ، وقد دخلت هذه الأسرة قرطبة ، وقبضت على ناصية الأمر بطريق صريح مباشر ، وأخذت تعبث بالخلفاء الأمويين ، فمرة تضع خليفة أموياً بدون أن تمنحه أى سلطان ، ومرة أخرى يتولى أفرادها الحكم بدون خليفة أو يدّعى حكامها أنهم خلفاء [1] ، وتعتبر هذه الفترة حتى انقضاء الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ فترة فوضى وهزائم وانحلال وتفكك للدولة ولجأ بعض المتصارعين من الحكام المسلمين للنصارى فطلب العون ضد حاكم مسلم آخر ، ودفعوا لذلك الإتاوات ، وتملقوا ألفونسو السادس . وفيما يلى أسماء خلفاء بنى أمية وملوك بنى حمود خلال هذه الفترة:

على الناصر بن حمود	٤٠٧
عبد الرحمن (الرابع) بن محمد	٤٠٨ هـ من الأمويين
القاسم المأمون بن حمود	٤٠٨ هـ

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢ وابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

يحيى بن على بن حمود	٤١٢هـ
القاسم [للمرة الثانية]	٤١٣ هـ
عبد الرحمن (الخامس) بن هشام	٤١٤ هـ من الأمويين
محمد (الثالث) بن عبد الرحمن	٤١٤ هـ من الأمويين
يحيى بن على [للمرة الثانية]	٤١٦ هـ
هشام (الثالث) بن عبد الرحمن (الرابع [1])	٤١٨ - ٤٢٢ هـ من الأمويين

ولم يستطع بنو حمود أو الأمويون الذين وضعهم بنو حمود فى دست الخلافة أن يحافظوا على وحدة الدولة وسلطانها ، فاستقل عن قرطبة كثير من المقاطعات، ويبدأ مايسمى فى تاريخ الأندلس بعصر ملوك الطوائف ، وفى سنة ٤٢٢ أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور [2] أنه لم يعد هناك من يستحق لقب الخلافة ، وأنه لذلك أوقف هذا المنصب ، كما أعلن أنه سيحكم مملكة قرطبة حكماً دستورياً جمهوريا ، أى سيقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة ، غير أن هذا الحكم كان جمهوريا فى الصورة لا فى الواقع لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الإمبراطور تمام الشبه [3] .

عصر ملوك الطوائف :

يمتد عصر ملوك الطوائف من سنة ٤٢٢هـ إلى سنة ٤٨٤ وهو عصر ملئ بالاضطراب والفوضى والتناحر والقبلية الصارخة والأنانية الهدامة ، فلم يكن ابن جهور يعلن انتهاء الخلافة حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعاتهم بالإضافة إلى من استقلوا من قبل ، وأصبح فى الأندلس حوالى عشرين أسرة حاكمة ، وكان السلطان على العموم للبربر فى الجنوب وخضع الشرق للصقالبة ، وانتشر فى المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون [4] ومن أهم إمارات هذا العهد إمارة بنى عباد باشبيلية التى كونها القاضى محمد بن عباد لنفسة وذريته وتغلب

(١) زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ١ ص٢ -

(٢) اقرأ أخبار ابن جهور فى العبر لابن خلدون جـ٧ ص ١٥٩ .

(٣) ستانلى لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٥٢ ترجمة الاستاذ الجارم .

(٤) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ص ١٢٢ .

على قاسم ابن حمود (وهو أخو على الذى مر ذكره بين حكام قرطبة) فقد أراد قاسم هذا أن يضم إشبيلية إلى مالقه التى مكن لنفسه فيها ، ولكن بنى عباد انتصروا عليه . وقد استمرت إمارة بنى عباد بإشبيلية من سنة ٤١٤ إلى نهاية عهد ملوك الطوائف حيث فتحها المرابطون كما سنذكر فيما بعد ، وخلال قيام إمارة بنى عباد استطاعت هذه الإمارة أن تضم لها بعض الإمارات الأخرى الصغيرة مثل :

إمارة بنى حمود بالجزيرة	٤٣١ - ٤٥٠
إمارة رونده	٤٠٥ - ٤٤٥
إمارة موردن	٤٠٤ - ٤٤٥
إمارة أركس	؟ - ٤٤٥ (تاريخ نشأتها غير واضح)
إمارة وُلبَه وشَلطِيشى	؟ - ٤٤٣ (تاريخ نشأتها غير واضح)
إمارة نبلَه	٤١٤ - ٤٤٢
إمارة بنى فرين بشِلبْ	٤١٩ - ٤٤٤
إمارة سنت مارية	٤٠٧ - ٤٤٤
إمارة مارتله Mertole	؟ - ٤٣٦ (تاريخ نشأتها غير واضح)
إمارة بنى جهور بقرطبة	٤٢٢ - ٤٦٩

ويقول المقرى [1] : وقد استفحل أمر المعتمد بن عباد باشبيلية ؛ فاستولى على قرطبة من بنى جهور وجعل عليها ولده ؛ ثم كانت له وعليه حروب وخطوب، وفرّق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على مَنْ هناك من ملوك الطوائف .

وهناك إمارات أخرى لم تخضع لبنى عباد ، وظلت مستقلة حتى اقتحمها المرابطون أو أستولى عليها المسيحيون ، وهى

إمارة بنى حمود بمالقة	٤٠٧ - ٤٤٩
« بنى زيرى بغرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
« بنى رزين بالسهلة	٤٠٢ - ٤٩٧

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٧ .

إمارة بنى القاسم بالفنت ؟ - ٤٨٥
« بنى الأفطس فى بطليوس ٤١٣ - ٤٨٧
« بنى ذى النون بطليطلة ٤٠٠ - ٤٧٨ أستولى عليها ألفونس السادس
« العامريين ببلنسية ؟ - ٤٩٥
« بنى هود بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب ٤١٠ - ٥٣٦ الزحف المسيحى

وأغلب ملوك الطوائف لايستحقون الذكر ، وأكثرهم جاء وليد الضعف أو المصادفات [1] ، وليس إلا بنو عباد ، هم الذين يستحقون أن نقف عندهم ونعدد ملوكهم ، فهم الذين حاولوا ضم الشعث وبعث الحياة من جديد فى الدولة المتجهة للأفول ، وهذا ثبت ملوكهم :

القاضى محمد (الأول) بن إسماعيل بن قريش بن عباد ٤١٤
عباد المعتضد بن محمد ٤٣٤
محمد (الثانى) المعتمد بن عباد ٤٦١ - ٤٨٤

وفتحها بعدذلك المرابطون كما فتحوا باقى الإمارات كما سنرى فيما بعد .

ومن الواضح أن أكثر إمارات الطوائف بدأت قبل سقوط الخلافة الأموية ، إذ أن هذه الخلافة كانت ابتداء من أول القرن الخامس الهجرى اسمية فقط ، ولم يكن لها سلطان يعتد به . وقد ادعى بعض الأمراء لأنفسهم « الخلافة » ، وادعوا تبعا لذلك ألقاب الخلفاء كالمعتضد والمعتمد [2]

أهم مظاهر عصر الطوائف :

يصور لنا Stanley Lane - Poole [3] هذا العصر تصويراً دقيقاً فيه عظة لمن يتعظ ، وفيه ضوء لمن يحب أن يعيش فى النور ونقتبس منه بضعة سطور، قال:

تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة فى الوقت الذى وحّد فيه ألفونس

(١) عن ملوك الطوائف اقرأ معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباور جـ ١ ص ٨٦ - ٩٢.
و Lane-poole : Muh Dynasties pp. 23-26,

(٢) عن ملوك الطوائف أقرأ العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٥ وما بعدها

(٣) The Arabs in Spain pp. 153–154.

السادس تحت إمرته أشعورياس وليون وقشتالة ، وقد عرف ألفونس ما يجب أن يفعله تمام المعرفة ، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يَمُدَّ حبله لملوك الطوائف مدا كافيا ليشنقوا به أنفسهم ، لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا في العواقب ، ولم يعنوا إلا بأنفسهم ، ولم يتركوا جهدا دون أن يبذلوه لإضعاف منافسيهم ، وكانوا يجثون عند قدمي ألفونس لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين ، وتقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونس بتقديم الإتاوات ، وكان ألفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته ، لأنها ثمن عطفه وحمايته ... وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونس ضد بعضهم البعض .

وكان ألفونس يقدم خطوطه في كل فرصة ، ويستولي على الحصون والقلاع واحدة إثر أخرى ، حتى وثب وثبة استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ وقد أحدث بوثبته هذه فزعا كبيراً في صفوف المسلمين بأسبانيا (١) .

وقد آذن ذلك بدعوة المرابطين لإنقاذ أسبانيا من الزحف المسيحي بعد أن عجز الأمراء عن أن يوحدوا صفوفهم ويتعاونوا على صد هذا العدوان .

---

(١) الأستاذ العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٧٢ .

المرابطون في الأندلس

اتجه ألفونس بعد طليطلة إلى النيل من مملكة بني عباد بإشبيلية ، فهي أكبر الممالك الإسلامية بالأندلس ، وسقوطها معناه سقوط غيرها بسرعة ، وأدرك المعتمد بن عباد ألا قبل له بالوقوف في وجه الزحف المسيحي ، وساءه ما آل له حال أمراء المسلمين بالأندلس ، فقرر الاستعانة بالمرابطين حكام الشمال الإفريقي (وسنتحدث عنهم فيما بعد) . ولما حذّره بعض أتباعه من نتيجة دعوة المرابطين للجزيرة الخضراء قال قولته الشهيرة : لأن أكون سائق جمال في صحراء إفريقية خير من أن أرعي الخنازير في قشتالة [1] ، وذلك موقف جدير بالثناء ، نسجله بالإجلال لهذا العاهل العظيم الذي عمل لخير بلاده ولم تشغله نفسه .

وكان أمير المرابطين آنذاك هو يوسف بن تاشفين الذى سارع بتلبيه نداء المسلمين ، فزحف إلى أسبانيا بجيوش جرارة ، وأوقع بألفونسو وجيشه فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ ، وكان ألفونسو وسط خمسين ألفا من جنده أبيدوا عن آخرهم ، ولم ينج ألفونسو وقلة من فرسانه لاتتجاوز خمسمائة إلا بشق الأنفس ، واسترد المسلمون بهذه الموقعة بلنسية وفكوا حصار سرقسطة وعادت لهم السيادة بالجزيرة الخضراء [2] .

وبعد هذا النصر عاد يوسف إلى شمالى افريقية ولم يترك بالأندلس إلا حامية صغيرة ، فتجدد هجوم النصارى ، وعاد ملك أشبيلية يطلب النجدة ، فقاد يوسف جيشه هذه المرة وهو ينوى الاستقرار بأسبانيا والقضاء على النفوذ المسيحى ونفوذ ملوك الطوائف جميعاً ، وتم له ما أراد ، وأصبحت الأندلس تابعة للمرابطين (وسيأتى ذكر ملوكهم عند الكلام عن شمالى إفريقية) .

وكان المعتمد يقصد أن يجنى ثمار كفاح المرابطين هذه المرة كما جنى ذلك فى المرة السابقة ، ولكن ابن تاشفين كان قد غيّر سياسته وجاء هذه المرة ليقيم

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٢ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٤٣ وابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٦ - ٢٧٧ ، وابن خلكان ٢ : ٤٨٢ وما بعدها .

بالأندلس ، فلما لم يُظهر له المعتمد الرضا والولاء نفاه إلى شمالى إفريقية حيث قضى باقى أيامه (١) .

الضعف يدب فى المرابطين :

إن صفات البطولة والحماسة التى امتاز بها المرابطون الذين زحفوا إلى الأندلس فى الطبقة الأولى من ملوكهم لم تتوافر فى الطبقة التالية لهم ، فقد مال الجيل الجديد إلى لين العيش ولذائذ الحياة ، فضعف أمرهم ، وبدأ الانحلال فى دولتهم ، وما إن وافت سنة ٥٤٠ حتى انتهى ملك المرابطين فى شمالى إفريقية والأندلس ، وعادت الأندلس إلى الأمارات والطوائف ، ولكن هذا العصر كان قصيراً هذه المرة أى فى المدة من ٥٣٨ إلى ٥٤٢ ، ثم تمَّ خضوع الأندلس للقوة الجديدة التى ورثت ملك المرابطين فى إفريقية وهى قوة الموحدين ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة ظهرت الإمارات التالية :

بنو مردانيش ببلنسية	٤٣٩ - ٥٥٥
حمدين بن محمد (بنى هود) بقرطبة	٥٣٨ - ٥٤١

كما ظهر ابن ميمون بقادس ، واللمتونى بغرناطة ، وغيرهم من صغار المتغلبين على المدن والمقاطعات .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة جـ٢ ص ٨٣ ، وابن خلكان جـ ص ٤٨٤ .

الموحدون فى الأندلس

تغلب الموحدون على المرابطين بشمالى إفريقية كما سيأتى فيما بعد ، وتم لهم النصر سنة ٥٤١ حيث سقطت مراكش فى أيديهم ، وسيأتى ذكر ملوكهم عند الكلام عن شمالى إفريقية ، ورأى الموحدون أن يرثوا ملك المرابطين بالأندلس كما ورثوه فى إفريقية فبدءوا حملاتهم لذلك ، وتم لهم النصر ، ومن أهم المعارك التى حقق فيها الموحدون انتصارا عظيما ضد المسيحيين معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ ، ولكن الموحدين عادوا فهزموا فى موقعة حصن العقاب سنة ٦٠٩ فهان بذلك أمرهم وتعرضوا لحملات المسيحيين والمنافسين من المسلمين ، حتى تبددت قوتهم وتركوا الأندلس سنة ٦٣٣ هـ ، ومما سبب انهيار سلطان الموحدين بسرعة فى الأندلس أنهم حكموها بنواب لهم ، ولم يتخذوها مركزا لسلطانهم ، وعسير أن تحكم بلاد الأندلس بهذه الصورة .

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ١٩٣ - ١٩٤ ، والمجمل للعبادى ص ١٨٤ - ١٨٥

الأندلس بعد الموحدين

ترك الموحدون الأندلس بعد هذه الهزيمة الحربية وبسبب كثرة المنافسين من المسلمين ، وما إن جلا الموحدون عن الأندلس حتى تعرضت الإمارات والمدن الإسلامية لزحف سريع لم يكن يتوقف إلا ليستعد لجولة أخرى ؛ وفى خلال سنين قليلة اكتسح المسيحيون أكثر البقاع الإسلامية ، فاحتل فرديناند الثالث ملك قشتالة وجايم الأول ملك أرجوان مدن بلنسية وقرطبة ومرسية سنة ٦٣٦ ومدينة إشبيلية سنة ٦٤٦ وأصبح ملك المسلمين محصورا فى مقاطعة غرناطة ، وهى الرقعة التى تقع بين جبال نيفادا التى يسميها العرب جبال الثلوج وبين ساحل البحر المتوسط .

وفى أغلب هذه المنطقة أعلن ابن هود نفسه حاكما سنة ٦٣٣ واتخذ مرسية عاصمة له ، ولكن دولته كانت قصيرة العمر فقد قضى نحبه سنة ٦٣٦ فى نفس العام الذى سقطت فيه عاصمته وتحول حكم الأندلس إلى بنى نصر أمراء غرناطة [١] .

بنو الأحمر فى غرناطة ولماذا طال ملكهم :

بدأ ملك غرناطة سنة ٦٣٦ واستمر بعد ذلك قرنين ونصف قرن ، وهى مدة أطول مما كان ينتظر ، ومرجع طولها أن القوى قد تجمعت فيها فلم تعد هناك طوائف وقوى مشتتة يهدم بعضها بعضاً ، ثم إن الجنود الأشداء من المسلمين هرعوا إلى غرناطة من الممالك الإسلامية التى هوت ليقدموا سواعدهم وسيوفهم لخدمة الجزء الباقى للمسلمين بهذه البلاد ، وكان ابن الأحمر رجلا بصيراً بالأمر أحسن سياسة رعيته وتفانى فى خدمة مملكته ، وساعد بنو مرين ملوك مراكش الجدد بنى الأحمر فى صراعهم ضد المسيحيين مما أطال عمر المسلمين بالأندلس ، هذا إلى أن انشغال ملوك الفرنجة بتنظيم ما فتحوه شغلهم حينا عن السير فى فتوحات جديدة .

وفيما يلى أسماء ملوك بنى الأحمر :

(١) عن بنى هود ملوك سرقطة اقر العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ١٦٨ .

محمد (الأول) الغالب	٦٢٩
محمد (الثانى) بن محمد الأول	٦٧١
محمد (الثالث) بن محمد الثانى	٧٠١
نصر بن محمد الثانى	٧٠٨
إسماعيل (الأول) بن فرج	٧١٣
محمد (الرابع) بن إسماعيل	٧٢٥
يوسف (الأول) بن إسماعيل	٧٣٣
محمد (الخامس) بن يوسف	٧٥٥
إسماعيل (الثانى) بن يوسف	٧٦٠
محمد (السادس) بن إسماعيل	٧٦١
محمد (الخامس) [للمرة الثانية]	٧٦٣
يوسف (الثانى) بن محمد الخامس	٧٩٣
محمد (السابع) بن يوسف الثانى	٧٩٧
يوسف (الثالث) بن يوسف الثانى	٨١٠
محمد (الثامن) بن يوسف الثالث	٨٢٠
محمد (التاسع) بن نصر	٨٣١
محمد (الثامن) [للمرة الثانية]	٨٣٣
يوسف (الرابع) بن محمد السادس	٨٣٥
محمد (الثامن) [للمرة الثالثة]	٨٣٥
محمد (العاشر) بن عثمان	٨٤٨
سعد بن على	٨٤٩
محمد (العاشر) [للمرة الثانية]	٨٥٠
سعد بن على [للمرة الثانية]	٨٥٧
أبو الحسن على بن سعد	٨٦٦
أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) بن على	٨٨٧
أبو الحسن على [للمرة الثانية]	٨٨٨
محمد (الثانى عشر) بن سعد (المعروف بالزغل)	٨٩٠

أبو عبد الله محمد الخائن (للمرة الثانية) ٨٩٢ - ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م

الحاكم الخائن :

مخزاة أبى عبد الله آخر حكام المسلمين بالأندلس جديرة بالحسرة والأسف فقد باع هذا الرجل كل المثل من أجل أطماع شخصية ، حارب أباه من أجل الملك لأنه أحسَّ أن الأب (أبو الحسن على بن سعد) يؤثر أخاه (محمد بن سعد المعروف بالزغل) عليه ، وهكذا قام نزاع دام مات على أثره أبو الحسن همًّا وكمدا ، فلما تولى أخوه محمد بن سعد ، تعاون أبو عبد الله مع فرديناند وإيزابلا لإسقاطه ، وكانت جيوش أبى عبد الله تتصدَّى لجيوش عمه كلما اتجهت هذه الجيوش للدفاع عن حصون المسلمين وبلادهم ؛ فلما تم النصر للمسيحيين ضد الزغل ارتكب هذا الأحمق أبشع ألوان حماقاته حينما بعث يهنئ فرديناند بالنصر .

ولكن فرديناند استدار إليه وهاجمه وسلب منه ممتلكاته ، وسلم هذا الخائن مفاتيح آخر مدينة إسلامية بالأندلس لفرديناند ، وأخذ يبكى ملكا أضاعه بخيانته التى لاينساها له التاريخ ، وهاجر هذا الخائن إلى إفريقية حيث أخذ يعيش على السؤال والاستجداء .

الممالك المسيحية التى قاومت المسلمين بأسبانيا

قلنا فيما سبق إن المسلمين لم يكملوا فتح الأندلس ، وأن المساحة الشاسعة الغنية التى خضعت لهم أغرتهم بالاستقرار دون أن يواصلوا الزحف ليسيطروا على شبه الجزيرة كلها ، وعلى هذا تركوا فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة جزءاً قاحلا وعرا شديد البرودة دون أن يدركوا ما يمكن أن يكون لهذا الجزء من خطر .

وفى هذا الجزء لجأت الجماعات المسيحية التى لم تشأ أن تدخل الإسلام ، أو تتعاون مع المسلمين ، والتفت هذه الجماعات حول زعيم يسمى « بلايو » واتخذ هؤلاء من جبال « استورياس » كثيرة المغارات والكهوف حصناً لهم ، ولما أدركوا غفلة المسلمين عنهم استطاعوا أن يكوّنوا لهم فى القرن الثامن الميلادى أول مملكة مسيحية فى العهد الإسلامى هى مملكة « جليقية » وكانت هذه المملكة أساس القُوى التى باشرت الصراع ضد المسلمين ، مستعملة سلاح خديعة المسلمين من جانب ، والمثابرة على الكفاح من جانب آخر .

وكانت هناك جماعات أخرى من الثائرين تلتقى مع الجماعة السابقة فى هدفها ، ولكنها لاتخضع لنفس الزعامة ، وقد انتهزت هذه الجماعة فرص النجاح التى أدت إلى تكوين مملكة « جليقية » فجمعت صفوفها ، وكونت مملكة مسيحية ثانية إلى الشرق من « جليقية » اسمها مملكة « نابرا » وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .

واتجه المسلمون إلى الشرق ، إلى فرنسا وإلى أوربا ، وانتصروا وفشلوا فى زحفهم الجديد ، فهيأ ذلك الوضع الفرص لمساحات جديدة يجلو عنها المسلمون فى الشمال الغربى ، بسبب أو آخر ، فلما جاء القرن العاشر الميلادى تكونت بهذه النواحى مملكتان أخريان هما مملكة « كاستيليا » و « أراجون » .

وفى القرن الحادى عشر ظهرت مملكة البرتغال فى المنطقة الغربية من شبه الجزيرة.

والذى يلاحظ الخريطة يدرك أن المناطق المسيحية الأسبانية بذلك أصبحت

تكون قوسا حول المسلمين من الشمال والغرب وأن الجيوش الأوروبية كانت تواجههم في الشرق ، مما يمكن معه أن يتصور الباحث أن المسلمين أصبحوا بين شقي الرحا أو فكي الكماشة كما يقولون في الاصطلاح الحديث ، وكان هذا أساس ما لحق بالمسلمين من هزائم على مر الزمن ، فقد كانت قوى الأعداء تحيط بهم متفتحة العيون مترقبة الأحداث مستعدة للزحف كلما دب خلاف في الداخل، أو مستعدة لتمنح السلاح لأحد الطرفين المتحاربين من المسلمين ، أو لكلا الطرفين لتجني فيما بعد ثمار انتصارات المنتصر .

ولم تكن الممالك المسيحية متحابة دائماً ، بل كانت يدب بينها عداء أحيانا وتعاون أحياناً أخرى ، ومن هنا شهدت هذه العصور حركات تداخل وانقسامات بين هذه الممالك فكانت تتجمع فيقل عددها في بعض الفترات وينجح الشقاق فيزيد عددها في فترات أخرى ، ولكنها في جميع الأحوال كانت شديدة العداء للمسلمين .

وفي القرن الخامس عشر ، كانت أعظم دول أسبانيا المسيحية هي مملكتيْ « أراجون » التي يحكمها « فرديناند » ومملكة « كاستيليا » التي تحكمها الملكة « إيزابيلا» وقد تزوج الملك من الملكة فتوحدت المملكتان والقوتان ، واستطاعت المملكة الجديدة أن تستولي على غرناطة منتهزة خيانة حاكمها الخائن الذي تحدثنا عنه من قبل ، وكان ذلك في سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م.

مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة :

كان من شروط التسليم أن تظل للمسلمين حريتهم الدينية وأملاكهم ، على أن يصبحوا من رعايا الحكومة الأسبانية المسيحية ، وقد رعت الحكومة الأسبانية بهذا الوعد عددا من السنين يصل إلى أصابع اليدين ، ثم بدأ الاضطهاد المرير ، يحثُّ عليه رجال الدين ، وينفذه رجال السياسة ، ووصل هذا الاضطهاد إلى القسر على التنصُّر ، والتهديد بالنفى والرقّ والقتل ، واندفعت محاكم التفتيش فى أعمالها الوحشية اندفاعا قاسيا ، مما أرغم كثيرين من المسلمين على التنصر أو الهجرة إلى الشمال الإفريقى وإلى مصر .

وقد بدأ فرديناند نفسه هذا السلوك التعسفى ، وحنث فى الإيمان والعهود التى قطعها على نفسه ، وقد بلغ من ظلمه فى معاملة المسلمين أنه كان يحرق بعضهم ، ويصادر أموالهم ، ويتتبعهم بالأذى والعذاب فى كل مكان .

على أن هذه الوحشية بلغت مداها فى عهد فيليب الثالث (١٦٠٩ - ١٦١٤) الذى وضع الأساس للقضاء على الإسلام فى أسبانيا تماما ، ولما تمسك عدد كبير من السكان بالإسلام يقدره بعض المؤلفين [1] بخمسة ملايين ، استولى هذا الملك على أموالهم وطردهم بصورة غير إنسانية وبمهلة لم تزد على ثلاثة أيام ، وكثيرون منهم لم يصلوا إلى الشاطئ الآخر وابتلعهم اليمُّ ، مما أثار بعض العطف من قلة قليلة من الأسبان كانت لها قلوب وضمائر .

وهكذا اختفى الوجود الإسلامى من أسبانيا فى مطلع القرن السابع عشر ، وربما كانت هناك قلة قليلة بقيت مسلمة فى الخفاء ، ولكن أبناء هؤلاء وأحفادهم نشأوا لايعرفون إلا المسيحية دينا ، والأسبانية لغة وإن كانت الملامح العربية فرضت نفسها على الأسبان بما لا يحتمل الزوال .

وهناك حقيقة سمعتها من الأسبان إبان زيارتى لأسبانيا فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ هى أن أكثر زوجات الأمراء والجنود المسلمين الأول كن من الأسبانيات

---

(١) دكتور أحمد هيكل : موجز عن أسبانيا ص ١٢ .

وكذلك كانت أكثر زوجات الأمراء والعظماء فى العصور المختلفة ، ونتيجة هذا هى أن الأجيال المتأخرة من المسلمين كان يتضح بها الدم الأسبانى ، ويقول هؤلاء : إن الأسبان المسيحيين طردوا الأسبان المسلمين فالصراع كان فى الحقيقة بين دينين ولم يكن بين شعبين أو بين جنسين .

كلمة عن معاهدة تسليم غرناطة :

كتبت المعاهدة باللغة القشتالية ، وتقع فى سبع ورقات بها سبعة وستون بنداً ، وهى مذيلة بتوقيعات تصل إلى عشرين توقيعا من بينها توقيع الملك الخائن أبى عبد الله ووزرائه وكذلك توقيعات الملكين الكاثوليكيين ، وذيلت المعاهدة بضمان الملكين وقسمها بدينها وشرفهما الملكى على تنفيذ كل ماورد بالمعاهدة من بنود ، والمحافظة على ما بها من امتيازات لأهل غرناطة .

قوة غرناطة عند توقيع المعاهدة :

ويؤكد التاريخ أن غرناطة عندما وقّعت هذه المعاهدة لم تكن على حافة السقوط ، وإنما كانت لاتزال بها قوة ومقدرة على مقاتلة العدو ، وكان الجانب الأسبانى يدرك بوضوح هذه الحقيقة ولذلك قام بعدة حيَل للوصول إلى هذه المعاهدة ، ومن أكبر حيلهم ضغطهم المتصل على الملكُ الصغير أبى عبد الله الخائن بأن جعلوه يحس بأن لا أمل فى المقاومة مع أن القوة خلفه كانت لاتزال عميقة وصارخة ، ولكن الملك تخلى عن الأبطال وانهار ، وقنع بما أكده له الأسبان من حياة طيبة بعد المعاهدة .

وتقرر الدراسة حول هذه الفترة أن غرناطة لو أتيح لها ملك غير هذا الملك ، وقيادة رشيدة كانت تستطيع أن تؤجل التسليم قرنا على الأقل ، ومن أجل هذا يسجل التاريخ أن النساء والرجال فى غرناطة قد بالغوا فى النحيب عندما كانت الأمور تسير لتوقيع هذه المعاهدة والاستسلام .

وكان من نتائج إحساس أهل غرناطة بالقوة أن أشعلوا عدة ثورات بعد توقيع هذه المعاهدة ، ولكن الملك الخائن كان يعارض هذه الثورات مما قلل من قدرها

ونتائجها .

ما أهم بنود هذه المعاهدة ؟ :

أهم بنود هذه المعاهدة ما يلى :

أولاً : أن يسلم أهل غرناطة طواعية واختيارا خلال ستين يوماً من تاريخ إبرام المعاهدة قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين.

ثانياً : لا يأتى أولئك الذين يتسلمون غرناطة من الواجهة وإنما عليهم أن يدخلوا من الأبواب الجانبية وهذا يدل على قوة المسلمين .

ثالثاً : يتعهد الملكان الكاثوليكيان وخلفاؤهما إلى الأبد بأن يترك الملك والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم ، وأن تظل لهم مساجدهم ومعابدهم وممتلكاتهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كاملة وأن يكون لهم حق الاحتفاظ بتقاليدهم وعوائدهم .

رابعاً : اهتم الجانب الإسلامى بأن يسجل حقوق رعايا المسلمين فألزم الملكين الكاثوليكيين بسلامة اليهود والبيازين وممتلكات هؤلاء .

ماذا حدث بعد هذه المعاهدة ؟

لم تكن هذه المعاهدة إلا حبرا على ورق كما يقولون فما إن تمّ التسليم وتوقيع المعاهدة حتى بدأ الجانب الكاثوليكى فى خرق بنودها ، فقد انتهكوا حرمة جامع غرناطة الكبير وأقاموا فيه قداسا ، ورقصوا فيه وشربوا الخمور ، وتوالت بعد ذلك الانتهاكات على يد فرديناند وخلفائه ، ثم صدر المرسوم المشهور بالتخلص من مسلمى الأندلس نهائياً بالحرق أو الإغراق ، أو الطرد إلى شواطئ المغرب ، وأصبحت هذه المعاهدة توصم بأنها معاهدة الذل ، وكان من أشنع ما أقدم عليه رجال الدين المسيحى بقيادة الحبر الأعظم أن يشعلوا النيران ويلقوا فيها

المسلمين، وقد بلغ من فجورهم أنهم كانوا يحضرون أهل الذين سيحرقون ليشهدوا فجيعة إحراق ذويهم ، وكان الحبر الأعظم يذكر لأهل المحروقين أن هذه النيران ستطهرهم من الذنوب ، وكلما كان الإحراق بطيئا وقاسيا كان التطهير فى نظره أدق وأكمل ، وكان يتعرض للإحراق كل من يضبط وهو يصلى أو يتهم بأنه قال لا إله إلا الله ، أو قام بأية شعيرة إسلامية .

هذه صورة من صور العناء التى لقيها المسلمون فى الأندلس والتى تلقاها كل جماعة تتصارع فيما بينها وتنسى العدو الذى يتحين الفرص للقضاء على الجميع .

الحضارة الإسلامية بالأندلس

رجالهـا :

تدين الحضارة الإسلاميه بالاندلس إلى مجموعتين كبيرتين من الناس ، إحداهما مجموعـة العرب والمفكرين الذين نزحوا للأندلس عقب موجة الفتح أو بعده ، وطبيعى أن هذه البلاد الخضراء الخصبة اجتذبت لها كثيرين من هؤلاء ، وساعد على ذلك ما كان يقدمة أمراء الأندلس من صور الترحيب والتكريم لهؤلاء الوافدين لينافسوا بهم قصور الشرق وحضارته . والمجموعة الثانية نشأت بالأندلس وكثيراً ما كانت نتيجة المصاهرة والارتباط بالشعب الأسبانى ؛ وكان لهذه المجموعة – كما يقول الدكتور ضيف [1] « نزعة عقلية جديدة ومميزات وصفات خاصة ليست للعرب الخلص » .

أنواع الحضارة الإسلامية :

اتجهت الحضارة الإسلامية بالأندلس عدة اتجاهات ، وشملت أكثر ألوان المعارف أو كلها ، ويمكن على العموم أن نقسمها قسمين هما :

الحضارة الفكرية والحضارة العمرانية ، وسنتكلم عن كل منهما فيما يلى :

الحضارة الفكرية

تشمل الحضارة الفكرية ألوان التفوق الفكرى التى انتعشت بالأندلس ، وازدهرت ، وسنخص كلا من هذه الألوان بكلمة :

العلوم الشرعية :

اهتم أمراء الأندلس وحكامها بالعلوم الشرعية اهتماما كبيراً فالإسلام دين ودولة ؛ ومعنى هذا أنه ينظم الأمور الدينية من توحيد إلى بعث وحساب ... كما ينظم حياة المجتمع من سياسة واقتصاد وزواج وطلاق ووصية وميراث وبيع

(١) بلاغة العرب فى الأندلس ص ١٠

وشراء ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بالفقة لدراسة هذه الاتجاهات ، وفى جو المنافسة بين بغداد وقرطبة اتجهت قرطبة إلى مذهب مالك حتى لاتحتضن مذهب أبى حنيفة الذى كان مذهب العباسيين ، وأول من عمل على نشر مذهب مالك بالأندلس زياد بن عبد الرحمن اللخمى ، فتغلب به على مذهب الأوزاعى الذى كان منتشراً من قبل ، على أن الفضل فى تثبيت مذهب مالك يرجع إلى يحيى الليثى بن يحيى الذى كان يترفع عن الوظائف ، ولكنه يضع فيها أتباعه ومريديه حتى سيطر على جهاز الدولة وأصبح له فيه نفوذ كبير ، حتى عرف عهد هشام بن عبد الرحمن بعهد نفوذ الفقهاء كما شرحنا من قبل [1] .

ومن فقهاء الأندلس المشهورين أبو بكر بن القوطية الذى اشتهر بالفقة والتاريخ ، ومع مذهب مالك وجدت بالأندلس مذاهب أخرى ولكنها لم تصل إلى نفوذ مذهب مالك وانتشاره ، ومن الفقهاء الشافعية عثمان بن أبى سعيد الكنانى وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس ، ومن فقهاء الظاهرية منذر بن سعيد البلوطى.

ومن العلماء الأندلسيين ذائعى الصيت فى الدراسات الإسلامية ابن حزم (على بن أحمد) مؤلف الإحكام فى أصول الأحكام ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل ، والمحلى ، ولاتزال كتبه مراجع مهمة للباحثين ، وبخاصة كتاب الفصل « الذى بسط فيه القول فى تاريخ العقائد ، وهو علم لم تعرفه أوربا إلا فى القرن التاسع عشر [2] » .

ونبغ فى القراءات بالأندلس أبو القاسم الشاطبى وقد عاش فى شاطبة ، ولها نُسب ، وعاش كذلك فى بلنسية ، ثم انتقل إلى مصر واستوطنها وبعد بها صيته ، وأصبحت منظومته فى علوم القراءات مرجعا لكثيرين من المشتغلين بهذه الدراسة .

---

(١) انظر جذوة المقتبس ص ٦٠

(٢) دكتور لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٤٢

العلوم الفلسفية :

مرت الفلسفة في الأندلس بعصور قوة وعصور ضعف ، فقد كانت تسير قدماً أحيانا فيحقق الفلاسفة ألوانا من الفكر الراقى ، وكان الفقهاء أحيانا يثورون ضدها ، وتنجح ثوراتهم فتصاب الفلسفة بنكسة مدمرة ، فتحرق كتبها ويؤذى أعلامها ، ويعتبر عصر الخليفة المستنصر عصر نهضة للفكر الفلسفى ، فقد قرّب الفلاسفة مع من قرب من العلماء ، وحشد فى مكتبته الشهيرة أكثر المصنفات الفلسفية ، فلما جاء عهد ابنه هشام المجد المنصور بن أبى عامر الذى كانت له الوصاية على الخليفة القاصر اتجاها مخالفا لاتجاه المستنصر ، فأحرق كتب الفلسفة وتخلص منها وَعَدّ المشتغلون بها من الزنادقة والملحدين .

على أن الأندلس تزهو بأنها أنجبت مجموعة من أساطين الفلاسفة فى قمتهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد [1] ، وكل من هؤلاء يعتبر رائدا فى ميدان من ميادين الفلسفة والفكر سار على منواله كثيرون فى الشرق والغرب كما سنرى فيما بعد .

العلوم العقلية :

نهضت الأندلس نهضة كبرى فى رعايتها للعلوم العقلية من طب إلى موسيقى ورياضة وفلك وكيمياء وغيرها ، ومن علماء الأندلس فى هذا المجال عباس بن فرناس ويمكن أن نقول عنه إنه سبق عصره بفترة طويلة ، فقد رأى أن يطير كالطائر ، واتخذ العدة لذلك ، وكسا نفسه بريش طويل ، ومدّ له ذراعين بريش متفرع كالجناحين ، وطار فعلا فى الجو مسافة طويلة ، ولكنه نسى أن يعمل له ما يشبه الذنب ، وعلى كل حال فقد كانت محاولة بارعة سابقة لأوانها ، واشتغل عباس هذا أيضاً بالكيمياء وبالفلك ، وكان أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة .

---

(١) اقرأ عن هؤلاء الإعلام فى كتابنا « الفكر الإسلامى : متابعة آثاره » ١٥٦ - ١٧٨ (الطبعة السابعة) .

ومن علماء الفلك المشهورين إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقيالى ويسميه الغربيون Azarchel وهو الذى قدر فترة خسوف الشمس وحدد مدتها ، وابتكر إسطرلابا حديثا حدد به البعد بين المجموعة الشمسية والنجوم ، وكذلك البعد بين الأرض والقمر ، ومما يذكر أن الأبحاث الحديثة بيَّنت أن الفرق ضئيل جداً بين ما وصل إليه الزرقيالى وبين ما وصل له العلم الحديث [1] .

ونبغ فى الطب بالأندلس مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، ومن هؤلاء أحمد بن إياس من أهل قرطبة وهو الذى تمهر فى علم الأدوية حتى ضبط منها مالم يضبطه أحد فى عصره ، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريوس وكتاب جالينوس ورتَّبه أحسن ترتيب [2] .

وممن اشتهر بالطب بنو زهر من أعيان إشبيلية ، وقد توارثوا هذا العلم جيلا بعد جيل ، وأولهم أبو مروان عبد الملك وسار على نهجه ابنه أبو العلاء وحفيده أبو مروان .

واشتهر من نساء الأندلس بالطب أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى ، وكانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف ، أجادت عدة علوم مع الطب ولكنها فى الطب كانت أبرز وأشهر [3] ، واشتهرت كذلك بالطب أخت الحفيد ابن زهر وابنتها ، فكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولايقبل لمداواة أهل المنصور سواهما [4] .

وقد سبق أن قلنا إن الأطباء المسلمين كانوا يباشرون الطب فى بلاط ملوك المسيحيين ، وقد استجاب عبد الرحمن الناصر لرجاء ملك نافار فأرسل له طبيبا عالجه من السمنة المفرطة التى كان يعانيها .

---

(١) الفكر الإسلامى : منابعة وآثارة وتأليف M. Sharif ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص ١٠٧

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء جـ ٢ ص ٤٩

(٣) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة جـ ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء جـ ٢ ص ٧٠

الموسيقى والفن :

يعتبر عهد عبد الرحمن الأوسط - كما قلنا من قبل - برقى واضح فى الحضارة الإسلامية بالأندلس ، وبخاصة فى مجال الموسيقى والغناء وفى تنظيم الأزياء وتقنين الآداب الخاصة بالموائد والحفلات والأثاث وما ماثلها ، ويرتبط كل هذا برجل شهير هو الحسن بن نافع ولقبه « زَرْياب » وقد تحدثنا عنه من قبل .

اللغة العربية وآدابها :

كانت اللغة العربية وسيلة ، وكانت غاية ، كانت الوسيلة التى نُشرت بها العلوم والمعارف ، فأقبل عليها الأندلسيون مسلمين وغير مسلمين يتعلمونها ويجيدونها ، وأهملوا لغتهم الأصلية كما سنرى فيما بعد ، وكانت غاية ؛ فآدابها الرفيعة كانت متعة ولذة تهزُّ النفس وتختلط بالوجدان ، ولنسر مع اللغة لنراها وسيلة ونراها غاية .

وقد برع فى اللغة العربية وعلومها كثير من رجال الأندلس ، وطبقت شهرتهم الآفاق وانتهت اليهم الرياسة أحيانا فى اللسان العربى متنا وقواعد ، ومن هؤلاء ابن سيده صاحب المخصص والمحكم ، وابن مالك صاحب الألفية التى لقيت فى الشرق والغرب كل الاهتمام من الشيوخ والطلاب ، وكان حفظها ودراستها هدفاً للراغبين فى التفوق والبراعة فى اللغة ، وهى من المؤلفات القليلة التى مرت القرون عليها دون أن تنال منها ، بل كانت دائما موضع التقدير والإقبال حتى القرن الذى نعيش فيه ، ومن أئمة اللغة الأندلسيين كذلك ابن خروف وابن الحاج الذى برع فى لسان العرب وفى العروض ، وأبو على الإشبيلى المعروف بالشلوبين ، وأبو الحسن ابن عصفور وأبو حيان الغرناطى .

وبفضل جهود هؤلاء الأئمة ، وبسبب ما للغة العربية من جمال وسحر انتشرت هذه اللغة انتشارا واسعا فى أسبانيا حتى أصبحت لغة الناس جميعا ،

ويقول Dozy [1] فى ذلك :

هجر أهلُ أسبانيا اللغة اللاتينيةَ ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، وكانوا لايكتبون بغيرها حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر العربى والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ، ولايكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية ، وكل شبابنا الأذكياء لايعرفون غير لغة العرب وآدابها ، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على هذه الكتب إلى الإعجاب بآداب اللغة العربية ، فإذا حدَّثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لاتستحق عناية قارئ أو مستفيد ، ومن أجل ذلك نسى المسحيون لغتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية ، أما إذا أرادوا أن يكتبوا باللغة العربية فإن كثيرا منهم يكتبون بعبارات بليغة وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك حتى فى الشعر ونظم القوافى .

ويقول Nichelson [2] .

وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لتلاميذه ، فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل لنشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلاً فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٦٥م . ويقول « كوند » أن أدب أهل أسبانيا مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به ، ولاشك أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعارفهم الفلسفية ....

---

(١) History of The Arabs in Spain p. 103

(٢) A Literary History of the Arabs p. 176.

أما الكتاب والشعراء الأندلسيون فأكثر من أن يحصيهم عد ، ومن الكتاب المشاهير :

ابن عبد ربه	مؤلف	العقد الفريد .
ابن بسام	«	الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
الفتح بن خاقان	«	كتاب القلائد .
الحجارى	«	المسهب فى فضائل المغرب .
أبو عامر بن شهيد	«	التوابع والزوابع .
الحميد	«	جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس .
الضبى	«	بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس .
ابن الخطيب	«	الإحاطة فى أخبار غرناطة .

ومن الشعراء الممتازين :

يحيى الغزال ، وابن هانئ ، وابن الخطيب ، وابن زيدون ، والمعتمد ابن عباد ، والوزير ابن عمار ، وابن خفاجة ، وابن حمديس ، وكثيرون غيرهم .

وفى الأندلس ظهرت الموشحات والأزجال ، وكان لها طابعها وسحرها وجمالها .

الحضارة العمرانية

تنوعت نواحي العمران التى عُنىَ بها المسلمون بالأندلس ، ففى التجارة عنوا بالطرق والجسور والأسواق ، وفى الزراعة كانت عنايتهم كبيرة ؛ فقد أدخلوا نظام الرى الذى لم يصل الأسبانيون إلى مثله من قبل ، وشقوا الأنهار وحفروا الترع وأجروا الخلجان ، وفى بلنسية وصلوا الترع بجبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة ، وبنو القناطر على الترع لحجز المياه حتى يرتفع الماء أمام القنطرة فيسقى الأماكن المرتفعة ، وكانت دورة الزراعة بذلك ثلاثية فى أمكنة كثيرة من أسبانيا (١) ، ولكن أروع نواحى عمرانهم بدت فى المنشآت البنائية من مدن وقصور ومساجد وقلاع وغيرها ، ولا تزال آثارها ناطقة بالروعة والتفوق وستظل كذلك عدة قرون أخرى ، ومن المفاخر العمرانية التى شيدها المسلمون بالأندلس جامع قرطبة ، ومدينة الزهراء ضاحية قرطبة ، وقصر الجعفرية فى سرقسطة (٢) ، وسور طليطلة ، وقصر المأمون ابن ذى النون بها ، والمسجد الجامع بإشبيلية ، وقصر الحمراء بغرناطة ، وسنخص بالتفصيل قرطبة وغرناطة كنموذجين للفن العمرانى الذى اهتم به أمراء الأندلس :

---

(١) Stanely Lane poole : the Arabs in Spain p. 117. (وانظر التعليق بالهامش)

(٢) فى هذا القصر يقول منشئه أحمد المقتدر بالله :

قصر السرور ومجلس الذهب ... بكما بلغت نهـاية الأرب

لو لم يحـز ملكى خلالكما ... كـانت لدى كفـاية الطـلب

والشعر يدل على جلال القصر وفخامة مجلس الذهب ، وإن دل كذلك على ضعف الهمة والخنوع.



(أحد أبواب مدينة طليطلة)

قرطبة

كانت قرطبة عاصمة الأندلس قبل دخول الإسلام ، وقد اتخذها بنو أمية عاصمة لهم لاتساع شوراعها ، وهوائها المعتدل ، ونهرها العظيم وخصوبة بقعتها ، ثم لتوسطها بين الشرق والغرب (١) .

غير أن المسلمين أكسبوا المدينة رونقا جديدا ، وقد بدأ ذلك منذ عهد السمح ابن مالك الذى بنى القنطرة الفخمة على نهر الوادى الكبير ، وقد جددها هشام ابن عبد الرحمن الداخل كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

واتخذ عبد الرحمن قصر قرطبة القديم مقرا له بعد أن زينه وجمّله بأحسن زينة ، ولكنه سرعان ما بنى قصر الرصافة الذى سبق أن تحدثنا عنه وأحاطه بالبساتين الواسعة والرياض الفينانة التى نقل لها كثيرا من أشجار الشرق ونباته ، ثم توالى بقرطبة بناء القصور الفخمة ذات المناظر الخلابة والجنان الفاتنة ، ومن هذه القصور : الكامل والمجدّد والروضة والزُّهْد والمعشوق والمبارك ، والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع ، ويقال إنه كان بها خمسون ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وفى قمتها قصر الدمشق الذى نمقت ساحاته وفناؤه وحاكى به الأمويون قصورهم بدمشق ، وفيه يقول ابن عمار :

كل قصر بعد الدمشق يُذَمُّ   فيه طاب الجَنَى ولذَّ المشمُّ

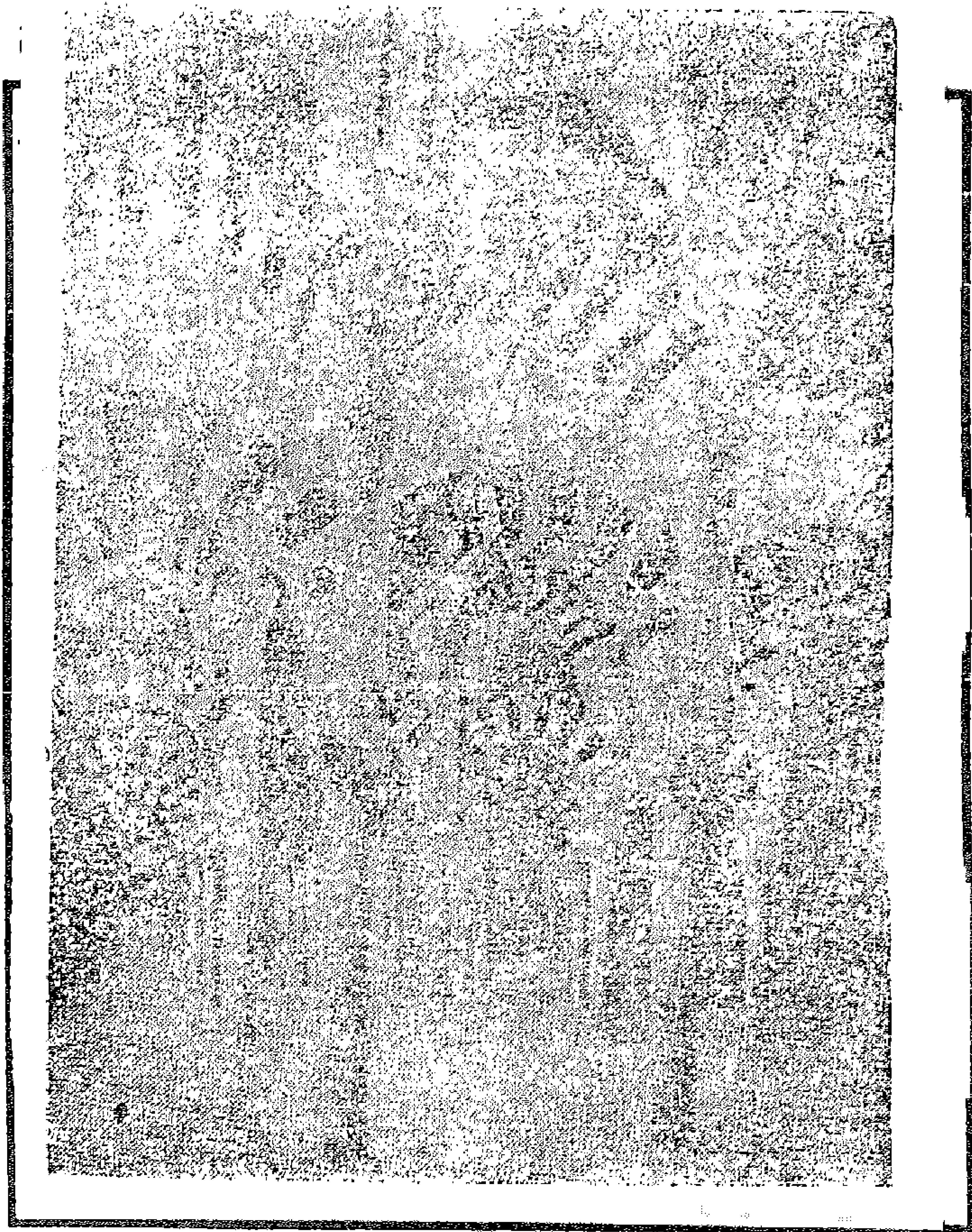
منظر رائق وماء نمير   وثرى عاطر وقصر أشمُّ (٢)

ومن مفاخر قرطبة المسجد الجامع الذى بدأه عبد الرحمن الداخل ، وأتمه ابنه هشام ، وتعهده الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة حتى صار من أجمل المساجد فى العالم وأكثرها روعة .

---

(١) المقرى : نفح أطيب جـ١ ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، والعرب فى أسبانيا ص ١١٩.



جامع قرطبة من الداخل

وتظهر أعمدته الكثيرة الفخمة

وينقل ابن الشباط [1] وصف مدينة قرطبة من « اختصار اقتباس الأنوار » وهو كما يلى : « قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المداين ومستقر الخلافة ، ودار الإمارة ، كان فيها الخلفاء من بنى أمية ، وآثارهم بها ظاهرة ، وأبنيتهم فيها وفيما جاورها بينة ، وفيها الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجمل مصانع الدنيا كِبَرَ مساحة . وإحكامَ صناعة ، وجمال هيئة ، اهتمَّ به الخلفاء من بنى أمية فزادوا فيه زيادة حتى بلغ الغاية فى الإتقان ، واستولى على أمد الإحسان ، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف .

« وقرطبة على نهر كبير ، فوهته بجبل شقورة [2] ، ويمر النهر على قرطبة وتصب فيه تحت قرطبة أودية ، ثم يمر إلى اشبيلية ، وعليه قنطرة عظيمة حصينة من أجمل البنيان قدراً وأعظمه خطراً ، وهى من الجامع فى قبليّه وبالقرب منه ، وانتظم بها الشكل إلى الشكل ، وجاءت كالفرع لذلك الأصل .

« ولما كانت قرطبة على الصفة التى ذكرناها محل الإمارة ومستقر الخلافة ، كثر بها العلم والعلماء ، واستقر بها النبلاء والفضلاء ، وصارت دار الهجرة للعلم . ومكان الرحلة لأولى الفهم ، وكان مَنْ بها من الخلفاء رضى الله عنهم يقيمون همم العلماء ويكْبرون من يولونُه خطة القضاء ، ويختارون للخطة أهليها ، ويوفونهم حقوقهم فيها ، فكان للقضاء بها المنزلة العالية والرتبة

---

(١) تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (نصان جديدان) تحقيق الدكتور مختار العبادى ص ١٤١ و ١٤٢ .

(١) جبل شقورة Sierra de Segnura سلسلة من الجبال الضخمة المرتفعة المغطاة بالغابات والمراعى وبعض النباتات والورود . ويشير الكتاب العرب إلى أنه فى قلب هذه المنطقة الجبلية كانت توجد مدينة حصينة تسمى شقورة أيضاً ، وكانت قاعدة لامارة بعض حكام المسلمين أمثال إبراهيم بن همشك أواخر أيام المرابطين . ومن المنحدرات والسفوح الشرقية لهذه الجبال ينبع نهر شقورة أو النهر الأبيض الذى يروى مدينة مرسية واوريوله orihuela شرقى أسبانيا ويصب فى البحر الأبيض المتوسط .

والجدير بالذكر أنه من نفس جبال شقورة السالفة الذكر ينبع أيضاً نهر الوادى الكبير الذى يمر بقرطبة واشبيليه (من هامش للمحقق الدكتور مختار العبادى ص ١٤٢) .

السامية ، وكان الخلفاء منقادين لأحكامهم ، منفِّذين لها نقضهم وإبرامهم ، مع ما خُصَّ به أهل قرطبة من علو الهمة ، واجتماع الكلمة ، وتجمُّعهم على الحقائق واتباعُهم لأحسن الطرائق ، فصارت لهم بذلك النجدة والعزة ، وجازوا أعلى المنازل والرفعة » .

المؤتمر الإسلامى المسيحى بقرطبة :

وقد أتيح لى أن أزور قرطبة أكثر من مرة ، ومن أبرز الزيارات وأطولها تلك الزيارة التى كنت فيها عضوا فى وفد مصر إلى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد بقرطبة فى سبتمبر ١٩٧٤ وحضره مندوبون لعدد كبير من الدول الإسلامية والمسيحية ، وألقيتُ فيه عدة بحوث مهمة ، وكان بحثى فى هذا المؤتمر عن «المشكلات الإنسانية والأخلاقية فى نظر الإسلام والمسيحية » وكانت مدينة قرطبة جديرة بأن يعقد بها هذا المؤتمر لأنها شهدت مجد الإسلام ، وعن طريقها وصلت علوم الإسلام إلى أوربا ، وكانت منارة الفكر خلال العصور الوسطى حيث كان يؤمها طالبو العلم والمعرفة من الغرب ، وهى الآن مدينة مسيحية ، وعلى هذا تجمَّع فى قرطبة أروع المساجد وأعظم الكنائس ، وعاش فيها المسلمون والمسيحيون ، وإذا كان سكانها الآن من المسيحيين فإن دماء عربية إسلامية تجرى فى عروقهم انحدرت من التاريخ ، وهذا جعل مدينة قرطبة أنسب مدينة ليعقد بها المؤتمر الإسلامى المسيحى فى محاولة التجمع التى نقوم بها ضد الصهيونية واللادينية .

وطالما سرتُ فى الشوارع الضيقة بقرطبة التى يمكن أن نسميها أزقة ، ورأيت منازل هذه الشوارع شديدة الشبه بالأحياء القديمة بدمشق ؛ فأبوابها هى نفس الأبواب ، والشرفات هى الشرفات ، والساحة الداخلية بكل بيت مع نافورة أحيانا تشبه تلك التى تراها فى الطراز العربى القديم بعاصمة الأمويين ، وقد حقَّ للشاعر نزار قبانى أن يقول وهو يتجول فى هذه الشوارع إنه كثيراً ما فكر فى أنه يسير فى شوارع دمشق لا فى قرطبة ، وأوشك أن يضع مفتاح باب أجداده فى أبواب كثيرة تشابهه ليدير المفتاح ويندفع للداخل .

مسجد قرطبة الجامع :

وعدد مساجد قرطبة أربعمائة وواحد وتسعون مسجدا بناء على قول ابن الدلائى [1] ولكن أعظمها المسجد الجامع الذى أشرنا إليه آنفا .

والمسجد الجامع يعتبر عملا فريدا من نوعه ؛ إذ أنه يمثل الفن الخلاقى بشكل مثالى ، ولقد بدئ ببنائه فى أواسط القرن الثامن الميلادى بأمر من عبد الرحمن الأول ، ثم أدخلت عليه سلسلة من التحسينات والإضافات فى عهدى عبد الرحمن الثانى والحكم الثانى ، وتمّ بناؤه وبناء المئذنة الشاهقة فى نهاية القرن العاشر فى عهد المنصور بن أبى عامر ، ولقد انتصبت ساحة كبيرة أمام مدخل المسجد مزروعة بالمئات من أشجار البلح والنارنج .

وتوحى صفوف الأعمدة اللامتناهية التى تشكل باحاته وعددها تسع عشرة باحه (من الشمال إلى الجنوب) بغابة من أعمدة المرمر يذكر ابن الدلائى أن عددها ١٣٠٧ أعمدة ، وترتفع فوق أعمدته - التى تعلوها تيجان من الطراز الرومانى والقوطى والخلافى - أقواس متلاحقة على شكل « حدوة » يتتابع فيها اللونان الأبيض والأحمر .

والزيادات التى تمت فى عهد الحكم الثانى جاءت مناسبة وفى محلها ، وبلغت أوجها فى المحراب العظيم الذى يحتوى على أجمل قبة وأروع نقوش عرفت فى الفن العربى والأسبانى .

ويذكر ابن الدلائى أن مساحة المسجد ثلاثة وثلاثون ألفاً ومائة وخمسون ذراعا ، وأن ارتفاع صومعته بلغ ثلاثة وسبعين ذراعاً فى عهد عبد الرحمن الناصر [2] .

وعندما سقطت قرطبة فى أيدى الفرنجة توقفت الصلاة فى هذا المسجد العظيم، ثم تقدم الفرنجة فأقاموا كنيسة فى جزء منه ، وهذا الجزء يمثل حوالى

---

(١) نصوص عن الأندلس ص ١٢٤ تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

(٢) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لابن الدلائى ص ١٢٤ .

عشر المساحة العظيمة التى يشغلها المسجد ، ولايزال المسجد بجلاله وعظمته يطغى على ما فى هذه الكنيسة من فن وزخارف ، فمن المعروف أن الفن المسيحى لايتعدى صورا خرافية لملائكة تنشر أجنحتها ، وفتاة تمثل السيدة العذراء ، مع صورة طفل يمثل السيد المسيح ، ويحاول الذهب أن يغطى هذه الكائنات ، ولكن روعة الفن الإسلامى أجمل وأعظم تأثيراً فى نفوس المشاهدين، وطالما سمعت هذا التعليق من مثقفين مسيحيين شاهدوا معنا بقرطبة هذه الآثار وتلك .

الصلاة من جديد بمسجد قرطبة :

وفى خلال المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد بقرطبة والذى أشرنا إليه آنفا تمت اتصالات ليقيم المسلمون شعائر صلاة الجمعة بهذا المسجد العظيم ، وقد نجحت هذه الاتصالات فسمحت السلطات الأسبانية للمسلمين أن يقيموا بهذا المسجد شعائر صلاة الجمعة يوم الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٧٣ وعندما أذيع هذا الاتفاق توافد على قرطبة عدد من الطائرات من المغرب تحمل مجموعة من المسلمين الذين وفدوا لأداء الصلاة فى هذا المسجد بهذه المناسبة التاريخية العظيمة ، كما حضر إلى قرطبة سفراء الدول الإسلامية بأسبانيا من العاصمة مدريد ، وكان موقفا عاطفياً أن تؤدّى الصلاة من جديد فى هذا المسجد بعد أن توقفت به الصلاة حوالى ثمانية قرون ، وقد دعونا الله من الأعماق أن يحفظ العالم الإسلامى ، وأن يعيد للرشاد غير المسلمين لنلتقى فى رحاب الله ، وقد انطلقت فى هذه المناسبة دموعنا من شدة التأثر ، وأحسسنا أن التاريخ يعود من جديد ونحن نقف بين يدى الله فى المكان المقدس الذى وقف فيه زعماء المسلمين بالأندلس لمدة قرون دون أن يخطر ببالهم أن أجيالا ستجئ بعدهم تعبث بما خلفه الأجداد ، وتتصارع فيما بينها ليقضى بعضها على بعض فيتيح هؤلاء وأولئك الفرصة لأعداء الإسلام أن تصبح لهم اليد العليا على المسلمين ، بعد أن كان المسلمون أصحاب القوة والسلطان .

وتسألنى بعد ذلك : هل سيبقى المسجد مفتوحاً للمصلين ؟

وأجيب بأننا لم نستطع أن نسأل هذا السؤال خوف أن نتلقى إجابة تعكر صفو ما كنا ننعم به من لذة ونعيم ، فقد كان التكبير والآذان وخطبة الجمعة والصلاة بهذا المسجد حدثا رائعاً ما كان ينبغى أن نعمل أى شئ يكدّره أو يُذْهِب روعته.

والإجابة المحققة أن أستمرار فتح المسجد ، أو العودة لإغلاقه ، جزء من سلطة المسيحيين الأسبان الذين وضعت هزائمنا الزمام فى أيديهم ، فلهم الشكر إن واصلوا فتحه ، وعلى مسلمى تلك الأيام الوزر أن انتهى تناحرهم إلى قفل بيوت الله .

حمامات قرطبة :

وكان بقرطبة تسعمائة حمام ويقول Staniey Lene - Poole [1] وللحمامات شأن كبير فى المدن الإسلامية ؛ لأن النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب ، بل هى شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات بشكل عام ، ذلك فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدونها من عمل الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت ببعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها الا أناملها عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس .. وحينما عادت أسبانيا إلى الحكم المسيحى أمر المسيحيون المنتصرون بهدم كل الحمامات العامة فى أسبانيا .

مدينة الزهراء :

وأحيطت قرطبة بكثير من الضواحى الجميلة من أبدعها ضاحية الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر ، وننقل فيما يلى عن ابن خلدون ما دونه عن مبانى الناصر ومن بينها ضاحية الزهراء الفاتنة : يقول ابن خلدون [2] .

---

(١) The Arabs in Spain 119 - 120. من الترجمة العربية

(٢) العبر جـ٥ ص ١٤٤ .

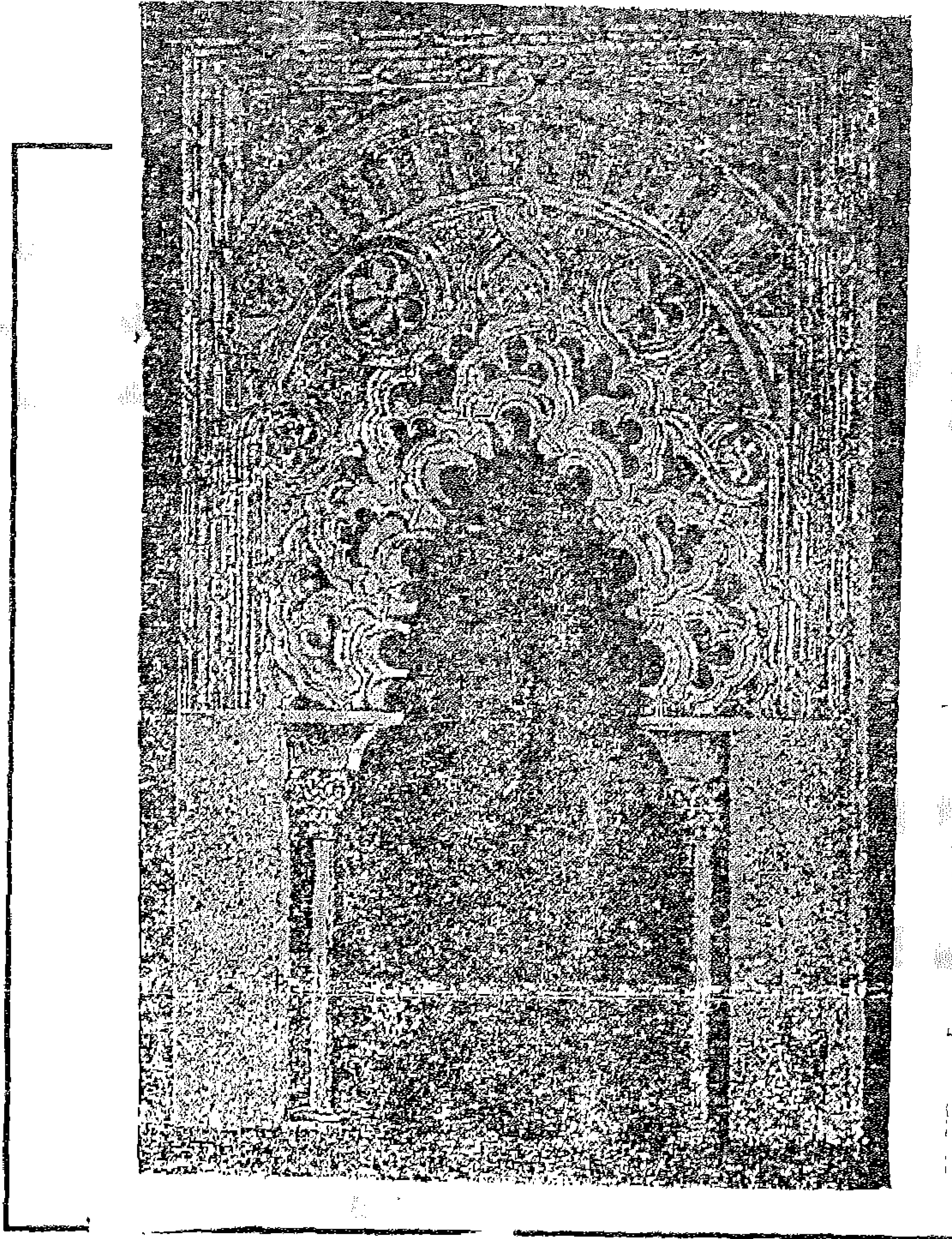
ولما استفحل الملك الناصر وجّه نظره إلى تشييد المباني والقصور ، وكان أجداده قد بنوا قصورهم على أكمل الإنفاق والضخامة ، وكان منها المجلس الزاهر ، والبهو الكامل ؛ والقصر المنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء إليه من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات وساق الماء من أعلى الجبل على بُعد المسافة ، ثم اختطّ مدينة الزهراء واتخذها منزلا وكرسيا لملكه ، فأنشأ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور ، واتخذ فيها دارا لصناعة الآلات منها آلات السلاح للحرب ، وآلات الحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن .

ورأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادى الذى تقع عليه قرطبة والزهراء أصبح لايصلح للشرب فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلو مترا وتم بناؤها سنة ٣٢٩ هـ ، وهى قناة غريبة الصنعة ، لاتزال آثارها الهندسية باقية حتى الآن[١].

---

(١) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٦

(التاريخ الإسلامى جـ ٤ م ١٠)



عقد من قصر الجعفرية بسرقسطة

وعلى الرغم من مرور الزمن فإن بقايا مدينة الزهراء لاتزال تمثل ثروة فنية وأثرية بالغة الأهمية ، ويعرض المتحفان الأثريان فى قرطبة وفى مدينة الزهراء نفسها كنوز السيراميك التى استخرجت منها وأدوات الزينة والأحجار المنحوتة.

غرناطـة

قلنا فيما سبق إنه تجمع فى غرناطة كلٌّ بقايا القوة العربية والفكر الإسلامى ، ومن أجل هذا طالت مقاومة غرناطة أكثر مما كان يتوقع منها ، وكان يمكن أن تمتد قوتها فترة أخرى لولا الخلافات الداخلية فى آخر الأمر بين أعضاء البيت المالك . وليس غريبا إذنْ أن تصل غرناطة إلى درجة عالية فى التطور والتقدم .

وقد زار Stanley Lane - Poole غرناطة وطاف بها وزار قصورها ، ودون لهذا أجمل وصف وأروعه ، ونحن نقتبس فيما يلى بعض ما قاله عن غرناطة ناقلا أو واصفا (١) .

كان لغرناطة منزلة قرطبة فى إنهاض الآداب والعلوم ، وكان لبنائها ومهندسيها شهرة ذائعة فى أرجاء أوروبا ، فهم الذين بنوا الحمراء التى دعيت بهذا الاسم للون التربة التى أنشئت عليها ، وهم الذين موهوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التى لاتزال إلى اليوم موضع دهشة الفنانين وإعجابهم فى أنحاء العالم ، وتعد غرناطة ببرجيها السامقين لؤلؤة فى جيد الزمان ، فقد بنيت عند نهاية المرج الممرع وفى سفح جبال نيفادا التى يسميها العرب « جبال الثلوج » وإذا أهل المرء من إحدى قمم غرناطة أو الحمراء التى تقف ديدباناً فى نهاية المرج ، وسرّح نظره فى فضاء المرج الأفيح وقد تعانقت أشجاره وتبسمت أزهاره ، رأى بين الجداول والكروم والبساتين وغياض البرتقال ما يملأ النفس سرورا وبهجة ، وفى الحق أن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس فى جمال منظرها واعتدال جوها ، فإن النسيم الذى يهب عليها من الجبال الثلجية يجعل أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها ، أما تربتها فمنقطعة النظير فى الخصوبة وقوة الإنبات ، وقد أنشىء قصر الحمراء فوق شرف (ربوة) من الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر، تتدفق فى سفحها الشمالى أمواه نهر حدرُ ، وقد حُصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر ، وشـدت عند كل مسافة بحصـون تشرف عليه ، وتشبه



ردهة في بهو السباع بقصر الحمراء بغرناطة

الرقعة التى قامت عليها الحمراء سن رمح ، فهى دقيقة الطرف عريضة الجانبين، يبلغ طولها نصف ميل من الشرق إلى الغرب .

وساحة القصر تسمى ساحة الريحان لكثرة ما بها من هذا النبات ، ويخرج من هذه الساحة ممر يوصل إلى فناء به بركة من الرخام تتألق فوقها الشمس ، ومن فناء البركة يصل السائر إلى بهو الرسل حيث الفخامة والجلال ، وبهوُ السباع أشهر جزء وأبدعه فى هذا القصر وإن كان أقل اتساعا من ساحة الريحان ، وبهذا البهو مائة وثمانية وعشرون عموداً من المرمر وضعت أجمل وضع ونسقت أبدع تنسيق .

الحضارة الإسلامية تغزو أوربا وتوقظها :

انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، وأيقظتها من سباتها ، سواء فى ذلك الحضارة الفكرية أو الحضارة العمرانية ، وتمَّ نقل هذه الحضارة بطريق الطلاب الأوربيين الذين التحقوا بالجامعات الإسلامية فى قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة ثم عادوا إلى بلادهم يحملون أفانين من العلم والمعرفة والحكمة (1) ، أو عن طريق المدجَّنين وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون فى كنف الممالك المسيحية قبل سقوط غرناطة ، أو عن طريق المستعربين وهم المسيحيون الذين كانوا يعيشون فى كنف الحكم الإسلامى ، وظلوا هم وأولادهم مصابيح هدى لأوربا بعد انتهاء ملك المسلمين ، وكذلك عن طريق الموريسكيين وهم المسلمون الذين أرغموا على ترك الإسلام أو على الأقل التظاهر بذلك بعد سقوط غرناطة.

وسنذكر فيما يلى نماذج من المعارف التى نقلت من الحضارة الإسلامية لأوربا ، وأغلب ما نذكره مقتبس من كتاب « الفكر الإسلامى : متابعة وآثارة » الذى قمت بترجمته من الإنجليزية وبه تفصيل كاف عن هذا الموضوع فليرجع إليه من يشاء .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلك :

هناك مؤلفات أربعة لأبى معشر ، وكذلك الجدول الفلكى الذى صنعه الخوارزمى ، وقد ترجمها كلها للغة اللاتينية أدلارد الباثى(Adelard of Bath) ويوحنا الاشبيلى (John of Seville) أما الجدول الفلكى الذى صنعه البتانى ، فقد ترجمه إلى اللاتينية (Plato of Trivoli)، ثم أعاد ترجمته بعد ذلك ألفنسو العاشر (Alfonso X) وترجم جرارد الكرمونى كتاب الهيئة لابن جابر وقد نشرت هذه الترجمة سنة ١٥٣٤ ، وقد سجّل هذا الكتاب تقدما واضحا وأدخل تحسينات كبيرة على أبحاث بطليموس . وقد ترجمت إلى اللاتينية أبحاث أخرى كثيرة فى الفلك كتبها البحاثة المسلمون أمثال أبى بكر والقابسى والبتانى والفرغانى وغيرهم ، وقد كان لهذه الأبحاث أثر واضح فى تقدم هذا العلم بأوربا ، فمن المسّلم به أن الجداول الفلكية التى وضعها(Ahphonsine) وأكملها Alfonso العاشر لم تكن الا تجديدا للفكر الإسلامى فى علم الفلك ومثل ذلك يقال عن جداول Toledan التى اتّخَذَت أساسا لها ما كتبه المسلمون وبخاصة ما كتبه الزرقالى ، وكذلك مؤلفات Ramond of Marseilles التى كانت فى الحقيقة اقتباسا من جداول الزرقالى ، وقد حلت الجداول الفلكية التى صنعها المسلمون محل جداول اليونان والهنود وأغنت عنها ، وقد شاع استعمالها حتى وصلت الصين ، وانتفع Copernicus بثقافة الفلكيين المسلمين بدليل أنه أورد فى كتابه De Revolution orbium Coelestium اقتباسات من الزرقالى والبتانى .

وبجانب هذا نجد اللغات الأوربية تستعمل بعض الألفاظ الفلكية العربية مثل Al - sumut المأخوذة من السموت ، و Nadir المأخوذة من كلمة ناظر مما يؤكد أن تراثا إسلاميا ضخما تسرب إلى أوربا المسيحية .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الرياضة والطب :

وفد إلى معاهد المسلمين بأسبانيا كثير من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة وقادة فى الدراسات الرياضية والطبية ، ومن بين هؤلاء أدلارد الباثى

(Adelard of Bath) وموزلى النور فلكى Mer'ey of Norfolk البريطانى . وكان هؤلاء يعودون إلى بلادهم ليعلموا أقوامهم ما تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، كما كانوا يترجمون أهم ما كتبه الباحثون المسلمون ، فقد ترجم أدلارد سالف الذكر كتاب الخوارزمى عن النظرية الهندية فى الحساب والاحصاء ، وقد حملت هذه الترجمة للغرب - بجانب هذه النظرية - الأرقام التى سميت فى الغرب بالأرقام العربية ، أما الأرقام الغبارية فقد نقلت إلى الغرب بواسطة جربرت (Gerbert) الذى تلقى ثقافته فى أسبانيا أيضا قبل أن يحتل منصب البابوية باسم سلفرستر الثانى (Silverster II) (٩٩٩-١٠٠٣م) ولم تستعمل هذه الأرقام فى الغرب قبل منتصف القرن الثالث عشر ، وكان استعمالها على يد لوتردوفيبانوسى (Leonardo Febanocci of Pisa) ، وقد تلقى هذا دراسته أيضاً على يد مدرس مسلم . ومؤلفات لونردو كانت حجر الأساس فى الرياضة عند الأوربيين ، وقد حوت هذه المؤلفات النسب المثلثية الستة التى وضعها الرياضيون المسلمون ، ومثل هذا يقال عن مؤلفات (Jacob of Florance) التى كان واضحا أنها كررت ما قدمه العرب من دراسات فى الرياضة . أما المؤلفات الرياضية التى كتبها(Goerge Purbach) أستاذ الرياضيات فى فينا فى القرن الخامس عشر فقد اعتمدت أكثر الاعتماد على أبحاث الزرقالى ، ولجورج هذا تلميذ اسمه Johannes Muller أصبح فيما بعد أستاذا فى Padua وله بحث فى الرياضيات نشر أكثر من مرة خلال القرن السادس عشر ، ويعتبر أول بحث كامل فى حساب المثلثات كتبه أوربى ، وقد كان هذا البحث بكل تأكيد أقل مستوى من الأبحاث التى كتبها العرب .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الموسيقى :

عند نهاية القرن الثانى عشر كانت أهم المؤلفات العربية فى الموسيقى قد تمت ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وقد تمت هذه الترجمة فى مدينة توليدو Toledo، ولاتزال آثار هذه الترجمات ظاهرة فى الموسيقى الغربية حتى العهد الحاضر ، اذ يتجلى فيها ما نقله Franco of Cobogne (١١٩٠م) وهو - إلى حد كبير - يتبع الكندى فى أبحاثه واتجاهاته الموسيقية ، وبعد فرانكو هذا ظهرت رسالة

بعنوان Ochetus وهى تنسب إلى John of Gerald وموضعها دراسة الأنغام ، ويرى الدكتورحتّى احتمال اقتباس عنوان هذه الرسالة من كلمة إيقاعات العربية، وبالتالى اقتباس موضوعها من الفكر الإسلامى .

وقد اقتبس الغرب – بالإضافة إلى الموسيقى الإيقاعية ودراسية الأنغام – كلمات اصطلاحية كثيرة فى الموسيقى نذكر منها الكلمات الآتية :

الأصل العربى	الكلمة اللاتينية
العود	The Lute
الرباب	The Rebic
النفير	Anafil
البانديرة (باللغة العامية)	Pander
صنوج	Sonojas
القيثارة	The Guitar
النقارة	The Naker
القانون	The Kanoon

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلسفة :

انتقل من الفكر الإسلامى للفكر الغربى نظريات وأفكار فلسفية متنوعة ، فقد أبدى بيكون (Roger Bacon) وكاردان (Cardanus) عظيم الاهتمام بأبحاث الكندى وأفكاره ، ووافق كاردان الكندى على قوله بوحدة العالم وارتباطه ؛ وللكندى عن مصادر المعرفة نظرية لا تزال مدرسة (كانْت Kant) تُعْنى بها حتى الآن ، فهو يرى أن مصادر المعرفة هى : الحواس ، والعقل ، والخيال .

وعن الفارابى يقول Carra de Vaux إن منطق الفارابى كان عظيم التأثير على الباحثين الأوربيين الذين عنوا بالمنطق وقد أخذ موسى بن ميمون عن الفارابى نظريته للتدليل على وجود الله ، وعن ابن ميمون تلقاها توماس الأكوينى ، وسارت هذه النظرية فى الغرب حتى تدارسها الفيلسوف كانت .

ولابن سينا تلاميذ من الغرب ساروا على نهجه وتأثروا به ، ومن هؤلاء الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون سالف الذكر والقديس توماس وألبرت العظيم الذى عاصر القديس توماس وتلميذ ألبرت المسمى Ulrich of Strasburg ودانتى يضعه بين أبقراط وجالينوس ، أما Scaligar فيرى أنه ندٌ لجالينوس فى الطب ومتفوق عليه فى الفلسفة .

واتجاهات ابن طفيل التى أبرزها فى كتابه « حى بن يقظان » - التى تشير إلى أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله بدون وحى وبدون معلم - أصبحت شائعة فى أوربا واعتنقها كثيرون على أثر ترجمة هذه القصة إلى اللاتينية التى قام بها إدوارد بيكون، وقد نشرت الترجمة مع نصها العربى فى اكسفورد سنة ١٦٧١، ثم ترجمت بعد ذلك إلى أكثر اللغات الأوربية ، ولم يكتف الأوربيون بترجمتها بل ظهر من كتابهم من عمل على تقليدها مثل قصة Robinson Crusoe التى ألفها Deniel Dcfoe فى القرن الثامن عشر .

أما ابن رشد فقد شغلت فلسفته أوربا ، وظهرت آراؤه فى كتب الفلسفة الأوربية وكانت حوالى نهاية القرن الثانى عشر سائدة فى أوربا ومنتشرة بين المفكرين ، وفى القرن السادس عشر صارت فلسفة ابن رشد كما يقول Renan الفلسفة الرسمية التى تدين بها الطبقات المتعلمة بإيطاليا .

* * *

أما الحضارة العمرانية فتتمثل فيما نقله المدجنون والموريسكيون إلى أوربا من ألوان الفن المعمارى ؛ فإلى المهرة من المدجنين ترجع من غير شك بعض الآثار المسيحية ذات الطابع العربى ، كالعقد الذى فى ديرسان جون ، والعناصر المعمارية فى كنيسة سانتيا جودل أرابال ، والعقد الذى فى مصلى سان بدور ، وبعد سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين تعهد إليهم بالأعمال الفنية ، فكان النجارون والبناءون منهم يعملون فى الكاتدرائية الكبرى (١) .

(١) دكتور لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ .

اعتراف المفكرين الغربيين :

إن انتفاع أوربا بحضارة المسلمين اعترف به كل المنصفين من الباحثين الأوربيين ، وسننقل فيما يلى أقوال بعض منهم فى هذا الشأن :

يقول العالم الفرنسى جوزيف كالميث فى كتابه « تاريخ أسبانيا » :

قد يظهر للوهلة الأولى أن تعارض الدينين كان يمكن أن يضع عقبة كأداء أمام تبادل التأثير بين الثقافتين ، ولكن الحق أنه لم تقم هذه العقبة على الأرض الأسبانية ، إذ أن الظاهرة الملحوظة كانت ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل إلى الأعماق ، غير أن فى وصفنا هذا التأثير بالتبادل شيئا من التجوز لأن الجانب الإسلامى كان أكثر نشاطاً ، أى أن الإسلام هو الذى قدم عنصر الإنتاج، وأن العالم المسيحى هو الذى تلقى الأثر الانفعالى .

ويقول العالم الفرنسى الأستاذ فورييل فى كتابه « تاريخ الشعر » :

إن من الوقائع الجديرة بالملاحظة تلك الجاذبية وذلك الاتصال الاجتماعى اللذين استقرا منذ زمن بعيد بين العرب والاسبانيين ، وجعلا ينموان على التوالى، وهاتيك السهولة التى خضع بواسطتها الأخيرون لذلك السمو النبيل الذى أفاضه عليهم الأولون ، إذ استهوتهم عبقريتهم الفائقة فاستساغوا لغتهم ، وألفوا عاداتهم بل أخيلتهم . وكان الإجماع فى ذلك العهد يعزو إلى العرب كل ما كان يبدو خليقا بالإعجاب ، أو كل ما كان يقتضى وجود فن من الفنون الرفيعة .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » :

.... إنما من العرب وحدهم قد أخذ سكان أوربا إلى جانب قوانين الفروسية ، الاحترام والتلطف الذين تفرضهما هذه القوانين عليهم للمرأة فرضا ، وإذاً فليست المسيحية - كما يُظن فى الغرب بصورة عامة - هى التى رفعت المرأة وإنما هو الإسلام .

ويقول أناتول فرانس فى كتابه « الحياة مزدهرة » :

إن أشام أيام التاريخ هو يوم معركة بواتيه فى سنة ٧٣٢م حين تقهقرت العلو[م] والفنون والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية .

وهكذا ينعت أناتول فرانس هذا اليوم بالشؤم ، فلو أن الأقدار شاءت تتغلغل الحضارة الإسلامية فى أوربا حتى تشملها كلها لتغير وجه التاريخ ولكان للإنسانية بفضل المبادئ الإسلامية ، شأن غير الشأن البربرى الذى تعيش فيه أوربا الآن غارقة فى الطغيان والظلم والوحشية [١].

ويقول Baker [٢]

ازدهرت حضارة المسلمين فى أسبانيا وصقلية ازدهارا عظيما ، ومنهما انتق[ل] تأثير الحضارة الإسلامية إلى فرنسا وإيطاليا . فقد نَقَلَتَ فلسفة قرطبة وح[...] معلمها الكبير ابن رشد إلى جامعة باريس وتجملت بالرمو ببيوت عربية الـ[...] وارتفع شأنها بالجغرافيين والشعراء منهم تحت حكم ملوكها النورمانديين وخل[...] فردريك الثانى ، بل ان أهمية الثقافة التى نقلتها إلى الغرب العناصر الإ[...] فى صقلية وأسبانيا كانت تعادل على أقل تقدير أهمية تأثير الشرق على الغر[ب] فى الحروب الصليبية [٣] .

---

(١) الإسلام من خلال مبادئه الأساسية للدكتور محمد غلاب ص ١٧٠-١٧١

(٢) التراث الإسلامى ص ٨٨

(٣) نقلا عن Cambridge Medieaval History المجلد الثانى ص ٩٠

شمالى إفريقية

شمالى إفريقية (*)

موجز تاريخ الشمال الأفريقى :

تكلمنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب [1] عن فتح المسلمين لشمالى افريقية ، وعن جهود عقبة بن نافع الفهرى فى هذا المجال ، وكيف خلّص الشريط الساحلى من حكم الروم ، ثم سار إلى الجنوب حتى وصل بلاد السودان ناشرا سلطانه وناشرا كذلك دين الاسلام بين السكان الأصليين ، وقد أسس عقبة مدينة القيروان لتكون عاصمة لهذه المساحة الكبيرة ، إيذاناً باستقلال هذه البلاد عن مصر ، فقد كانت من قبل تابعة لوالى مصر ، فأصبح لها الآن والٍ خاص ، ومن أشهر ولاتها كذلك موسى بن نصير الذى اتخذ لنفسه لقب أمير القيروان ، وفتح طنجة ولم تكن قد فتحت من قبل ، ودانت له ، وكانت تابعة لملوك القوط يعينون عليها حكامها .

وعُرِف شمالى افريقية فى التاريخ الإسلامى بكثرة القلاقل ؛ فالحياة القبلية لاتعرف الاستقرار السياسى والتبعية الشاملة لوال أو أمير ، ومن هنا استنفد فتح هذه البلاد جهودا كبيرة ، وظلت المنطقة بعد الفتح تستجيب لعوامل الإثارة والسخط ، ولعل مما ساعدها على ذلك - وبخاصة فى عهد خلافة بنى العباس - بعدها عن بغداد مقر الخلفاء العباسيين ، زد على ذلك أن العباسيين فقدوا الأندلس الخضراء الفينانة ، وكان الشمال الافريقى طريقاً للأرض الخضراء ،

---

(١) يشمل الشمال الإفريقى فى وضعه الجغرافى مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، ولكن الباحثين اصطلحوا على إطلاق هذا التعبير على تونس والجزائر والمغرب فقط ، أما مصر فقد عرفت باسمها ولم تدخل فى هذا الاصطلاح ، وبقيت ليبيا تستقل باسمها أحياناً أو يشملها أحياناً اصطلاح شمالى إفريقية ، على أن التعبير ببرقة وطرابلس كان أكثر استعمالا .

(١) ص ١١٩ وما بعدها من الطبعة العاشرة .

فإذا كانت هذه الأرض الخصبة قد ضاعت من أيدى العباسيين فأى جدوى فى الاحتفاظ بالطريق ، وبخاصة إذا كان يفيد قليلا ويتكلف كثيرا فى المحافظة عليه . ومن هنا كثر قيام الدول وسقوطها فى شمالى افريقية نتيجة لكثرة الحركات الداخلية وضعف السيطرة المركزية .

وعلى العموم فقد استطاع الوالى العباسى القدير يزيد بن حاتم المهلبى أن يحافظ على وحدة هذه البلاد وولاتها لبغداد طيلة سنى ولايته (١٥٤ - ١٧٠ هـ) وبعد وفاته وقعت البلاد فريسة الفوضى والتفكك ، ويمكن القول إنه مع نهاية القرن الثامن الميلادى توقف سلطان العباسيين فى هذه البقاع ، ولم يعد يتجاوز حدود مصر الغربية ، وظهرت فى هذه البلاد دول سنورد الكلام عنها فيما بعد ، بعضها يدين لزعماء انبثقوا من الداخل ، وبعضها يدين لزعماء وفدوامن الخارج ، وقد كان استقلال بعضها تاما كالأدارسة ، وحافظ بعضها على علاقة ما بمركز الخلافة فى بغداد كالأغالبة، وبجانب الدول ، ظهرت فى تلك البلاد حركات استقلالية قَبليّة لم تصل إلى درجة تكوين الأسرات الحاكمة ، ولن نقف عند هذه الحركات القبلية لكثرتها وقصر عمرها وعدم جدواها ، وسنولى اهتمامنا بالدول التى تكوّنت بها أسر حاكمة ، والتى استحقت أن تحسب فى عداد الدول من جهة مساحتها ونظمها .

وأول الدول التى ظهرت بالشمال الافريقى الدولة الرستمية بالجزائر ، وقد بدأت سنة ١٦٩ واستمرت حتى سنة ٣٠٥ هـ وعقب ظهورها قامت دولة الأدارسة بمراكش (١٧٢ - ٣٧٥) ثم دولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦) ، وقبيل نهاية القرن الثالث الهجرى ظهرت الدعوة الإسماعيلية بالشمال الافريقى ، وسرعان ما انبثقت عنها الأسرة الفاطمية التى استولت على تونس وأنهت سلطان الأغالبة ، ثم امتد سلطانها حتى شمل الشمال الافريقى كله تقريبا ، وسنتكلم عن « الفاطميين فى شمالى افريقية » عند حديثنا عن تونس ، ثم ان الفاطميين فتحوا مصر ، وبنى قائدهم جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، وانتقل لها خلفاؤهم سنة ٣٦٢هـ واتخذوها عاصمة ملكهم ، وحاولوا أن يجعلوا شمالى افريقية ولاية تابعة لهم ، ولكن ذلك لم يتم لهم ، فسرعان ما تمت حركة

انشقاق واستقلال قام بها الأمراء المحليون ونشأت عن ذلك دولة آل زيرى (٣٦٢ - ٥٤٣) فى صنهاجة بتونس الحالية ، مع شريط من شرق الجزائر ، ونشأت كذلك دولة بنى حماد (٣٩٨ - ٥٤٧) فى بوجاية بباقى الجزائر ، أما مراكش فقد انتشر بها الحكم القبلى .

وتجمَّع بعد ذلك شمل الجزء الغربى من شمالى افريقية تحت سلطان المرابطين الذين تغلبوا على الحكم القبلى فى مراكش ، كما ورثوا بعض دولة بنى حماد ، ثم عبروا بسلطانهم إلى الأندلس كما مر .

بيد أن الموحدين الذين جاءوا على أنقاض المرابطين استطاعوا أن يخضعوا شمالى افريقية كله لسلطانهم ، وأن يحلوا محل المرابطين بالأندلس أيضاً ، وطردوا بذلك النورمانديين الذين أخذوا بقيادة روجر الثانى مكان آل زيرى فى تونس ، كما حلوا محل النفوذ المصرى الذى كان يشمل صحراء ليبيا ويمتد أحيانا إلى طرابلس .

ولما ضعفت دولة الموحدين بدأ الانحلال يظهر فى شمالى افريقية فظهرت دولة بنى حفص فى تونس سنة ٦٢٥ - ٩٤١ (١٢٢٨ - ١٥٣٤م) ودولة بنى زيان بتلمسان غرب الجزائر سنة ٦٣٣ - ٧٩٦ (١٢٣٥-١٣٩٣م) ودولة بنى مرين بمراكش وقد ظهرت سنة ٥٩١ (١١٩٤) ثم قضت على بقايا الموحدين واستولت على عاصمتهم سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٩) وظلت حتى سنة ٩٥٧ (١٣٥٠) ، وبجوار هذه الدول ظهرت أيضاً بعض حركات استقلالية صغيرة قوامها القبائل التى كانت تنتهز الفرص ليدفع زعماؤها أنفسهم للسيادة والسلطان ، وفى سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) امتد سلطان بنى مرين حيث شمل الجزائر ، وأصبح ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين يولون عليه من يشاءون من بنى زيان ولكن بنى مرين دب فيهم الضعف واستبد بنو وطاس وزراؤهم بالأمر ، فهيأ ذلك لبنى زيان أن يستقلوا بأمر الجزائر ، كما هيأ للأشراف أن يظهروا بمراكش .

وفيما يلى تخطيط عن دول الشمال الإفريقى والأندلس من مطلع الاسلام حتى الآن .

التاريخ الهجري	طرابلس وتونس	الجزائر	المغرب	اسبانيا	التاريخ الميلادي

١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠ ١١٠٠ ١٢٠٠ ١٣٠٠ ١٣٥٠

٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠ ١١٠٠ ١٢٠٠ ١٣٠٠ ١٤٠٠ ١٥٠٠ ١٦٠٠ ١٧٠٠ ١٨٠٠ ١٩٠٠ ١٩٥٠

الدولة الأموية

الدولة العباسية

الأغالبة

الرستمية

الأدارسة

الأمويون في الأندلس

الفاطميون

قبائل

بنو هلال

ملوك الطوائف

المرابطون

بنو حماد

الموحدون

الزحف المسيحي

بنو هود

بنو الأحمر

آل مرين ثم آل وطاس

آل زيان

بنو حفص

الفرنجة

الأشراف

العثمانيون (استقلال محلى) الباشوات ـ البايات ـ الدايات

احتلال فرنسي

احتلال ايطالي

استقلال

استقلال

استقلال

استقلال

من عمل المؤلف وخاص بالجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي

وفى أوائل القرن السادس عشر كانت الأسر الحاكمة بتونس والجزائر تؤذن بالأفول وتهيىء الفرصة لدم جديد يظهر فى أفق البلاد ، وهو عنصر الأتراك العثمانيين ، وهكذا انتهى المطاف بالشمال الإفريقى إلى سلطتين كبيرتين ، إحداهما سلطة الأشراف فى مراكش ، والأخرى سلطة الأتراك العثمانيين فيما عدا ذلك ، وسيأتى حديثنا عن الأشراف ضمن كلامنا عن مراكش فيما بعد ، أما الآن فنتكلم كلمة عن الأتراك العثمانيين الذين حكموا أكثر الشمال الإفريقى مع أن مركز سلطانهم كان فى القسطنطينية ، وستُحد كلمتنا هنا بصلة العثمانيين بشمالى افريقية ، أما الكلام عن الإمبراطورية العثمانية فمكانه الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الأتراك العثمانيون :

كان سقوط دولة الموحدين (سنة ١٢٦٦ م) كارثة كبرى أصابت الجناح الغربى الإسلامى ، (أى الشمال الافريقى والأندلس) فقد قام على أثرها فى الشمال الافريقى دول متنازعة ، وفى الأندلس انتهز الفرنجة هذه الفرصة فاستعادوا نشاطهم ، وجددوا زحفهم على المسلمين هناك ، بعد أن كان الموحدون قد ردوهم على أعقابهم وأوقفوا تقدمهم ، وسقطت دولة المسلمين بالأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٩٢) ، وفى نشوة النصر أراد الفرنجة أن يواصلوا زحفهم ، وأن يحتلوا الشمال الافريقى ، ومما أغراهم بذلك تلك الدول الضعيفة التى تكونت به بعد سقوط الموحدين ، والتى لم يكن يحسب لها حساب يذكر فى ميزان القوى .

وهكذا تعرض الشمال الافريقى لحملات متتابعة نجح بعضها وأتاح للمسيحيين أن يحتلوا بعض بقاعه ، فاحتل الأسبان طرابلس سنة ١٥١٠ وظلوا بها حتى سنة ١٥٣٠ حيث أسلموها لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اتخذوا مالطة مركزاً لهم ، واحتل الفرنجة كذلك طنجة ، وبعض جهات السوس ، وأغادير ، ووهران ، وغيرها من مدن الساحل ، وبالإضافة إلى ذلك كان للفرنجة نفوذ كبير لدى بلاط بعض ملوك الشمال الإفريقى ، كبنى حفص ، الذين كان

مَلِكُهم الأخير ألعوبة فى يد امبراطور أسبانيا .

واتجه المسلمون لمقاومة الأسبان والبرتغاليين عن طريق الهجوم الخاطف بالبحر المتوسط ، أو ما يمكن أن نسميه المقاومة البحرية أو الجهاد البحرى ، وظهر فى هذه الآونة أخوان كان لهما سلطان شامل على النصف الغربى لهذا البحر ، وهما عروج وخير الدين بربروس (أى ذو اللحية الشقراء) ، وقد احتلا بعض جزر هذا البحر وبعض شواطئه الهامة ، حيث اتخذاها مراكز لنشاطهما البحرى ، ومنها جزيرة جربة المجاورة لساحل طرابلس ، ومنها تلمسان وبعض ثغور تونس والجزائر ، وعظمت قوتهما فلم يكن فى وسع أية دولة أن تباشر نشاطا ما فى البحر المتوسط دون أن تدفع إتاوة لهذين الشقيقين اللذين كانت لهما بحريةٌ تُدْخِلُ الرعب فى قلوب الفرنجة جميعاً ، ولجأ مسلمو الشمال الافريقى لهذين الأخوين يطلبون عونهما ضد الزحف المسيحى ، فاستجابا لذلك ، وشنا حملات موفقة ضد المسيحيين ، ومات عروج فتولى خيرُ الدين قيادة هذا الاتجاه ، ورغبة فى مزيد من النجاح والاستقرار زار خير الدين الأستانة ، وعرض على السلطان العثمانى [1] خدماته ، وكان العثمانيون قد ضموا قبيل ذلك سوريا ومصر (١٥١٦ - ١٥١٧) إلى أملاكهما ، وأصبح الشمال الإفريقى هو الخطوة الطبيعية التالية للتقدم العثمانى ، فرحب السلطان العثمانى بهذا العرْض ، وضمَّ خيرَ الدين إلى خدمته وأمده بالسفن والعتاد بالإضافة إلى سفنه وعتاده ، وأصبحت قوة خير الدين جزءا من القوة العثمانية ، وزحف خير الدين على شمالى افريقية فاستولى على الجزائر من بنى زيان سنة ١٥١٨ ، ثم استولى على تونس سنة ١٥٣٤ ولكن الامبراطور شارل الخامس امبراطور أسبانيا قاد أسطولا أسبانيا فتح به تونس سنة ١٥٣٥ وأعاد الملك الحسن آخر ملوك بنى حفص إلى عرشه ، بيد أن العثمانيين جددوا حملاتهم على شمالى افريقية بقيادة سنان باشا ، فاستولوا على طرابلس سنة ١٥٥١ من فرسان القديس يوحنا المالطيين كما أعادوا سلطانهم على تونس سنة ١٥٦٨ واكتمل بذلك سلطان العثمانيين على شمالى افريقية فيما عدا الجزء الغربى حيث قامت به دولة

(١) أنظر ذلك فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الأشراف كما قلنا من قبل .

وأخذت القسطنطينية تعين الولاة على أقطار الشمال الافريقى ، بيد أنه سرعان ما برزت شخصية هذه الأقطار فجعلت سلطة العثمانيين إسميَّةً فحسب ، ولكن بقيت على كل حال صلة بين الأتراك العثمانيين وبين هذه الأقطار ، حتى اقتحمها الاستعمار الأوربى ، وقد استتبع هذا الاستعمار البغيض صنوفا من الكفاح حتى عادت لهذه الأقطار سيادتها واستقلالها .

* * *

والآن ، وقبل أن نتكلم عن دول الشمال الإفريقى دولةً ، نحب أن نشرح بإيجاز بعض المسائل التى تتصل بالشمال الإفريقى كلّه .

سكان الشمال الإفريقي

الجنس :

يطلق علي السكان الأصليين بالشمال الافريقي كلمة «بربر» وهو التعبير الذي استعمله ابن خلدون في تاريخة « العبر » حين فصَّل القول في البربر وأنسابهم ومواطنهم ، وبخاصة في الجزء السادس من مؤلفه سالف الذكر [1] ويذكر ابن خلدون أن سبب تسميتهم «بربر» أن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة غزا المغرب وإفريقية وبنى بها المدن والأمصار ، وأن إفريقية سميت باسمه ، وأنه سمع السكان الأصليين يتكلمون بأصوات مختلفة فقال لهم: ما أكثر بربرتكم . أي كلامكم غير المفهوم له ، فسموا البربر [2] :

وفي القاموس : البربر كثير الكلام والجلبة والصياح ، والفعل بربر [3] ، وعلي هذا فالتسمية بالبربر لا علاقة لها بالجنس ، وإنما علاقتها باللغة ، فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت في نظر العرب رطانة أو بربرة ، وهي اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك ، وكانت كلمة بربر في نصيب السكان في شمالي افريقية ، يقول الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي [4] ان كلمة « بربر » أطلقها العرب علي الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة بربر علي الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

وجاء الاستعمار الذي بدأ أواره في الشمال الإفريقي منذ سقوط الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ، وللاستعمار اصطلاحاته الكاذبة الخداعة ، التي يرمي من ورائها إلي الإذلال والفتن ، ومن هذه الاصطلاحات الكاذبة كلمة «استعمار » نفسها ، إلتي أصبحت – وإن كان اشتقاقها من العمران – تدل

---

(١) انظر صفحة ٨٩ وما بعدها . (٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣)الفيروزبادي : القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٧٠ (٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٦

علي الخراب وتجلبه ، ومنها « الجهاد البحري » الذي قام به المسلمون للذود عن حياضهم ، فقد سماه الاستعمار : قرصنة ، وعلي هذا المضمار استعمل الفرنجة كلمة بربر يقصدون بها معني مجازيا أشار له الأب لويس معلوف [1] بقوله : وفي المجاز ، البربري هو المتوحش الهمجي . وكان الفرنجة يقصدون بذلك إثارة فتنة طائفية بين سكان الشمال الافريقي من ينحدر من أصل عربي ومن لا يجري الدم العربي في عروقة ، ويستوي في هذا من يعرف اللغة العربية الآن ومن لا يعرفها ، فالجهل باللغة العربية ليس دليلا علي البعد عن الجنس العربي ، وقد شاهدت في إندونيسيا آلاف الشبان والشابات الذين ينحدرون من أسر عربية معروفة هاجرت إلى إندونيسيا ، ومع هذا لا يعرفون اللغة العربية ، وسنتحدث فيما بعد عن اللغة في شمالي افريقية ، فلنواصل الآن كلامنا عن الجنس .

ويحسب بعض الناس أن اتصال العرب بالشمال الافريقي بدأ مع الاسلام ، وأن أول هجرة عربية لهذه البقاع كانت مع الفتح ، وأن الفتح الاسلامي جعل بالشمال الافريقي عنصرين هما البربر والعرب ، ويهمنا - إظهارا للحق وإنصافا للتاريخ أن نقرر حقيقتين هامتين :

أولا -عرف العرب شمالي افريقية قبل الاسلام بعهد طويل ، ولنسمع من ثقات المؤرخين والباحثين ما يروونه حول هذا الموضوع :قال ابن خلدون [2] غزا ملوك اليمن شمالي إفريقية مرارا ، فاستكان لغلبهم السكان ، ودانوا بدينهم ، وذكر ابن الكلبي أن حميرا من ملوك اليمن ملك المغرب مائة سنة ، وأنه الذي بني مدائنه ، واتفق المؤر خون علي أفريقش بن قيس بن صيفي من التبابعة غزا المغرب ، واختط به المدن العظيمة والمباني الشهيرة .

ويقول الفيروزبادي [3] إن من يسمون «البربر» هم من ولد قيس عيلان أو هم بطنان من حمير : صنهاجة وكتامة صاروا إلي المغرب أيام فتح افريقش لإفريقية

---

(١) المنجد ص ٣١ . (٢) العبر جـ ٦ ص ١٠٦. ١٠٧.
(٣) القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٠٧ ـ ٣٨١

ويقرر ابن خلدون هذه المسألة فيروي عن البكري أنه كان لمضر ولدان : إلياس وعيلان ، فولد عيلان قيسا ودهمان ، وينتمي البربر الي قيس بن عيلان بن مضر، وفي ذلك يقول الشاعر :

أيها السائل عنا ، أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول
إن قيسا قيس - عيلان هم معدن الحق علي الخير دلل
حسبك البربر قومي إنهم ملكوا الأرض بأطراف الأسل [١]

ويقول الدكتور فيليب حتي [٢] : إن معظم سطح الجزيرة العربية صحراء لا تصلح للحياة ، محيط بها حافة ضيقة تصعب الحياة فيها ، ويحيط البحر بهذه الحافة ، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الأرض لا حتمالهم ، كان علي الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدي حيوي يعيشون فيه ، ولم يكن باستطاعة أكثرهم اجتياز البحر حيث لم تكثر في تلك الأزمان وسائل ذلك ، فلم يبق إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال ، وقد سلك هذا الطريق نحو افريقية مها جرون ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق .م واستقروا هناك ، ويري النسابة بالشمال الافريقي أن لواتة من حمير ، وهوارة من كندة من السكاسك ، وزناتة من التبابعة أو من العمالقة ، وغمارة وزواوة ومكلاتة من حمير [٣] .

هذه هي الحقيقة الأولي ومنها يتضح أن العرب جاءوا الي شمالي أفريقية بأعداد وفيرة ،وأقاموا به قبل الفتح الاسلامي بعدة قرون .

ثانيا - أما الحقيقة الثانية فتتصل بالعرب الذين وفدوا علي الشمال الافريقي قبل الإسلام . والذين سنتحدث عنهم فيما بعد ، وتلك الحقيقة هي أن العرب وجدوا في شمالي افريقية صورة من الحياة التي تركوها في بلادهم : صحراء

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٩٥

(٢). History of the Arabs V. 1 P. 10-14

(٣) طاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٧ .

ومراعي وخياما وإبلا وأغناما ، وحياة قبلية ، وعادات لا تختلف كثيرا عن عاداتهم ، فاندمجوا في السكان اندماجا تاما ، بل سنري فيما بعد أن بعض القبائل العربية مثل قبيلة لمتونة تترك الساحل وتميل للعزلة في الصحراء ثم تخرج لنا باسم المرابطين و يمتد سلطانها شمالا حتي يشمل الأندلس وجنوبا حتي بلاد السنغال ، ويروي لنا ابن خلدون [1] في ذلك أيضا أنه قيل ليغمرا سن زعيم بني زيان إن نسبه يتصل بالأدارسة الوافدين من الشرق . فأجاب إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فإننا نلناها بسيوفنا .

وهكذا لم ينزل العرب بالساحل فقط كما فعل الرومان ، بل أقاموا بالساحل وبالداخل ، ولم يقف العرب من السكان الأصليين موقف عزلة بل اندمجوا فيهم، واختلطوا بهم اختلاطا تاما بالتزاوج وتبادل العادات وطول العشرة ووحدة الدين والأهداف ، وكانت لهم أغلبية عددية ، فعرّبوا السكان .

ولذلك فنحن لا نقول ما قاله الأستاذ طاهر الزاوي من أن القبائل العربية التي نزلت بالشمال الافريقي تبربرت بطول الزمن في لغتها وزيها وعاداتها [2] ، بل نقول إن السكان الأصليين تعربوا من كثرة الزحف العربي إلي بلادهم وطول الاختلاط بالعرب وبخاصة عندما جاء الإسلام مع العرب في الهجرات التي سنتكلم عنها فيما بعد ، فأصبح الدم العربي والدين الاسلامي هما طابع السكان في هذه البقاع ، فالذين يسميهم الاستعمار البربر ليسوا في الحقيقة إلا بعضاً من هذا المزيج طالت عزلتهم في الصحراء ، وطبيعة البعد والعزلة تحدث أحيانا بعض الفوارق ، وجاء الاستعمار فحاول أن يخلق هوة بين السكان بعضهم والبعض باسم العرب والبربر وقد وجد له أحيانا بعض الأتباع كالجلاوي ، باشا مراكش ، الذي كان أداة في يد الاستعمار عندما أراد أن يثير بين السكان زوبعة تفريق عنصري بدون أساس ، وسنتكلم عن مشكلة « الظهير البربري » عند الكلام عن مراكش « المغرب » .

---

(١) العبر جـ ٧ ص ٧٢ .

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ٧ .

بقي الآن أن نذكر الهجرتين الأخيرتين اللتين تمَّ بهما الامتزاج بين السكان في هذه المنطقة .

فأما الهجرة الأولي منهما فهي الهجرة التي حدثت مع الزحف الاسلامي ؛ وقد بدأ هذا الزحف في عهد عثمان ابن عفان ، واستمر بين مد وجذر حتي عهد عبد الملك بن مروان حيث استطاع موسي بن نصير أن يُثَبِّت أقدام المسلمين في الشمال الافريقي كله حتي المحيط الأطلسي ، وفي خلال هذه الفترة ثم بعد استقرار أقدام المسلمين بهذه المنطقة وفدت لها وفود كثيرة أقامت بها ولم تبرحها .

أما الهجرة العربية الثانية فقد حدثت سنة ٤٤٤ هـ ، وسنتحدث عنها بالتفصيل عند الكلام عن تونس ، وقوام هذه الهجرة قبائل بني هلال وبني سليم الذين دفعهم الخليفة الفاطمي المستنصر إلي شمال إفريقية ، فانتشروا في أقطاره، وانتصبوا في السهول والواحات والجبال ، واختلطوا بالسكان الأصليين اختلاطا وثيقا ؛ فتصاهر العنصران وامتزجا ، ونتج عن ذلك سلالة عربية تلون الغالبية العظمي من السكان [١] .

ويعلق الأستاذ توفيق المدني [٢] علي هذه الهجرة بقوله كان الخليفة الفاطمي المستنصر يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة في المغرب العربي لأنهم خلعوا بيعته ، وخطبوا للخليفة العباسي ، فأمر أعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز الي أرض المغرب ، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطد أقدام العروبة في هذه الأرض الي الأبد .

وتبعا لما ذكرناه لا يرحب السكان بالشمال الإفريقي بكلمة «بربر» ويرونه تعبيرا مستهجنا ، وإنما ينسب الشخص منهم الي القبيلة التي ينتمي اليها ، كالمصامدة والزواوة وصنهاجة ، أو ينسب نفسه الي الكتلة التي تشمل عدة

---

(١) أحمد النائب : المنهل العذب جـ ١ ص ١٢١ .

(٢) هذه هي الجزائر ص ٢٨ - ٢٩ .

قبائل كالأمازيغ أوالشلوح وعلى العموم فسكن قبائل الأمازيغ في الجزائر والريف المراكشي ، وقبائل الشلوح في الأطلس الكبير .

أخلاق السكان :

يصف ابن خلدون أخلاق السكان بشمالي أفريقية أجمل وصف وأروعه ، وينسب لهم عقدا من أسمي الصفات وأكرمها ، ونحن نقتبسة فيمايلي : وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، من عزّ الجوار ، وحماية النزيل ورعْي الأزِمّة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر علي المكاره ، والثبات في الشدائد ، وحسن الملكة ، والإغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكَل وتهيئة الكسب للمعدوم ، وقري الضيف ، والإعانه علي النوائب ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ،لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلي مراقي العزِّ ، وأوفت بهم علي ثنايا الملك ، حتي علت علي الأيدي أيديهم ، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم [١] .

وذلك – كما تري – وصف رائع يعطي صورة بهيجة لسكان هذه المنطقة ، ولا يدع وسيلة لمزيد .

اللغـة :

وفد العرب علي الشمال الإفريقي قبل الإسلام كما ذكرنا من قبل ، كما وفدو علي مصر والشام في نفس الوقت تقريبا ، وقد اختلط العرب المهاجرون بالسكان الأصليين في كل هذه البقاع ، ولكن اللغة العربية لم تنتشر مع العرب الذين جاءوا قبل الاسلام ، ومعني هذا أن انتشار الدم العربي سبق انتشار اللغة

---

(١) العبر وديوان المتدأ والخبر جـ ٦ ص ١٠٤ .

العربية ، فلما جاءت الهجرات العربية بعد الاسلام بدأت اللغة العربية تنتشر بين السكان بسبب القرآن الكريم وأحاديث الرسول وحضارة الإسلام . وهذه الحقيقة تنطبق علي مصر والسودان كما تنطبق علي دول الشمال الافريقي وعلي غيرها من الدول العربية الحالية .ويمكن القول إن الشمال الإفريقي كان محتاجاً للغة ، ذلك لأن الحياة القبلية متعددة اللغات ، فكل قبيلة كانت لها لغة ، وقبل الإسلام لم تكن هناك صلة وثيقة بين القبائل ، فكانت كل قبيلة في عزلة عن القبائل الأخري : فلما جاء الإسلام خلق رباطا بين هذه القبائل ، بسبب الدعاة والمعلمين والجنود والموظفين (العمال والولاة) فأصبح لابد من لغة مشتركة ، فأقبل السكان علي تعلم اللغة العربية لهذا الهدف ولعمق صلتها بالإسلام .

واقتحم الاستعمار إفريقية في القرن التاسع عشر ، وتنفيذا لسياستة المعروفة « فرّق تسد » بدأ يتلمس الأسباب للتفريق ، فاخترع فكرة العرب والبربر وعزل من سماهم البربر عن باقي السكان وشجع فيهم اللغات المحلية وكانت لا تزال لها بقايا من الماضي ، كما دفع لغتة لتكون اللغة المشتركة ، وأخذ يحاول فرنسة السكان أو طلينتهم ، وعلي هذا وُجدت الآن قلة ضئيلة لا تعرف اللغة العربية ، ويهمنا أن نقرر أن أكثر هؤلاء عرب بدون شك ، ولكن الاستعمار حال بينهم وبين اللغة العربية ، ومن الواضح أن عهد الاستقلال قد أولي اللغة عناية جعلتها لغة الجميع .

الدين :

كان سكان الشمال الافريقي من قديم الزمان يدينون بالمجوسية ، وكانوا أحيانا يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم [1] وكان اليهود يلجأون للشمال الافريقي كلما نزلت بهم نائبة ، فمن أيام بختنصر (٥٨٦ ق . م) إلي أيام انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس (١٤٩٢ م) كانت وفود اليهود ترد علي المنطقة ، ولكن اليهود اعتبروا أنفسهم دائما جالية مستقلة ، فلم يختلطوا بالسكان ، ولم يشاركوا في الدفاع عن البلاد ، ولا راعوا مصلحتها في

(١) ابن خلدون : جـ ٦ ص ١٠٦ .

المعاملات الاقتصادية ، ثم إنهم في العصر الحديث ساعدوا الاحتلال الأجنبي واشتغلوا له سماسرة وتراجمة ، وأتاحت حكومة باريس سنة ١٨٧٠ لنزلاء الجزائر من اليهود أن يتجنسوا بالجنسية الفرنسية فانتهزوها فرصة وخلعوا الجنسية الجزائرية [١] ، ولا يزال منهم حتي الآن عدد كبير وبخاصة في المغرب، لا يزالون ولا ولاء لهم إلا للمال ، ولا خلق لهم إلا الاستغلال .

وجاءت المسيحية مع الفرنجة قبل الاسلام ، وقد نجح البيزنطيون سنة ٥٧٦ في قلب عقيدة أكثر سكان الساحل والأمصار الي المسيحية ، أما ما عدا الساحل فقد بقي دون أن يمتد له النفوذ البيزنطي أو تجذبه الديانة المسيحية [٢] .

الاسلام :

وجاء الاسلام وامتد نفوذه فشمل الساحل كله ، ثم انحدر به دعاته إلي الجنوب ، فاقتحموا الصحراء ووصلوا بلاد السنغال والسودان ، ودخل السكان هنا وهناك دين الإسلام ، ولكن اعتناقهم هذا الدين تزعزع من حين لآخر في أول العهد به [٣] ، ويبدو أن السكان وبخاصة في الصحراء ضاقوا آنذاك بالتكاليف والنظم التي يحتمها الإسلام علي أتباعه في شئون الدين والدنيا ، ولكن الإسلام استقر نهائيا منذ ولي موسي بن نصير السلطة في هذه البلاد .

عمر بن العزيز والإسلام في افريقية :

استقر سلطان المسلمين بالشمال الافريقي منذ عهد موسي بن نصير كما رأينا آنفاً ، وسنري أنه في عهد الأغالبة تمّ تعريب هذه البلاد واكتمل نشر الإسلام بها، ولكن هناك حلقة هامة في هذا المجال تتصل بالخليفة طيب الذكر عمر بن عبد العزيز ، يلزم أن نوردها هنا :

جاء في « أخبار مجموعة في فتح الأندلس »[٤] النص الآتي :

(١) توفيق المدني . هذه هي الجزائر ص ٤١ ـ ٤٣ .

(٢) أنظر تاريخ الفتح العربي الإسلامي في ليبيا ص ٨٪ وابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٠٣ و ١٤٧ .

(٤) مجهول المؤلف ص ٢٢ . وأنظر كذلك « السياسة في الفكر الإسلامي » .

لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة ، عزل عبد الله بن يزيد عن إفريقية وولاها إسماعيل بن عبيد الله ، وذلك أن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتي يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أُخِذَ بحقه ، وأنه فَضْلٌ أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقّه ... فلما وفدوابخراج افريقية زمان سليمان بن عبد الملك أمروا بأن يحلفوا ، فحلف ثمانية ونكل اسماعيل بن عبيد الله ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني ، فأعجب عمر بن عبد العزيز بفعلهما ، ثم اختبر منهما صلاحاً وفضلاً ، فلما ولي عمر الخلافة ولي إسماعيل بن عبيد الله إفريقية ، وولي السمح بن ماللك الأندلس .

وهكذا اختار عمر بن عبد العزيز ولاته تبعاً للصلاح والتقوي ، وكانت إفريقية في أشد الحاجة لمثل هذا الوالي ليحبب أهلها في الإسلام وينشره بينهم، ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بهذا الاختيار ، بل أرسل مع الوالي الجديد عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ، ويُبيّنُون لهم الحلال والحرام ، وأشهر هؤلاء عبيد الله بن يزيد المعافري ، وسعيد بن مسعود التجيبي، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري ، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي ، وموهب بن حي المعافرى ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، وبكر بن سوادة الجذامي ، وجعثل بن عاهان بن عمير ، وقد انساب هؤلاء بين الناس وكانوا قدوة صالحة ومعلمين مخلصين بارعين ، بنوا كثيراً من المساجد ، وجلسوا بها وبدورهم يعلمون الناس ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فانتشر بهم الإسلام واستقر في إفريقية (١) . ويقول ابن خلدون عن إسماعيل بن عبيد الله أن عمر بن عبد العزيز استعمله علي افريقية عقب توليته الخلافة ، وكان حسن السيرة أسلم جميع البربر في أيامه (٢) . ويقول محمد بن أبي القاسم : إنه علي

---

(١) طاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) العبر جـ ٤ ص ١٨٨ .

رأس المائة الأولي دانت إفريقية للعرب من برقة إلي السوس ، ولم تقم بعدها للنصاري قائمة [1] .

مذهب مالك وجهود سحنون بن سعيد :

أما فيما يتعلق بتثبيت مذهب مالك بإفريقية ، فإنه يجدر بنا أن نضيف عالماً آخر إفريقي المنبت هو سحنون بن سعيد بن حبيب ، وقد ولد بالقيروان وتلقي العلم بإفريقية أولاً ثم توجه إلي الشرق فزار مصر والحجاز والشام ، وأخذ الفقه عن مشاهير الفقهاء هنا وهنالك ، ثم عاد إلي إفريقية فأظهر بها علم أهل المدينة ومذهب مالك ، وهو أول من ثبته بإفريقية ، ولما اشتهر سحنون خاطبه الأمير محمد بن الأغلب في إسناد قضاء إفريقية إليه ، فقبل بعد تردد طويل ، واشترط إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم ، وأن تطلق يده في جميع الناس ، فقال الأمير : نَعَمْ ، ولا تبدأ إلا بأهلي ، أجْرِ الحق عن مفرق رأسي ، وأحدث سحنون اتجاهات جديدة في القضاء ، فأنشأ وظيفة صاحب المظالم للفصل في القضايا الصغيرة ، وكان يجلس إلي الناس في الأسواق والمجتمعات تسهيلاً عليهم في حل النزاع ، وكانت الحسبة تابعة للأمراء فأحيلت في عهد سحنون إلي القضاء ، ولشدة تمسكه بالعدالة سمي « سراج القيروان » ولم يمنعه القضاء من بث العلم ، فقد جاء إليه طلبته من الأندلس وجميع أقطار إفريقية ، وتخرَّج عليه نحو سبعمائة رجل ، وكان يدرس بجامع عقبة بالقيروان ، وقد ألَّف كتاباً في مذهب مالك سماه « المدونة الكبري » [2] .

ثم حدث شيء آخر عميق الصلة بانتشار الإسلام في هذه البقاع وبالتعصب له، ذلك أن الفرنجة هاجموا شمالي افريقية وغربيها عقب سقوط الأندلس ، وهب المسلمون يدافعون عن بلادهم ، فارتبط الإسلام بالحرية ، وارتبطت المسيحية بالعدوان والاستعمار ، فرسخت قدم الإسلام ولم تجد المسيحية لها أرضاً بهذه

(١) المونس في أخبار أفريقية وتونس ص ٨ .

(٢) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا للأستاذ الطاهر الزاوي ص ١٤٨ .

البقاع ، وفي الدور الاستعماري الأخير حاولت فرنسا وإيطاليا نشر المسيحية ، ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل الذريع ، ولإعطاء فكرة دقيقة عن أديان السكان بهذه المناطق ننقل الإحصائيتين التاليين :

الإحصاء الرسمي للسكان بالمغرب سنة ١٩٤٧ :

٨.٠٨٨.٥٥١	من المسلمين
٢٠٣.٨٣٩	من اليهود
٢٤.٩٩٧	من الجاليات الأجنبية [١].

أما الجزائر فسكانها كالآتي :

٩.٠٠٠.٠٠٠	من المسلمين
٢٠٠.٠٠٠	من اليهود
٨٦٦.٠٠٠	من الجاليات الأجنبية [٢] .

الوحدة المغربية

يقول ابن خلدون [٣] : المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار ، فحده من جهة المغرب البحر المحيط . . . ومن جهة الشمال البَحر الرومي . . ومن جهة القبلة (الشرق) والجنوب العرقُ ، وهو صحراء تمثل سياجاً علي المغرب من جهة الجنوب ، تبتديء من المحيط وتتجه نحو الشرق علي سمت واحد حتي تلتقي بصحراء مصر الغربية .

---

(١) محمود الشرقاوي : المغرب الأقصي ص ١٩ .

(٢) توفيق المدني : هذه هي لجزائر ص ٢٧ .

(٣) العبر : ٦ ص ٩٨ ـ ١٠٠٠ .

وجاء في مقدمة الدستور المغربي الذي أعلن في ديسمبر سنة ١٩٦٢ أن «المملكة المغربية جزء من المغرب الكبير »[١] . وقد جرت في شهر (فبراير سنة ١٩٦٣) مشاورات لتحقيق الوحدة بين أقطار المغرب الكبير يشترك فيها مندوبون من تونس والجزائر والمغرب ، والحقيقة أن هذه الأقطار الثلاثة وليبيا رابعتها نعمت بالوحدة في عهود إسلامية كثيرة ، فقدنعمت بالوحدة الكاملة في العهد الأموي ومطلع العهد العباسي ، ونعمت بالوحدة الكاملة أيضاً في العهد الفاطمي .، وعهد الموحدين ، وبوحدة شبه كاملة في العهد العثماني ، إذ كانت العلاقات طيبة في الغالب بين العثمانيين في ليبيا وتونس والجزائر وبين الأشراف في المغرب .

وظروف دول الشمال الإفريقي واحدة في دعائم كثيرة ، في الجنس واللغة والدين والتاريخ والآمال وفي وحدة الأرض والمناخ والتقاليد ، ويرجي أن تكون وحدتها جناحاً للوحدة العربية الكبري حين يلتئم شمل العرب في وحدتهم الشاملة .

أما عن موقف ليبيا ، فإن ليبيا تمثل حلقة اتصال بين المغرب العربي من جانب وبين مصر من جانب آخر ، ذلك لأن طرابلس ـ كما يري الباحثون ـ تتجة إلي المغرب ، أما برقة فتتجه بوجهها نحو الشرق ، نحو مصر ، لكثرة ما كانت برقة جزءاً منها [٢] .

ومما يؤكد وحدة دول المغرب العربي أن أرضه واحدة ، ويتحدث المغاربة عن التراث المغربي الذى يتميز بالتداخل والاستمرار إذ أنه لا يوجد بين أقاليم المغرب العربي بعضها والبعض أي فاصل أو حاجز مما هو مألوف بين البلدان الجغرافية كالأنهار الكبري والجبال العالية ، والبحار المتسعة والصحاري المترامية ، ومن الواضح أن مثل هذا التناسق الجيولوجي والاستمرار الجغرافي من شأنه أن يفرض على سكانه من البشر بيئة طبيعية تلقي ظلالها المنسجمة

(١) دستور المغرب .

(٢) أنظر ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٠١ و ١٠٧ .   (التاريخ الإسلامى جـ ٤ م ١٢)

علي الجميع بمقدار متساو من التأثير والانفعال المشترك [1] .

وقد نشرت الصحف العربية الصادرة صباح ١٦ مارس سنة ١٩٦٣ أنه قد تمّ توقيع ثماني اتفاقيات بين الجزائر والمغرب قبل عودة الملك الحسن الثاني إلي بلده من الزيارة الرسمية التي كان يقوم بها للجزائر ، وقد نصت هذه الاتفاقيات علي توثيق الروابط بين البلدين في ميادين الثقافة والسياسة والتشريع والاقتصاد ، وصدر بلاغ مشترك جاء فيه أن هذه الاتفاقيات هي الخطوات الأولي في سبيل إقامة « المغرب الكبير الذي يتوق الشعبان المغربي والجزائرى إلي إنشائه ».

الحروب الصليبية فى شمالى إفريقية

شغلت الحروب الصليبية الكبري في سوريا ومصر أذهان المسلمين وأقلام الباحثين والمؤلفين ، حتي لأوشك الناس أن يغفلوا أمر حروب صليبية أخري وقعت في الشمال الافريقي ، فقد تعرض الشمال الافريقي لهجوم صليبي قام به أسير المنصورة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي فدا نفسه بجزية كبيرة ليفك المصريون إساره علي ألا يعود للهجوم علي الشرق الإسلامي ولكن الرجل كانت تدفعه عصبية مجنونة ضد المسلمين ، فحنث فى وعده وهاجم تونس .

وبعض المفكرين يعتبر هذه الغزوة الصليبية حملة صليبية ثامنة ، إذ أنها أضافت حملة جديدة للحملات الصليبية السبع علي الشرق ، وقد حدث نزول لويس وحلفائه في تونس في آخر ذي العقدة سنة (٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م) علي رأس جموع كبيرة [1] ولم يكن نزول الصليبين أرض تونس مفاجأة للمستنصر الخليفة الحفصي ، فقد كان هذا متوقعا ، إذ سبقت به الأخبار إلي تونس ، فراح الخليفة الحفصي يعد العدة لرد الغزاة ، وأدرك الحفصيون أن الغزاة يتجهون الي

---

(١) مقال عن «الاسس التاريخية لوحدة المغرب العربى» للاستاذ الشيخ طه الولى نشر بعدد نوفمبر ١٩٧٠ بمجلة دعوة الحق .

(١) ابن أبي دينار : المونس ص ١٣٦ .

قرطاجنة لينزلوا بها ، فزحف التونسيون لملاقاتهم في هذا المكان ، وربما كان في وسع التونسيين أن يردوهم عن النزول في قرطاجنة ، ولكنهم أدركوا أن الجيش الفرنسي قد يحاول أن ينزل في ميناء آخر ، ولم تكن هناك قوات بالمواني الأخري تستطيع الذود عنها ، فرجح الرأي الذي كان يتجه لاستدراج الصليبين إلي قرطاجنة ، علي أن يحاصر الجيش التونس هؤلاء الغزاة ويتمكن منهم .

بيد أن الصليبيين سرعان ما استفادوا من الأبنية والحصون الموجودة بقرطاجنة وأضافوا لها عددا من الأسوار والخنادق ، وفي نفس الوقت كانت مؤنهم ومعداتهم العسكرية تفد لهم عن طريق البحر من صقلية أو عن طريقها [1] .

واستعداداً للصراع ضد الغزاة ، نظم الخليفة الحفصي جيشه واستنفر المغرب لمساعدته ، فاستجاب له جند من المغرب الأوسط ، كما استجاب له بعض عرب المشرق ، وبذلك اجتمع له من المسلمين عدد لا يحصي ، وخرج العلماء والفقهاء والمرابطون مع المجاهدين ليأخذوا نصيبهم من الجهاد [2] وظل الخليفة عاقدا مجلس الحرب لا ينهيه ، وقد سقط في هذا الصراع عدد كبير من الفريقين ، وبعد حوالي أربعة شهور أصيب جيش الغزاة بوباء ، قضي علي عدد كبير منهم، وامتد هذا الوباء الي لويس التاسع فقضي عليه في العاشر من المحرم سنة (٦٦٩ هـ ١٢٧٠ م) ودفن بمدينة قرطاجنة ويقال في موت الملك أسباب أخري غير هذا السبب .

وأصبح واضحا بعد ذلك أن حلا سلميا لا بد أن يوقف هذا الصراع إذ اتضح أن القوة غير ذات جدوي ، ودارت مفاوضات بين الخليفة المستنصر وزوجة لويس التاسع علي أساس أن يترك الصليبيون تونس ، وتعقد هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاماً ، علي أن تدفع تونس التكاليف التي أنفقتها الحملة ، وقد قدرت بمبلغ كبير [3] .

(١) ابن أبي دينار والعبر لابن خلدون جـ ٦ ص ٢٩٢ .

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٢٩٤ .

وكتب عقد الصلح ، وجلا عن تونس جيش الغزاة في ربيع الأول من نفس العام وتذكر كتب الأدب أن شاعرا تونسيا تحدث عن نهاية لويس في قصيدة أبرز فيها أن حظ لويس في مصر كان دارا سجن فيها ، وأن حظه في تونس كان قبرا دفن به .

ويري بعض المؤرخين أن حماس الفرنسيين الحالي ضد الشمال الافريقي ليس ألا تلبية لهتاف تخيلوه ينبثق من مقبرة شهيدهم الدفين ، فكان ذلك ضمن الأسباب التى جعلت الشمال الافريقي هدفاً للاستعمار الفرنسي مدة طويلة (١) .

علي أن سقوط أسبانيا في أيدي المسيحيين قد جدد الاتجاه الصليبي في نفوس الأوربيين ، فأصبح الشمال الإفريقي هدف المسيحيين المنتصرين ، وبخاصة الأسبان والبرتغاليون ، فقامت حروب صليبية قاسية ، طويلة المدي ، تعرضت فيها سواحل شمالي إفريقية إلي هجمات مسيحية متصلة ، وسقط بعضها في أيدي المهاجمين كما سنري فيما بعد ، ولا تزال للأسف حتى الآن بقايا لهذه الحروب الصليبية ، تتمثل في القواعد العسكرية وبعض المدن الساحلية التي لا يزال يحتلها أبناء الصليبيين الأول كما سنري فيما بعد .

دور المغرب العربي في نشر الإسلام

كان التوتر العسكري بين المعسكر الإسلامي بشمالى إفريقية والمعسكر المسيحي بالأندلس وأوربا ، داعياً لأن يتعصب سكان المغرب العربي للإسلام ويعملوا علي نشره وازدهاره ، إذ ارتبط الإسلام بالوطن وبالحرية كما ذكرنا آنفاً. ولعل هذا كان ضمن الدوافع للنشاط الضخم الذي قام به سكان المغرب العربي لنشر الإسلام في قلب قارة إفريقية ، ويسجل التاريخ سيرة المبشرين ورجال الطرق الصوفية الذين انسابوا عبر الصحراء ، فنشروا دين الله علي ساحل الأطلسي وفي قلب القارة ، وقد أوردنا تفاصيل شاملة لهذا الموضوع عند

(١) شمال افريقية لأستاذ سعيد العريان وآخرين ص ١٧ .

كلامنا عن الدول الإسلامية بقلب القارة ، أي عند الكلام عن السنغال ومالي وغينيا وغيرها ، في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

المدن والأمصار بالشمال الإفريقي :

يذكر ابن خلدون أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة ، ويعلل ذلك بأن العمران بهذه المنطقة كان بدوياً ، وطبيعة الحياة البدوية لا تقيم المدن ولا تشيد الأمصار ، أما الدول التي ملكت الشمال الافريقي من غير أبنائه فلم يطل أمد حكمها ، وبالتالي لم ترسخ الحضارة هناك ولا الصنائع التي هي من توابع الحضارة [1] .

تلك هي ملاحظة ابن خلدون ، وهي وصف للواقع حتي عهد هذا الباحث الكبير ، وإذا كان لا يزال لهذه الحقيقة ظل الآن فإن ذلك ينحصر في داخل الصحراء ، أما الساحل الإفريقي فيزدان في الوقت الحاضر بمجموعة رائعة من المدن التي لا تقل جمالا ومدنية عن المدن المقابلة لها علي الساحل الأوربي ، كما أن العصر الوسيط حفل بمجموعة ذائعة الصيت من المدن التي أنشأها المسلمون ، ومن أهم المدن بالشمال الإفريقي عواصم أقطاره : مدينة الرباط عاصمة المغرب ، ومدينة الجزائر عاصمة الجزائر ، ومدينة تونس عاصمة تونس ، ومدينتا بنغازي وطرابلس عاصمتا ليبيا .

وبجانب العواصم ، هناك المدن الاسلامية التي لعبت دورا كبيرا في شئون السياسة والثقافة والاجتماع أشبه بالدور الذي لعبتة القاهرة وبغداد ودمشق ، ومن هذه المدن فاس التي تزدان بجامعة القرويين ذات الصيت البعيد والأثر الحميد في الحياة الإسلامية ، ومنها مدينة الدار البيضاء التي ينسب لها مؤتمر القمة الإفريقي الأول ، ومنها كذلك مدينة مراكش ، وتلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة ، والقيروان وبنزرت والمهدية وسفاقس ، ودرنة وسوراتة ، وغيرها من المدن التي لمعت في التاريخ الوسيط والحديث .

---

(١) العبر جـ ١ ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

ألقاب الحكام بالمغرب العربي خلال العهد العثماني

حمل الحكام بالمغرب في العهد العثماني ألقابا مختلفة ليست في الحقيقة دقيقة المعني ، كما أن معناها كان يتغير من حين إلي حين ، أو كان اللفظ يستعمل في مكان بمعني وفي مكان آخر بمعني آخر ، وسنحاول فيما يلي أن نورد خلاصة لعلها أوفي ما يشرح هذه الألقاب بإيجاز :

البيلر بك : لقب الحكام العثمانيين في الفترة الأولي من الحكم العثماني ، ولحامل هذا اللقب سلطان مدني وعسكري ، فهو الحاكم وهو قائد الجند ،ومدة سلطانه غير محددة بزمن .

الباشا والأغا والاوجاق : الباشا لقب الحكام العثمانيين في الفترة التالية للفترة الأولي ومدة سلطانه ثلاث سنوات ، وهو مدني فقط ، ويقوم بجواره رئيس الجند (الأغا) وهو يقود الجند وحده أو بمعونه (الأوجاق) وهو المجلس الأعلي للجند ، ويتكون من كبار الضباط .

وفي ظل هذا النظام كثرت الخلافات بين الباشا الحاكم المدني والأغا الحاكم العسكري .

الداي : لقب حمله رئيس الجند بالجزائر عندما استبد الجند باختياره ، ولكن الداي سرعان ما تجاوز سلطاته العسكرية ، وأخذ ينافس الباشا في الأمور المدنية ، وقد حل الداي أخيرا محل الباشا ، وأصبح الحاكم المدني والعسكري ، ولم يبق للقسطنطينية إلا أن توافق علي من يرتضيه الجند للرياسة .

الباي : لقب استعمل في تونس ، وله معني الداي الذي استعمل في الجزائر ويمتاز الباي بصفة الوراثة فيه [1] ، وقد استعمل هذا اللقب في باديء الأمر لحكام الأقاليم .

---

(١) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرار الحاكم ص ١٢٦ - ١٣١ ، والمغرب الاقصى ص ٢٨ - ٢٩ .

والآن نبدأ كلامنا عن أقسام الشمال الافريقي قطراً قطرا ، مبتدئين من أقصي الغرب متجهين نحو الشرق (المغرب فالجزائر فتونس فليبيا) وقد سبق في التسلسل التاريخي الذي أوردناه آنفا - أن ذكرنا الدول التي قامت بهذه المنطقة، ونريد الآن أن نعطي تفاصيل وافية عنها ، مع ملاحظة أن هناك دولا حكمت الشمال الافريقي ، ولكن كان تاريخها أكثر ارتباطا بمنطقة أخري ، وذلك مثل الفاطميين الذين ارتبط تاريخهم بمصر ، والاتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون من القسطنطينية وهؤلاء لن نفصل القول عنهم هنا بل أوردنا عنهم التفاصيل عند الكلام عنهم في مراكزهم الأساسية بالجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وسنتناول هنا من تاريخهم ما يخص الشمال الافريقي فقط .

وطبيعي أننا سنفصل القول أو نوجزه عن كل دولة من الدول التي قامت بشمالي افريقيا حسب مكانة هذه الدولة وحسب الدور الذي لعبتة في تاريخ الإسلام وتاريخ الفكر الاسلامي .

أولاً

مراكـــــش

« المغـــرب »

الأدراسة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ (٧٨٨ - ٩٨٥ م)

في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) هبّ العلويون في المدينة المنورة بثورة ضد العباسيين ، وكان يقودها الحسين بن علي بن الحسن ، وقد أرسل الخليفة لهم جيشا كثيفا التقي بالثائرين في مكان يقال له « فخ » بين مكة والمدينة ، وهزم العلويون في هذه الموقعة [1] وقد فر عقب الهزيمة بعض زعماء العلويين ، منهم ادريس بن عبد الله الذي ولي وجهه تجاه مصر وعبرها إلي المغرب الأقصي ، ويقول ابن خلدون [2] إنه نزل علي قبيلة اسمها (أوربة) وهي بطن من بطون البرانس ، وأميرها يومئذ في « وليلي » اسمه إسحق بن محمد بن عبد الحميد، واستجار إدريس بأمير القبيلة فأجاره ، وجمع البربر علي دعوته ، فاجتمعت عليه زواغة ولواته وسراته وغمات ونفزة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب ، فبايعوه وأقروا بأمره ، وتم له الملك والسلطان بالمغرب وقامت باسمه دولة ورثها أعقابه ، وكانت عاصمته « وليلي » ثم أصبحت العاصمة « فاس » ابتداء من سنة ١٩٢ [3] .

ودولة الأدراسة هى أول دولة شيعية فى التاريخ [4] ، وكانت تشمل مراكش الحالية والجزء الغربى من الجزائر ، وينسب للأدارسة أنهم أول من نقلوا الحضارة الإسلامية إلى المغرب ، وقد قاد إدريس الأول أنصاره إلى ميادين جديدة وراء نهر ابن رقراق فى جبهات لم تستطع الجيوش الرومانية التوغل فيها ، فدخلت هذه البلاد الدين الإسلامي بسهولة [5] .

---

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ١٥٦ وانظر كذلك الفخرى ص١٦٦ - ١٦٧ ، وابن الاثير جـ ٦ ص ٣٠، ومروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٦-٢٥٧ ، والاستقصا للسلاوي جـ١ ص ٦٧ .

(٢) العبر جـ ٦ ص ١٤٧ .

(٣) زامباور . معجم الانساب والأسرات الحاكمة جـ ١ س ١٠٣ .

(٤) Hitti : History of the Arabs II : 541.

(٥) محمد الشرقاوى : المغرب الأقصى ص ٢٠ .

ولكن هذه الدولة كانت تقع جغرافيا بين قوتين تناصبانها العداء ، وهما الأمويون بالأندلس والعباسيون ثم الفاطميون بتونس ، ومن هنا وُجهت للدولة طعنات من الجانبين ، هذا بالإضافة إلى الخلافات بين أبناء السلاطين ، تلك الخلافات التى طالما أسفرت عن انقسام الدولة وضعفها ، وقد بدأت هذه الخلافات منذ عهد محمد بن إدريس ، ثم اشتدت حتى أصبح عسيرا أن يعرف بالضبط صاحب السلطة الرئيسية لكثرة من يدَّعونها من الأمراء الذين استقل كل منهم بمنطقة من المناطق ، ومن هنا لم تذكر المراجع التى بين أيدينا التواريخ الكافية لأمراء بعض فترات الحكم الإدريسى كما سنرى فى قائمة ملوكهم ، وبجانب الخلافات بين أمراء الأدارسة ، كانت هناك الحياة القبلية التى لا تعرف الاستقرار ، وكل هذا أدى إلى انهيار الدولة وسقوطها ، وفيما يلى قائمة ملوكها :

إدريس (الأول) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن	١٧٢ = ٧٨٨
إدريس (الثانى) بن إدريس الأول	١٧٧ = ٧٩٣
محمد بن إدريس الثانى	٢١٣ = ٨٢٨
على (الأول) بن محمد	٢٢١ = ٨٣٦
يحيى (الأول)	٢٣٤ = ٨٤٩
يحيى (الثانى) بن يحيى الأول	؟
على (الثانى) بن عمر بن إدريس الثانى	؟
يحيى (الثالث) بن قاسم بن إدريس الثانى	؟
يحيى (الرابع) بن إدريس بن عمر	٢٩٢ = ٩٠٤
الحسن بن قاسم	٣١٠ = ٩٢٢

(١) زامباور جـ ١ ص ١٠٣ .

الحكم القبلى وسلطة الفاطميين :

عندما انحل سلطان الأدارسة أصبح السلطان فى يد القبائل التى سبق الحديث عنها ، وأحيانا فى يد أفراد من أسرة الأدارسة تزعموا الحركات الانفصالية .

وفى خلال هذا التفكك ظهر الفاطميون بتونس ، ثم أخذوا يمدون سلطانهم شيئا فشيئا حتى اكتمل لهم السلطان على الساحل الإفريقى كله ، ولكن نفوذ الفاطميين فى المغرب اكتفي بالساحل ولم يتجه نحو قلب القارة ، بل ظلت الحياة القبلية مسيطرة بالجنوب ، ولما انتقل الفاطميون إلى مصر أخذ سلطانهم يأفل بالشامل الافريقى [1] ، وأتيحت الفرصة للحياة القبلية لتنتشر وتزدهر ، وظلت الأحوال كذلك حتى جاء المرابطون فأنهوا الحكم القبلى ، وأصبح لهم السلطان بالساحل والداخل .

المرابطون ٤٤٨ - ٥٤١ = ١٠٥٦ - ١١٤٧ :

المرابطون هم عدة قبائل تنسب إلى حمير ، وأشهر هذه القبائل قبيلة لمتونة ، وقد دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة ، ولكنهم بعد ذلك أحبوا الانفراد والبعد عن ضوضاء المدن ، فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها [2] .

ويحكى لنا ابن خلدون [3] مطلع قصة المرابطين فيقول : إن يحيى بن إبراهيم زعيم قبائل الملثمين خرج للحج فى رؤساء من قومه سنة ٤٤٠ هـ فلقوا فى منصرفهم بالقيران شيخ المذهب المالكى أبا عمران الفاسى ، فطلبوا منه أن يرسل معهم فقيها يعلمهم ويرشدهم ، فاختار لهم عبد الله بن يس الجزولى ، فرحل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ، ثم مات يحيى بن إبراهيم ، وافترق أمر

(١) سنتكلم عن الفاطميين عند الحديث عن تونس .

(٢) الاستاذ العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس ص ١٧٥ .

(٣) العبر جـ ٦ ص ١٨١ - ١٨٣ .

الملثمين ، وطرحوا عبد الله بن يس ، واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكاليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء لمتونة وبعض المريدين وانتبذوا الناس في ربوة أسموها « رباطا » أي قاعدة يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ، أو يفرغون فيها للعبادة والتأملات الروحية والتعليم ، وكانت دروس عبد الله بن يس للمرابطين معه تشمل إصلاح أخلاق الفرد ، كما كانت تهاجم نظم الحكم القائمة ، وإرهاق الرعية بالضرائب الفادحة ، وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثر فيها مريدوه حتى صاروا ألفا ، فهتف : إنكم لن تغلبوا عن قلة ، وقد تعيَّن علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك . فخرجوا وقاتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكثالة ومهمومة حتى ثابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة [1] وترك ابن يس قيادة «المرابطين» العسكرية ليحيى بن عمر وكانت له زعامة في لمتونة ، فلما توفي يحيى سنة ٤٤٨ (١٠٥٦م) خلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف ابن تاشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين ، وتوفي ابن يس سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩م) وبدأ الخلاف يدب بين أبي بكر ويوسف ، وحسم الخلاف بأن اتجه أبو بكر نحو الجنوب فنشر الإسلام هناك [2] وواصل يوسف سيره شمالا ، وكان النصر الأكبر في ركابه ، فقد كان متدينا حازما داهية ، فاستطاع أن يستولي على فاس سنة ٤٦٣ (١٠٧٠م) وعلى طنجة سنة ٤٧١ (١٠٧٨م) ، وهكذا استمر في توسعه في الشمال والجنوب حتى مات أبو بكر سنة ٤٨٠ (١٠٨٧م) فأصبح يوسف زعيم المرابطين غير منازع ، وامتد ملكه تجاه الشرق فشمل جزءا من الجزائر ، واتجه نحو الجنوب ، حتى بلاد السنغال [3] ، وعبر مضيق جبل طارق فضم أسبانيا لسلطانه كما سبق القول .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٣ .

(٢) تفاصيل ذلك في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٣) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٧٢ - ١٨٣ .

ويقول ليفى بروفنسال [1] عن المرابطين ما يلى :

هؤلاء الملثمون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهيأت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ثم لم يلبثوا أن «تأسبنوا» بمجرد الاتصال بالحضارة الإسلامية بالأندلس ، برزوا حقا فى العصر الوسيط المغربى ، ولم يكن هذا شأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين وحده ، وإنما كان أيضا شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة من الرخاء والازدهار ، والذى ازدان بلاطه بمراكش بخيرة العلماء والأدباء الذين وفدوا من الأندلس وعاشوا فى رحابه بافريقية [2] .

وأختط يوسف مدينة مراكش سنة ٤٥٤ ونزلها بالخيام ، وأدار سورها على مسجد وعلى رقعة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ، وأكمل تشييدها وأسوارها على ابنه سنة ٥٢٦ وجعلها عاصمة لمملكته [3] ، ويرى ليفى بروفنسال [4] أن زعيم الملثمين لاحظ فى اختياره موقع عاصمته أن يستطيع مراقبة حركات الجبليين الذين كانت تحوم حولهم الشكوك والريب والذين تمخضت عنهم حركة الموحدين .

وملوك المرابطين هم :

أبو بكر بن عمر	٤٤٨ = ١٠٥٦
يوسف بن تاشفين	٤٨٠ = ١٠٨٧
على بن يوسف	٥٠٠ = ١١٠٦
تاشفين بن على	٥٣٧ = ١١٤٣
ابراهيم بن تاشفين	٥٤١ = ١١٤٦ [5] توفى سنة توليته .
اسحق بن على	٥٤١ = ١١٤٧ .

(١) الاسلام فى الغرب والاندلس ص ٢٤١ و ٢٤٨ .
(٢) انظر كذلك ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٦٥ .
(٣) العبر لابن خلدون جـ ص ١٨٤ .
(٤) الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٤٣ .
(٥) زامباور : جـ ١ ص ١١٣ ولين بو ص ٤٣ .

ولم يكتمل سلطان المرابطين قرنا ، وقد بدأ ضعفهم بعد فترة غير طويلة من بدء حكم على بن يوسف بن تاشفين ، وقد أورد ليفى بروفنسال فى الدراسة العميقة التى قام بها عن المرابطين أهم الأسباب التى جعلت هذا الملك الضخم يتهادى ويهوى بسرعة ، وهو يوافق ابن خلدون على أن نجم على بن يوسف لم يأفل إلا فى اللحظة التى جرد فيها ابن تومرت زعيم الموحدين وأتباعه الحملة على المرابطين (١) .

على أنه كانت هناك أسباب أخرى هيأت لضعف أمير المرابطين ولم تمكنه من الدفاع عن عرشه ، وأهم هذه الأسباب تطلع النساء إلى أن يكون لهن دور المشيرات بل الآمرات فى البلاط ، وللنساء فى مجتمع لمتونة الصحراوى منزلة حرصن على أن يحتفظن بها فى بلاط المرابطين ، وأتاحت لهن الحرية التى لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن أن يتدخلن بشغف فى شئون الدولة ، والتمتع بالسلطة التى استطعن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهن مسموعة لدى الأزواج والأبناء (٢) .

وبجانب سلطة النساء كانت هناك سلطة الفقهاء المتزمتين الذين كان من أبرز خصالهم قلة البحث ، والميل الظاهرى للتزهد والحث عليه مع حرص مستور على الدنيا وزخرفها ، وتحت تأثير هؤلاء انقطع الأمير للعبادة والتبتل ، وأمر بحرق كتب الإمام الغزالى الذى فضح ميول أمثال هؤلاء الفقهاء ونزعاتهم الآثمة (٣).

ولما انقطع الأمير للعبادة استبد بالأمر أمراء الأقاليم من أسرة المرابطين ، وأخذ كل منهم يصرح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه .

وهكذا انحلت دولة المرابطين وضعف شأنها ، فكانت نهاية على بن يوسف (٥٣٧) هى فى الحقيقة نهاية حكم هذه الأسرة إذ سقطت عاصمتهم بعد ذلك

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٨ - ١٨٩ . وليفى بروفسال فى المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥١ .

(٣) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

بحوالى أربع سنوات فى يد القوة الجديدة الناشئة ، قوة الموحدين .

الموحدون ٥٢٤ - ٦٦٨ (١١٣٠ - ١٢٦٩) .

فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى انتشر بالشمال الافريقى مذهب المجسّمة الذى يفسر الآيات القرآنية التى بها تشبيه للذات الآلهية تفسيرا حرفيا ، وقد أثار ذلك الاتجاه بعض الباحثين والمفكرين بهذه المنطقة ، فاتجهوا اتجاها مخالفا ، خلاصته أن الله سبحانه وتعالى وحدةٌ لا يتصورها العقل الإنسانى ، وهو فوق التشبيه ، وأن آيات التجسيم تحمل معنى مجازيا ليس غير ، والله سبحانه منزه عن التشبيه بالخلق ، والقول بغير ذلك كفر وإلحاد ، وأطلق هؤلاء المفكرون على أنفسهم لقب « الموحدين » أى الذين يعتقدون بوحدانية الله فيما يتعلق بالتركيب ، فيرون أنه ليس مكونا من أجزاء ، كاعتقادهم بوحدانيته فى الوجود ، أى أنه لا إله سواه [1] .

ولم يكن هذا هو الشطط الدينى الوحيد الذى ارتكب فى عهد المرابطين ، بل كان هناك شطط آخر هو أن سكان المغرب كانوا قد اعتنقوا مذهب مالك ، ولكنهم بالغوا فى تبعيتهم لهذا المذهب ، فلم يعودوا يرجعون للأصول (القرآن والحديث) يستنبطون منها الأحكام ويتخذونها مادة للدراسة ، بل اتجهت العناية إلى كتب الفروع ، ولم يكن يحظى لدى أمراء المرابطين إلا من علم فروع مذهب مالك ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها [2] ، وقد ثار الموحدون ضد هذا الاتجاه أيضا ، وقاموا بدعوتهم على أساس ضرورة العودة للقرآن والحديث وفهمهما والأخذ عنهما ، وعُرفوا من أجل ميلهم للحديث « بالمحدثين » .

والزعيم الأول للموحدين أو المحدثين هو محمد بن تومرت ، ويرى ابن خلدون أن نسبه يرجع إلى على بن أبى طالب ، وأن جده الأعلى وفد مع إدريس إلى

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ليفى بروفنسال: الاسلام فى المغرب والاندلس ص٢٤٩ - ٢٥٠ وكارل بروكلمان جـ٢ ص١٩٠.

المغرب ، ولكن نسبه الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة ، ورسخت عروقه فيهم ، والتحم بعصبيتهم ، فلبس جلدتهم ، وانتسب بنسبهم وصار فى عددهم(١).

فتجمع في محمد بن تومرت دم العلويين وأخلاق البربر ، وقد طاف محمد بالبلاد الإسلامية للعلم والتجربة ، فزار قرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة ، وأصبح له في الطريقة الأشعرية إمامة وقدم راسخة (٢) ، وعاد بهذه الطريقة الي المغرب حيث قابل علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين في دولة المرابطين وقد دب الخوف في قلب ابن تاشفين ، إذ أدرك أنه تجمَّع في محمد بن تومرت صفات الزعيم بالإضافة إلي العلم والأرومة الطيبة التي ينحدر منها ، وقد أشار بعض المستشارين عَلَي عليّ بن تاشفين بقتله ، ولكن وزير عليّ هون عليه أمره فاكتفي بإبعاده (٣).

وانحدر ابن تومرت إلي الصحراء حيث يعلّم الناس ، فاجتمع عليه مريدون كثيرون سحرتهم لباقته وقوته ، فبايعه مريدوه علي الطاعة ، ولقبوه بالمهدي ، وانهال عليه الناس ، فقوي أمره ، وعظمت شوكته ولم يكتف بشرح مبدئه المتصل بالتوحيد ، ولا بشرح ضرورة العودة للقرآن والحديث عند استنباط أحكام الفقة الاسلامى ، بل جاوز ذلك فهاجم الحكام الذين يسلبون أموال الناس بالباطل ، ولا يقومون بواجباتهم تجاه المحكومين كما قررتها شريعة الاسلام ، وكان واضحا أنه يهاجم بذلك سياسة المرابطين ، ويعلن أنهم تخلوا عن المبادئ الإسلامية التى كانوا يدعون لها إبان إقامة دعوتهم (٤).

وهددت هذه الدعوة ملك المرابطين الذى كان قد بدأ يهتز ويهرم ، للأسباب

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٧ .

(٣) ان خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٨ وما بعدها .

(٤) ان خلكان : المرجع السابق .

الكثيرة التى أوردناها آنفا ، وأصبح الصراع العسكرى ضروريا ليكتب النصر للجبهة الناشئة أو يعيد الشباب لجبهة المرابطين ، ودارت معركة عنيفة بين المرابطين والموحدين ، وكان يقود جيش الموحدين عبد المؤمن بن على أبرز مريدى المهدى ، وقد دارت الدائرة على الموحدين وقتل أكثر جنودهم ، ولم ينج عبد المؤمن وقله من أصحابه إلا بشق الأنفس ، ويروى أن المهدى عندما تلقى خبر هذه الهزيمة سأل :

ما فعل عبد المؤمن ؟

فأجيب : هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء .

قال المهدى : ما بقى عبد المؤمن فلم يهلك أحد [١] . وأعاد المهدى بهذه العبارة الثقة إلى مريديه وأتباعه .

واتجه الموحدون إلى إعداد أنفسهم وتكوين جيوشهم من جديد ثم عاودوا الاصطدام بالمرابطين فحققوا بعض الانتصارات ، ودفع النصر محمدا بن تومرت إلى مواصلة النضال ضد المرابطين ، فأعد جيشا كبيرا زحف به على مراكش وحاصرها ، ولكنه فك الحصار ، إذ تلقت المدينة معونة حربية من أمير سجلماسة، ومرض المهدى سنة ٥٢٤ فأوصى بالخلافه بعده لعبد المؤمن ، وتوفى المهدى عقب ذلك ، فكتم عبد المؤمن وأصحابه خبر وفاة المهدى خوفا من سخط المصامدة ضد ولاية عبد المؤمن ابن على ، لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأ إذاعة خبر الوفاة إلى أن يخالط بشاش الدعوة قلوبهم ، ودفنوا المهدى داخل الدار ، وكان عبد المؤمن وأصحابه يدخلون إلى مدفنه ويعقدون الجلسات ، ويتخذون القرارات ، ثم يخرجون بها على أنها من إرشاد ابن تومرت ورأيه ، فلما تمكن أمر الدعوة وتمت مصاهرة بين عبد المؤمن والشيخ أبى حفص أمير هنتانة وكبير المصامدة أعلنوا موت المهدى واستقر الأمر لعبد المؤمن [٢].

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢٧ .

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٢٧ و ٢٢٩ .

واستطاع عبد المؤمن أن يحقق أهداف أستاذه ، فواصل انتصاراته الحربية حتى أسقط دولة المرابطين واحتل عاصمتهم سنة ٤٥١ (١١٤٦م) ، وزحف بعد ذلك على الأندلس ، حيث ورث المرابطين فى الجزيرة الخضراء كما ورثهم فى الشمال الافريقى .

ولم يكتف الموحدون بما كان تحت سلطان المرابطين فى الشمال الافريقى ، بل إنهم ساروا إلى الشرق ، واصطدموا بالنورمانديين الذين كانوا قد هزموا الحسن الزيري فى تونس واحتلوا المهدية سنة ١١٤٨ ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس ، وقد استطاع الموحدون أن يهزموا النورمانديين ويُجلوهم عن الساحل ، ثم سار الموحدون إلى الشرق فاحتلوا برقة حيث كان يسيطر النفوذ المصرى ، وكانت لهم أساطيل مرهوبة الجانب ، وفلسفة فى الحكم قوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الزهد فى الدنيا (١) .

ومن أشهر ملوكهم أبو يوسف يعقوب المنصور ويقول عنه ابن خلكان ما يأتى :

كان الأمير يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الأحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم ، وأمر برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب والسنه النبوية ، ولا يقدّمون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق مثل أبى الخطاب بن دحية وأخيه عمرو ومحيى الدين بن العربى نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات ، ويأمر بالنداء فى الأسواق بالمبادرة إليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشة عزره تعزيراً بليغاً ، وكان قد عظم ملكه

(١) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥٨ وما بعدها وكارل بروكلمان جـ٢ ص١٩٤.

واتسعت دائرة سلطته حتى أنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو فى طاعته ، وداخل فى ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس ، وكان محسنا محبا للعلماء ، مقربا للأدباء ، مصغيا إلى المدح مثيبا عليه [1] .

وملوك الموحدين هم :

محمد بن تومرت (المهدى)	حتى سنة ٥٢٤ = ١١٣٠
عبد المؤمن ن على	من ٥٢٤ = ١١٣٠
(استولى على مراكش سنة ٥٤١ = ١١٤٦)	
أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨ = ١١٦٣
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ = ١١٨٤
محمد الناصر	٥٩٥ = ١١٩٩
أبو يعقوب يوسف الثانى	٦١١ = ١٢١٤
أبو محمد عبد الواحد المخلوع	٦٢٠ = ١٢٢٣
أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١ = ١٢٢٤
يحيى المعتصم بالله	٦٢٤ = ١٢٢٧
أبو العلاء ادريس المأمون	٦٢٦ = ١٢٢٩
عبد الواحد بن المأمون	٦٣٠ = ١٢٣٢
أبو الحسن على السعيد	٦٤٠ = ١٢٤٢
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦ = ١٢٤٨
أبو العلا الواثق	٦٦٥ = ١٢٦٦
	إلى ٦٦٨ = ١٢٦٩ [2]

ودب الضعف فى جسم الدولة عقب الهزيمة الساحقة التى نزلت بالموحدين فى موقعة حصن العقاب بالأندلس التى أشرنا لها من قبل ، وعلا سلطان الوزراء ،

(١) انخلكان : وفيات الاعان جـ ٢ ص ٤٣٢ .

(٢) زامباور ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ ولين بول ص ٤٧ .

فآذن ذلك بتفكك الدولة ، وظهر - كما ذكرنا من قبل - بنو حفص فى تونس ، وبنو زيان بتلمسان ، وبنو مرين بمراكش ، بجوار بعض الحركات القبلية الاستقلالية ، وقد احتل بنو مرين عاصمة الموحدين سنة ٦٦٨ وانتهت بذلك دولة الموحدين .

بنو مرين ٥٩١ - ٩٥٧ = ١١٩٥ - ١٥٥٠ :

جبل زناتة هو موطن بنى مرين ، وهم قوم أشداء يعيشون فى حياة قبلية بين فجيج وسجلماسة ، ويميلون للقفار والصحارى والصيد والغارات ، دعاهم المرابطون للاشتراك معهم فى رد عدوان الفرنجة على المسلمين بالأندلس ، فلبوا الدعوة وكانت لهم صولة فى الهجمات الناجحة .

ودالت دولة المرابطين وجاء الموحدون إلى الحكم ، وبنو مرين على حالهم من الحياة البدوية التى تعد الفروسية والغارة من أهم دعاماتهم ولما بدأ الضعف يظهر على ملك الموحدين بدأ بنو مرين يقومون بغزوات خاطفة على ما يجاورهم من بلدان الموحدين ، وشكا الناس للخليفة بمراكش (محمد الناصر آنذاك) فبدأ صراع بين القوتين ، وكان بنو مرين تحت قيادة زعيم اسمه عبد الحق بن محيو ، خاض بهم معارك ضد جيوش الموحدين وكتب له النصر فيها ، فكان يوزع الغنائم على الناس ولا يأخذ لنفسه منها شيئاً ، مما جمع قلوب أتباعه عليه وحببهم فيه .

واستمرت الحروب بين القوة الناشئة وقوة الموحدين التى بدأ الهرم يظهر عليها، ومما ساعد بنى مرين أن قوى أخرى أخذت تغير على الموحدين فى تونس حيث ظهر بنو حفص ، وفى تلمسان حيث ظهر بنو زيان ، وفى الأندلس حيث الفرنجة ، وعلى هذا استطاع بنو مرين أن يحققوا ألواناً من النصر ، فلما تولى أبو بكر بن عبد الحق زعامتهم سنة ٦٤٢ بدأ شأن بنى مرين يعلو ، فقد فتح مكناسة سنة ٦٤٦ ثم بايعه أهل فاس فأصبحت فاس عاصمة للدولة الجديدة ، وسار فى فتوحاته بعد ذلك من نصر إلى نصر ، ثم جاء بعده أخوه يعقوب بن

عبد الحق الذى استطاع الاستيلاء على مراكش عاصمة الموحدين سنة ٦٦٨ وعلى سجلماسة سنة ٦٧٢ وبهذا دانت بلاد المغرب لبنى مرين [١] .

ومما يذكر أن بنى مرين كانوا فى أول نشأتهم يدعون لبنى حفص فى تونس ويحاربون الموحدين باسم الحفصيين ، إذ كان بنو حفص قد أعلنوا استقلالهم بتونس عن الموحدين قبل قيام بنى مرين ، وواضح أن سبق بنى حفص يرجع إلى أنهم أقاموا دولتهم فى تونس بمنأى عن عاصمة الموحدين ، أما حركات بنى مرين فكانت حول العاصمة حيث موطن القوة فى أية دولة ، وكان بنو حفص لذلك يمدون بنى مرين بالمال والعتاد ، ولكن لما رسخت أقدام بنى مرين بالمغرب ، قطع يعقوب هذه الدعوة ، وأعلن استقلاله ، إذ خضعت لسلطانه مراكش عاصمة الموحدين الذين كان يدين لهم الشمال الافريقى كله بالولاء .

وقد لعب يعقوب بن عبد الحق دوراً كبيراً لمناصرة مسلمى الأندلس ، وطالما كسب معارك عنيفة ضد الفرنجة ، ولكنه كان يكتفى بهذا النصر وبالغنائم يحصل عليها ، فلم يعمل لتوطيد قدمه فى أسبانيا ، ويعتبر عهد يعقوب أنضر عهود بنى مرين [٢] .

وفى سنة ٧٩٦ كانت دولة بنى زيان بتلمسان (الجزائر) قد ظهر عليها الضعف والوهن فزحف عليها بنو مرين وضموها لدولتهم . وفيما يلى أسماء ملوك بنى مرين :

عبد الحق بن أبى خالد محيو	٥٩١ = ١١٩٥
عثمان بن عبد الحق	٦١٤ = ١٢١٧
محمد (الأول) بن عبد الحق	٦٣٧ = ١٢٣٩
أبو بكر بن عبد الحق	٦٤٢ = ١٢٤٤

(١) محمد فريد وجدى : تاريخ بنى مرين بدائرة المعارف ج ٨ ص ٦٧٧ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٦٨٢ - ٦٨٣ .

يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦ = ١٢٥٨
يوسف بن يعقوب	٦٨٥ = ١٢٨٦
عامر بن أبى عامر بن يوسف	٧٠٦ = ١٣٠٦
سليمان بن أبى عامر بن يوسف	٧٠٨ = ١٣٠٨
عثمان (الثانى) بن يعقوب	٧١٠ = ١٣١٠
علي بن عثمان	٧٣١ = ١٣٣١
فارس بن علي	٧٤٩ = ١٣٤٨
محمد بن فارس (ولى ثم عزل فى الحال)	٧٥٩ = ١٣٥٨
محمد السعيد بن فارس	٧٥٩ = ١٣٥٨
إبراهيم بن على بن عثمان	٧٦٠ = ١٣٥٩
تاشفين بن على	٧٦٢ = ١٣٦١
عبد الحليم بن عمر بن عثمان (الثانى)	٧٦٣ = ١٣٦١
محمد (الثانى) بن أبى عبد الرحمن بن على	٧٦٣ = ١٣٦١
عبد العزيز بن على	٧٦٨ = ١٣٦٦
محمد (الثالث) بن عبد العزيز	٧٧٤ = ١٣٧٢
أحمد بن إبراهيم	
عبد الرحمن بن أبى يفلويش بن عمر	٧٧٦ = ١٣٧٤
(وليا معا ثم انفرد أحمد بالحكم بعد ثمانى سنوات)	
موسى بن فارس	٧٧٦ = ١٣٨٤
المنتصر بالله بن أحمد	٧٨٨ = ١٣٨٦
محمد (الرابع) بن أبى الفضل بن على	٧٨٨ = ١٣٨٦
أحمد بن إبراهيم (للمرة الثانية)	(٤٣ يوما) ٧٨٨ = ١٣٨٦
أبو فارس بن أحمد	٧٩٦ = ١٣٩٣
عبد العزيز بن أحمد	٧٩٩ = ١٣٩٦

عبد الله بن احمد	فترة اضطراب وانحلال	٨٠٠ = ١٣٩٧
عثمان (الثانى) بن أحمد	وكثرة عدد مدعى السلطان	٨٠١ = ١٣٩٨
عبد الحق بن عثمان (الثانى)		٨٣١ = ١٤٢٧[1]

وكانت الحياة البدوية طابع ملك بنى مرين ، ولذلك كثر فيهم إسقاط الخلفاء ، ولم تحظ الدولة بالاستقرار ، ويبدو هذا من القائمة السابقة ، وكان هذا التصرف من أسباب ضعف بنى مرين ، وهناك أسباب أخرى أضعفت بنى مرين وهدت ملكهم ، وهى حروبهم الطويلة مع إمارتى تلمسان وتونس ، وتكتل المسيحيين ضدهم فى معاركهم بالأندلس ، وقد نتج عن ضعف بنى مرين شيئان هامان .

١- طمع البرتغاليون فى دولة بنى مرين وأخذوا يهاجمون ثغور مراكش ، واستطاعوا أن يستولوا على سبتة سنة ٨١٨ ، وعلى قصر المجاز (قصر مصمودة) سنة ٨٦٢ ، وعلى طنجة سنة ٨٦٩ ، وعلى أصيلا سنة ٨٧١ ، وعلى مدينة آلفى وبعض جهات السوس فى السنة المذكورة ، بحيث لم يبق من ثغور مراكش بيد أهلها إلا القليل .

٢- طمع الوزراء فى السلطان وأخذوا يستبدون بالأمر شيئا فشيئا وخاصة فى عهد عثمان بن أحمد الذى تولى الخلافة وسنّه ست عشرة سنة فغرق فى طفولته ونزوات صباه وسلم الأمر كله للوزراء ، وكان وزراء العهد الأخير من بنى وطاس ، وهم بطن من بطون بنى مرين ، ولكنهم لا ينحدرون من عبد الحق مؤسس الدولة ، وكان لهم طمع فى السلطان منذ نشأة الدولة ، ولكنهم قهروا بسبب قوة الخلفاء من بنى عبد الحق ،واكتفوا بالوزارة حينا والولاية حينا آخر، فلما تضعضع بنو عبد الحق برز بنو وطاس واستبدوا بالأمر ، وأصبح لهم الملك والسلطان ، وقائمة ملوكهم هى :

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى جـ ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

أبو عبد الله محمد (الأول) الشيخ	٨٧٦ = ١٤٧١
محمد (الثانى) الملقب بالشيخ البرتقالى	٩٠٧ = ١٥٠٤
وهو ابن محمد الأول	
أحمد بن محمد (الثانى)	٩٣٦ = ١٥٢٩
محمد (الثالث) بن أحمد	٩٥٧ = ١٥٥٠ (١)

وفى عهد محمد الأول سقطت دولة المسلمين بالأندلس ، ولجأ أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة إلى بنى وطاس ليعيش فى حمايتهم ، وفى عهد بنى وطاس ثقلت وطأة الفرنجة على الساحل الافريقى ، وهددوا مدنه ، واحتلوا مدينة أغادير ثم احتلوا وهران سنة ٩١٠ ، وقد اشتغل بنو وطاس بحروبهم مع الفرنجة، وأهملوا الجبهة الداخلية مما آذن لدولة الأشراف السعديين بالظهور ابتداء من سنة ٩١٥ ثم قويت شوكة الأشراف عندما هزم بنو وطاس فى حروبهم ضد الفرنجة ، وأخذ الفرنجة يُنزلون بالمسلمين ألوان البغى ، فالتف الناس حول الأشراف الذين أخذوا على عاتقهم حركة الجهاد ضد البرتغاليين ، فبدأت كلمتهم بذلك ترجح على بنى وطاس (٢) .

وبمناسبة غروب الإسلام في الأندلس نقرر أن مراكش لعبت دورا مهما في تاريخ الاسلام بهذه البلاد بواسطة المرابطين والموحدين وبني مرين ، ويمكن القول إن تدخل المراكشيين لمساعدة المسلمين بالأندلس قد أطال عمر الإسلام في أسبانيا ، ولولا عون مراكش لكان من الممكن أن ينتهي الحكم الإسلامي مبكرا عدة قرون .

(١) زمباور جـ ١ ص ٢٣ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٥٣ .

الأشراف ٩١٥ هـ = ١٥٠٩ م حتي الآن

الأشراف ينتسبون للرسول صلي الله عليه وسلم عن طريق الحسن بن علي ، وقد حكم مراكش منهم فريقان ، الأشراف السعديون أو الحسنيون (٩١٥ - ١٠٦٩ = ١٥٠٩ - ١٦٥٨) والأشراف الفلاليون . أو السلجماسيون أو العلويون (من سنة ١٠٧٥ = ١٦٦٤ حتي الآن) ومن الملاحظ أن هنالك ست سنوات بين حكم الفريق الاول والثاني ظهر في خلالها الحكم القبلي وزعامات الطرق الصوفية ، ومن بين الأسر التي ظهرت حينئذ أسرة الشبانات وزعيمها يسمي عبد الكريم ، وقد استطاع الشبانات أن يقتلوا الخليفة الأخير من خلفاء الأشراف السعديين ، وأن يستبدوا بالأمر ، وانتهي بذلك عهد الأشراف السعديين.

ولما تغلب الأشراف الفلاليون على الأمور قضوا على أسرة الشبانات واستأنفوا حكم الأشراف .

ونعود إلى قيام دولة الأشراف ، فنقرر أن الأشراف السعديين بدءوا حكمهم فى إقليم السوس الذى سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين كانوا قد احتلوه ، وقد تجمع مسلمو هذا الاقليم حول الشريف أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن ليقودهم فى معاركهم وحركاتهم ضد الفرنجة ، إذ كان أمراء بنى وطاس قد غُلبوا عليه ، واستمر بعد ذلك نجم الأشراف فى الصعود ، وحقق عبد الله وابنه أبو العباس أحمد كثيرا من الانتصارات ضد المسيحيين ، وكانت مراكش مضطربة ، آذن نجم حكامها بنى وطاس بالأفول ، فكتب أهلها وأمراؤها إلى الأشراف يطلبون منهم دخول مراكش سنة ٩٥١ وأخذها ، وأسقط عبد الله بذلك دولة بنى وطاس ، ثم استمر يضم بلاد المغرب واحدة بعد واحدة حتى استولى على مكناسة سنة ٩٥٥ وخلص له بذلك أمر المغرب الأقصى .

ومن أهم ما ينسب إلى الأشراف السعديين أنهم بذلوا جهدا كبيرا فى الاتجاه جنوبا إلى قلب القارة الإفريقية ، فاستولوا على تومبكتو وكانمَ وغيرهما من بلاد

إفريقية ، وكان هذا مما ساعد على دفع الاسلام نحو هذه البقاع .

العلاقة بين الأشراف والعثمانيين :

وقد اقتحم العثمانيون الجزائر في النصف الأول من القرن السادس عشر فعاصروا الأشراف ، وكانت تحدث بينهم مناوشات أحيانا ، وكانوا أحيانا أخرى يتعاونون معا ضد العدو المشترك بأسبانيا . وكان الأشراف يستقلون استقلالا تاما في أكثر الأحيان ، ولكن الظروف كانت ترغمهم أحيانا لإظهار نوع من التبعية للسلطان العثماني ، وعلى العموم فإن العلاقة لم تكن طيبة في مطلع عهد الأشراف العلويين ، فقد بدأت هذه الأسرة عهدها بالاصطدام مع الحكومة العثمانية بالجزائر حتى بعث عثمان باشا واليها يلوم الشريف على تفرقة كلمة المسلمين ، ولكن هذه العلاقات تحسنت في عهد السلطان محمد بن عبد الله الذي اتجه نحو توثيق الروابط مع الدولة العثمانيـة والشرق الإسلامي بصفة عامة (١) .

وفيما يلي أسماء سلاطين الأشراف :

الفرع الحسني :

أبو عبد الله القائم بأمر الله بن عبد الرحمن بن على	٩١٥ = ١٥٠٩
أبو العباس أحمد الأعرج	٩٢٣ = ١٥١٧
أبو عبد الله محمد (الأول) المهدى بن القائم	٩٥٥ = ١٥٤٨
(كان ينافس أخاه أحمد ـ استولى على مراكش سنة ٩٥١ ثم آل له الأمر كله سنة ٩٥٥)	
عبد الله المتوكل بن محمد المهدى	٩٦٤ = ١٥٥٦
محمد (الثاني) بن عبد الله (المتوكل)	٩٨١ = ١٥٧٣
عبد الملك (الأول) بن محمد المهدى	٩٨٣ = ١٥٧٥

(١) دكتور صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩ و ٧٥ .

أحمد (الأول = المنصور) بن محمد المهدى		٩٨٦ = ١٥٧٨
محمد (الثالث) بن أحمد (الأول)		١٠١٢ = ١٦٠٣
عبد الله الواثق	أخوان لمحمد خرجا	
زيدان الناصر	عليه بفاس	١٦٠٣
زيدان (وحده)		١٠١٦ = ١٦٠٨
عبد الملك (الثانى) بن زيدان		١٠٣٩ = ١٦٢٩
الوليد بن زيدان		١٠٤٠ = ١٦٣٠
محمد (الرابع) بن زيدان		١٠٤٥ = ١٦٣٥
أبو العباس أحمد (الثانى) بن عبد الملك		١٠٦٤ = ١٦٥٤
		إلى ١٠٦٩ = ١٦٥٨

الفرع الفلالى :

الرشيد بن محمد بن على		١٠٧٥ = ١٦٦٤
اسماعيل السمين بن محمد		١٠٨٢ = ١٦٧١
أحمد الذهبى بن اسماعيل		١١٣٩ = ١٧٢٧
عبد الله بن اسماعيل		١١٤١ = ١٧٢٩
عبد الملك بن اسماعيل (مدع)		
على بن اسماعيل (مغتصب)	فترة اضطراب	
المستضئ بن اسماعيل (مغتصب)		
محمد (الأول) بن عبد الله		١١٧١ = ١٧٥٧
يزيد بن محمد		١٢٠٤ = ١٧٨٩
هشام بن محمد		١٢٠٦ = ١٧٩٢
سليمان بن محمد		١٢٠٩ = ١٧٩٥
عبد الرحمن بن هشام		١٢٣٨ = ١٨٢٢
محمد (الثانى) بن عبد الرحمن		١٢٧٦ = ١٨٥٩
الحسن (الأول) بن محمد		١٢٩٠ = ١٨٧٣

عبد العزيز بن الحسن ١٣٠٢ = ١٨٩٥

عبد الحفيظ بن الحسن ١٣٢٥ = ١٩٠٨

تم فى عهده الاحتلال الفرنسى سنة ١٣٢٩ = ١٩١١

يوسف بن الحسن ١٣٣٠ = ١٩١٢

محمد بن يوسف ١٣٤٥ = ١٩٢٧ عزله الاستعمار

محمد بن عرفه وضعته فرنسا على الرغم من ارادة الشعب ١٣٧٢ = ١٩٥٣

محمد بن يوسف (عودة لسلطانه) ١٣٧٤ = ١٩٥٥

(للمرة الثانية ـ عاد بضغط الشعب المغربى والشعوب العربية ـ تحقق فى عهده الاستقلال التام) .

الحسن (الثانى) بن محمد ١٣٧٩ = ١٩٦٠[1]

حتى الآن

ومن أشهر سلاطين الأشراف الحسنيين السلطان أحمد بن محمد المهدى الملقب بالمنصور ، وقد جاء إلى الحكم سنة ١٥٧٨م عقب فتنة داخلية واسعة وقعت بين سلفه محمد بن المتوكل بن محمد المهدى يؤيده العثمانيون ، وقد حدثت هذه الموقعة سنة ١٥٧٨ عند وادى المخازن شمال فاس ، وتسمى معركة الملوك الثلاثة ، إذ سقط فيها ملك البرتغال واندحر جيشه ، كما سقط فيها الملكان الحسنيان المتنازعان (محمد بن المتوكل وعمه عبد الملك) فآل أمر مراكش للمنصور ، ولحكمه أهمية كبرى فى تاريخ مراكش إذ وضع نظاما للإدارة الداخلية (المخزن = الحكومة) خلاصته أنه كان يستعين ببعض القبائل ضد البعض الآخر ، وكانت القبائل المقربة إليه تنوب عنه فى حوض السنغال ، وقد أولى المبانى العظيمة والعمائر اهتمامه ، ومن مبانيه القصر المسمى بالبديع ، وقد صرف عليه مالا طائلا وفرشه بالرخام والفسيفساء والطنافس والحرير [2] .

---

(١) زامباور : جـ ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ حتى يوسف بن الحسن والتكملة من الوثائق وتتبع التاريخ الحديث .

(١) فريد وجدى : المرجع السابق ص٦٩٣ ، والمغرب العربى للدكتور صلاح العقاد ص٥٧ .

ومن أشهر سلاطين الأشراف العلويين السلطان إسماعيل السمين ، وقد تخلى عن النظام الحربى الذى ابتكره المنصور ، وعمد إلى تجنيد جيش ثابت يدين له بالولاء ، واختاره من الإفريقيين الذين جلبهم من البلاد التابعة له فى قلب القارة، وأصبح نفوذ القبائل فى عهده محدودا ، وضرب بيد قوية كل نفوذ يعارضه ، وبعد أن استقر له الأمر بالداخل ، اتجه إلى الفرنجة فحاربهم وانتصر عليهم فى معارك كثيرة ، استطاع بها أن يسترد المهدية من الأسبان سنة ١٦٨١م كما أخذ طنجة من الانجليز سنة ١٦٨٤م ثم أخذ العرايش من الأسبان سنة ١٦٨٩م ، وقد طال ملكه فوصل سبعا وخمسين سنة حتى كان بعض الجهلة يعتقدون أنه خالد لا يموت ، وقد وصل ملكه إلى تخوم السودان ونهر النيجر ، وكان شغوفا بالعمارة كالمنصور ، فأكثر من تشييد القلاع العظيمة فى أمكنة مختلفة من مملكته ، كما أكثر من تشييد القصور الشاهقة والمدارس والمساجد[1].

الاستقلال الطويل وسياسة العزلة :

وقد سبق أن أشرنا الي المواني والثغور التي اقتحمها الأسبان أو البرتغاليون عقب غروب الإسلام في الأندلس ، ووضحنا الصراع الذي دار لإنقاذها ، ونحب هنا أن نقرر حقيقة مهمة هي أن المغرب (مراكش) فيما عدا هذه الثغور قد نجا من شر الاستعمار علي مر التاريخ حتي نكب بالاستعمار الفرنسي في القرن العشرين ، وهكذا كانت مراكش هي البلد العربي الوحيد الذي نجا من العثمانيين في القرن السادس عشر وما يليه ، ونجا من الاستعمار الأوربي طيلة القرن التاسع عشر ، وتلك حقيقة يفخر بها سكان المغرب ويحرصون بقدر الطاقة علي استمرارها .

وقد صرخ السلطان عبد الحفيظ في وجه فرنسا بهذه الحقيقة عند إعلان الحماية ، وجاء فى صرختة ما يلي : « إنني ألفت نظر الحكومة الفرنسية الي

(١) فريد وجدى : المرجع السابق ص٩٩٧ وصلاح العقاد : المرجع السابق ص٦٩ - ٧١ .

كون المغرب لم يخضع منذ الفتح الإسلامي لأية دولة أجنبية كمستعمرة وأنه ما فتئ يتمتع باستقلاله منذ ثلاثة عشر قرنا » .

وقال للوزير الفرنسي رينو : « إنني أفضل التنازل عن العرش علي أن أتسبب فيما يحط من قدري ، وأن يدخل الاستعمار الي مملكتي » ولكن الأحداث علي كل حال كانت أقوي من السلطان .

ولعل حرص المغاربة علي الاستقلال هو الذي دفعهم الي سياسة العزلة ، فقد اقتحم العثمانيون شمالي إفريقية حتي حدود مراكش ، وتطلعت دول أوربا الي مد سلطانها علي الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط معلنة أن سلامتها لا تتحقق بدون ذلك ، وكان التنافس بين العثمانيين والأوربيين واسع النطاق ، كما كانت أعمال المغامرين في البحر الذين يطلق عليهم الأوربيون « قراصنة » من أهم الأسباب لإثارة العداء بين الساحل العربي وبين الغربيين ، وقد رأت مراكش أن تبعد بنفسها عن هذا المحيط الصاخب ، فلجأت الي سياسة العزلة وبخاصة في عهد مولاي سليمان (١٧٩٥ - ١٨٢٢) فقد صالح الأسبان واعترف بمراكزهم الساحلية ، وباع السفن المراكشية وأوقف حركة الجهاد في البحر ، وحرم علي رعاياه الخروج للتجارة في بلاد المسيحية ، وخصص ميناء طنجة ليكون مقراً للممثلين الأجانب فلا يتعدونه الي العاصمة الداخلية (فاس) ، وحدد المواني التي يجوز للتجار الأوربيين أن يقيموا فيها ، وحظر علي جميع الرعايا المسيحيين اختراقها الي الداخل .

ونتيجة لهذا أصبحت مراكش موضع إثارة للرحالة الأوربين ، وكان علي من يريد دخولها أن يتنكر ويظهر بمنظر المسلم ويتخذ اسما إسلاميا وممن فعلوا هذا دي مانجو باديا الفرنسي الذي تنكر في شخصية أحد أثرياء المسلمين علي بك العباسي وزار مراكش ونشر عنها كتابه « رحلة الي مراكش »[1] .

---

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ص ٧٦ .

نهاية العزلة :

بيد أن اقتحام الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ كان بمثابة الإعلان عن تحطيم سور العزلة ، فقد تسربت الأسلحة للمجاهدين الجزائريين شاء شريف مراكش أو لم يشأ ، ولجأ الي مراكش كثيرون من الهاربين من عنت الاستعمار الفرنسى وعلى رأسهم عبد القادر الجزائرى ، وطلبت بعض مدن الجزائر حماية الشريف المراكشى ، وتوالت احتجاجات فرنسا ، وحاول السلاطين أن يوفقوا بين رغبتهم فى العزلة وبين مسئوليتهم تجاه الأحداث الجديدة ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، وامتد لهم الاستعمار الأوربى الممقوت ، محطماً أغنية الاستقلال الدائم التى كان يتغنى بها سكان القطر الشقيق ، وسندرس فيما يلى الخطوط العريضة لهذا الاحتلال وطرق مقاومته ، حتى نصل بتاريخ مراكش الى فترة كتابة هذه السطور

الاستعمار في المغرب

الخطوات نحو الاحتلال :

كان غزو الجزائر سنة ١٨٣٠ واحتلال تونس سنة ١٨٨١ أول خطوة لاحتلال المغرب ، وكانت العوامل العالمية هى التى تؤخر الزحف الفرنسى تجاه المغرب ، وبخاصة لأن مؤتمر مدريد المنعقد سنة ١٨٨٠ جعل المسألة المراكشية مسألة دولية ، إذ قرر أنه ليس لأية دولة أن تعمد الى تعديل الوضع الراهن فى مراكش إلا بموافقة الجميع ، وبناء على هذه المعاهدة لم يكن للأجانب حق امتلاك الأراضى الزراعية إلا بتصريح من السلطان ، وكان السلطان آنذاك هو مولاى الحسن ، ويعرف عنه غيرته على وطنه وعدم إتاحة الفرصة للنيل منه ، فكان يرفض بصورة منتظمة منح هذا التصريح (١) .

وأهلّ القرن العشرون وقد وطدت فرنسا العزم على التغلب على هذه العوامل العالمية ليتم لها استكمال النفوذ فى الجانب الغربى من الشمال الإفريقى ، وسعياً وراء إرضاء الدول ذات الشأن وقعت فرنسا المعاهدات التالية :

ـ معاهدة ١٩٠٠ مع إيطاليا وهى اتفاقية سرية تعهدت فيها الحكومة الفرنسية باعتبار طرابلس وبرقة خارجتين عن منطقة نفوذها ، واذا حدث تغيير فى وضع مراكش أمكن لإيطاليا التصرف بحرية فى هذه المنطقة (٢)

ـ عزُزّتْ هذه الاتفاقية باتفاقية أخرى سنة ١٩٠٢ اعترفت فيها إيطاليا بمصالح فرنسا فى مراكش ، واعترفت فرنسا بمصالح إيطاليا فى طرابلس (٣) .

– اتفاق ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق سرى أيضا تم بين فرنسا وبريطانيا يقضى بإطلاق يد بريطانيا فى مصر ، وإطلاق يد فرنسا فى مراكش ، على أن

---

(١) دكتور عبد الحميد البطريق وآخرون : افريقية حلم الاستعمار البريطانى ص ٢٢١ .

(٢) دكتور صلاح العقّاد : المغرب العربى ص ٢٢٩ .

(٣) محمود الشنقيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

يعطى الجزء الشمالى من المغرب لأسبانيا ، وأن يوضع نظام دولى لمنطقة طنجة.

- اتفاق ٣ أكتوبر من نفس العام بين فرنسا وأسبانيا وفيه أيدت أسبانيا الاتفاق السابق .

- ميثاق الجزيرة [١] سنة ١٩٠٦ ، وقد ضم عدة دول هى بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وأسبانيا والولايات المتحدة والمغرب ، وقد عقد بناء على طلب ألمانيا واحتجاجاتها على المعاهدات الثنائية السابقة ، ولكن فرنسا ظفرت فى هذا المؤتمر أيضا وخسرت مراكش ، ويبدو أن تساهل ألمانيا كانت نتيجة لأن أغراضها فى هذه المنطقة لم تكن عميقة ، وكانت فرنسا قد أعدت العدة فى جلسات خاصة تحضيرية لتؤيدها الدول فى موقفها وكان لها ما أرادت .

وقرر هذا المؤتمر أن توجد شرطة فرنسية لأمن الموانى ، وحظر على مراكش أن تستورد الأسلحة بدون إذن الدول المشتركة فى الميثاق ، وغير ذلك من النتائج الاقتصادية والسياسية التى كانت انتقاصا لحقوق مراكش وتأييداً لامتداد نفوذ فرنسا فيها [٢] .

الحال فى مراكش آنذاك :

كانت مراكش فى العقد الأول من هذا القرن تعانى اضطراباً سياسياً خطيراً مصدره زيادة تدخل الدول ، وضعف السلطان عبد العزيز بن مولاى الحسن الذى لم تكن سنه ولا تجاريه تؤهله لقيادة الدولة فى هذه العواصف ، وتبع هذا الاضطراب السياسى اضطراب اقتصادى عسير ، وسار السلطان ، تستهويه مدنية أوروبا وما تحتويه من بهرجة زائفة ، فقلّد الأوروبيين فى بلاطه وتصرفاته، ومد يده للاستدانة من الدول وبخاصة فرنسا ، ثم جاءت المعاهدات السابقة وبوجه خاص ميثاق الجزيرة الذى لم يدع أملا لأهل مراكش فى عون أية دولة من

---

(١) الجزيرة مدينة صغيرة على ساحل أسبانيا الجنوبى .

(٢) انظر المغرب العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٢٤٦ وما بعدها .

الدول ، إذ قبلته جميع الأطراف ، وكل هذه الأشياء أثارت الرأى الداخلى ، فقامت القبائل بحركات انفصالية واسعة ، كما هبت ثورة عارمة قادها أحمد بن محمد الرسولى وهو من الأشراف المغامرين ، وهددت هذه الثورات السلطان فأرسلت فرنسا سنة ١٩٠٩ قوة لإخماد الثورة ، وحشدت أسبانيا قواتها فى مليلة وسبتة ، فزادت ثورة الشعب ، وخُلع السلطان عبد العزيز ، وتولى مكانه مولاى عبد الحفيظ بإرادة الشعب ، ولكن السلطان الجديد سرعان ما قبل شروط فرنسا وأسبانيا بالتخلى عن فكرة الجهاد وبقبول المعاهدات الدولية الخاصة بمراكش ، وبخاصة ميثاق الجزيرة ، وأن تتحمل مراكش مصاريف الاحتلال للقوات الفرنسية التى سميت «شرطة أمن الموانى» فأثار موقفه هذا سخط المواطنين .

الاحتلال ومعاهدة الحماية :

فقد السلطان ولاء الشعب ، وعنفت الثورات ضده ، وفى مارس سنة ١٩١١ هاجمت القبائل مدينة فاس العاصمة ، فاستنجد السلطان بالقوات الفرنسية ، فهبت لنجدته واحتلت فاس ، وتقدمت أسبانيا فاحتلت العرايش ، ولما احتجت ألمانيا على هذا الاحتلال أرضتها فرنسا بتنازلها عن الكونغو الفرنسية ، وعقد مؤتمر بالجزيرة اعترفت فيه ألمانيا بأن احتلال فرنسا لمراكش ضرورى لحفظ الأمن، وأرغمت فرنسا السلطان على قبول الحماية فقبلها بعد تردد إذ كان قد فقد ولاء الأهالى ولم يبق له من نصير إلا فرنسا ، فوقع السلطان عبد الحفيظ فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ معاهدة قَبِلَ بها الحماية .

وتنص معاهدة الحماية على أن تلتزم فرنسا بحماية شخص السلطان وعرشه هو وأولاده من بعده ، وبإدخال الاصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تتفق وحاجات البلاد ، وبتكليف السلك السياسى والقنصل الفرنسى بتمثيل المغرب فى الخارج . وفى مقابل ذلك يسمح السلطان بأن تحتل القوات العسكرية الفرنسية الأراضى المغربية التى ترى حكومة فرنسا

أنها ضرورية لتأمين المعاملات التجارية فى البلاد ، وأن تمارس كل الأعمال البوليسية فى المياه والأراضى المغربية ، وأن يمتنع السلطان عن عقد أى اتفاق ذى صبغة دولية أو عقد أى قرض أو منح أى امتياز بدون موافقة فرنسا . وتنص المعاهدة أيضا على أن يصدر السلطان القوانين التى تقترحها فرنسا ، وأن يمثل فرنسا لدى السلطان مندوب يحمل لقب «مقيم عام» للإشراف على تنفيذ المعاهدة ، ولرعاية شئون الأجانب فى المغرب .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن تتفق فرنسا مع أسبانيا بشأن مصالح الأخيرة فى المغرب ، وبناء على ذلك عقدت معاهدة بين فرنسا وأسبانيا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ وتقضى بوضع الجزء الشمالى من المغرب والمعروف بمنطقة الريف تحت حماية أسبانيا على أن يظل خاضعاً لسيادة السلطان الدينية [١] ، واكتمل بذلك السلطان لفرنسا فى المغرب ولأسبانيا فى الريف ، كما استقر النظام الدولى بطنجة .

المغرب تحت نير الاحتلال :

احتلت فرنسا الجزائر قبل احتلال مراكش بإحدى وثمانين سنة ، ويمكن القول إن الجزائر كان حقل التجارب الذى استعملت فيه فرنسا مختلف الأساليب للقضاء على المواطنين أو فرنستهم ، وقد طبقت ذلك فيما بعد فى تونس ثم فى المغرب ، ومن أجل هذا آثرنا أن نورد عند الكلام عن الجزائر تفاصيل كافية عن سياسة فرنسا فى مستعمراتها بالشمال الإفريقى ، ونكتفى هنا بأن نجمل القول فى هذا الموضوع فنذكر أن فرنسا أشاعت فى مراكش الفقر والجهل والمرض ، واستولت على مصادر الثروة وفى مقدمتها الأرض الزراعية التى منحتها للمهاجرين الفرنسيين ، وشجعت حركات الانحلال والثورات الداخلية ، وواصلت ضغطها على المثقفين وعلى حركات التحرير ، على أن المغرب امتاز بوضع خاص عن كل الشمال الإفريقى ، ذلك هو ارتفاع نسبة السكان الأصليين الذين يطلق

(١) محمود الشرقاوى : المغرب الأقصى ص ٦٧ .

عليهم «البربر» [١] بالقياس إلى نسبتهم فى الجزائر أو تونس ، فمن الطبيعى أن عدد هؤلاء يقل كلما اتجهنا نحو الغرب ، وهذا الوضع أتاح الفرصة للاستعمار الفرنسى لإثارة العصبية المفتعلة بين العرب والبربر ، وسنولى هذا الموضوع مزيداً من العناية فيما يلى :

البربر فى مراكش :

قلنا من قبل إن الصلات الوثيقة بين العرب والسكان الأصليين ، وكذلك انتشار الإسلام ، والمصاهرة ، وانتقال كثيرين من الأدارسة ومن القبائل العربية إلى الجنوب حيث عاشوا بين البربر وذابوا فيهم ، كل هذا خلق شعبا مراكشياً واحدا ، ولكن فرنسا كانت تبحث عن ثغرات لتنفيذ سياسة « فرق تسد » التى اقترحها أرسطو منذ مئات السنين لتلميذه الإسكندر المقدونى ونفذها التلميذ فنجحت فى فارس ، وأصبحت منذ ذلك الحين وسيلة الأوروبيين فى كل مكان ينزلون به .

وخلقت فرنسا قضية أسمتها قضية البربر وجعلتها وسيلة للتفريق فأصدرت سنة ١٩١٤ ظهيرا (مرسوما) يخرج البربر من دائرة القضاء الشرعى فى الأمور المدنية ، ويجعل مجلس الجماعة أو القبيلة البربرية مختصاً بنظر تلك الشئون ، ولم يثر هذا المرسوم رد فعل حين صدوره لأنه حدث إثر صدمة الاحتلال ، ولعدم وجود وعى كاف آنذاك ، ثم لأنه كان مجملا فلم يُبْعِد بوضوح الهوة بين العرب والبربر[١] .

واستمرت فرنسا تعمل فى هذا المضمار ، فكان المقيم العام «لوسيان سان» يحيط نفسه بجماعة من المستشارين ركزت اهتمامها فى الدعوة لفصل البربر عن

---

(١) سنستعمل هنا هذا التعبير ايضاحا لهذه القضية ، مع ملاحظة ما سبق أن قررناه من أن الدم العربى انساب فى السكان الأصليين للأسباب التى أوردناها من قبل ، حتى أصبحت قلة ضئيلة جداً، تلك التى لا يجرى الدم العربى فى عروقها من بين سكان شمالى افريقية .

(٢) دكتور صلاح العقاد : فى المرجع السابق ص ٣٠٦ بتصرف .

حكومة المخزن ، بحجة أن الأخيرة تمثل العرب ، وترى هذه الجماعة فى فصل البربر عن العرب مقدمة لإدماجهم فى البيئة الفرنسية ، وقد تضمنت هذه الخطة فكرة إحياء اللغة البربرية عن طريق كتابتها بحروف لاتينية ، ووضع المستشرق جودفروى مستشار التعليم فى مراكش مشروعا مفصلا لهذا الغرض ، وفى نفس الوقت ركز المبشرون نشاطهم فى أقاليم البربر حتى صار لهم ١٣٨ مركزاً فى سنة ١٩٣٢ [١] .

وفى هذه الظروف أصدر الفرنسيون « الظهير البربرى » فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ فى مطلع عهد السلطان محمد بن يوسف ، وكان هذا الظهير يرمى لغاية مزدوجة هى إخراج البربر من الكتلة العربية ، وإبعادهم عن دائرة الإسلام ، وتحقيقا لذلك حرّم الظهير تعليم اللغة العربية على البربر ، وقرر إنشاء مدارس خاصة لأولادهم يقتصر تعليم اللغات فيها على الفرنسية والبربرية التى أصبحت تكتب بحروف لاتينية ، كما قرر الظهير عدم تطبيق الشريعة الإسلامية على البربر فى الأحوال الشخصية والمعاملات ، وأصبح أكثر القضاة بناء على هذا من المبشرين الذين كان كل همهم جذب البربر للمسيحية بكل الطرق . وقد عارض غالبية البربر هذا الظهير وحكموا عليه بالموت فى مهده ، وأرسلوا وفودهم إلى العاصمة محتجين عليه ، وقامت فى العالم الإسلامى كله حملات ضده ، ولكن بعض الباشوات الإقطاعيين أيدوه وعارضوا السلطان وكتلة المغاربة والبربر فى اتجاههم الوحدوى ، وعلى رأس هؤلاء الباشوات تهامى الجلاوى ، باشا مراكش الذى باع ذمته فترة ما للاستعمار . ولكن حركة المقاومة كانت أشد وأقوى ، فاضطرت فرنسا إلى التوقف عن تأييد هذا الظهير الجائر ، وأعلنت أن تطبيقه أمر اختيارى .

---

(١) علال الفاسى : السياسة البربرية ص ٤٧ وما بعدها .

حركات المقاومة للاستعمار

إن الفترة التى قضاها الأسبان والفرنسيون فى مراكش كانت مزدحمة بحركات المقاومة ، وتكاد هذه الحركات تكون سلسلة متصلة الحلقات ، وقد أظهر المغاربة فيها بطولة رائعة ، اعترف بها العدو وأعجب بها ، وننقل فيما يلى بعض سطور مما قاله الجنرال جيوم الذى كان ضابطاً فى جيش فرنسا عند الاحتلال ، ثم أصبح فيما بعد مقيماً عاماً فى المغرب .

« إن الإحساس السائد عند المغاربة والبرابرة والذى تنحنى أمامه جميع الإحساسات الأخرى ، هو هيامهم الفطرى بالاستقلال ، وإن كراهيتهم الغريزية لكل سيطرة لتفسر لنا ما أبدوه من مقاومة يائسة لكل توغل أجنبى ، ورغم شدة تعلق المغربى بمتاعه ، فهو لا يتردد مع ذلك فى التضحية به كله فى هذا الكفاح ، فكل واحد يدافع عن بلده إلى النهاية بشدة تدعو إلى الدهشة ، والبربرى يسهم فى النضال بمجرد أن يبلغ سن حمل السلاح ، واحتقاره للموت يزيد فى أنفته ، فهو دائماً مستعد للدفاع عن تراب قبيلته ، والهبوب للغارة تلبية لنداء إخوانه . إنه محارب لا نظير له » .

ومما قاله أيضا فى هذا المجال :

« لم تستسلم أية قبيلة دون مقاومة ، بل إن بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفد كل وسائل الصراع ، ولم تخضع أية قبيلة إلا بعد أن هزمناها بأسلحتنا ، واتسمت كل مرحلة من مراحل تقدمنا بالقتال ، وكنا كلما توقفنا أنشأ المراكشيون جبهة جديدة وشيدوا سلسلة من التحصينات ، وكل هذا أرغم قواتنا سنوات طويلة أن تقف موقف اليقظة والحذر معرضه للأخطار ، وفى موقف عسكرى مشين » .

ولم تكن حركات المقاومة عسكرية فقط بل كانت سياسية أيضا وسنختار فيما يلى أبرز الحركات العسكرية والسياسية لندرس منهاجها وأهدافها ، ونتائج الصراع بينها وبين الاستعمار .

المقاومة العسكرية

الأمير عبد الكريم الخطابى فى الريف :

كلمة الريف معناها الشائع فى المغرب طرف الشئ أو نطاقه الخارجى ، ومن ثمَّ أطلق (الريف) على شمالى المغرب ، وقد نصت المعاهدات السالفة على منح هذه المنطقة لأسبانيا ، وبدأت أسبانيا تحتلها ابتداء من سنة ١٩٠٩ ومنذ بدأ الزحف الأسبانى قابله سكان الريف بالحديد والنار ، وقاد الثورة زعيم اسمه أحمد بن محمد الرسولى من سنة ١٩١١ ولكن هذا الزعيم كان أحيانا يبدو وكأنه يسعى لتحقيق أغراض خاصة ، على أن الحرب العالمية الأولى ، وسياسة أسبانيا المسالمة خلالها ، هدأت من الأحوال فى هذه الفترة بشكل ملحوظ .

وبعد نهاية الحرب جددت أسبانيا أعمالها العسكرية ، قاصدة احتلال منطقة نفوذها احتلالا شاملاً ، فاصطدمت بقوة كبيرة يقودها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى الذى آلت له قيادة قبيلة بنى ورياغل فى مطلع العقد الثالث ، وقد صمد الأمير الخطابى فى معاركة مع أسبانيا صمودا رائعا ، كما صمد أبوه من قبل ، وحقق ألوانا من الانتصارات فى المعارك التى خاضها ، وهزت انتصاراته دعائم الاستعمار الأسبانى فى هذه البقاع ، وأوشك الأسبان أن يعترفوا بالهزيمة ، ولكن فرنسا أدركت أن هزيمة حليفتها الغربية ستؤدى إلى هزائم تتعرض لها هى أيضا ، فأمدت الأسبان بالرجال والعتاد حتى تم النصر للقوى الجائرة سنة ١٩٢٦ واستسلم الأمير الخطابى ، فنفاه الفرنسيون إلى جزيرة رى أونيون بالمحيط الهندى ، ثم أرادت فرنسا أن تنقله سنة ١٩٤٧ إلى فرنسا ، ولكنه عندما وصل بورسعيد غادر الباخرة التى أقلته والتجأ إلى مصر ، أو قل قرر أن يعيش فى بقعة من الوطن العربى أن لم تكن المغرب فهى شقيقة للبلاد ، وظل بمصر حتى توفى فى فبراير سنة ١٩٦٣ .

على أن أسبانيا أدركت أن من العسير الاستمرار فى تحدى الشعب العربى فى مراكش الذى كان يدين بوحدة أراضيه ، ولذلك اعترفت بتبعية الريف لمراكش

فعين سلطان مراكش خليفة له بالريف واعترفت به أسبانيا ، واستمر هذا الوضع حتى تمت الوحدة ، وكان آخر خليفة للسلطان هو مولاى حسن بن المهدى .

وتكريماً للخطابى البطل الكبير نثبت هنا موجزاً لتاريخ حياته :

ولد الأمير محمد الخطابى بقرية « أجادير » فى ١٥ شعبان سنة ١٣٠١هـ (سنة ١٨٨٢م) وأبوه الأمير « عبد الكريم الخطابى » كان حاكم قبيلة « بنى ورياغل » إحدى قبائل الريف المراكشى التى يبلغ عددها ٤٠ قبيلة .

وبدأ الأمير الصغير يتلقى العلم فى الرابعة من عمره ، وحفظ القرآن كله فى كتّاب فى القبيلة ، وحمل السلاح فى سن السابعة ، وأثبت أنه أكثر صبية القبيلة إجادة للتصويب .

وفى سن الرابعة عشرة تلقى دروسه فى الفقه والنحو والحديث والبلاغة والسيرة النبوية ، ثم رحل إلى فاس والتحق بمدرسة «جامعة القرويين» وهى أقدم جامعة إسلامية .



الأمير محمد الخطابى

وأتم الأمير دراسته وعين فى منصب قضائى ، ولما بدأت فرنسا وأسبانيا فى احتلال المغرب تصدى الأمير عبد الكريم الخطابى والد الفقيد لمقاومة الأسبان فى الريف ، فترك الأمير محمد بن عبد الكريم وظيفته ورحل إلى قبيلته ليناضل العدو بجانب أبيه .

واستطاع الأعداء فى إحدى المعارك أن يخطفوا الأمير « محمد » وراحوا يساومون والده لكى يهادنهم فى مقابل إنقاذ ابنه الأكبر ... ولكن الأمير عبد الكريم رفض المساومة وأعلنهم بأنه يضحى فى سبيل وطنه بكل شئ .

ولكن الأمير لم يستسلم وفكر فى الهرب ، وألقى بنفسه من نافذة المعتقل فأصيب فى رجله ، وقبض عليه حرس المعتقل وأعادوه إلى السجن حيث حاول الطبيب الأسبانى أن يبتر ساق الأمير ، ولكنه أصر على أنها سليمة ورفض إجراء عملية البتر .

وحاول الاستعماريون الأسبان مساومة الأمير داخل السجن ، لكى يرسل إلى والده خطابا يناشده فيه مهادنة جيش الأسبان ، ولكنه رفض الخضوع لهم ، واضطر الأسبان إلى إطلاق سراحه كمحاولة لتهدئة الحالة فى الريف المراكشى .

ولم يكد الأمير ينضم إلى قبيلته حتى كان الأسبان قد دبروا اغتيال والد الأمير عبد الكريم ، فتولى الأمير محمد بن عبد الكريم القيادة بعد أبيه .

وقضى الأمير الثائر سبعة شهور فى الاتصال بالقبائل لتصفية ما بينها من خلافات ، ثم بدأت أولى المعارك التى قادها ضد المستعمرين الأسبان بمعركة صغيرة اسمها معركة «جبل المقاومة» ... وكان المجاهدون قوة صغيرة تحرس الجبل ، واتصل بهم نبأ استعداد الأسبان للهجوم عليهم ، فأشعلوا النار فى أشجار الغابة ، ورأت القوات المرابطة فى القرى المجاورة أشارة النيران فأسرعت بالانضمام إلى القوة الصغيرة حول الجبل ، وعند الفجر دارت المعركة ... وبعد ساعات اضطر الأسبان للانسحاب بعد أن لحقتهم الهزيمة .

ثم جاءت المعركة الكبرى معركة «أغريين» وكان المجاهدون ألفين يواجهون ٣٠ ألف جندى أسبانى تحت قيادة الجنرال «سلفسترى» وكان العرب مسلحين بالبنادق فقط ... وكان الأسبان مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الميدان ... والمدافع الجبلية ...

أرسل الجنرال «سلفسترى» إنذارا إلى الأمير البطل يطلب منه التسليم قبل مضى ٢٤ ساعة فرد عليه بهجوم مباغت سريع ... واستمرت المعركة قوية رهيبة طوال خمسة أيام ... وعلى امتداد جبهة طولها ٦٠ كليوا مترا تنتهى عند قرية (سيدى إدريس) على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

وكان للهجوم المفاجئ أثره فى انتشار الذعر بين صفوف الأسبان ... فقام المجاهدون العرب بحركة التفاف سريعة حتى طوقوهم تماما بعيدا عن ذخيرتهم .. وشدوا عليهم الحصار عدة أيام أكلوا فيها خيولهم .. وأخيرا وبعد أن قتل العرب منهم ثمانية آلاف وأسروا ثلاثة آلاف ، لاذ الباقون بالفرار وتركوا كميات هائلة من البنادق والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة . أما الجنرال (سلفسترى) فقد آثر الانتحار .

واستمرت المعارك بعد ذلك ... وكان المجاهدون العرب يحاربون الجيوش الأسبانية بما يغنمون من أسلحتها .

وقد خاض الأمير الخطابى ضد الأسبان أكثر من مائتى معركة وكان النصر حليف المجاهدين العرب فى كل معاركهم بقيادة الأمير البطل ، وحاول الأسبان أن يدخلوا مع المجاهدين فى مفاوضات أساسها منحهم الحكم الذاتى تحت الحماية الأسبانية ، وعرضوا على الأمير الراحل منصب السلطان ، ولكنه رفض المنصب ... ورفض المفاوضة .

ولما شعرت فرنسا - وكانت تقف موقف المتفرج - أن أسبانيا ستخرج حتما من الريف المراكشى بقوة السلاح خشيت من انقضاض المجاهدين عليها فى

الجنوب بعد انتصارهم على الاسبان ، فآثرت أن تدخل المعركة فوراً لتنقذ الأسبان من وطأة القتال مع المجاهدين وفتحت جبهة جديدة للقتال فى غرب مراكش ، واستعملت أساطيلها وألقت فى المعركة بمليون جندى وخمسين طائرة .. وكانت الطائرات تلقى القنابل المحرقة والقنابل شديدة الانفجار . ثم بدأت تلقى قنابل الغازات السامة وفقد الأمير المجاهد بصره بفعل الغازات ، ولم يسترده إلا بعملية جراحية .

وقد اشترك فى المعارك الدامية أكثر من أربعين ألفاً ضد الأسبان والفرنسيين .. استشهد معظمهم كما استشهد كثير من السكان الآمنين فى الهجمات الوحشية التى شنها العدو .

وفى ٢٦ مايو ١٩٢٦ وقع الأمير البطل مع كل أفراد عائلته فى الأسر وشردت فرنسا وأسبانيا كل أعوانه وجنوده .

وحرمت الدولتان على شعب مراكش أن يسمى أبناءه باسم «عبد الكريم» ومن كان يقدم على هذه التسمية يقدم للمحاكمة .

وبدون محاكمة قررت فرنسا نفى الأمير وأسرته إلى جزيرة (رى أونيون) بالقرب من مدغشقر .. وهناك عاش الأمير وأربعون من حاشيته فى قصر مهجور ، وكانت السلطات الاستعمارية تصرف للأمير وحاشيته ١٢ ألف فرنك شهريا . وهو مبلغ يساوى ١٢ جنيهاً مصرياً . فاضطر الأمير أن يعمل بالزراعة ويتاجر مع التجار الباكستانيين ليغطى تكاليف حياته وحياة أسرته .. وكان من نتيجة هذا التبادل التجارى مع الباكستانيين أن تمكن هؤلاء من أن يحملوا إلى الأمير الرسائل والصحف العربية خلسة - ليكون على علم بتطورات الموقف فى العالم العربى .

وبعد ٢١ عاماً فى هذا المنفى قرر المستعمرون نقله إلى منفى آخر بفرنسا .. وفى الطريق إلى المنفى الجديد مرت الباخرة اليونانية التى كان يستقلها الأمير

وحاشيته بقناة السويس .. ورست على شاطئ بورسعيد للتموين فى صباح أول يونيو سنة ١٩٤٧ .. فتمكن الأمير وحاشيته من مغادرة الباخرة والالتجاء إلى أرض مصر كما أشرنا من قبل [١] .

حركات المقاومة فى الأطلس :

بجانب الثورة الصاخبة فى الريف التى ألممنا بها آنفا كانت حركات المقاومة فى الأطلس مستمرة ، ففى أثناء الحرب العالمية الأولى سدد سكان الأطلس للفرنسيين ضربات قوية ، وفى آخر العقد الثانى من القرن العشرين كانت حرب العصابات بالأطلس الأوسط تقضّ مضجع المستعمر وتنزل به ألواناً من الخسائر فى الأرواح والعتاد . وفى المدة من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٦ كان الأطلس الأكبر يموج بحركات مقاومة صلبة عنيفة .

المقاومة السياسية :

تألفت فى المغرب جماعات السياسة التى كانت تتكلم باسم الشعب وتدافع عن حقوقه وتمثّله ، وكانت تعنى بتحدى المستعمر والتشهير بأعماله ، وإعلان المقاومة السلبية كالإضراب والمظاهرات السلمية ، وأخيراً كانت تهدد بالحركات الثورية المدمرة ، وسنلم فيما يلى بأبرز هذه الجماعات ، وبمبادئ كل منها وما صادفته من نجاح .

كتلة العمل الوطنى :

تكونت كتلة العمل الوطنى بالمغرب فى العقد الرابع ، وكان من أبرز أهدافها تنوير الرأى العام الفرنسى والعالمى بحقيقة الأوضاع فى المغرب ، كما كان من أبرز أهدافها توحيد الصراع بين أجزاء الوطن الذى مزقه الاستعمار ، وكان لها فروع فى منطقة الريف ، ومن أبرز أعضاء الكتلة علال الفاسى وأحمد بلا فريج وعبد الخالق الطريس وعبد السلام بنونة ، وأصدرت الكتلة مجلة فى باريس

---

(١) صحيفة الأخبار فى ١٩٦٣/٢/٧ بتصرف .

اسمها « مغرب » واخرى فى فاس اسمها «عمل الشعب» وبرنامج الكتلة يتلخص فيما يلى :

١- تطبيق دقيق لمعاهدة سنة ١٩١٢ «معاهدة الحماية» وإلغاء كل حكم أجنبى مباشر .

٢- الوحدة الإدارية والقضائية فى المغرب كله .

٣- مشاركة المغرب فى تولى شئون الحكم .

٤- إنشاء مجالس بلدية ومحلية وغرف تجارية ومجلس وطنى ينتخب من أعضاء مغاربة .

وفى أول نوفمبر سنة ١٩٣٦ طالبت كتلة العمل الوطنى بحرية الصحافة ، فكان رد السلطات الفرنسية على هذا الطلب ، اعتقال زعماء الحركة الوطنية ، فقامت مظاهرات كبيرة فى جميع مدن المغرب ، واضطرت السلطات الفرنسية إلى اطلاق سراح الزعماء .

وفى ١٨ مارس سنة ١٩٣٧ أصدرت السلطات الاستعمارية قراراً بحل كتلة العمل الوطنى .

الحزب الوطنى :

فى أبريل سنة ١٩٣٧ قرر أعضاء كتلة العمل الوطنى المنحلة تأسيس «الحزب الوطنى» لتحقيق مطالب الشعب المغربى .

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٣٧ قام سكان مكناس بمظاهرة فى الشوارع ضد القرار الذى اتخذته السلطات الفرنسية لتحويل مياه «بوفكران» التى كانت تسقى المدينة نحو أراضى الفرنسيين . وأطلق الجنود النار على المتظاهرين ، فقتل أكثر من خمسة عشر شخصاً ، وجرح نحو مائة شخص .

ومنعت السلطات الاستعمارية إصدار الصحف الوطنية « عمل الشعب » و « الأطلس » و « المغرب » . وأصدر المقيم العام الفرنسى أمراً باعتقال زعماء الحزب الوطنى وهم علال الفاسى ومحمد اليزيدى وعمر عبد الجليل وأحمد مكوار . فثار الشعب ضد هذا الإجراء التعسفى . وفى الثالث من نوفمبر سنة ١٩٧٧ نقل علال الفاسى إلى الكابون حيث بقى منفياً تسعة أعوام .

حزب الاستقلال :

تأسس فى أول يناير سنة ١٩٤٤ حزب الاستقلال ، من نخبة من أبناء المغرب لتحقيق أمانى البلاد فى الحرية والاستقلال ، وفى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ قدم الحزب عريضة إلى جلالة ملك المغرب وممثل دول فرنسا ودول الحلفاء وجاء فى هذه العريضة ما يلى :

« الحماية نظام فرض بالقوة على الأمة المغربية فى ظروف استثنائية تشهد بذلك المقاومة المسلحة التى قابل بها المغرب الاحتلال العسكرى والتى استمرت من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٦ وقد وقع عمليا خرق هذه المعاهدة فى نصها وروحها من طرف أولئك الذين التزموا باحترامها ، وبذلك لم يصبح للسيادة المغربية أى وجود ، وقد طبقت الحماية بكيفية تضمن مصالح الجالية الأوروبية وتؤخر وتعرقل تطور العنصر المغربى . وأهمل النص على مبدأ حقوق الشعوب فى حكم نفسها بنفسها الذى ورد فى مختلف تصريحات الدول الحليفة لاسيما ميثاق الأطلنطى .

« ولهذه الأسباب كلها يعبر حزب الاستقلال عن إرادة الأمة حين يطالب باستقلال المغرب ووحدة أراضيه، وبإقرار نظام ديمقراطى فى ظل الأسرة الحاكمة، مع توثيق الروابط بدول العالم عامة والدول العربية والإسلامية بوجه خاص » .

وفى يناير سنة ١٩٤٤ اعتقل السيد أحمد بلا فريج الأمين العام لحزب الاستقلال ، والسيد محمد اليزيدى وغيرهم من قادة الحركة التحررية فى المغرب،

فقام الشعب بعدة مظاهرات عنيفة فى فاس والرباط ، أسفرت تلك المظاهرات عن مئات القتلى ، وعدد كبير من الجرحى ، واعتقل أكثر من خمسة آلاف شخص فى مختلف أنحاء المغرب ، وهكذا عاش المغرب فى إرهاب طوال سنتى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ (١) .

مقارنة وتطور :

ويتضح من دراسة مبادئ هذه الجماعات أنها بدأت سهلة يسيرة متواضعة ، ولعلها كانت ترمى من ذلك إلى عدم إراقة الدماء وإلى السير خطوة خطوة نحو الهدف الرئيسى وهو الاستقلال والوحدة ، ولكن المشرفين على هذه الجماعات سرعان ما أدركوا أن المستعمر لا يحب أن يرى صوتاً يرتفع ممثلا الشعب ومتحدثاً باسمه ، وسواء لدى الاستعمار أن يطالب بالقليل أو الكثير ، لأن المستعمر لا يريد أن يرى قوة أمامه تطالبه وتواجه جبروته ، ولذلك تطورت هذه الجماعات وأعلنت فى صراحة مطلبها الأساسى وهو الاستقلال التام إذ لم تُجْدِ سياسةُ المسالمة والخطوات الوئيدة .

دور السلطان محمد بن يوسف :

تطور السلطان محمد بن يوسف تطورا ملحوظا حتى أصبح فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها محور حركات الاستقلال بالمغرب ، وينسب بعض الباحثين إلى السلطان أنه كان فى مطلع عهده بالعرش يسالم المحتل ويسير سيرة أسلافه، حتى أنه وافق على إصدار الظهير البربرى ، ولكن الباحث المنصف لا يسعه إلا أن يعترف لهذا السلطان بالوطنية العميقة ، والإخلاص والتفانى فى سبيل بلاده، وفى سبيل العروبة والإسلام ، وليس ما أخذ عليه فى مطلع عهده إلا نتيجة طبيعية للظروف حوله وللمشكلات التى ورثها السلطان عن الماضى ، حتى إذا اشتدَّ عوده ، وتدبر أمره أخذ يحتضن المناضلين ، ويؤيد الحركات

---

(١) محمود الرشتاوى : المغرب العربى ص ٤٢ - ٤٤ بتصرف .



القومية ماديا وأدبيا ، ولعل مما ساعد على دفع السلطان لهذه الغاية - بالإضافة إلى وطنيته وحبه لبلاده - أن الأحزاب السياسية إلتفت حوله ، وأعلنت تمسكها بالنظام الملكى ، الذى لم تعرف البلاد سواه منذ استقلالها فى القرن الهجرى الثانى ، على أن يتطور النظام الملكى ليصير دستوريا ، وكان السلطان يلتقى مع الأحزاب فى هذا التطور .

وأصبح الانسجام كاملا بين السلطان وبين حزب الاستقلال ، وكان السلطان يبدو فوق الأحزاب ولكنه فى الحقيقة كان زعيما لكل الوطنيين ، وكان الشباب المثقف الذى جمعه حزب الاستقلال يرى فى السلطان رائداً وقائداً ، ولما زار السلطان طنجة فى أبريل سنة ١٩٤٧ ألقى هناك خطابا حمل نفس الاتجاهات التى كانت شعار حزب الاستقلال ، وهى اتجاه مراكش نحو البلاد العربية والإسلامية ، وحرصها على الوحدة والاستقلال ، وهكذا اتحدت القوى المناضلة للاستعمار ، ولم تعد فرنسا تجد الثغرة التى تعودت أن تنفذ منها ، وبغى ضرب الحركات الوطنية بحجة حماية عرش السلطان أو الاستجابة لتعليماته ، وفى هذا الجو لجأ الاستعمار للباشا تهامى الجلاوى ، فصاح هذا يدعى أن محمد بن يوسف رجل حزبى ، بل تمادى فى طغيانه فصرخ فى وجه السلطان قائلاً : «أنت لست سلطان مراكش ولكنك سلطان حزب الاستقلال » ، وهدد الجلاوى باستعمال القوة إذا لم يعزل هذا السلطان ، بل زحف فعلا إلى العاصمة ومعه أتباعه الذين أمدهم الاستعمار بالسلاح ودفعهم بالمال ، وانتهزت فرنسا هذه الفرصة التى دبرتها ، فأوعزت لممثلها « دون جوان » ، فقدم للسلطان عريضة فى يناير سنة ١٩٥١ تتضمن المطالبة بالتبرؤ من حزب الاستقلال ، وفصل كبار الموظفين الذين عرف عنهم الاتصال به . ورفض الملك المطلبين فهدده المقيم العام بالعزل ، ولكن الأزمة سويت مؤقتا ، ثم تجددت سنة ١٩٥٣ حيث قدمت فرنسا للسلطان إنذاراً ليوقع على وثيقة بالتنازل عن العرش ، وإلا فإنه سينفى خارج البلاد ، وقد مزق السلطان هذه الوثيقة واختار النفى ، فأرسلته فرنسا مع أفراد أسرته إلى جزيرة كورسيكا ، وعينت بدله سلطانا أميا زائفا هو محمد بن عرفه الذى اختاره الجلاوى الخائن .

النضال من الخارج :

إن نفى السلطان استتبع خروج أكثر الزعماء من البلاد حيث واصلوا نضالهم من خارج البلاد ، وبخاصة عن طريق جامعة الدول العربية ، وفى أروقة الأمم المتحدة ، وقد حملت صحف القاهرة نصيبها كاملا فى هذا النضال ، وصبت دون هوادة سخطها على الغاصب الأثيم ، وأشهد لقد رأيتها تخصص كل يوم جانباً كبيراً من صفحاتها تهاجم به قوى الاحتلال بدول الشمال الافريقى وتدك صرحه ، ولم تجد الاحتجاجات الفرنسية والإيطالية أي صدى ، فقد كانت كل القوى المصرية تؤيد بحرارة كل حركات التحرير والاستقلال . وقد دفعت هذه الجهود قضية مراكش إلى المحيط العالمى ، فنظرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٢ و١٩٥٣ و١٩٥٤ وأوصت بالمفاوضة المباشرة بين الطرفين لتقرير الحقوق والمصالح الشرعية المقررة للشعب المراكشى .

نتائج النضال الطويل :

بينما كانت الحركات فى الخارج تزعزع أقدام فرنسا وتشوه سمعتها كانت الثورة فى داخل مراكش على أشدها ، فقد كان نفى السلطان مبعث حركات ثورية عنيفة ، فكثرت الاغتيالات الفردية وبخاصة لأعوان الاحتلال ، كما قاطع الشعب المنتجات الفرنسية ، وكثرت الاضطرابات . وإزاء الخسائر الداخلية والضغط الخارجي لم تجد فرنسا بدا من إعادة السلطان الشرعى إلى عرشه بعد عامين من الصراع المرير ، وقد عاد السلطان بعد أن صدر تصريح مشترك بينه وبين فرنسا فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٥ اعترفت فيه فرنسا باستقلال مراكش وبإقامة ملكية دستورية بها ، واستمرت المفاوضات بعد ذلك حتى انتهى الطرفان إلى إتفاقية ٢ مارس سنة ١٩٥٦ وفيما يلى ما ورد بها .

أولا : إلغاء الحماية : إن جلالة سلطان مراكش وحكومة الجمهورية الفرنسية .. قد تحقق لديهما - لما اجتاز مراكش من التطور فى ميدان الرقى - أن معاهدة الحماية المبرمة فى فاس فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ أصبحت لا تتلاءم

ومقتضيات الحياة العصرية ، وأنه لا يمكن من الآن فصاعدا للعلاقات الفرنسيا المراكشية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنودها .

ثانياً : الاعتراف باستقلال (مراكش) : إن حكومة الجمهورية الفرنسية تعلن اعترافها باستقلال مراكش الذى يقتضى بالأخص تمثيلا دبلوماسيا وجيشا وطنيا.

ثالثاً : وحدة الأراضى المغربية : الجمهورية الفرنسية تؤكد عزمها على أن تحترم وحدة الأراضى المراكشية المضمونة بحكم المعاهدات الدولية وتعمل على احترامها .

وفى ٧ أبريل من نفس العام وقعت اتفاقية بين مراكش وأسبانيا واعترفت فيها أسبانيا بمثل ما اعترفت به فرنسا من قبل ، وتحققت بذلك أهداف مراكش ، وانضمت لهيئة الأمم المتحدة ولجامعة الدول العربية ، ولم يبق أمامها إلا بعض المشكلات التى خلفها الاستعمار البغيض ، وستكون هذه المشكلات موضوع دراستنا التالية :

المغرب بعد الاستقلال :

لم يَضع الاستقلال نهاية لكفاح المغاربة ، إذ قد ترك الاستعمار بالمغرب جراحاً احتاجت إلى مواصلة الصراع ، حتى يكتمل للوطن استقلاله وحريته ، وقد تغلب الصراع المغربى على بعض هذه المشكلات بسرعة ، ولكن بعضها استلزم صراعاً طويلا ، وسنذكر فيما يلى إلمامةً عن المشكلات التى واجهت المغرب بعد إعلان استقلاله ووحدته :

١- القواعد العسكرية الأجنبية :

أعلنت فرنسا استقلال مراكش كما ذكرنا آنفا ولكنها أرادته استقلالا كما تفهمه فرنسا ، أى مع الاحتفاظ ببعض القواعد العسكرية بَحْرية وجوية ، وكان المغرب يريده استقلالاً تاماً تتطهر به البلاد من أقدام المستعمر تماما ، وخافت فرنسا أن يتجدد نضال المغاربة ، وأدركت أن لابد من الجلاء الكامل ، فأخذت

تسحب قواتها من المغرب منذ سنة ١٩٥٧ . وبمناسبة إجراء أول تجربة ذرية فرنسية في الصحراء الكبرى ، ألغى المغرب الاتفاقية الدبلوماسية التي عقدت مع فرنسا سنة ١٩٥٦ وطالب بالجلاء الكامل ، ثم توصل الطرفان إلى اتفاقية في سبتمبر سنة ١٩٦٠ تجلو فرنسا بمقتضاها عن جميع قواعدها في المغرب في ميعاد أقصاه مارس سنة ١٩٦١ باستثناء بعض القواعد الجوية التي يقتصر تشغيلها على التدريب .

ولكن المعارضة في المغرب ممثلة في حزب اتحاد القوى الشعبية ظلت تنتقد استمرار بقاء القوات الفرنسية على أية صورة من الصور ، فلما تولى الحسن الثاني الملك ، حسبت فرنسا أنها إن تساهلت في إخلاء القواعد ، تستطيع أن تجذبه نحوها ، وتصرفه عن سياسة التضامن العربي التي بدأها والده ، فأعلنت استعدادها للجلاء عن هذه القواعد ونفذ الوعد فعلا في أكتوبر سنة ١٩٦١ إذ جلت القوات الفرنسية عن آخر قاعدة جوية لها في مدينة مراكش [١] .

ولم تكن القواعد العسكرية الأجنبية بالمغرب تتمثل في القواعد الفرنسية فقط ، بل كانت هناك كذلك القواعد الأمريكية ، التي أقيمت بناء على اتفاق أبرم بين فرنسا وبين الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٠ دون موافقة الجانب المغربي ، وقد حرصت أمريكا على البقاء بهذه القواعد التي اعتبرت كبيرة الأهمية بالنسبة للأمن الأمريكي ، وحجة أمريكا أنها عقدت بشأن هذه القواعد اتفاقية مع فرنسا التي كانت صاحبة سلطة شرعية آنذاك خولتها لها معاهدة الحماية ، ولا يرى الجانب المغربي والعربي هذا الرأي ، فليس من سلطان المستعمر أن يمنح مثل هذه الحقوق .

والقواعد الأمريكية عبارة عن ست قواعد جوية في سيدي سليمان وابن جرير ويولهو ونواصيبر ، وقد بدأ إنشاؤها سنة ١٩٥١ ، وفي سنة ١٩٥٨ حولت

---

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ص ٤٧٣ بتصرف .

قاعدة نواصير إلى قاعدة للطائرات العسكرية البعيدة المدى مع ضمها إلى شبكة قواعد حلف الأطلنطى (١) .

وقد صارع الشعب المغربى وصحافة المغرب وحكومته لإزالة هذه القواعد ، واستقر الرأى فى النهاية بين الرئيس إيزنهاور والملك محمد بن يوسف على أن تصفى هذه القواعد مع نهاية عام ١٩٦٣ واتخذت الإجراءات لتصفيتها فعلا فى الموعد المحدد ، وبمناسبة الزيارة الرسمية التى قام بها الملك حسن الثانى للولايات المتحدة فى شهر (مارس ١٩٦٣) طلبت أحزاب المعارضة بالمغرب من أحمد بلافريج وزير الخارجية تأكيدا بأن الملك الحسن الثانى لن يسمح ببقاء القواعد العسكرية الأمريكية فى المغرب بعد انتهاء العام الحالى ، وقالت الصحيفة الناطقة بلسان أكبر هذه الأحزاب أن الحزب قد لاحظ أن الملك الحسن لم يشر إلى القواعد الأمريكية فى خطابه الأخير بينما توقع الشعب منه تأكيداً بإخلائها فى الموعد المحدد ، وطلب هذا الحزب بيانا رسميا يزيل الحيرة والشائعات التى تتردد حول احتمال بقاء هذه القواعد فترة أخرى (٢) .

وفى هذه الزيارة صدر بلاغ رسمى فى واشنطن وقعه كيندى والملك الحسن بأن القوات الأمريكية ستجلو فى موعدها .

(ب) موريتانيا :

مشكلة موريتانيا كانت تعد من أعقد المشكلات التى واجهها المغرب بعد الاستقلال ، ولن نخوض طويلا فى موضوع موريتانيا الآن ، فقد أصبحت موريتانيا فى العرف الدولى دولة مستقلة ذات سيادة ، كما صارت عضوا فى هيئة الأمم المتحدة . ومن أجل هذا أفردنا لها حديثا خاصا عند كلامنا عن الدول الإسلامية فى غربى افريقية ، وسنكتفى هنا - تبعاً لطبيعة دراستنا - بالحديث عن موريتانيا قبل أن تصبح جمهورية مستقلة فنصور رأى المغرب فى المشكلة

(١) روم لاندو : أزمة المغرب الأقصى ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) صحف القاهرة فى ١٩٦٣/٣/١٩ .

ورأى موريتانيا فيها ، ونحن دعاة وحدة ، ونرى في الوحدة قوة ومجدا ، ولكنا سنخوض القول في هذه المشكلة باتجاه علمي محايد نزيه .

الصلة بين موريتانيا والمغرب عميقة الجذور ، ومن موريتانيا التى كان العرب يسمونها شنقيط انبثقت دولة المرابطين ، كما شملها حكم الموحدين وبنى مرين ، وانتشرت بها اللغة العربية والدين الاسلامى خلال هذه العصور .

لكن سكان موريتانيا هم من القبائل ، وقد قلنا إن طبيعة القبائل لا تميل للخضوع لحكومة مركزية ، وترى ذلك تبعية يكثر أن تتمرد عليها القبائل ، ومن أجل هذا كان سكان موريتانيا ينتهزون الفرص لإعلان نوع من الاستقلال عن حكومة الشمال ، وهكذا عاشت موريتانيا أكثر الوقت تتأرجح بين الاندماج فى المغرب أو إعلان الاستقلال عنه وإقامة حكم محلى قبلى .

وجاء القرن التاسع عشر وهو القرن الذى طغى فيه الاستعمار وعربد ، فحاولت انجلترا أن تمد نفوذها إلى منطقة موريتانيا ، وعقدت اتفاقية مع « بيروك عبد الله » زعيم قبيلة « تكنة » ولكن المغرب احتج على ذلك أشد الاحتجاج ، وأبان أن أى اتفاق حول هذه المنطقة يجب أن يتم مع السلطان ، وهكذا انسحبت بريطانيا وأعلنت عدم تمسكها بهذه الاتفاقية .

وكان الاستعمار الفرنسى قد تمكن من منطقة السنغال فى مطلع القرن العشرين وزحفت قواته إلى موريتانيا ، وعارضها السلطان والأهالى ، ولكن مراكش نفسها سرعان ما خرت تحت الاستعمار الفرنسى والأسبانى ، وهكذا أصبح الأمر لفرنسا فى الشمال وفى الجنوب ، فانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتفرق بين سكان الشمال وسكان الجنوب ، ولا نزال نذكر ما سجلناه من قبل عن «الظهير البربرى» وليس هذا الظهير إلا محاولة أخرى لاقتطاع مساحات جديدة من المغرب بطريق أو بآخر ، وإذا كان هذا الظهير لم ينجح فإن سياسة الفصل بين موريتانيا والمغرب قد قدر لها النجاح .

وكان المغرب يرى - ويؤيده كثير من الشباب المثقف الموريتاني بزعامة « حرية ولد بابا » الذى يقيم مع كثير من رفاقه بالمغرب - أن المغرب يمتد فيشمل موريتانيا ، وأن روابط الجنس والدين والتاريخ لا تدع مجالا لانفصال موريتانيا عن المغرب .

ورأى زعماء موريتانيا المستقلة بزعامة ولد دادا الذى اختير أول رئيس لجمهورية موريتانيا الاسلامية ، أن موريتانيا لها طابع يخالف طابع سكان الشمال ، كما يخالف طابع سكان قلب افريقية ومن ثم فموريتانيا تكون حلقة اتصال بين القسمين ، ولا يجوز أن تندمج مع أى منهما ، وقد أيدت فرنسا هذا الاتجاه ، واحتفظت بمنطقة موريتانيا بعد إعلان استقلال مراكش ، ثم منحت هذا الإقليم الاستقلال الذاتى سنة ١٩٥٨ ، ثم منحته الاستقلال التام باسم جمهورية موريتانيا الاسلامية فى نطاق الجامعة الفرنسية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ (مشروع ديجول) ، وبمقتضاه انضمت موريتانيا إلى هيئة الأمم المتحدة [1] . وقد نجح هذا الاتجاه أخيرا وأعلنت موريتانيا أنها دولة عربية وانضمت لجامعة الدول العربية وحضرت مؤتمرات القمة العربية ومنها المؤتمر الذى عقد بالرباط يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٤ وقبلت المغرب هذا الاتجاه فانحلت المشكلة وتم الاتفاق بين البلدين الشقيقين .

(جـ) طنجة :

وهناك ثلاث مدن أو ثلاثة مواقع تطل على المضيق الذى يصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى ، وهذه المواقع هى : سبتة وطنجة على الساحل الافريقى ، وجبل طارق على الساحل الأوروبى ، وتكوّن هذه المواقع شكلا يشبه المثلث ، ومن التواءات السياسة العالمية أن تحتل بريطانيا جبل طارق ، وكان من الطبيعى أن يتبع أسبانيا ، وأن تحتل أسبانيا سبتة ، وطبيعى أن سبتة جزء من المغرب ، أما طنجة فقد قضى الاستعمار إبان قيامه أن تكون مدينة دولية .

---

(١) محمد اسماعيل وعبد الخالق عامر : قضية موريتانيا ص ٦٣ .

ومساحة طنجة حوالى مائتى ميل مربع ، وسكانها حوالى مائة ألف نسمة أكثرهم من المسلمين ، وقد احتلها البرتغال عندما قوى جانب الفرنجة فى شبه جزيرة إيبيريا وضعف جانب المسلمين ، وذلك فى القرن الخامس عشر ، وفى القرن السابع عشر تزوج ملك بريطانيا شارل الثانى الأميرة كاترين البرتغالية ، وكانت طنجة هدية البرتغال للعريس ، ولكن المغرب استطاع أن يستردها فى عهد الأشراف بعد معارك طاحنة .

وفى عهد العزلة المراكشية الذى تحدثنا عنها ، سمح لأعضاء التمثيل الأجنبى بالحياة فى طنجة حتى لا يتوغلوا فى البلاد تأكيدا لسياسة العزلة ، وهكذا أصبحت طنجة مدينة ديبلوماسية ، وبمرور الزمن أصبح للدبلوماسيين سلطان بالمدينة ، وأصبحوا يتدخلون فى تنظيمها وإدارتها بحكم ارتباط ذلك بمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية ، ثم عقدت المغرب معاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٥٦ ومع أسبانيا سنة ١٨٦١ وفى هاتين المعاهدتين اعترفت المغرب بامتيازات خاصة للدولتين فى طنجة ، ولما احتجت الدول الأخرى التى لها مصالح فى طنجة لحرمانها من مثل هذه الامتيازات رضخت المغرب ومنحت هذه الامتيازات للدول المحتجة .

وعندما أعلنت فرنسا الحماية على مراكش اشترطت بريطانيا - لكى تعترف بهذه الحماية - أن تصبح طنجة مدينة دولية ، وتم لها ذلك كما ذكرنا من قبل ، وبمقتضى هذا أصبح لطنجة مجلس تشريعى خاص يتكون من ٣٦ عضوا موزعة كما يلى :

٦ من المغاربة - ١٢ يهودياً - ٤ أسبان - ٤ فرنسيون - ٣ بريطانيون - ٣ طليان - واحد لكل من بلجيكا وهولندا والبرتغال وأمريكا والرئيس الأعلى لهذا المجلس هو مندوب الملك .

أما الإدارة الدولية فكانت تتألف من قناصل بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا .

ومن جهة القضاء كان بطنجة محكمة مختلطة مكونة من خمسة قضاة ، ينتمون إلى فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا .

وفى سنة ١٩٤٠ انتهز فرانكو ظروف الحرب العالمية فاحتل المدينة وأضافها إلى القسم الشمالى (الريف) الخاضع لأسبانيا ، ولكن هزائم الحلفاء انقلبت إلى انتصارات ، فأمر الحلفاء فرانكو ليعيد طنجة إلى سابق عهدها ، فانصاع للأمر.

وعندما بدأ عهد الحرية للمغرب لم تكن مشكلة طنجة عسيرة الحل إذ يبدو أن كل دولة من الدول صاحبة الامتياز لم تر ما يدعو أن تقف موقف العداء من الأماني الوطنية المغربية ، فكانت كثرة الأيدى المسيطرة على المدينة من دواعى تيسير حلها ، وأسرعت المغرب بعد الاستقلال فمدت نفوذها إلى طنجة فى يوليو سنة ١٩٥٦ ، وألغت المجلس التشريعى والمحكمة المختلطة ، وأخضعت طنجة للنظام الاقتصادى المعمول به فى المغرب ووافقت الدول التى كانت صاحبة الشأن بطنجة على هذه الإجراءات وعادت المدينة للوطن الأم [١] .

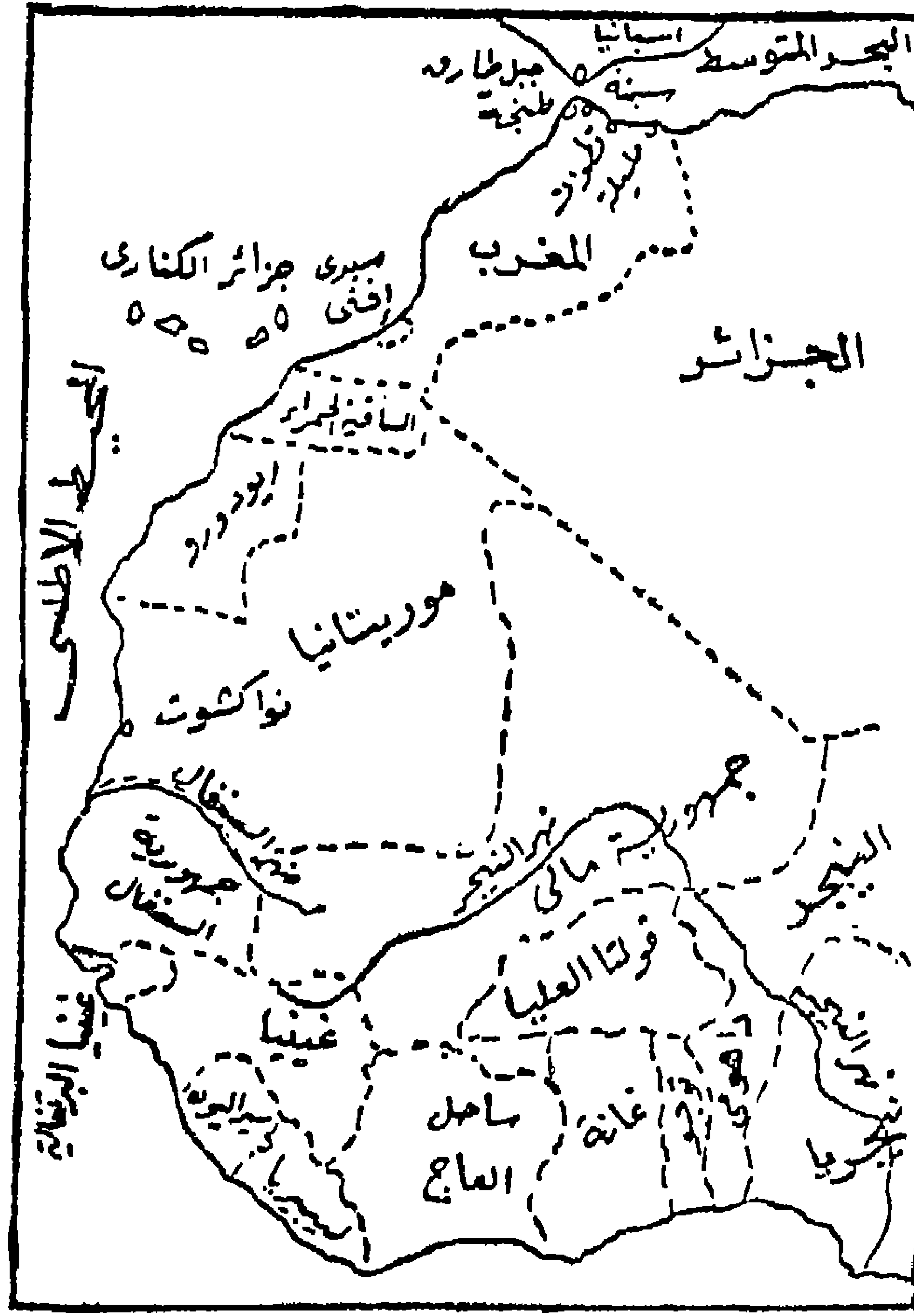
(د) الجيوب الأسبانية :

سلمت أسبانيا باستقلال المغرب ووحدة أراضيه فى ٧ أبريل سنة ١٩٥٦ ، وأخلت بناء على ذلك منطقة الريف ، ولكنها احتفظت بمدن هامة فى الشمال ومناطق واسعة فى الجنوب ، وتعرف هذه وتلك بالجيوب الأسبانية وهى :

مدينة سبتة : تقع على الساحل الافريقى مقابل جبل طارق ، وتبلغ مساحتها حوالى ٢٠ ك م مربعا ، وسكانها حوالى ٦٠ ألف نسمة ، ويرجع احتلال أسبانيا لها إلى القرن السادس عشر عقب غروب الإسلام فى الأندلس وهجوم الفرنجة على الساحل الافريقى ، وقد استطاعت أسبانيا خلال هذا العهد الطويل أن تصبغ المدينة بالصبغة الأسبانية من ناحية الدين واللغة والجنس ،

---

(١) اقرأ أزمة المغرب الأقصى تأليف روم لاندو ص ٢٠٨ وما بعدها :



موريتانيا وطنجة والجيوب الأسبانية

فالاكثرية الساحقة من السكان أسبان مسيحيون لغتهم الأسبانية ، ومن هنا فمشكلة سبتة مشكلة عويصة نوعا ما .

مدينة مليلة : تقع إلى الشرق من سبتة ، وبينهما مدينة تطوان ، ومليلة لا تختلف كثيرا فى مساحتها وعدد سكانها وظروفها عن سبتة ، ولذلك تعتبر مليلة عسيرة الحل أيضاً .

وللظروف التى أوردناها حول سبتة ومليلة يعد من الصعب الوصول إلى حل بشأنهما ، فقد طغى الظلم على العدالة ، وأوشك الضباب أن يحجب ضوء الشمس ، ولكن المغرب يصر على تحرير سبتة ومليلة ، فهما بلا شك جزء من الوطن المغربي ، وكانتا فى عهد احتلال أسبانيا للريف تابعتين للمنطقة المحتلة ، ولكن القوة الغاشمة لم ترد أن تخليهما عندما أخلت الريف ، مدعية أن احتلالهما بعيد فى تاريخه وظروفه عن احتلال الريف ، وعلى كل فلابد لليل أن ينجلى ، ولابد للقيد أن ينكسر .

سيدى إفنى : تقع سيدى إفنى على ساحل المحيط الأطلسى ممتدة حوالى أربعين ميلا ، أما عرض المنطقة فحوالى ١٥ ميلا ، وهى قليلة السكان نسبياً ، إذ يبلغ عدد سكانها حوالى ألف نسمة أكثريتهم الساحقة من المغاربة المسلمين ، وسند أسبانيا فى استمرار السيطرة على هذه المنطقة وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٦٠ جاء فيها : إن السلطان يتنازل بصورة دائمة لصاحب الجلالة الكاثوليكية عن أرض كافية مجاورة لسانتا كروز لإقامة مصايد .

ومن الناحية الواقعية لم تحتل أسبانيا هذه المنطقة إلا في سنة ١٩٣٥ عندما احتلت فرنسا المنطقة المحيطة بسيدى إفنى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فليس فى هذه المنطقة ما يعرف أبدا بسانتا كروز ، ولكن الأسبان احتلوها بدعوى أنها هى ، ثم إن الوثيقة التى يعتمد عليها الأسبان لا تعنى التملك ، وإنما تعنى فقط إمكان الانتفاع بهذه المنطقة فى إقامة مصايد ، ولكنها روح البغى الغربى التى تتلمس الوسائل للاحتلال والعدوان . وبهذه الروح أعلنت

أسبانيا سنة ١٩٥٨ أن منطقة سيدى إفنى أرض أسبانية ، وألحقتها بجزر الكنارى الأسبانية المقابلة لها بالمحيط الأطلسى . ولكن المغرب ظل يدافع عن رأيه ، حتى اضطرت أسبانيا أن تعيد هذه المنطقة للمغرب فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

منطقة طرفاية : تقع هذه المنطقة جنوب المغرب ، وكانت أسبانيا قد ماطلت فى تسليمها عند إخلاء الريف ، وظلت تحتفظ بها حتى أكتوبر سنة ١٩٥٧ حين وجدت ألا مناص من تسليمها للوطن الأم .

الساقية الحمراء : تقع جنوب منطقة طرفاية ، وهى قسم من الصحراء الجنوبية ولا يوجد سند لدى أسبانيا لادعاء أنها أرض أسبانية كما ادعت فى سيدى إفنى .

منطقة ريودورو : تقع جنوب الساقية الحمراء وهى أكبر مساحة منها ، وتعتبرها أسبانيا مستعمرة قائمة بذاتها .

ويرى بعض الباحثين أن احتفاظ أسبانيا بالساقية الحمراء ومنطقة ريودورو ليس إلا للمساومة ، أى لتمنحهما أسبانيا للمغرب نظير اعتراف هذه لأسبانيا بحقها فى سبتة ومليلة ، وربما كان هذا ما يدور حقيقة فى رأس ولاة الأمر الأسبان، ولكن الذى لاشك فيه أنه لا مساومة فى الحقوق الوطنية وأنه لن يوجد الزعيم الذى يستطيع أن يتنازل عن شبر من الأرض المغربية لقوى الاحتلال الغاشمة ، وسيأتى اليوم الذى تعود فيه الأرض السليبة كلها للوطن الأم شاء المستعمر أو لم يشأ .

وقد كانت أسبانيا تتخذ من الخلاف بين المغرب وموريتانيا ذريعة للبقاء فى هذه الصحراء ، ولذلك كان من الحكمة أن تم الوفاق بين المغرب وموريتانيا حتى تفقد أسبانيا هذا السلاح ويقول جلالة الملك الحسن :

« اتفقتُ مع موريتانيا لنقطع الطرق على كل من يقول إن العرب ليسوا متفقين » .

« وقد أعلنت الجزائر أنها ليست لديها مطالب فى الصحراء المغربية .. لا تحت الأرض ولا فوقها » .

« وستطالب الدول العربية أسبانيا بالدخول فى مباحثات مع المغرب ، وقد وعدت الدول العربية بمساندة المغرب بكل القوة وبكل الإمكانيات » .

وأخيرا قال الملك الحسن الثانى :

المغرب يريد الحوار مع أسبانيا ولكن إذا اضطر لسلوك سبل أخرى فإنه سيسلكها ..

ويقول وزير خارجية المغرب إن قضية الصحراء المغربية ستعرض على الأمم المتحدة فى دورتها التاسعة والعشرين (١٩٧٤) ولن نقبل الاستفتاء الذى تقول به أسبانيا لأن السكان الأصليين ٥٠٠٠٠ وقوات الاحتلال ٧٠٠٠٠ وتريد أسبانيا أن تكون لقوات الاحتلال أصوات فى الاستفتاء فهو بهذا استفتاء مزيف، ويضيف الوزير : أن عام ١٩٧٥ حاسم بالنسبة لهذا الموضوع ، حربا أو سلاما :

ويرى العرب فى كل البقاع أن قضية الصحراء المغربية قضية عربية وليست مغربية فحسب .

المشكلة فى إطار جديد

لقد انتهت مشكلات الحماية والاحتلال الأوروبى للمغرب العربى ، وتخلت دول الغرب عن كل الأماكن العربية فى هذه المنطقة وفى غيرها ، ولم يعد هناك وجود لأسبانيا فيما أسميناه الجيوب الأسبانية ، منذ مطلع سنة ١٩٧٦ ،

ولكن المشكلة فى هذه المناطق لم تنته بعد ، بل اتخذت طابعا جديدا ، فإن المساحة التى تقع بين المغرب وبين موريتانيا أصبحت منطقة ساخنة كما يقولون ، وفيها صراع مسلح ، وأصبح أطراف المشكلة كالآتى :

١- يرى المغرب أنه صاحب الحق فى هذه المنطقة ، وأنها كانت أرضا مغربية قبل الاستعمار ، وإذا كانت قد نسبت أحيانا لموريتانيا فسميت الصحراء الموريتانية ، فإن ذلك كان لأن موريتانيا نفسها كانت جزءا من الأرض المغربية.

ويقدم المغرب دليلا على حقه فى هذه المنطقة هو أن محكمة العدل الدولية قررت أن للمغرب صلات تاريخية بهذه المنطقة ، وهذه الصلات تتيح الحق للمغرب أن يمد حدوده لهذه المنطقة .

وقد انضمت موريتانيا لاتجاه المغرب وأيدت وجهة نظره .

٢- زعماء المنطقة :

أصبح لمنطقة هذه الصحراء زعماء يطلقون على أنفسهم «جبهة تحرير الصحراء» (البوليساريو) وهؤلاء يطالبون باستقلالهم وتكوين دولة فى هذه المنطقة ، خاصة بهم .

ويؤيدون وجهة نظرهم هذه بأن محكمة العدل الدولية أعطتهم الحق فى تقرير المصير .

وتقف الجزائر مع هؤلاء لأن منطقتهم ستكون معبراً للجزائر للوصول للمحيط، وعندما تتكون دولة صغيرة مستقلة فى هذه المنطقة ، فإنه يكون من السهل أن تحتويها الجزائر وتصل عن طريقها بسهولة إلى المحيط الأطلسى .

وتجيب المغرب على هذه الأفكار بأن حق المصير لا يمكن أن يكون لجزء ثابت من دولة من الدول ، فلا يمكن أن يكون هناك حق تقرير المصير فى سيناء مثلا بعد جلاء اسرائيل عنها .

ثم إن قيام دولة فى هذه المنطقة بسبب بعض المتمردين الذين لا يزيد عددهم عن اثنى عشر ألفاً عمل غير مستقيم ، وبخاصة أن هؤلاء يتلقون مساعدات من الشيوعيين وستكون دولتهم ذيلاً للشيوعيين .

وتضيف المغرب بأن الدولة المقترحة لا يتجاوز سكانها ١٧٥ ألفاً وقد بايع الشيخ خطرى ولد سعيد شيخ قبائل الرقيبات ، وهى أكبر قبائل الصحراء الملك الحسن فى (أغادير) وأتباع هذا الشيخ يزيدون عن ثلاثين ألف نسمة .

٣- **الجزائر** : رأينا أن الجزائر أصبحت طرفاً فى هذه القضية ، وهى تقدم مساعدات منتظمة للبوليساريو ، ورأينا السبب الرئيسى الذى دفع الجزائر لهذا الاتجاه ، ويضاف إلى هذا أنه كان هناك اتفاق وقع بالحروف الأولى بين الجزائر والمغرب يوافق المغرب بمقتضاه على إعطاء منطقة تندوف إلى الجزائر ، ولكن المغرب لم يوف بتعهده ، ولم يكمل الاتفاقية ، والجزائر فى أمس الحاجة لنقل كثير من صادراتها عبر الصحراء إلى المحيط ، ويرى المغرب أن من حقه أن يستولى أولاً على أرضه ، وبعد ذلك تتم مفاوضات على تيسير وسائل المواصلات .

والمغرب يتهم الجزائر بأنها هى التى تراجعت فى سياستها ، إذ أن الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين كان قد أعلن فى مؤتمر القمة العربى فى الرباط فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن بلاده ليست لها مطامع اقليمية فى الصحراء ، ولكنها عادت تبرز هذه المطامع وتدافع عنها .

ويجيب الجانب الجزائرى بأن هذا التصريح كان لونا من اللباقة السياسية والمجاملة لأنه حدث فى الرباط عاصمة المغرب ، ثم أن تراجع المغرب فى وعدها الخاص بأقليم تندوف دفع الجزائر لتعيد النظر فى تصريحها السابق .

ولاتزال القضية موضوع نزاع بين هذه الأطراف وليس من الميسور أن نقرأ المستقبل عنها ، وكل ما نذكره ونؤيده أن العالم يتجه للتجمع لا للتفكك ، وقد اتجهت ليبيا مرة للوحدة مع مصر ، واتجهت مرة أخرى للوحدة مع تونس ، بل تخطت المساحات الشاسعة سنة ١٩٨٠ لتعلن الوحدة مع سوريا .

ولهذا فإننا نتمنى أن يحصل وفاق لتجميع القوى بدلا من التفكك الذى لن يولد إلا الضعف والوهن .

الشئون الداخلية بعد الاستقلال .

إن التطور السياسى الذى مرّ به المغرب صَحِبَه تطور فى الشئون الداخلية ، وسنذكر هنا إلمامة سريعة عن أبرز نواحى التطور المغربية .

ولعل أهم نقطة فى التطور الداخلى بالمغرب هى حركة التطور الدستورى ، فأسرة الأشراف التى حكمت منذ أوائل القرن السادس عشر لاتزال تحكم ، وطبيعى أنه كان لابد لسلاطين هذه الأسرة فى العهود الأخيرة أن ينتهجوا طريقا جديدا غير الذى سار فيه أسلافهم ، والحقيقة أنهم فعلوا ذلك إلى حد كبير ، فضمنوا بذلك استمرار سلطانهم ، ويعتبر الملك محمد بن يوسف حلقة الاتصال بين اتجاهات السلاطين فى القرون الماضية وبين الاتجاهات الحديثة .

وقد سبَق أن ذكرنا أن حزب الاستقلال أعلن تمسكه بالنظام الملكى الذى لم تعرف البلاد نظاما سواه منذ فجر اتصالها بالاسلام ، ولكن الحزب اشترط أن تصبح الملكية دستورية ، وفى الوقت الذى اتجه فيه حزب الاستقلال لإجلال الملك والتمسك به اتجه السلطان كذلك للشعب يعبر عن أمانيه ويكافح الاستعمار معه، وما إن بدأت مراحل الاستقلال حتى أصدر الملك «الميثاق الملكى» سنة ١٩٥٨ ونصه كما يلى :

« إن السيادة تخص شخص الملك ، وإن مراكش مملكة دستورية باسم المملكة المغربية ، وإن الوزراء مسئولون أمام الملك ، وسوف يتم الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية ، مع إعلان الحريات الكاملة ، وتقوم مجالس ريفية إقليمية وبلدية على أساس مدنى حديث ، وليس على أساس قبلى ، وستتمتع الجمعية الاستشارية بحق المناقشة والتصويت على الميزانية ، وسيتم انتخاب أعضائها من بين أعضاء المجالس البلدية والمحلية ، وبعد ذلك يصدر الدستور ،

وتظهر أول جمعية برلمانية وطنية على أساس مبدأ الاقتراع العام » .

وقد بدئ بتنفيذ الخطوات التي وردت بهذا الميثاق ، وكان آخر ما نفذ منها إصدار الدستور في ديسمبر سنة ١٩٦٢ في عهد الملك الحسن الثاني .

ومن الوثائق التي بين أيدينا نص الدستور وهو يتكون من تصدير (مقدمة) ومن اثنى عشر باباً تحوى مائة وعشرة فصول ، وقد جاء في المقدمة ما يلي :

« المملكة المغربية دولة اسلامية ذات سيادة كاملة ، لغتها الرسمية اللغة العربية ، وهي جزء من المغرب الكبير .

« وبصفتها دولة أفريقية فإنها تجعل من أهدافها تحقيق الوحدة الإفريقية ».

وقد أخذ النقاد العرب على هذه المقدمة أنها عنيت بالمغرب الكبير وبالوحدة الإفريقية دون اهتمام بالوحدة العربية ، مع أن المغرب عضو نشيط في جامعة الدول العربية .

والباب الأول عبارة عن أحكام عامة ومبادئ أساسية ، وأهمها :

الفصل الأول : نظام الحكم بالمغرب نظام ملكية دستورية ديمقراطية واجتماعية .

الفصل الثاني : السيادة للأمة تمارسها مباشرة بالاستفتاء ، وبصفة غير مباشرة على يد المؤسسات الدستورية .

الفصل الثالث : الأحزاب تسهم في تنظيم المواطنين وتمثلهم .

الفصل الخامس : جميع المغاربة سواء أمام القانون .

الفصل السادس : الاسلام دين الدولة ، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شئونه الدينية .

ومما ورد كذلك في الباب الأول تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في التمتع

بالحقوق السياسية وضمان حرية التجول والرأى والاجتماع ، وضمان حق الملكية الفردية مع جواز أن يضع القانون لها حداً « إذا دعت لذلك ضرورة النمو الاقتصادى والاجتماعى المخطط للبلاد » .

أما الباب الثانى فمخصص لحقوق الملك ، وفى الباب الثالث شئون البرلمان.. ونرجو أن يكون عهد الدستور عهد يمن ورخاء على المغرب الصديق .

وتمت انتخابات أول مجلس نيابى بالمغرب فى ١٩٦٣/٥/١٧ .

* * * * *

الأحزاب

وأقدم الأحزاب الموجودة حالياً فى المغرب حزب الاستقلال ومن أبرز زعمائه علال الفاسى ، وقد زاد قوة عندما اندمج فيه حزب الإصلاح الذى كان يزاول نشاطه فى منطقة الريف بزعامة عبد الخالق الطريس .

وفى سنة ١٩٥٩ حصل انشقاق فى حزب الاستقلال فخرج منه عبد الله ابن إبراهيم الذى ألف حزبا جديدا هو اتحاد القوى الشعبية ، وله نفوذ كبير فى المدن الصناعية إذ ينضم له أكثر العمال .

وهناك حزب الشورى والاستقلال الذى كان يسمى حزب الشعب بزعامة محمد حسن الوزانى .

* * * * *

ويتجه المغرب على العموم إلى سياسة الحياد الإيجابى ، وهو عضو نشط فى الكتلة الإفريقية ، وهى تضم الدول الإفريقية التى اكتملت حريتها والتى لا تسير فى فلك المعسكرات المتصارعة فى الغرب أو الشرق .

* * * * *

الاقتصاد

وعن المجال الاقتصادى بين أيدينا نص الخطاب الذى ألقاه محمد الدويرى عضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال ووزير الاقتصاد الوطنى والمالية فى مؤتمر حزب الاستقلال المنعقد من ١٢ إلى ١٤ يناير سنة ١٩٦٢ .

وفى هذا الخطاب أهم الاتجاهات الاقتصادية بالمغرب المستقل ، وأهم مشروعات المستقبل ، ويبرز منها :

- القضاء على تبعية المغرب الاقتصادية لفرنسا بفصل الفرنك المغربى عن الفرنك الفرنسى ، ثم بجعل البنك المركزى المختص بإصدار الأوراق النقدية خاضعا للمغرب .

- إلغاء ميثاق الجزيرة والمعاهدات الثنائية التى كانت تقيد حق المغرب فى فرض رسوم جمركية على واردات الدول المشتركة فى الميثاق أو المعاهدات .

- إعادة توزيع الأرض على المواطنين وتنظيم الضرائب بإعفاء صغار الملاك منها .

- مغربة الاقتصاد الوطنى بإخضاع البنوك وشركات التأمين لصالح الوطن ، وبتأميم الطاقة الكهربائية والسكك الحديدية .

* * * * *

الثقافة

وفى المجال الثقافى واجه عهد الاستقلال نوعين من الثقافة فى المغرب ، أحدهما ينبع من جامعة القرويين والآخر من المدارس الفرنسية ، وقد قام جامع القرويين أو جامعة القرويين بجهد ضخم عبر القرون الطويلة ، فخدم الثقافة الاسلامية العربية ، وتخرج منه قادة وزعماء كثيرون ، ولكن العصور الحديثة احتاجت إلى تطور فى المناهج وطرق البحث لم تستجب لها جامعة القرويين أو لم

تتحها الظروف لهذه الجامعة ، فبدت فى عصر الاستقلال وكأنها قاصرة عن تغذية الاتجاهات الفكرية الحديثة .

أما المدارس الفرنسية فكانت بؤرا تفسد عقول المغاربة ، وتوجههم وجهة خاطئة ، وتحاول أن تفرنس طلابها .

ولذلك كان على المغرب الحديث أن يطور ثقافته الوطنية حتى يصل إلى المستوى الملائم ، وأن يتدخل فى السم الذى تنفثه المدارس الفرنسية ، فيقلّل منه بإغلاق هذه المدارس أو تنظيم الإشراف عليها .

وقد نجح المغرب فى هذا وذاك ، ومدت جمهورية مصر العربية يدها فى أكثر الأحوال لتحقيق هذا الهدف الغالى .

* * * * *

وقد أدى المغرب دوره كاملا فى الصراع العربى الصهيونى ، فسرعان ما قفز جنود المغرب إلى ميدان المعركة كلما نشبت المعركة ، وسرعان ما تبرع أهل المغرب بالدماء للجرحى ، وكان صوت المغرب سباقا فى كل المجالات العربية والاسلامية ، وقد استوى فى هذا الاتجاه كل طبقات الشعب المغربى من الجماهير حتى القادة ، ومن القاع حتى القمة .

ثانياً

الجـــــزائر

مقـدمة :

عندما يتحدث مؤرخ منصف عن الجزائر ، يحس أنه يتحدث عن عمالقة أمجاد ، ظهر الفرنسيون أمامهم أقزاما صغارا ، فلقد دون الجزائريون فى سجل الزمن أروع صفحات البطولة والمجد ، وأخذوا بقوة الإيمان وقوة السلاح حقهم بأيديهم من دولة كبرى تؤيدها أكثر الدول الكبرى ، فبرهن الجزائريون بذلك على أنهم أكبر من كل هذه الدول ، وكان من وسائلهم إلى النصر أن جعلوا صدورهم مقابر دفنوا بها أسلحة العدو ، وجهد العدو ، ومال العدو ، حتى إذا ضعف ذلك كله انقض الجزائريون على عدوهم فدوخوه ، وفتكوا به ، حتى ألقى السلاح واستسلم وفرّ من أرض الأبطال المغاوير إلى الحياة الناعمة على ضفاف السين . فالحديث عن الجزائر حديث عذب يسجل للعرب فى كل مكان نموذجا جديرا بالتحية والإكبار .

تسمية الجزائر :

كانت الجزائر تعرف « بالمغرب الأوسط » حتى عهد العثمانيين فى مطلع القرن السادس عشر ، فلما جاء الأتراك العثمانيون لهذا القطر جعلوا عاصمته مدينة ساحلية تسمى « جزائر بنى مزغنة » وكانت تسمى هكذا لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها تستعملها لحماية سفنها ، وأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون هذه المدينة ، وينشئون بها الدور والقصور ، ويصلون بينها وبين الجزر الصغيرة التى تقع أمامها بالردم أو بالجسور حتى تكون هذه المجموعة مدينة كبيرة أطلق عليها « مدينة الجزائر » وأحيانا « الجزائر » فقط ، ثم أطلق هذا الاسم على القطر كله (١) .

---

(١) أحمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ٩ - ١٠ و ٦٩ بتصرف .

هل نطلق على هذا القطر «المغرب الأوسط» فى سيرنا التاريخى حتى نصل إلى القرن السادس عشر ، ثم نطلق عليه الجزائر ابتداء من هذا القرن ؟ هذا هو الصواب ، وهو ما سنتبعه ، وربما يقال إنا نكتب الآن بعد أن أصبح اسم «الجزائر» أبرز ، وأكثر شيوعا ، وأدق دلالة ، فلا مانع - أيضا - من استعمال هذه التسمية عن أية فترة من فترات التاريخ .

والمغرب الأوسط كان جزءا من الدولة الاسلامية فى العهد الأموي ثم في مطلع العهد العباسي ، ولكن استقلال الأندلس عن بني العباس بالإضافة إلي العوامل الأخري التي أبرزناها عند الكلام عن الدولة العباسية ، فتح الباب لاستقلال ولايات أخري وبخاصة في الشمال الإفريقي الذي كان بعيدا عن بغداد عاصمة العباسيين فلم ينل من رعاية الخلفاء مانالته بقاع أخري من العناية والاهتمام ، وبدأ المغرب الأوسط حياته الاستقلالية التي سنتتبعها فيما يلي ، مع ملاحظة أن المغرب الأوسط حافظ دائما علي صلاته بباقي دول الشمال الإفريقي علي الخصوص ، وبالعالم العربي والإسلامي بوجه عام ، واندمج أحياناً فى بعضها كما سنرى فيما بعد ، ولم يكن هذا الاندماج انتقاصا لاستقلاله قط ، كما لم يمثل استقلاله أي بعد عن المحيط العربي والإسلامي .

الدولة الرستمية ١٦٠ - ٢٩٦ هـ = ٧٧٦ - ٩٠٨ م :

تمثل الدولة الرستمية أبرز حركة استقلالية مبكرة بالمغرب الأوسط ، وقد أسسها القاضي عبد الرحمن بن رستم ، الذي بني مدينة تيهرت [1] وجعلها عاصمة دولته ، وقد شملت الدولة الرستمية كل أرجاء البلاد الجزائرية الحالية ماعدا بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق ، وآل رستم من الخوارج الإباضية ، فكان الحكم عندهم يقوم علي الشوري وانتخاب الإمام ، وكانت دولتهم تعني بالعدل ونشر الأمن بين الناس ، وكانت تهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

---

(١) تسمي أيضا تاهرت وتسمي الآن تيارت .

والأئمة الرستميون هم :

عبد الرحمن بن رستم	١٦٠هـ = ٧٧٦ م
عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٦٨ = ٧٨٤
الأفلح بن عبد الوهاب	٢٠٨ = ٨١٧
أبو بكر بن الأفلح	٢٥٨ = ٨٧١
محمد بن الأفلح	؟ ؟
يوسف بن محمد	٢٨١ = ٨٩٤
يعقوب بن الأفلح	٢٩٦ = ٩٠٨ (١)

الفاطميون وآل زيري :

انبثق ملك الفاطميين - كما قلنا من قبل - في تونس ، ومن هناك بدأ يمتد إلي الشرق والغرب . وقد خرَّب أبو عبد الله الداعي مدينة تاهرت سنة ٢٩٦ (٢) واستولي علي الجزائر ، وواصل الفاطميون زحفهم حتي وصلوا المحيط الأطلسي، كما سنبين ذلك مفصلا فيما بعد عند الكلام عن تونس حيث المركز الرئيسي للعبيديين بالشمال الإفريقي ، وهكذا أصبحت الجزائر فاطمية السياسة والمذهب ، فلما فتح الفاطميون مصر وانتقل المعز لدين الله الي القاهرة عاصمته الجديدة سنة ٣٦٣ هـ ، أناب عنه بلكين بن زيري الصنهاجي في حكم الشمال الإفريقي ، واستمر بلكين في المهدية كما كان خلفاء الفاطميين ، وعين ابنه المنصور أميرا علي المغرب الأوسط ، فلما مات بلكين وتولي ابنه المنصور مكانه ،وعهد هذا لأخيه حماد بن بلكين بولاية الجزائر ، وقد آل أمر حماد الي الاستقلال بالجزائر ، وتكوين دولة بني حماد ، كما سنبين ذلك فيما يلي :

---

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٥٦ وزامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) زامباور : المرجع السابق ص ١٠١ .

بنو حماد : ٣٩٨ - ٥٤٧ هـ = ١٠٠٧ -١١٥٢م :

تولي حماد بن بلكين ولاية الجزائر في عهد أخيه المنصور ، وظل يحكمها باسمه طيلة حياته ، وبعد وفاة المنصور تولي ابنه باديس ، فأبقي عمه حمادا في مكانه ، وعهد اليه بحرب زناته وبحرب بعض القبائل التي ثارت في المغرب علي حكم آل زيري ، وجعل باديس لعمه ولاية كل بلد يفتحه ، وقد حقق حماد انتصارات كبيرة ضد الثائرين ، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة واتخذها عاصمة له ورفع أسوارها ، واستكثر فيها من المساجد والفنادق ، فاستبحرت في العمارة . واتسعت في التمدن ، ورحل اليها طلاب العلوم وأرباب الصنائع ... ثم ان بطانة باديس نفسوا علي حماد مكانته وسعوا بالوشاية بينة وبين عمه ففسد ما بينهما وطلب باديس من عمه حماد أن يسلم بعض ما في يده الي المعز بن باديس ، فأبي حماد ، وخالف باديس ، وتمادي في مخالفته ، فأعلن اعتناق مذهب أهل السنة وطرح التشيع ، وقامت حروب بين فرعي آل زيري ، ومات باديس في أثنائها فثبت سلطان بني حماد وبدأت دولتهم ، وتم نوع من الوفاق بين آل حماد وآل باديس علي أن يعود آل حماد للمذهب الشيعي وأن يبقي لهم السلطان في الجزائر والمغرب [١] .

وفيما يلي ملوك بنى حماد ،

حماد بن بلكين بن زيري	٣٩٨ = ١٠٠٧
القائد بن حماد	٤١٩ = ١٠٢٨
محسن بن القائد	٤٤٦ = ١٠٥٤
بلكين بن محسن	٤٤٧ = ١٠٥٥
الناصر بن علناس بن حماد	٤٥٤ = ١٠٦٢
المنصور بن الناصر	٤٨١ = ١٠٨٨
باديس بن المنصور	٤٩٨ = ١١٠٤

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٧١ - ١٧٢

العزيز بن المنصور ٥٠٠ = ١١٠٦

يحيي بن العزيز ٥١٥ = ١١٢١

الي فتح الموحدين سنة ٥٤٧ = ١١٥٢(١)

ويعتبر عهد الناصر وابنه المنصور من أزهي عصور آل زيري بالشمال الإفريقي ، فقد اتسع ملك الناصر ، ودان له بالطاعة كثير من قبائل البربر ، وفتح جبل بوجاية واختط به مدينة عظيمة أسماها الناصرية ، وهي التى عرفت باسم (بوجاية) وبني بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل اليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها ، واتخذها عاصمه له إبتداء من سنة ٤٦١ ، ومما زاد ملكه قوة وثباتا أن زحف بني هلال وبني سليم (سنة ٤٤٤) أضعف من ملك باديس بالمهدية ، وأثار هناك الاضطراب ، فقوي بذلك آل حماد (٢).

وينسب للمنصور أنه هو الذ ي حضّر مُلْكَ بني حماد ، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع ، واتخاذ القصور ، وإجراء المياه في الأراضي والبساتين، فبني في القلعة قصر الملك ، والمنار ، والكواكب ، وقصر الشام ، وبني في بوجاية قصر اللؤلؤة ، وقصر أميميون (٣) .

ومن الأحداث الهامة في هذا العهد نزوح جماعات من مهاجري الأندلس إلي الجزائر ، وقد جاء هؤلاء بعلومهم وآدابهم وثقافتهم في الصناعة والزراعة ، فساعدوا على ترقية العلوم والمعارف والآداب ، كما ساعدوا على تنمية الثروة بالجزائر (٤) .

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ١ ص١١٠ و
Stanley Lane-Poole, Muh Dynasties p. 40.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٤) محمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ٦٠ .

المرابطون والموحدون :

امتد سلطان المرابطين فاقتطع جزءا من ملك بنى حماد ، وإذا كان بنو حماد قد استطاعوا أن يحرسوا أكثر ملكهم من زحف المرابطين ، فإنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام زحف الموحدين ، فأخلوا لهم الطريق ، وامتد سلطان الموحدين - كما سبق القول - حتى شمل الشمال الافريقى كلة ، فابتلع دولتى آل زيري ، وسار شرقا حتى تاخم حدود مصر.

دولة بني زيان ٦٣٣ ـ ٧٩٦ = ١٢٣٥ ـ ١٣٩٣ م :

قلنا فيما سبق إن الضعف دب فى جسم الموحدين عقب هزيمتهم فى موقعة حصن العقاب بالأندلس ، وأن الدولة تفككت عقب ذلك ، وقام على أثرهم بنو حفص بتونس ، وبنو زيان بتلمسان بالمغرب الأوسط وبنو مرين بمراكش ،فلنواصل كلامنا هنا عن بنى زيان.

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين ،فلما ضعف الموحدون ،واستقل بنو حفص عنهم،أعلن بنو زيان أيضا استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم[1]، وبنو زيان من قبيلة بنى عبد الواد ، ويجمعهم نسب مع بنى مرين ، وكان بنو عبد الواد متغلبين فى أكثر الأزمان على المغرب الأوسط ، وزعيمهم بطل من أبطال التاريخ اسمه يغمر اسن ، وبسبب شخصيته الضخمة وجهده الكبير استطاع أن يثبت أركان دولته ، ويدعم استقلالها ، فقد كان بنو حفص أسبق فى إعلان استقلالهم عن الموحدين ، وكانوا - فى بادئ الأمر - ينظر إليهم على أنهم ورثة الموحدين ، فكانوا يطمعون فى أن يصبح بنو زيان بالجزائر وبنو مرين بالمغرب تابعين لهم ، ولكن أمر بنى مرين قوى بإسقاطهم عاصمة الموحدين مما جعلهم يحسون بأنهم أجدر من بنى حفص بوراثة سلطان الموحدين ، وقد سبق الحديث عن ذلك ، والذى نريد إثباته هنا أن بنى زيان وقعوا بين فكى الرحا ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٧٢ .

أى بين بنى حفص وبين بنى مرين ، وكلاهما يطلب السلطة الكاملة على الشمال الافريقى ، فاحتاج بنو زيان لتشبيت سلطانهم إلى جهاد طويل ، وفى بعض الأحيان اضطر بنو عبد الواد لمحاربة جيوش تونس والمغرب فى وقت واحد [1].

وملوك بنى زيان هم :

يغمر اسن بن زيان	٦٣٣ = ١٢٣٥
عثمان (الأول) بن يغمر اسن	٦٨١ = ١٢٨٢
محمد (الأول) بن عثمان	٧٠٣ = ١٣٠٣
موسى (الأول) بن عثمان	٧٠٧ = ١٣٠٧
عبد الرحمن (الأول) بن موسى	٧١٨ = ١٣١٨
أبو سعيد عثمان (الثانى)	٧٤٩ = ١٣٤٨
أبو ثابت الزعيم	
أبو حمو موسى (الثانى)	٧٥٣ = ١٣٥٢
أبو تاشفين عبد الرحمن (الثانى)	٧٨٨ = ١٣٧٦
أبو زيان محمد (الثانى)	٧٩٦ = ١٣٩٣ [2]

وعن مؤسس هذه الأسرة يقول ابن خلدون [3] :

كان يغمراسن بن زيان من أشد بنى عبد الواد بأسا وأعظمهم فى النفوس مهابة وإجلالا ، وأعرفهم بمصالح قبيلته ، وأقواهم كاهلا على حمل الملك ، واضطلاعا بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده ، وكان مرموقاً بعين التجلة ، مؤملا للأمر عند المشيخة ، تعظمه فى الأمور الخاصة ، وتفزع إليه فى نوائبها العامة ، فلما تولى الأمر بعد أخيه أبى عزة سنة ٦٣٣ قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه ، وظهر على الخارجين على أخيه ،

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣) العبر جـ ٧ ص ٧٩.

وأصارهم فى جملته وتحت سلطانه ، وأحسن السيرة فى الرعية ، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم بحسن السياسة والاصطناع ، وكرم الجوار ، واتخذ الآلة ، ورتب الجنود والمسالح ، واستلحق العساكر من الروم والغز ، وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب ، وبعث فى الأعمال ، ولبس شارة الملك والسلطان ، ومحا آثار دولة الموحدين ، وعطل من الأمر والنهى دستَها ، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش ، وتقلد العهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه ، .... وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلتهم آل بنى حفص مواطن فى التحرش والمنازلة ، وكذلك بينه وبين بنى مرين قبل أن يملكوا المغرب وبعد ملكه ، وقائع متعددة كتب له الفوز فى أكثرها .

ويعتبر عهد أبى حمو موسى من أزهى عهود بنى زيان ، فقد أصبحت تلمسان فى أيامه حاضرة من أعظم الحواضر ، وصارت من أهم عواصم العلم والسياسة والعالم العربى قاطبة ، وفى عهد بنى زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين ، ولعل فى قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبى مؤلف الجواهر الحسان ، والمقرى مؤلف نفح الطيب ، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التى تعتبر من آيات الفن المعمارى العربى ، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق (١) .

النظام الإدارى فى عهد بنى زيان :

أطلق ملوك بنى زيان على أنفسهم « أمير المؤمنين » ، وقسموا السلطة ثلاث شعب : هى السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف ، والسلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم ، والسلطة القضائية ويتولاها قاضى القضاء . ويعتبر كل من هؤلاء فى رتبة وزير كما نعرفه الآن ، وبجوار هؤلاء كان هناك صاحب المال

(١) أحمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ٦٥ - ٦٧ بتصرف .

(وزير ماسية) وصاحب الأسفال (وزير التعمير) وكان رئيس الوزراء يلقب (مزاول) وله الإشراف على كل هؤلاء .

وفى كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالى) وهو حافظ النظام الإسلامى ، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة ، والقاضى وغيرهم من موظفى الدولة وجباة الضرائب [1] .

الجزائر فى عهد اضطراب :

دخل العثمانيون الجزائر - كما سيأتى - سنة ١٥١٨ ، وقد شاهدت الجزائر بخاصة والشمال الإفريقى بعامة أسوأ فترات تاريخها خلال القرن الذى سبق دخول العثمانيين ، لقد كان قرنا حافلا بالأحداث المرة السوداء ، كانت الأندلس تلفظ آخر أنفاسها ، وكان الخلاف ناشبا بين بنى مرين وحكام تلمسان من بقايا بنى زيان وبنى حفص ، وامتد طغيان الفرنجة إلى الساحل الإفريقى انتقاما من سكانه ، لأنهم طالما مدوا يد المساعدة لمسلمى الأندلس ، وطالما أخذوا يتلقون وفودهم ويضمدون جراحهم ، وهكذا عاشت الجزائر فترة مريرة بين سنة ١٣٩٣ وسنة ١٥١٨ وكانت السلطة فيها أحيانا لبنى مرين يعينون من يشاءون من بنى زيان ، وامتدت أحيانا سلطة الفرنجة للجزائر بالتعيين والعزل إن صحت رواية زامباور [2] واستعاد بنو زيان أحيانا سلطانهم ، ولكن هذا كله كان إيذانا بدم جديد ينقذ الجزائر مما كانت تعانى .

العثمانيون بالجزائر ١٥١٨ - ١٨٣٠ :

شرحنا من قبل أحوال الشمال الإفريقى قبيل امتداد الخلافة العثمانية إليه ، ووضحنا الجهاد البحرى الذى لجأ له المسلمون للدفاع عن الساحل الإفريقى ضد غزو الفرنجة ولإنقاذ الفارين المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ولنعد

---

(١) محمد توفيق المدنى : المراجع السابق ص ٦٥ وانظر بغية الرواد ليحيى ابن خلدون .

(٢) معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٩ .

إلى كاتب جزائرى ننقل كلامه فى هذا الموضوع :

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى [1] :

احتل الأسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة جزائر بنى مزغنة تهديدا مباشرا ، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا منها حصنا يضع البلدة تحت رحمته ، ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان ، ولم تكن دولة بنى زيان فى آخر عهدها تستطيع أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ راهبا أكثر منه تعصبا وبعدا عن روح دين عيسى عليه السلام ، فكانت الحملة الأسبانية حملة نهب ولصوصية ، وإنتقام من الإسلام ، وانتهاك فظيع لحرمات المسلمين ، وكانت أخبار غارات الأسبان على ساحل المغرب العربى حديث الناس أجمعين فى ذلك العهد .

وحدّث عن لصوصية البحر ولا حرج ، فالأسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهالوا على مهاجرى الأندلس التعساء ، فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال .

وكاد المغرب العربى كله يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لولا أن تدخل القدر ، وحدثت المعجزة .

أما هذه المعجزة فهى الأخوان عروج وخير الدين باربروس ومحاولاتهما المباشرة للدفاع عن الساحل ، ثم المحاولة التى لجأ لها خير الدين بالانضمام إلى قوة الأتراك العثمانيين التى كانت تمثل آنذاك وحدة الإسلام والمسلمين أمام القوة المسيحية ، وامتد بذلك سلطان العثمانيين للجزائر سنة ١٥١٨ فآذن ذلك بعهد جديد .

---

(١) هذه هى الجزائر ص ٦٨ .

وملامح الجزائر فى العهد العثمانى نوجزها فى السطور التالية :

كان على خير الدين برباروس أن يقابل فى الداخل بعض المقاومة التى كان قوامها بعض القبائل وبعض الحفصيين بتونس ، وقد خاض خير الدين وخلفاؤه معارك ضد هؤلاء وأولئك حتى تمّ لهم النصر ، وامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب ، فأصبح المغرب الأوسط كله تابعا للسلطنة العثمانية حتى واحات الميزان الموغلة فى الصحراء [1] وهذا يفند دعوى الفرنسيين أن الحكم العثمانى بالجزائر اكتفى بالساحل ، وكانت هذه الدعوى حلقة من سلسلة الأكاذيب التى قصد بها محاولة فصل الصحراء عن الجزائر بحجة أنه لم تكن قبل الاحتلال الفرنسي جزءا من البلاد ، وأن فتحها لم يكن إلا بالقوى الفرنسية ، وقد تداعت هذه الأكذوبة أمام قوة التاريخ وإصرار المفاوض الجزائرى .

ولم يكن الصراع الداخلى هو كل ما شغل خير الدين وخلفاءه ، فقد كان عليهم أن يتصدوا للعدوان الأوروبى ، وقد نجحوا فى هذا الميدان أيضا ، فاستردوا أكثر المدن الساحلية التى كانت قوى الاستعمار الأوروبى قد احتلتها لها ، واستطاع خير الدين أن يسيطر على الملاحة بالبحر الأبيض المتوسط ، فكان على الدول المسيحية أن تدفع له إتاوة نظير السماح لسفنها بالسير فى هذا البحر .

وقد سبق أن ذكرنا أن الأساطيل العثمانية استولت على الجزائر ثم بعد ذلك استولت على تونس وطرابلس ، ومن أجل هذا كانت الجزائر تمثل المركز الرئيسى لسلطان العثمانيين بالشمال الإفريقى ، ولكن سرعان ما انفصلت تونس وطرابلس عن الحاكم العام بالجزائر ، وأصبح لكل منهما رئيس يتصل بالأستانه مباشرة .

---

(١) محمد بن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر ص ٦٧ .

نظام الحكم بالجزائر آنذاك :

كانت الجزائر فى العهد التركى تحكم بطريق الباشوات الذين يعينهم الباب العالى ، وقد بلغ عددهم ستة وعشرين باشا ، وفى سنة ١٦٧١ اختار الحرس الانكشارى بالجزائر - الذى وضع أساسه خير الدين بربروس على غرار الجيش الانكشارى التركى - اختار هذا الحرس رئيسا للجيش من أعضائه ، ومنحه نفوذا كبيرا وأطلق عليه لقب «الداى» فاستطاع الداى أن يطغى على سلطان الباشا ، وفى سنة ١٧١٠ توحد المنصب فأصبح الداى هو الباشا ، وظل الحال كذلك حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٣٠ .

وخلال هذه المدة ظل الحكام أفراداً ، دون أن تتكون منهم أسرة يمكن أن نعدها من الأسر الحاكمة فى الإسلام ، وقد أورد زامباور [1] قائمة بأسماء حكام الجزائر إبان العهد العثمانى ، سواء منهم من أرسل من قبل الباب العالى وكان له السلطان وحده ، أو أولئك الباشوات الذين تولوا مناصبهم مع وجود مندوب الحرس الانكشارى الذى انتخب محليا ، كما أورد قائمة بأسماء الدايات الذين تجمع فى أيديهم السلطان بعد سنة ١٧١٠ ، ومن مراجعة هذه القوائم لا يستطيع الباحث أن يجزم بوجود أية علاقة نسب بين هؤلاء الحكام لأن الاسم الفردى هو المعروف فقط مثل : شيخ حسين - شعبان أغا - حاج محمد ، ويبدو أن توارث السلطان كان قليلا ، وقد تولى - على العموم - حسن بن خير الدين بربروس بعد أبيه ، كما تولى حسين على ، الداى الذى تم الاحتلال الفرنسى فى عهده بعد أبيه على خوجة .

وبجوار الباشا أو الداى كان هناك الديوان ، وهو يمثل السلطة التشريعية ويتكون أعضاؤه من كبار الدولة ورؤساء الجند ، وهو الذى ينتخب الداى .

أما السلطة التنفيذية فكانت فى يد الباشا أو الداى يعاونه مجلس وزراء

---

(١) انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ١ ص ١٢٦ - ١٢٩ .

مؤلف من ستة رجال : خوجة الخيل للحرب ، ووكيل البحر للبحرية ، والخزناجى للمالية وحسابات الدولة ، والأغا وهو قائد الجند العام ، والقبودان وهو أميرال الأسطول ، والباشكاتب وهو وزير الداخلية ، أما الخارجية فهى من اختصاص الباشا ، والقول الفصل فيها للديوان .

وقد قسم الديوان أرض الجزائر إلى ثلاث عمالات : قسنطينة شرقا ، وتيطرى وسطا ، ووهران غربا . ووضع على رأس كل عمالة والياً يدعى « الباى » وكان هذا مسئولا عن أعمال ولايته ، أما مدينة الجزائر العاصمة وسوادها ، فكانت موضوعة تحت سلطة وزير الحرب « الأغا » . ولم يبق فى قطر الجزائر مكان لم يتبع هذه الإدارة المركزية المحكمة ، إلى أقصى تخوم الجنوب (١) .

ومن أهم الدايات الذين ينبغى أن نقف عندهم الداى محمد باشا المعروف بالمجاهد (١٧٦٩ - ١٧٨٨) ، وهو الذي أكمل انتصارات الجزائريين على الأسبان ، وقد ضيق هذا الداى الخناق على الجيوب الأسبانية التى أفلتت من يد خير الدين وخلفائه الأقربين فأسقطها جيباً بعد جيب ، ولم يكتف محمد باشا بهذا بل هاجم سواحل أسبانيا وحقق بعض الانتصارات ، ولما هاجم شارل الثالث ملك أسبانيا الجزائر سنة ١٧٧٥ انتقاماً منه ، استطاع محمد باشا أن يحصد عددا من رجال الحملة الأسبانية وأن يكسب النصر ، وقد أدت هذه الانتصارات إلى جلاء الأسبان عن وهران سنة ١٧٩١ أى بعد وفاة الباشا ، ولكن الفضل يرجع إليه ، لأنه هو الذى دمر قوى الأسبان وجعل بقاءهم بوهران مستحيلا (٢).

وهكذا عاشت الجزائر حوالى ثلاثة قرون يشملها التقليد الذى ساد أغلب الولايات التى ضمها العثمانيون لسلطانهم ، بمعنى أنه لم تكن تابعة تبعية كاملة للقسطنطينية ، ولم تكن مستقلة استقلالا تاما ، وكانت الروابط الإسلامية هى أساس هذه العلاقة التى لم

---

(١) محمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) انظر المغرب العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٤٢ .

فهعل العهد العثمانى بالجزائر عهد احتلال ، وقد ظلت الحال على هذا حتى جاء الاحتلال الفرنسى البغيض سنة ١٨٣٠ وسنعرض له فيما يلى بما يستحقه من بيان .

الاحتلال الفرنسى للجزائر

سيكون حديثنا عن الاستعمار الفرنسى للجزائر ، وعن الثورات التى هبت تقاومه ، حديثاً به شئ من التفصيل ، فليست هذه الثورات الجزائرية الرائعة إلا مجدا يضاف إلى أمجاد العرب ، وإلا سلسلة من البطولات التى قل أن شهد التاريخ لها مثيلا ، ونحن نثبتها بفخر للأجيال القادمة ، ليعرف الأحفاد ماذا عمل الأجداد ، وليدرك الذين سينعمون بالاستقلال العربى أن هذا الاستقلال كان غالى الثمن ، بُذلت فى سبيله أرواح جمة وسكبت من أجله دماء غزيرة ، حتى كان حديث العالم ، وحتى أرغم الجبابرة بأسلحتهم الفتاكة ، وكثرتهم الهائلة ، وأعوان السوء ، أن يطأطئوا الرؤوس أمام الإصرار والإيمان بحق العربى فى الحرية التامة والاستقلال الذى لا تشوبه شائبة ، ولنبدأ فيما يلى هذا الحديث :

الجزائر اليوم :

الجزائر هى أكبر قطر بين أقطار الشمال الإفريقى ، تتسع حدودها من جهة الشرق حتى تتجاوز تونس وتصل إلى ليبيا وتنحدر جنوبا حتى تصل إلى بلاد الهجار حيث تعيش عشائر الطوارق .

والجزائر بلاد زراعية ومساحة الأرض الصالحة للزراعة بها حوالى ١٥٫٦٠٠٫٠٠٠ فدان بخلاف المناطق الجبلية التى تكثر فيها المراعى ، وتزرع الكروم فى حوالى مليون فدان ، وفيما عدا الكروم تكثر فى الجزائر مزارع الزيتون والبقول والنخيل وأنواع الفواكه ، وإذا أدخلنا فى حسابنا تلك المساحات

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : أفريقية الإسلامية جـ١ ص ١١٩ ، وسعيد العريان : شمال أفريقية ص ٢٠ .

الشاسعة التى تغطيها الغابات والمراعى فإن الأرض المنزرعة بالجزائر تصل إلى حوالى خمسين مليونا من الأفدنة [1] .

وبالجزائر ثروة معدنية هائلة تشمل الفحم والحديد والرصاص والزنك والنحاس والمنجنيز والفوسفات والكبريت والبترول .

وتتمتع الجزائر بموقع استراتيجى ممتاز ، فهى فى الشمال تطل على البحر الأبيض المتوسط وتحتل مسافة طويلة من ساحله مما يجعل لها مكانة هامة فى الملاحة بالنصف الغربى لهذا البحر ، وهى تواجه بموقعها هذا جنوب أوربا ، وفى بعض الأمكنة تضيق المسافة بينها وبين الساحل الأوروبى مما يزيد فى أهميتها ، أما موقع الجزائر بالنسبة لإفريقية فعظيم الأهمية ، لأن صحراء الجزائر تنساب جنوبا حتى تؤثر فى قلب القارة وتتصل بكثير من دولها . أما مكانتها بالنسبة للمغرب العربى فبالغة الأهمية لأنها منه واسطة العقد ، وتتصل بجميع أقطاره.

ولاشك أن ثروة الجزائر وموقعها الجغرافى كانا من أهم الأسباب التى أطمعت فيها الاستعمار البغيض الذى آن لنا أن نتحدث عنه .

قبيل الاحتلال :

هناك سببان يا رئيسيان كانا من أهم عوامل الصراع بين ساحلى البحر الأبيض المتوسط : الإفريقى والأوروبى ، وهذان السببان هما التعصب الدينى والجهاد البحرى الذى يسميه المسيحيون « قرصنة » . فقد كانت الجزائر تتزعم دول المغرب الإسلامى ، وكانت فرنسا تتزعم الدول الكاثوليكية على الشاطئ المقابل، وكان دور الجزائر فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين يتمثل فى الجهاد البحرى الذى استمر عدة قرون ، وأذل كثيرا من الدول المسيحية وأرغمها على دفع إتاوات منتظمة لدايات الجزائر ، وثارت أوروبا لهذا الوضع ، وأنفت من هذه المهانة ، وتكتلت وتدخلت البحرية البريطانية والبحرية الهولندية لإيقاف

---

(١) أنظر « الأمة العربية » للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٣ و « هذه هي الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني ص ٧٩ ـ ٨٠ .

النشاط الجزائرى ، وفى أوائل القرن التاسع عشر كانت بريطانيا أكثر الدول الغربية حماسة وتحديا للجزائر الإسلامية ، ولكن فرنسا عادت تستعيد زعامتها فى هذا المضمار بسبب موقعها من البحر الأبيض المتوسط وبسبب حماستها للدول الكاثوليكية ، تلك الحماسة التى يصورها كليرمون وزير الحربية لملك فرنسا بقوله :

« لقد أرادت العناية الإلهية أن تتأثر حمية جلالتكم للقضاء على ألد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى لويس « التقى » لكى ينتقم للدين وللإنسانية .... وربما يسعدنا الحظ لننشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم النصرانية » .

ومما دفع فرنسا للتصدى للجزائر فقدانها مستعمراتها خلال حروب نابليون ، ورغبتها فى تكوين امبراطوريتها مرة أخرى ، والحصول على مستعمرات جديدة، وكأنما كانت انجلترا تريد أن تشغل فرنسا فى الجزائر حتى تثبت انجلترا سلطانها فى المستعمرات التى حصلت عليها من فرنسا سنة ١٨١٥ ، ورحبت دول أوروبا باتجاه فرنسا إلى الجزائر لتدع تراث تركيا « الرجل المريض » بأوروبا للدول الغربية المتنافسة على هذا التراث ، وهكذا شهد العقد الثانى والثالث من القرن التاسع عشر فرنسا وهي تتجه شيئا فشيئا نحو احتلال الجزائر ، وتترك لها الدول الأوروبية هذه الغنيمة لسبب أو آخر .

ولم تكن تركيا آنذاك بقادرة على أن تساعد الجزائر مساعدة جدية ، فقد كانت هى نفسها تمر بمرحلة قاسية من الهزائم والاضطرابات الداخلية واعتداء المسيحيين .

خطوات الاحتلال :

قصة الديون التى كانت على فرنسا للجزائر تصور السبب المباشر لاحتلال الجزائر ، وليست هذه القصة بحلقاتها المختلفة بمتفق عليها فى الروايات العربية والفرنسية ، وسنحاول هنا أن نوجزها أقرب ما يكون لما نراه صحيحاً :

كانت فرنسا تعانى ضائقة اقتصادية ثقيلة عقب الثورة الفرنسية وكانت دول أوروبا تقف موقف العداء من فرنسا إبان زحف نابليون ، ونتيجة لذلك مدت فرنسا يدها تطلب العون الاقتصادى من الجزائر فى شكل حبوب تشتريها بأثمان مؤجلة ، وكان التجار اليهود يقومون بدور الوساطة فى هذه التجارة ، وحلت مواعيد السداد ولكن فرنسا تلكأت فى الدفع ، مدعية حينا أن أثمان السلع التى قدر الدين على أساسها مبالغ فيها ، وزاعمة حينا آخر أن السلطات الفرنسية لم تتسلم البضائع ، كما أصمت أذنيها أحيانا عن المطالبة ولاذت بالصمت .

ثم كان ذلك الحادث الشهير الذى يعتبر سبباً مباشراً لاحتلال الجزائر ، ففى يوم عيد الفطر (٢٧ أبريل سنة ١٨٢٨) ذهب قنصل فرنسا لقصر الداى للتهنئة بهذه المناسبة ، فسأله الداى عن السبب فى أن ملك فرنسا لم يردّ على رسالة الداى التى كان قد أرسلها منذ مدة ، فكان رد القنصل جافا غليظا يحمل فى ألفاظه ترفع جلالة الملك عن مكاتبة الداى ، وقد أثار هذا الرد داى الجزائر فصرخ في وجه القنصل ملوحاً له بالخروج من حضرته ، وكان الداي يحمل مروحة بيده ادعي القنصل أنها اصطدمت بوجهه ، وعدّت حكومة فرنسا هذه إهانة لها وللشعب الفرنسي ، وهددت بالانتقام المسلح ، وحاصرت ساحل الجزائر ، وبدأت اتصالات لتسوية الموقف ، فأوفدت فرنسا إلي الجزائر مندوباً عن الحكومة هو المسيو « لابرتنبير » La Bretonniére ليحصل علي اعتذار حكومة الجزائر عما بدر من الداي تجاه القنصل مما سبب غضب الرأي العام الفرنسي ، ولكن مبعوث فرنسا لم ينجح في مهمته ، وفي أثناء عودته في صيف سنة ١٨٢٩ جنحت سفينته بفعل الريح أو هكذا قيل ، فدخلت مناطق محرمة ، فأطلق جنود الساحل الجزائريون النار عليها ، وعلي الرغم من أن الداى عاقب المسئولين عن إطلاق النار ، ألا أن فرنسا اعتبرت الحادثة متعمدة ، فقرر بوليناك Polignac وزير خارجية فرنسا أن يبدأ الغزو الفرنسى للجزائر ، وأيده فى ذلك وزير الحربية الذى وضّح أن فى احتلال الجزائر مشغلة للشعب الفرنسى الذى لاينى ساخطاً

علي الأحوال الداخلية ، ومما جاء فى تقريره بهذا الشأن قوله : إن شعباً معروفاً بالشغب مثل الشعب الفرنسى لا بدّ له من حين لآخر أن يرى حوادث خطيرة تخرج به عن الحياة المألوفة ، واحتلال الجزائر سيغذى هذا الخيال ، وسيمكن الملك من حل البرلمان الذى قويت المعارضة فيه .

وبدأت الحملة ، وضربت السفن الفرنسية الساحل الجزائرى ، ونزلت القوات فى حماية الضرب عند شبه جزيرة سيدى فرج على بعد عشرين كيلو متراً من مدينة الجزائر ، وكان ذلك فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ ، وقاوم الجيش الجزائرى يؤيده المتطوعون هذا الغزو بصلابة وعناد ، ولكن الاستعداد الفرنسى كان أقوى بكثير من الدفاع الجزائرى ، فانهار هذا الدفاع ، واستولى المهاجمون على معسكر « مصطفى ولى » ثم تقدموا فاحتلوا مدينة الجزائر فى ٥ يوليو ، وسيق الباشا وكبار رجاله إلى المنفى ، وبدأ بذلك دور جديد فى تاريخ الجزائر[1].

ويرى بعض المؤرخين أن حادثة القنصل كانت مدبرة ، وأنها كانت مؤامرة حيكت من قبيل الاستفزاز ، فليس فى العرف الديبلوماسى ما يسوغ أن يردّ ممثل دولة أجنبية على سلطان البلاد بمثل هذا الرد العنيف ، ويمكن أن يقال كذلك إن حادثة السفينة مفتعلة ، وأن جنوحها كان قد دُبر بقصد الإثارة ، فمن الواضح أن فرنسا كانت قد عقدت العزم على احتلال الجزائر للأسباب التى سبق أن سقناها ، وأنها اصطنعت الأسباب التى تؤدى إلى تحقيق هذا الاتجاه ، وعلى كل فقد نجحت فرنسا فى الجولة الأولى لهذا الزحف الاستعمارى ، ولكنها فتحت على نفسها ميدان نضال طويل مرير ، هزمت فيه فى الجولات التالية كما سنشرح ذلك فيما بعد .

---

(١) أنظر « الأمة العربية » للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٣ و « هذه هي الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني ص ٧٩ ـ ٨٠ .

فرنسا في الجزائر

استعمار فرنسا للجزائر وصل القمة فى الطغيان والعربدة ، تجاهل الجوانب الإنسانية ، واحتقر المثل العليا ، واخترع الأساليب التى تمكّن له وتثبت قدمه ، أياً كانت هذه الأساليب ، وأياً كان ما فيها من قسوة ووحشية ، وسنروى أبرز الخطوط لهذا الاستعمار الغاشم لتظل وصمة للمستعمرين وذكرى للأجيال القادمة.

وقد اتجهت سياسة فرنسا فى الجزائر نحو الوصول إلى هدفين هامين هما :

١ - فرنسة أرض الجزائر .

٢ - فرنسة السكان .

وذلك على نحو ما فعلت بريطانيا باستراليا ونيوزيلاندة ، وعلى نحو ما يحاول اليهود أن يفعلوا بفلسطين ، فإذا لم يستجب الجزائريون لهذين الهدفين ـ وهو ما حدث فعلاً ـ فحرب إبادة ضد السكان وطَرْدٌ لهم إلى الجبال والصحراء ليعيشوا حياة بدائية ساذجة ، ولتتم الفرنسة عن طريق جلب الفرنسيين ومن والاهم ليحلوا محل المغلوبين على أمرهم .

تعال بنا نقدم مزيداً من البيان عن هذه السياسة الغاشمة .

فرنسة أرض الجزائر :

فى سنة ١٨٤٨ أعلن مجلس النواب الفرنسى أن أرض الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا ، وأن المنطقة الشاطئيه جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها . وخضع العلم للسياسة فأعلن العلماء الجيولوجيون الفرنسيون أن الشمال الافريقى كان منذ القدم متصلا بالساحل الجنوبى لفرنسا فى سلسلة جبال واحدة تصدعت فى العصور الجيولوجية القديمة ، فكان بوغاز جبل طارق ومضيق مسينا [1] .

---

(١) كتاب « نهضة الشعوب الإسلامية » للأستاذ محمد حبيب أحمد ص ١٦١ .

وزادت مبالغة الفرنسيين ، فأعلن ساستهم أن الشمال الإفريقى ألزم لفرنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندى بشمال فرنسا نفسها[1] .

وبناء على هذا الاتجاه نجد فرنسا تحتج أشد الاحتجاج على إنزال جنود أمريكيين بالجزائر سنة ١٩٤٢ دون إذن من فرنسا ، وقال لافال وزير خارجية فرنسا فى احتجاجه : إن المنطقة كلها هى من تمديدات الأرض الفرنسية الطبيعية[2].

وكان التنظيم الإدارى بالجزائر يعمل فى ظل هذا الهدف ، أى على اعتبار أن الجزائر أرض فرنسية ، فهناك « الوالى العام » وهو فرنسى يعينه مجلس الوزراء الفرنسى ، ويتلقى التعليمات من وزير الداخلية ، وهو يرأس الإدارات الحكومية التى تشملها الولاية العامة ، وهذه الإدارات هى : الداخلية ـ المالية ـ البريد ـ الأشغال العامة ـ المواصلات ـ الفلاحة ـ التجارة ـ العلوم ، وكل إدارة من هذه الإدارات يتولى أمرها مدير عام فرنسى ، ويباشر العمل فيها مئآت من الموظفين الفرنسيين .

هذه هى الولاية العامة وفروعها ، وكانت هناك فى الجزائر تقسيمات إدارية ، فكانت الجزآئر تنقسم إلى ثلاث مديريات فرنسية مكملة لمديريات فرنسا وهى : مديرية قسنطينة ، والجزائر ، ووهران ويحكم كلا منها حاكم فرنسى ، هذا بخلاف الصحراء التى كانت تحكم حكماً عسكرياً [3] .

فرنسة السكان :

إن فرنسة أرض الجزائر يتبعها بالضرورة فرنسة السكان ، وقد اتخذت خطة فرنسة السكان طريقين : أولهما محاولة فرنسة الجزائريين ، والثانى جلب

---

(١) المرجع السابق .

(٢) The New York Times : November 21 1942.

(٣) أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

أشتات من الأوربيين بصفة عامة ومن الفرنسيين بصفة خاصة ليستوطنوا الجزائر أو هذه الأرض الفرنسية بإفريقية .

ولم يكن الطريق الأول مثمراً ، فإن السكان العرب لم يريدوا أن يكونوا فرنسيين ، ولم يخدعهم هذا التعبير ، وأدركوا أنها أكذوبة يراد بها تمكين نفوذ الفرنسيين بأرضهم ، فإن العربى لا يمكن أن يصير فرنسيا بين عشية وضحاها وينسى الدم والعرق التليد ، والمسلم لا يمكن أن يصير كاتوليكياً أو أن يرى الأمن فى ظل حكومة كاتوليكية ، وهو يعرف الحروب الصليبية وألوان التدمير التى أنزلها الفرنسيون والمسيحيون بالمسلمين هنا وهناك . وتبعاً لذلك اتجهت فرنسا ـ كما قال وزير الحربية الفرنسى ـ إلى القضاء على الشعب الجزائرى ، أو على الأقل تشريده فى جهات الداخل ، وإحلال جاليات أوربية محله فى القرى والمدن الساحلية [١] ، وسنتحدث فيما بعد عن الإبادة والتشريد اللذين منى بهما شعب الجزائر تحت الحكم الفرنسى .

ولم يستجب للفرنسة من سكان الجزائر إلا اليهود الذين لا يدينون بالولاء لوطن ، والذين يحبون أن يأكلوا علي كل مائدة ، وقد صدر قانون سنة ١٨٧١ بمنحهم الجنسية الفرنسية .

ولجأ الفرنسيون للطريق الثانى ، وأخذوا له كل الوسائل ، ففى سنة ١٨٣١ كان هناك عدد من المهاجرين السويسريين والألمان بميناء الهافر ينتظرون السفن التى تقلهم إلى الولايات المتحدة ، فأنزلتهم السلطات الفرنسية فى إحدى السفن التى حملتهم قسراً إلى الجزائر .

وفى سنة ١٨٣٥ بدأت الحكومة الفرنسية تنشىء المستعمرات الزراعية بالجزائر وتجلب لها المهاجرين من أوربا لتوزع عليهم الأراضى بالمجان وتمدهم بالمعونات المالية والفنية [٢] .

---

(١) سعيد العريان وآخران : شمال آفريقية ص ٣٤ .

(٢) دكتور صلاح العقاد ك المغرب العربي ص ١٤٤ .

وأخذت فرنسا تنشر دعاية واسعة بين معدمى الأسبان والطليان كى يفدوا إلى الجزائر حيث الأرض والقروض والثروة والغنى .

وعقب هزيمة فرنسا أمام الألمان ١٨٧١ وفد إلى الجزائر آلاف من أهل الألزاس حيث مكنتهم فرنسا من الأرض والمال .

وفى سنة ١٨٨١ أصدرت فرنسا قانون الجنسية وهو يضفى الجنسية الفرنسية على أبناء كل الأوربيين الذين يولدون فى الأراضى الجزائرية (١) .

وفى سنة ١٩٢٠ صدر دستور الجزائر الذى أصبح كل جزائرى بمقتضاه مواطناً فرنسياً ، ولكن نصت المادة رقم ٣٠ منه على أن هناك فئتان من الجزائريين أولهما فرنسية بحتة وهى تضم الأوربيين والمسلمين الذين قبلوا التعامل وفقاً للقوانين الفرنسية حتي في الأحوال الشخصية ، وثانيهما فرنسية محلية ، وهي تضم المسلمين الذين خضعوا للقوانين الفرنسية محتفظين بالتعامل في الأحوال الشخصية وفقاً للقوانين الإسلامية (١) .

وقد أدرك الجزائريون أن هذا طلاء خداع ، لا يقصد قط مساواة الجزائري بالفرنسي ، بل يقصد إحكام قبضة المستعمر على البلاد ، ولم يكن فهم الحقيقة يحتاج إلي عناء ، فإن ممثلي الجزائر بالبرلمان الفرنسي كانوا قلة وصلت أحياناً إلي شخص واحد ، وفي المجالس الجزائرية كان ممثلو الفرنسيين ينتخبون بالاقتراع العام وممثلو الجزائريين يعينهم الحاكم ، وكان الفرنسيون المقيمون في الجزائر يعيشون في الأحياء الراقية ، وتيسر لهم سبل الحياة ، ولأولادهم سبل التعليم ، ولم يكن الجزائريون ينعمون بشيء من ذلك ، ومن هنا من جهة ، وللوطنية والحرية من جهة أخري لم يُقبل الجزائريون على الجنسية الفرنسية وقاوموها .

---

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٩٨ .

(٢) دكتور عبد العزيز رفاعي : الحركة القومية في افريقية ص ١١٥ .

وأسفر العداء ، وسارت فرنسا في طريقها تحارب ، وتبيد وتشرد ، وتنشر الجهل والفقر بين الجزائريين ، وسار الجزائريون في طريقهم يقاومون ويناضلون ، وسنتكلم فيما بعد عن المقاومة ولكنا الآن نواصل كلامنا عن سياسة فرنسا الخرقاء بالجزائر .

محاربة اللغة العربية والإسلام :

أدركت فرنسا أن الإسلام واللغة العربية هما الصخرة الصلبة التي تتحطم أمامها كل المشروعات التي ترمي لـ « فرنسة » الجزائريين ، فوحدة الشعب الجزائري لم تتم إلا بسبب وحدة الدين ووحدة اللغة ، فعمدت فرنسا إلي تحطيم هذه الصخرة ، ظانة أن القضاء عليها قضاء علي الوحدة ، وفي القضاء على الوحدة قضاء على المقاومة الجزائرية وهكذا وضعت فرنسا المشروعات لهذا الهدف المارق ، فجعلت اللغة الفرنسية لغة الدولة الرسمية ، ووضعت الحواجز للحد من إنتشار اللغة العربية والإسلام ، فأصدرت في ٢٤ ديسمبر ١٩٠٤ قانوناً يقضي « بأنه لا يجوز لأي معلم مسلم أن يفتح أو يتولي إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص من عامل المنطقة أو قائد الفيلق العسكري ، ومن يخالف ذلك يعتبر مسئولاً أمام القانون ، ويُعاقب بالحبس أو الغرامة أو بكلتا العقوبتين » وكان هذا الترخيص في الواقع عقبة من العسير تخطيها ، ولم يكتف الاستعمار بهذا ، بل عمد لمحاربة المدارس التي كانت قد فتحت قبل هذا القرار ، فأصدر قراراً يفرض علي معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الفرنسية ، ولما كان معظم هؤلاء المعلمين من خريجي « جامعة الزيتونة » بتونس ، أو « جامعة القرويين » بالمغرب ، ولا يعرفون الفرنسية ، فقد كان هذا القرار سبباً لإغلاق عدد كبير من المدارس الأهلية [1] .

والحق أن فرنسا نجحت في مضمار محاربة اللغة العربية إلي حد كبير ، وقد كنت بإندونيسيا إبان الزيارة الرسمية التي قام بها السيد عباس فرحات رئيس

---

(١) شمال افريقية للأستاذ سعيد العريان وآخرين ص ٧١ .

حكومة الجزائر المؤقتة آنذاك ، وفي مطار جاكارتا احتشد آلاف المستقبلين واستمعوا لكلمة رئيس حكومة إندونيسيا مرحباً بالضيف الكبير ، وتلاه رئيس حكومة الجزائر العربية فألقي كلمته باللغة الفرنسية ، وكانت كلمة تحمل النار المضطرمة ضد المستعمر ، ولكنها للأسف كانت بلغة المستعمر ، وكانت دليلاً علي حدة النضال بين القوة الفرنسية والإيمان الجزائري ، ومثل هذا ما حصل عندما زارت المجاهدة الجزائرية جميلة بوحريد القاهرة ، فقد تكلمت بلغة فرنسية، وذكرت أنها تخجل من أن يكون حديثها باللغة الفرنسية ، ولكنها أخذت ذلك دليلاً علي عنف الاستعمار وتدخله القاسي في إرادة الشعوب .

واستدار المستعمر لمحاربة الإسلام ، ونقتبس في هذا المجال فقرات من التقرير الرسمي الذي رفعته إلي الملك شارل العاشر ملك فرنسا لجنة التحقيق الفرنسية التي أوفدت للجزائر سنة ١٨٣٣ لتنقل للسلطات الفرنسية صورة تصرفات قوي الاحتلال مع السكان الأصليين ، يقول التقرير :

« لقد أهدرت السلطات الفرنسية حقوق الشعب وداست مقدساته وسلبت حرياته ... وضمّت السلطات الفرنسية أعيان الأوقاف الدينية إلى مصلحة الأملاك واعتدت على الملكية الفردية ... ودنس جنودنا المساجد ، ونبشوا القبور ، وانتهكوا حرمات منازل المسلمين ... وأعدمت السلطات الفرنسية شيوخا من أولياء الله الصالحين لأنهم تجرأوا على الشفاعة لمواطنيهم ... وألقت السلطات فى السجون بعض شيوخ القبائل الأبرياء لأنهم آووا جنودا فرنسيين كانوا قد فروا من المدينة ، وأنعمت هذه السلطات بالأوسمة على الخونة الذين باعوا بلادهم باسم المفاوضة » .

ويختم التقرير بالجملة الآتية : « وجملة القول أن السلطات الفرنسية فاقت فى تصرفاتها الوحشية جرائم البرابرة الذين ذهبت قواتنا - فيما تزعم - لتحمل إليهم نور المدنية ، فكيف يجوز لنا بعد ذلك أن نشكو من مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسى » ؟ (١) .

---

(١) نقلا من شمالي افريقية للاستاذ سعيد العريان وآخرن ص ٣٦ - ٣٧ .

ويصف مسيو برك أحد كبار الموظفين الفرنسيين بالجزائر ما يلاقيه الإسلام بالجزائر من تعنت وتحد بقوله : لقد وصل بنا امتهان الدين الاسلامى واحتقاره ، إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح باختيار المفتى أو الامام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس ولا يمكن لموظف دينى أن ينال أى رقى إلا إذا أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير (١) .

ومن الوسائل التى اتخذت لمحاربة الاسلام هدم المساجد وإضعاف القضاء الشرعى ، ومن أمثلة هدم المساجد أن مدينة الجزائر كان بها وحدها ١١٢ مسجدا فلم تبق السلطات منها إلا خمسة وهدمت الباقى أو حولته إلى كنائس ، ومن المساجد التى حولت إلى كنائس مسجد كتشاوة الذى أصبح كاتدرائية ، ومسجد على تبشى الذى أصبح كنيسة باسم « قديسة الانتصار » (٢) .

واستولى الاستعمار على أموال الأوقاف التى حُبست على التكايا والربط وتعليم الإسلام ، وحارب الاستعمار القضاء الشرعى فقلل من محاكمه ، وجعل من حق المتقاضى أن يستأنف الحكم الصادر منها أمام المحاكم الفرنسية كما اعترف الاستعمار بالقضاء المبنى على العرف القبلى لإثارة النزعة العنصرية بين السكان (٣) .

وفى الوقت الذى كان الإسلام يحاربَ وتُغلَق مدارسه وتصادر أوقافه ، كانت التسهيلات تمنح بسخاء للمبشرين المسيحيين ليعملوا على نشر المسيحية فى الجزائر ، ويتلخص برنامج التنصير الذى أسسه الكردنال لافيجرى منذ عام ١٨٦٧ فيما جاء على لسانه من أنه «يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهداً لأمة مسيحية كريمة ، وأن نضئ أرجاءها بنور مدنية ، وحيها الانجيل ، وأن نربط مصير إفريقية بحياة الشعوب المسيحية ... تلك هى رسالتنا الأبدية » .

(١) انظر (هذه هى الجزائر) للاستاذ محمد توفيق المدنى ص ١٩٤٨ .

(٢) هذه هى الجزائر ص ١٤٠ بالهامش .

(٣) انظر افريقية الإسلامية للدكتور عبد الرحمن زكى جـ ١١٠ - ١١١ .

الإبادة والتشريد :

قلنا من قبل إن وزير الحربية الفرنسية وضع دستور إبادة الجزائريين أ تشريدهم منذ ظهرت استحالة «فرنستهم» وسنقتبس هنا فقرات قصيرة عن بعض الوقائع والتصرفات الوحشية كنموذج لهذه السياسة العمياء ، وسنجعل اقتباساتنا مما دونه الكتاب الفرنسيون أنفسهم (١) .

يقول المؤرخ كريستيان فى كتابه « افريقيا الفرنسية » :

« تلقى الجند أمرا من القائد العام الجنرال روفيقو ، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ١٦ أبريل سنة ١٨٣٢ ، ففاجأ بهم قبيلة العوفية عند الفجر وهى نائمة تحت خيامها ، وأمعن فى ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه ، وهكذا وقع قتل كل نفس حية فى القبيلة ، دون أى تمييز بين جنس وسن . وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة (كذا بالأصل) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم .

ويقول الجنرال شانقارنيبى : لقد كانت التسلية الوحيدة التى أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء ، هى السماح لهم بغزو القبائل المعادية التى تسكن فيما بين وادى الحراش وبورقيقة .

ويقول المؤرخ دبوزايد عن ذلك ما نصه : أما الغنيمة من الحيوان فى هذه الغزوات فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الدانمارك . وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عرضت للبيع فى سوق باب عزون ، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهى لاتزال فى أيديهن المقطوعة ، وأقراط نساء لاتزال تلصق بها قطع من آذانهم . ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسى ، وفي ذلك اليوم أصدرت السلطة أمرها لسكان الجزائر المسلمين بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم ، اظهارا لسرورهم بذلك الانتصار .

---

(١) نقلا من كتاب «هذه هى الجزائر» للاستاذ أحمد توفيق المدنى ص ٩٥ وما بعدها .

أما حديث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة مع حيواناتها ، سنة ١٨٤٤ ، فارة أمام الجنود الفرنسيين ، فقد صار مضرب المثل فى الخسة والدناءة والوحشية ، إذ ما كان الجنود يكتشفون ذلك الكهف الفسيح ، حتى وضعوا أمامه وعلى مداخله أكواما من الحطب والقش ، ثم أوقدوا فيها النيران ، واستمروا يغذون تلك النار ليلة كاملة . فما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف، حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال ، مفككة الأوصال ممزقة الأشلاء ، تحت أقدام الثيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها لطلب النجاة ، فداست كل شئ ثم لقيت حتفها مع الناس .

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف ، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرنى أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبى ، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من شدة اللهب ، وقد مات الجميع على ذلك الوضع . ولما وصف أحد النواب الفرنسيين هذه الأساليب بالوحشية ، أجاب رئيس الحكومة بأن هذه الأعمال قد تكون وحشية لو أن الحرب كانت فى أوروبا ، أما فى إفريقية فهذه هي الحرب بعينها.

ويقول سانت أرنو أحد القواد الفرنسيين فى كتاب مطبوع يعتبر ديوانا للفظائع والفضائح : لقد كنت أستطيع مع جنودى اقتفاء أثر أية فرقة فرنسية دون أن أضل الطريق ، لأننى كنت أسير على هدى الحرائق التى تشعلها فى القرى والدواوير العربية .

ولنختم هذه الصفحة البشعة من تاريخ الاستعمار الفرنسى للجزائر بفقرة من تقرير لجنة البحث الرسمية التى بعث بها ملك فرنسا لإطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع فى الجزائر وهذه الفقرة هى :

« لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور ممهورة بختمنا ، وقد أبدنا فى مذابح عامة - لمجرد الشك - طوائف عديدة من السكان ، تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به . ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم وأشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام

بطشنا ، يسألوننا الشفقة والرحمة بأبناء البلاد المساكين ، ولقد وجدنا حكاما منا يصدرون أحكاما بإعدامهم ، ووجدنا جلادين منا يقومون بتنفيذ تلك الأحكام . إننا قد فقنا فى أعمال الوحشية ، هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم .

ومما قاله أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير : إننا قد ارتكبنا فى ثلاثة أشهر ، من الفظائع وأعمال التنكيل ، أكثر مما نسب للأتراك خلال ثلاثمائة سنة (١) .

الاستيلاء على مصادر الثروة :

تعتبر الأرض الزراعية من أهم مصادر الثروة فى الجزائر ، وقد حرص المستعمر على أن يضع يده عليها بمجرد استيلائه على الجزائر ، وكانت أرض الأوقاف الإسلامية أول أرض صدرت القرارات بمصادرتها سنة ١٨٣٠ ، ثم صودرت فى نفس العام أملاك أبناء الجزائر الذين ينحدرون من أصل تركى ، وفى سنة ١٨٣٢ صدر قرار يقضى باستيلاء الدولة الفرنسية على كل أرض لا يملك صاحبها عقدا بملكيتها ، وهناك آلاف من الأفدنة استولى عليها الفرنسيون لعدم وجود صك ملكية ، إذ كانت قد توارثها أبناء القبيلة عن أسلافهم ، وربما كانت فى الأصل أرضا مواتا أحياها الأجداد السابقون . وفى سنة ١٨٤٦ صدر قرار بامتلاك الدولة لكل الأراضى التى تقيم بها القبائل الرحالة ، وعقب هزيمة الزعيم محمد المقرانى سنة ١٨٧١ صدر قرار بمصادرة جميع الأراضى فى منطقة الثورة .

وهكذا استولت السلطة الاستعمارية على أكثر الأراضى وأجودها ، ويعترف الإحصاء الرسمى الفرنسى بأن توزيع الأرض الجزائرية انتهى إلى الوضع الآتى:

٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها الدولة الفرنسية ومنها أرض الأوقاف الإسلامية .

٤,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها البلديات أى النظام الفرنسى المحلى .

---

(١) من سجلات مجلس الأمة الفرنسى.

۲,٥٠٠,٠٠٠ هكتار يملكها ٢٦,٠٠٠ مستعمر فرنسي وأوروبي .

٨,٥٠٠,٠٠٠ هكتار يملكها تسعة ملايين من الجزائريين .

ويلاحظ أن الأرض التي وضع الاستعمار عليها يده هي الأرض الساحلية والخصبة ، أما الأرض التي تركت للجزائريين فهي الجبال والنجود والصحراوات وقد أقامت فرنسا في هذه المساحات مستعمرات زراعية وجلبت آلاف الأوروبيين حيث وزعت عليهم الإقطاعات ، ويسرت لهم أحدث الطرق في الزراعة بينما ترك الجزائريون في أرضهم القاحلة يزرعونها بالأساليب العتيقة .

ولم يقف الاستعمار عند الأرض الزراعية ، بل تعداها إلى جميع مصادر الثروة فاستولى على الثروة المعدنية ، وعلى مراكز الصناعة وأسواق التجارة ، ونشر البطالة والجوع بين أصحاب البلاد .

حرمان الجزائريين من العلم :

تحدثنا من قبل عند الكلام عن « محاربة اللغة العربية والإسلام » عن الوسائل التي اتبعتها فرنسا لتقفل مئات الكتاتيب والمدارس التي كان يديرها الجزائريون ، واستطاعت فرنسا بهذه الأساليب أن توصد هذه الأبواب التي كانت تنشر العلم والنور ، ولم تفتح فرنسا بديلا لهذه المعاهد التي أمر الاستعمار بالقضاء عليها .

نعم فتحت في الجزائر مدارس ومعاهد ، ولكنها كانت مدارس فرنسية دما ولحما ، كل عنايتها باللغة الفرنسية والتاريخ الفرنسي والحضارة الفرنسية ، أما اللغة العربية فيغلب أن يهمل شأنها ، ويقل أن توجه لها عناية محدودة بالمدارس الابتدائية ، حيث تعلّم على أنها لغة أجنبية أو لغة قديمة كاللاتينية ، وأما الدين الإسلامي فلا عناية به على الإطلاق ، ومع هذا فلم تكن هذه المدارس مفتوحة لأبناء الجزائر ، وإنما كانت للفرنسيين والأوروبيين ، وكان أبناء الجزائر فيها قلة ، غرباء في ديارهم ، ولنلجأ إلى بعض الأرقام لتقرير ذلك من

احصائيات التعليم بالجزائر سنة ١٩٥٥ .

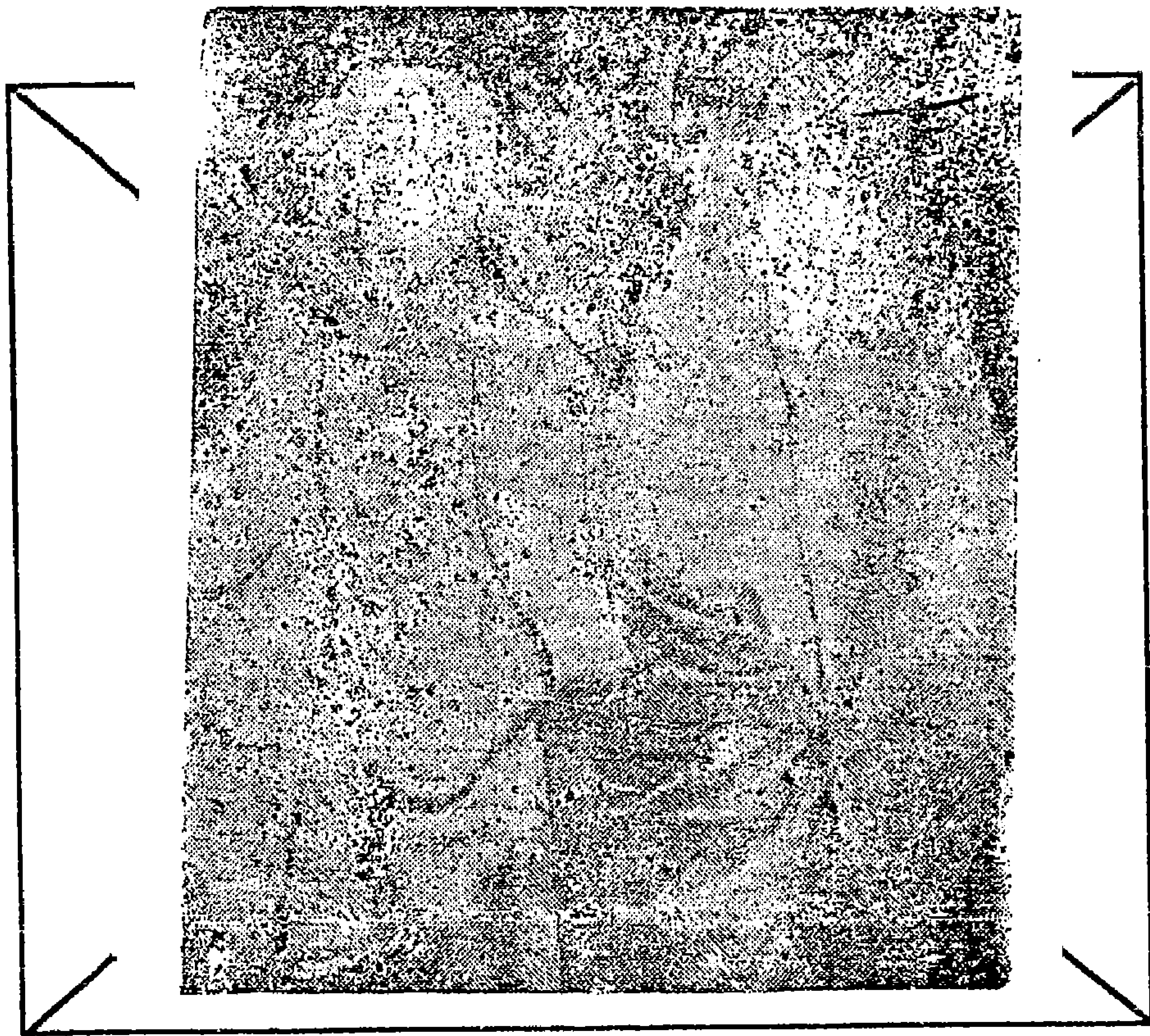
المدارس الابتدائية بالجزائر تفتح أبوابها لجميع الأوروبيين واليهود أى نحو ١٥٠,٠٠٠ تلميذ ، ولا يقبل من أبناء الجزائريين إلا نحو ١٠٪ من الأولاد الذين هم فى سن التعليم .

أما فى المدارس الثانوية فتقل نسبة الجزائريين جدا ، ويبدو أن الإدارة الفرنسية سمحت لبعض الجزائريين بالالتحاق بالمدارس الابتدائية ، واكتفت بهذا المستوى لهم ، فلم تسمح إلا لنسبة ضئيلة جدا بالالتحاق بالمراحل العلمية الأخرى ، فتلاميذ المدارس الثانوية عددهم ٣٤,٨٦٨ منهم ٥٣٠٠ فقط من الجزائريين وطلاب الجامعة الجزائرية عددهم ٥١٤٦ طالبا من بينهم ٥٥٧ طالبا جزائريا فقط .

وبسبب هذا الحرمان من مدارس الحكومة ، وبسبب إغلاق المدارس الأهلية ، كان بعض الجزائريين يعلمون أولادهم داخل المنازل ، وفى سرية تامة كإنما كانوا يرتكبون منكرا يعاقب عليه القانون ، أما الغالبية العظمى فقد شملها الجهل والأمية .

المرأة الجزائرية :

اتجه الاستعمار إلى المرأة الجزائرية رجاء أن يخلعها من المجتمع العربى ويدفعها نحو المجتمع الغربى ، وكان الاستعمار يأمل من وراء ذلك أن تكون المرأة وسيلة يذوب على أثرها المجتمع الجزائرى فى المجتمع الفرنسى ، فقد اعتقد الاستعمار أن المرأة مفتاح المجتمع الجزائرى كما هى مفتاح أى مجتمع آخر ، فأرادت فرنسا أن تذيب المجتمع الجزائرى عن طريق المرأة وعن طريق اجتذابها نحو التقاليد الفرنسية ، وكانت أول خطوة لذلك هى أن تعمل فرنسا على أن تتخلص المرأة الجزائرية من الحجاب و « الحايك » فالحجاب والحايك حاجز حصين بين التقاليد الفرنسية والتقاليد الجزائرية ، وتمسكت المرأة الجزائرية



بالحجاب والحايك لا حبا فيهما ولا جمودا وإيمانا بالقديم ، بل تمسكا بالحاجز الذى يرمز لإصرار المرأة الجزائرية ألا تذوب فى المجتمع الذى تدعو له فرنسا .

وقد كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين فى صحيفة أخبار اليوم [1] تحقيقا صحفياً عنوانه « ١٥٠ ساعة فى الجزائر » شرح فيه الدور الذى حاولته السياسة الفرنسية للتأثير فى المرأة الجزائرية لتجعلها تتمرد على تقاليد قومها وعادات وطنها ، قال :

ومن الوهلة الأولى ، يندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » إلى هذا الحد ، والحجاب هو مثلث من القماش الأبيض المطرز فى نهايته ، يغطى الوجه و « الحايك » هو الاسم المَحَلىّ للملاءة البيضاء الواسعة التى تلتف المرأة

(١) عدد أول ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

المحتجبة بها .

ويندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » فى مجتمع قريب من أوربا إلى هذا الحد ، وممتزج بالأوربيين على هذا النطاق ، فى مجتمع خاض غمار ثورة تقدمية لا نظير لها ، اشتهرت خلالها البطلات جنبا إلى جنب مع الأبطال . . وذاع صيت « الجميلات » أو بالأحرى « الفاطمات » اللاتى يفجّرْنَ القنابل ويحملن المدافع الرشاشة ويصمُدن للتعذيب الوحشى فى أعمال السجون فكيف صمد هذا الحجاب الحريرى الرقيق فى وجه كل هذه الأحداث ؟

من حديثى مع الجزائريين ، ومن قراءتى لكتاب بديع اسمه « الثورة الجزائرية فى عامها الخامس » للمرحوم المناضل الدكتور فرانز فانون ، خرجت بالإجابات التى أسجلها فيما يلى :

منذ سنة ١٨٣٠ تقريبا بدأت معركة الاستعمار الفرنسى ضد الحجاب ، ولم تكن معركة بريئة تستهدف تحرير المرأة وتطويرها بدليل عدم اهتمام الاستعمار بتحرير الرجل وتطويره ، وإنما كانت معركة تستهدف القضاء على شخصية المرأء الجزائرية وعلى موقفها الاجتماعى ، ثم تستهدف إذابة المرأة الجزائرية فى الشخصية الأوربية .

ولم يكن هذا قرارا « إداريا » اتخذته الإدارة الفرنسية ، ولكنه كان قرارا توصل إليه خبراء فرنسا فى العلوم النفسية والاجتماعية والسياسة . . وقد صاغوا قرارهم هذا فى عبارة شهيرة هى : اكسبوا النساء أولا والبقية تتلو .

ذلك أن خبراءهم قالوا لهم : إن المجتمع العربى بوجه عام ، وان كانت تسوده فى الظاهر سلطة الأب ، فإن الذى يؤثر فيه ويوجهه فى الخفاء وخلف الحجب والأستار ، سلطة الأم والخالة ، والجدة العجوز .

وبناء على ذلك فما على فرنسا إلا أن « تغزو النساء أولا ، وبذلك تكسب عنصر المقاومة والعزلة والمقاطعة فى المجتمع الجزائرى . . على فرنسا أن تفتش

عن المرأة الجزائرية ، خلف حجابها ، وحيث يخفيها الرجل » .

ثم إن هذا سوف يكسب الإدارة الاستعمارية صورة تقدمية ، فهذه الإدارة الاستعمارية سوف تدعو إلى « تحرير » المرأة المظلومة ، المضطهدة السجينة خلف حجابها ، وخلف مشربيتها ، انها فرصة ذهبية لوضع الرجل الجزائرى فى قفص الاتهام ، وإيقافه فى موقف الظالم . . المتعسف . . المستبد .

كذلك فإنها فرصة لإلقاء تبعة التخلف والتأخر والفقر والأمية ، لا على عاتق الاستعمار والاستغلال الأجنبى ، ولكن على عاتق المجتمع الجزائرى وعلاقاته الداخلية المختلفة .

كان المستعمر يعتقد - بوجه عام - أنه كلما قل « الاختلاف » بين المجتمع الجزائرى والمجتمع الأوربى ، كلما قلت مقاومة المجتمع الأول لسطوة الثانى ، وقلت قدرته على المقاومة ، والتمنع ، والرغبة فى الاحتفاظ بشخصيته الاصيلة.

كانت الدعوى الأساسية للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هي أنه لا يوجد شىء اسمه شعب جزائرى ، ولا يوجد شىء اسمه شخصية جزائرية ولذلك فقد كانوا حرصين أولا وقبل كل شئ على تدمير كل ما يمكن أن يميز هذا المجتمع الجزائرى ويذكره بأن له شخصية مستقلة حتى ولو كان هذا المثلث الرقيق من القماش الأبيض .

وكان المجتمع الجزائرى ، كلما اشتدت ضراوة الهجوم على ملامحه هذه، لا يفكر إلا فى أن يزداد تمسكا بها ، وتأكدا لاستمرارها .

وقد بلغ الهجوم الفرنسى على الحجاب درجة وصلت أحيانا إلى أن بعض المصانع والمؤسسات ذات الإدارة الفرنسية كانت تعمد إلى إقامة حفلات تدعو إليها كل جزائرى يعمل فيها للحضور مع زوجته ، ويقول رئيس العمل الفرنسى لمرءوسه الجزائرى : إن المصنع أسرة كبيرة فيجب أن تحضر زوجتك وبناتك ، هل هن محجبات ؟ مستحيل ، ويتأزم الرجل الجزائرى ، هل يحضر زوجته إلى

الحفلة، وبذلك يكون قد خضع لمشيئة الفكر الفرنسي .. أو يقول له : زوجتى لن تنزع الحجاب ، ويفقد عمله ؟ . نعم ، فقد كان أحيانا يفقد عمله لهذا السبب .. وكان هذا الإصرار الفرنسي كافيا لأن يقنع الجزائرى والجزائرية بأن نزع الحجاب عمل مشبوه .

وهكذا أصبح للحجاب والحايك مغزى جديد ، وهكذا اكتسبا القوة والبقاء ، وإزاء تركيز الاستعمار الجهد ضد الحجاب عَمَد الوطنيون إلى تقديس الحجاب ، وإزاء محاولة الاستعمار نزع الحجاب كدليل على « التعايش السلمى » بين المجتمعين الأوروبى والجزائرى ، احتفظ الجزائريون بالحجاب كدليل على المقاومة السلبية للمجتمع الأوروبى .

وهكذا .. بعد أن كان الحجاب شيئا يعبر عن موقف المرأة من الرجل .. أصبح رمزا على موقفها - بل وموقف أسرتها - من الاحتلال .

وقد كانت « صحوة الموت » بالنسبة للاستعمار الفرنسي فى الجزائر هى : ثورة المستوطنين فى ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ ، وإسقاط الجمهورية الرابعة فى فرنسا ، واستيلاء ديجول على الحكم .

يومها فتش الاستعمار فى دفاتره القديمة عن كل سلاح مفلول ، يحاول أن يجربه لآخر مرة . ومن بينها سلاح السفور وتحرير المرأة الجزائرية !!!.

وعقد سوستيل اجتماعات « شعبية » سيق لها الناس بالقوة . وخطب داعياً إلى تحرير المرأة ، وتحت ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب فى حركة مسرحية أمام الجماهير بعد الخطاب .

وكان هذا الحادث كله كأنه كلمة سر ، ففى اليوم التالى لم تظهر امرأة جزائرية واحدة فى الطريق سافرة .. حتى اللواتى كن أسفرن عن وجوههن عدن إلى الحجاب .. كأنهن يقلن للمستعمر أن المرأة الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر . .

* * *

ربما كان فى هذ التصوير بعض المبالغة التى تدعو لها طبيعة الكتابة الصحفية ، والذى نراه أن الدوافع التى ذكرها الأستاذ بهاء الدين صحيحه إلى حد كبير ، وكان من نتائجها أن تمسكت المرأة الجزائرية بالحجاب ، ثم أصبح ذلك تقليدا لا يلزم أن تفلسفه كل امرأة ، ومن الطبيعى أن تغير التقاليد يحتاج لبعض الوقت وبعض الجهد .

* * *

وهكذا سارت فرنسا فى عدة طرق لفرنسة شعب الجزائر أو لإبادته أو طرده إلى قمم الجبال وجوف الصحراء ، ولكن فرنسا فشلت فى كل المحاولات ، وحافظ شعب الجزائر على إسلامه وعروبته وتقاليده ، وخرج من المعمعة مزهواً مرفوع الرأس ، بعد أن خاض معركة ضخمة ، وقاوم مقاومة عنيدة ، وانتهت بأن ذل المستعمر واستسلم ، وسندرس فيما يلى أهم حركات هذه المقاومة :

حركات المقاومة

يمكن القول أن ثورات الجزائر كانت متصلة منذ وطئت قدم المستعمر أرض الوطن حتى انزاحت عنه ، وكانت تتوقف ثورة هنا لتبدأ ثورة هناك على الرغم مما يلاقيه الثائرون من قسوة ووحشية تعدّت الإنسان أحيانا إلى الحيوان ، بل امتدت الوحشية إلى الأشجار فأزالتها ، وإلى المساكن فدمرتها ، والآبار فردمتها ، ومع هذا كانت حركات المقاومة لا تهدأ ، وكان الإصرار على الحرية لا يخفت ، ومن بين هذه الحركات الثورية ، برزت ثورات عارمة كانت أكثر استعدادا وأبعد نتائج ، وسنذكر فيما يلى إلمامة عن هذه الثورات الكبيرة ، مع ملاحظة أن هذه الثورات الوطنية كانت فى نفس الوقت ثورات إسلامية ، اشترك فى الكثير منها قادة الطرق الصوفية والشيوخ والفقهاء كما سنرى فيما بعد .



الأمير عبد القادر الجزائرى

الأمير عبد القادر الجزائرى

ثورة الأمير عبد القادر الجزائري :

ما إن وضع الاستعمار قدمه في الجزائر حتى هبت ثورة القبائل عنيفة صارمة، وكان يقودها محيي الدين الحسنى أحد زعماء الأشراف ، فظل يحارب سنتين ثم تخلى عن القيادة سنة ١٨٣٢ لابنه البطل الامير عبد القادر ، ورغبة منه في أن تكون الثورة تمثل الجزائر كلها ولمصلحة الشعب الجزائرى كله ، اتخذ لنفسه لقب الجزائرى ، والتف حول الأمير عبد القادر آلاف من الشبان ، وأيدته القبائل تأييدا تاما ، وأعلنها حربا دينية على المستعمرين الكفرة ، فقد كان الأمير عضوا فى الطريقة الدرقاوية الصوفية مما جعل كفاحه يتسم بالطابع الدينى ، وبفضل نضال الأمير ورجاله لم يستطع الاستعمار أن يتعمق فى داخل البلاد ، وظل على الساحل مهددا بهجمات القوى الوطنية التى تعمل بصدق وإيمان لتحرير الوطن العزيز . وسيطر عبد القادر وقواته على ثلثى الجزائر ، ووصلت قوة عبد القادر ذروتها سنة ١٨٣٩ فطالبت فرنسا بعقد معاهدة مع الأمير ، وتمت هذه المعاهدة ، فاعترفت فرنسا للأمير بالسلطة فيما تحت يده ، وعاملته معاملة الند ، وتبادل الطرفان الأسرى .

وكانت هذه المعاهدة للأسف حلقة انتقال لصالح فرنسا ، ذلك لأن بعض اتباع الأمير نفسوا عليه ما حصل عليه من مكانه ، ولم يستجب آخرون للاستمرار فى دفع الضرائب التى يبنى بها الأمير نفسه ويقوى جيشه ، كما أن الأمير قيد نفسه بقيود فى هذه المعاهدة سببت ضعفه ومنها عدم شرائه الأسلحة إلا من فرنسا ، وربط اقتصاده باقتصاديات فرنسا[1] .

هذا من جهة الجبهة الجزائرية أما الجبهة الفرنسية فلن تكن مخلصة فى هذه المعاهدة ، بل أرادتها وسيلة لتخلص نفسها من أزمة الهزائم أمام الأمير ، ولتعيد بناء قواتها بالجزائر ، وقد صرح بيجو الذي عقد المعاهدة بذلك ، إذ قال عند مناقشتها بالبرلمان الفرنسي « ان الدول تلتزم بمعاهداتها طالما كانت هذه المعاهدات تخدم مصالحها » .

ولم تدم هذه المعاهدة أكثر من بضعة شهور ، استعادت فرنسا خلالها نشاطها وقوت حاميتها بالجزائر حتي وصلت ١٨٠ ألف مقاتل مزودين بأضخم الأسلحة ، ثم أسفر عداؤها ، وبدأت المعارك مرة أخري ، ولكن كان الزمام هذه المرة بيد فرنسا ، وعمد الفرنسيون إلي وسيلة غير كريمة في صراعهم مع الأمير ، تلك هي إحراق القري وتدمير الزراعة ، بقصد تجويع الجزائريين ، ولم يستطع الأمير بعد جهاد مجيد طيلة خمسة عشر عاماً أن يستمر في الصراع ، فاستسلم سنة ١٨٤٧ حيث اعتقلته السلطات الفرنسية ، وألقت به في السجن خمس سنوات ، ثم نفي إلي سوريا حيث مات هناك ١٨٨٣ .

ثورة محمد المقراني :

في حرب السبعين مع ألمانيا خرت فرنسا صريعة ، وخشيت أن تسبب هزيمتها نشاطاً ضدها في الجزائر ، فراحت تنكل بالجزائريين وتصليهم كثيراً من العنت ، وأصدرت عدة قوانين جائرة بالنسبة لهم ، منها أنه يجوز للحاكم العام اعتقال أي جزائري يشك في ولائه لفرنسا ، كما يجوز له مصادرة أموال الجزائريين متي رأي ذلك نافعاً للاحتلال .

إزاء ذلك هبت ثورات متعددة في الجزائر ، فثورة في جبل أوراس ، وأخرى بالقرب من وهران ، ولكن أهم ثورات ذلك العهد كانت ثورة الجرجرة التي قادها محمد المقراني سنة ١٨٧١ يؤيده زعيم أعظم طريقة صوفية بالجزائر وهي الطريقة الرحمانية ، وقد انضم للمقراني حوالي مائة ألف من رجال القبائل ، استطاع المقراني أن يكتسح بهم قوات فرنسا ، وأن يستولي علي منطقة كبيرة من الجزائر حتي أصبح غير بعيد من العاصمة ، وقد تنبهت فرنسا إلي خطورة هذه الثورة فضاعفت قواتها ، وعادت تحرق القري وتردم الآبار وتسحق كل ما تصل إليه يدها ، وفي هذه المعارك الرهيبة استشهد ستون ألف جزائري وقتل عشرون ألف فرنسي ، وقد سقط المقراني نفسه شهيداً في معركة البويرة إحدي

معاركه الشهيرة سنة ١٨٧١ فتولي أخوه مكانه واستمر في المقاومة حتي وقع أسيراً في مطلع العام الثاني .

وكان من نتائج هذه الثورة أن حكمت فرنسا بالإعدام علي عدد ممن اشتركوا في هذه الثورة ، وبالسجن علي عدد آخر ممن أيدوها ، كما فرضت غرامة مالية ثقيلة علي زعماء القبائل ، فلما عجزوا عن دفعها استولت السلطات الفرنسية على أموالهم وأراضيهم بديلا عنها .

تطورات فكرية في القضية الجزائرية :

بعد هزيمة ثورة الجرجرة التي قادها المقراني هبت حركات ثورية أخري ولكنها كانت محدودة الأثر ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحرشت فرنسا بالمغرب وتحرشت ايطاليا بطرابلس ثم احتلالهما في أول العقد الثاني من القرن العشرين وكل هذا أضعف قوة النضال الجزائري ، وجعل الجو مليئاً بالضباب والألم ، وأصبحت تسوية القضية مع فرنسا بشكل يضمن بعض حقوق الجزائريين هو الأمل الذي يتحدث به الناس .

وهبت الحرب العالمية الأولي واشترك فيها الجزائريون بجانب الحلفاء ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأعلن الرئيس الأمريكي ولسن مبادئه التي يعتبر من أهمها حق تقرير المصير ، وقاد الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر هيئة جزائرية وراح يتحدث باسم الجزائريين ، ولكن مطالبه كانت متأثرة بالاعتبارات الحالكة التى سبق إيرادها ، فنادى بوجوب إصلاح الحالة فى الجزائر على قاعدة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين ، وبإلغاء الأحكام الاستثنائية ، وبإيقاف الهجرة إلى الجزائر وغير ذلك من المطالب الإصلاحية ولم تستجب فرنسا حتى لهذه الاصلاحات المتواضعة ، ونفت الأمير خالد من الجزائر .

وفى سنة ١٩٢٦ تألفت فى باريس جمعية « نجم شمالى افريقية » وكان من أبرز مؤسسيها أحمد الحاج مصالى ، الشهير بمصالى الحاج ، وقد تولى رياستها وعاونه فيها خيرة رجال المغرب العربى ، وفى نفس العام ظهر فى عاصمة الجزائر « نادى الترقى » وكان أحمد توفيق المدنى من أبرز مؤسسيه ، ومن نادى الترقى نشأت فكرة تكوين « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » التى قاومت البدع والضلالات الدينية ، وعملت على إحياء الثقافة الإسلامية الحقيقية، وكان اتجاهها ذا صلة بالفكر الذى حمل لواءه جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده .

قفزة فى المطالب :

وسارت هذه القوى أو تلك الدعائم يسند بعضها بعضا ، وكان أثرها واضحا فى الحياة الجزائرية ، ومهد ذلك للتطور الفكرى الضخم الذى شهدته القضية الجزائرية بعد ذلك ، فبينما كان الاتجاه العام يرمى إلى المناداة بإصلاحات شبيهة بتلك التى نادى بها الأمير خالد ، إذ وقف مصالى الحاج متحدثا باسم « نجم شمالى افريقية » فنقل الاتجاه من هدف إلى هدف ، ونقل الفكر الجزائرى بوضوح وعلانية من دائرة إلى دائرة . فقد أعلن أن مطلب الجزائر شئ أغلى وأعز من هذه الإصلاحات ، إنه الاستقلال التام للجزائر وللوطن المغربى كله ، وهتف : « الجزائر بلادنا ، والعربية لغتنا ، والإسلام ديننا » وطالب بإرجاع الأرض المغتصبة للجزائريين ، وبانسحاب جيش الاحتلال من القطر الجزائرى ، وكانت تلك هى الصرخة التى دوت فلم تخمد ، وذلك هو المشعل الذى ارتفع فلم يهمد [1] .

وأزعج هذا النداء السلطات الفرنسية فقاومته بوسائل مختلفة كان من أهمها حل جمعية « نجم شمالى إفريقية » فى مارس سنة ١٩٣٧ وسرعان ما أعلن السيد مصالى الحاج فى نفس الشهر « تأسيس حزب الشعب الجزائرى » بدلا

(١) أحمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ١٦٤ .

من جمعية « نجم شمالى إفريقية » وقد طبع هذا الحزب الشعب الجزائرى بطابعه الاستقلالى الثورى ، واستجاب الشعب لنداء هذا الحزب استجابة منقطعة النظير، وكان جواب الحكومة الفرنسية على قيام هذا الحزب أن ألقت القبض على الزعيم مصالى الحاج وبعض رفاقه بدعوى أنهم أعادوا تنظيم مؤسسة حلها القانون ، وحكم عليهم بالسجن ، ولكن حزب الشعب انطلق كالشهاب الثاقب ، ولم ترده مظالم الاستعمار ولا مكائد الحكومة [1] .

وأعلن زعماء حزب الشعب تأسيس حزب جديد هو «حزب انتصار الحريات الديمقراطية» ووجهت فرنسا اضطهادها لهذه المؤسسة الجديدة ، ولكن هذه المؤسسة بدأت تنقسم على نفسها ، وظهر فيها تياران يتزعم أحدهما الزعيم مصالى الحاج رئيس الحزب ، ويتزعم الثانى الشباب المثقف من أعضاء الحزب ، ويروى الأستاذ أحمد توفيق المدنى قصة هذا الانقسام ونتائجة بقوله [2] :

بينما كان رأى الرئيس فيما سبق هو الراجح ، وإرادته هى العليا ، أصبحت آراؤه تناقش ، وإرادته تعارض أحيانا من قبل الأغلبية ، فأعلن الرئيس أن هذه الطريقة تؤدى إلى فساد الحزب واضمحلاله وانحلاله ، وطالب بإعطائه «التفويض المطلق » فى سياسة الحزب ، فرفضت الأغلبية عليه ذلك ، وأصبح الانقسام ضربة لازب ، إذ تمسك السيد مصالى برأيه ، وهاجم أغلبية اللجنة المركزية هجوما عنيفا وأذاع أمر ذلك الخلاف على الناس .

ففى أيام ١٣ و١٤ و١٥ يوليو سنة ١٩٥٤ ، انعقد فى بلجيكا مؤتمر الحزب ولم تحضر اجتماعه اللجنة المركزية ، وقرر السيد مصالى وأنصاره فصل أعضاء اللجنة المركزية من الحزب وتفويض الرئيس فى إدارة سياسة الحزب وتوجيهها حسبما يراه صالحا .

---

(١) هذه هى الجزائر ص ١٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١ .

لكن لم يمض على ذلك شهر واحد ، حتى عقد رجال اللجنة المركزية مؤتمرا فى مدينة الجزائر أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٤ أعلنوا فيه أن الزعامة الفردية قد انقضى أجلها ، وأعلنوا فصل السادة أحمد الحاج مصالى ومؤيديه من الحزب ، وأن رجال اللجنة المركزية هم الذين يمثلون الحزب ويدبرون سياسته ، ويتولون توجيهه .

ووقعت من جراء الانقسام بعض الحوادث المؤلمة ، بين الإخوان الذين كانوا إلى الأمس القريب يدا واحدة ، يوجهون الأمة نحو حركة تحرير فى معركة طاحنة ، لكن الأمة حسمت بدمائها وبأرواح شهدائها هذا النزاع .

* * *

ومن الجماعات التى جاهدت فى سبيل الحرية وناضلت من أجلها جماعة أحباب البيان والحرية ، وهى تضم عددا وفيرا من المكافحين والعلماء ، كلفوا عباس فرحات بإعداد بيان ليصدر باسمهم ، فأعده عباس فرحات ، وفحواه المطالبة بالاستقلال وأنه مطلب الجميع ، وتجمعت الجموع حول هذه الطائفة فسميت باسم ذلك البيان « أحباب البيان والحرية » .

الثورة الكبرى :

بطش الفرنسيون بكل القوى المناضلة ، وأوقعوا بالمنادين بالاستقلال ضروبا من العسف كان منها القتل والنفى والسجن ، وجاء يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ إبان احتفال الحلفاء بالانتصار على المحور فخرج الجزائريون يهتفون بمطالبهم فى الحرية والاستقلال فى مظاهرة كبيرة ، فاعتدى عليهم الجنود الفرنسيون كما اعتدوا على غيرهم من الآمنين ، وحدثت مذبحة رهيبة شملت الرجال والنساء والأطفال ، وكان الدم يجرى فى الشوارع أحمر قانيا ، ودمرت قرى بأكملها ، وحلت كل الهيئات وزج بأنصارها فى السجون ، ودفن بعض المثقفين أحياء .

وكانت هذه المجزرة هى الأساس للإعداد للثورة الكبرى ، فإن لفيفا من

الشبان بدءوا منذ ذلك اليوم يعدون العدة لثورة العمالقة ، وأحست فرنسا بالخطر فحاولت أن تخدع الجزائريين بإجراء بعض الإصلاحات على أن تكون داخل إطار الوحدة بين فرنسا والجزائر ، ولكن الاستقلال كان قد أصبح الأمل الوحيد للشعب الجزائرى ، وكيف يتّحد جزائرى مع فرنسى مع أن كل جزائرى ضحى بأفراد من أسرته اغتالتهم أسلحة الفرنسيين ؟ هذا ولم تكن هذه الإصلاحات إلا ذرا للرماد فى العيون ، فقد كان تطبيقها جائرا يلغيها من أساسها .

ومرت بالبلاد فترة عصيبة وتوالت قسوة المستعمر الأثيم ، فكان لابد من سلاح جديد ينزل الميدان ، وكان لابد من مقابلة القوة بالقوة بعد أن عجز البيان وفُلّت أسلحة السياسة ، كان لابد من الثورة الكبرى .

جماعة من الشبان كانوا يعملون فى تكتم شديد داخل الجزائر وخارجها ، وكانوا يعدون أنفسهم لحرب طويلة مريرة ، ففى الداخل كان التنظيم السياسى يأخذ أهبته وجيش التحرير الوطنى يتكون ، وفى الخارج كانت الأسلحة تُجمَع ، والدعاية تُنْشَر والتأييد يُطْلَب ، وكانت القاهرة مركزا هاما من أهم المراكز التى استجابت للجزائرين واحتضنتهم وأيدتهم ، وكان يقيم بها قبيل اندلاع الثورة كبيران من أبطالها هما أحمد بن بيلا ومحمد خيضر وانتشر أبطال آخرون هنا وهناك فى بلاد العالم ، ومن هؤلاء محمد اليزيد وبو ضياف وأحمد توفيق المدنى وعباس فرحات والحسين آية أحمد والبشير الإبراهيمى والدكتور أحمد فرنسيس وغيرهم .

أما فى الجزائر فكان القادة الأفذاذ بالقاسم قرين ومصطفى بولعيد وهوارى بومدين يجمعون حولهم الأبطال المغاورين الذين استرخصوا الحياة ، وخرجوا من بيوتهم لينزل بهم الموت أو ليعودوا أحرارا .

وفى فجر غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ دقت ساعة البدء ، فانطلقت أول رصاصة، وانطلق معهاالمنشور الأول من « جبهة التحرير الوطنى الجزائري » وقد شمل المنشور بيان أهداف الجبهة وهو الحرية والاستقلال ، كما بين المنشور أن أعضاء

هذه الجبهة مستقلون عن الطرفين اللذين كانا يتنازعان النفوذ فى الحركة الوطنية، ووضح أن الجهاد لن يقف إلا إذا تحققت الأهداف ، وأن الجبهة ترحب بالمفاوضات السلمية إذا أطلق سراح جميع المسجونين السياسيين وصدر تصريح رسمي فرنسي بالاعتراف بالشخصية الجزائرية ، على أن تبقى قوات المقاومة تباشر نشاطها حتى تتم المفاوضات بنجاح (١) .

ولم يكد خبر هذه الجبهة يذاع حتى انهالت عليها جموع المثقفين والمناضلين ، ولكن مصالى الحاج ومن بقى معه أبَوْا الانضمام لها ، وأعلنوا تأسيس « الحركة الوطنية الجزائرية » وقد عيب هذا الموقف على المجاهد القديم ، واستنكر الجيش هذه الفُرقة ، وحملت جبهة التحرير الوطنى عبء هذا النضال مع جيش التحرير والتفت حولهما كل الصفوف أو أغلبيتها الساحقة (٢) .

وكان زعماء جبهة التحرير فى قمة الوعى السياسى فقد أدركوا أنهم فى حاجة الى صراع عنيف لينقلهم عن دائرة « الأرض الفرنسية » إلى دائرة «المستعمرة » ثم إلى دور آخر من الصراع لتحرير المستعمرة من الاستعمار ، وقد عبر أحد زعمائها المرحوم ديدرش مراد الذي سقط شهيدا فى أتون هذه الحرب التحررية عن هذه الآراء بكلمات حكيمة ننقل بعضها :

يجب أن تعرفوا أن الحرب لن تنتهى فى عام أو عامين ، يجب أن تتيقنوا أنها ستطول ، يجب أن تُبعِدوا من طريق حساباتكم مثال تونس أو حتى مثال الهند الصينية ، فقضية الجزائر لا يمكن أن تقاس بقضية تونس ، حتى نأمل فى النجاح بعد عامين ، وقضية الجزائر لا يمكن أن تقاس بقضية الهند الصينية التى تقع فى أقصى الشرق وتفصلها عن فرنسا آلاف الأميال ، إن الجزائر أهم فى نظر الاستعمار وأخطر من كل ذلك ، إنها ليست مستعمرة كالهند الصينية أو كبقية المستعمرات فى آسيا وإفريقيا ، إنها دستوريا أرض فرنسية .

---

(١) أقرأ المنشور كله فى كتاب « هذه هى الجزائر » ص ١٩٩ - ٢٠٤ .
(٢) أنظر المرجع السابق ص ٢٠٥ .

ولهذا فمطلوب من هذا الشعب أن يقود كفاحا عسيرا ، مطلوب منه أن يقدم تضحيات لم يسبق لأى شعب أن قدمها فى كفاحة ضد الاستعمار ، مطلوب منه أن يكافح عدة سنوات ليصل إلى نتيجة بسيطة بالنسبة للهدف ، وهى أن يحمل العالم على النظر إلي الجزائر بوصفها « مستعمرة » فى إفريقيا ، لا امتدادا لفرنسا الأوربية . مطلوب من شعبنا سنوات من الكفاح والتضحية لا لشىء إلا لنحمل فرنسا على التسليم بأننا مستعمرة .

« نعم . . . سيوجد هناك من يأسف لآلام الحرب ، وسيوجد من يرفع صوته بضرورة التخفيف من وطأة هذه الآلام ، ولكن يوجد هناك فى مبدأ الأمر من يعترف بالطابع السياسي لمشكلتنا ، سيحاولون أن ينظروا إلى آلامنا نظرة إنسانية لا سياسية .

« وهذه الحقائق يجب أن نتذرع بها كى لا نتأثر عندما نجد [illegible] اللامبالاة بقضيتنا سياسيا ، بل يجب أن نتوقع ذلك منذ البداية ، يجب ألا نغفل عن أن سنوات الكفاح الأولى ستهدف فقط إلى الخروج من دائرة « الأرض الفرنسية » كما ستهدف فى نفس الوقت إلى تحقيق وحدة الشعب وراء أهداف الثورة . . وبعد ذلك ، بعد ذلك فقط ، يبدأ الكفاح من أجل الاستقلال » .

العرب فى المعركة :

من الحق أن نقرر أن الجزائر لم تكن وحدها فى المعركة السياسيه ، فإن العرب أخذوا فيها بنصيب كبير ، وقد بلغ من حماسة العرب وإحساسهم بالمسئولية أن اتخذت جامعة الدول العربية قرارا صريحا بمنح الجزائر مبلغا كبيرا من المال كل عام يمثل ميزانية لجبهة التحرير الوطنية ، وتشترك دول الجامعة فى دفعه ، كما قامت الصحافة العربية ووسائل الاعلام الأخرى بدور كبير فى المعركة ، فواصلت حملاتها ضد عدوان فرنسا على الجزائر المكافحة .

وحملت مصر بصفة خاصة جزءا كبيرا من هذا العبء الضخم ، وقد سجل

الزعيم أحمد بن بيلا عندما كان رئيس وزراء الجزائر هذه الحقيقة فى خطاب تاريخى ألقاه فى السادس من مايو سنة ١٩٦٣ إبان زيارة جمال عبد الناصر للجزائر ، ومن حق التاريخ علينا أن نثبت هنا فقرات من هذا الخطاب المهم الذى كشف بعض أسرار لم تكن قد أذيعت من قبل ، قال سيادته :

- إننى أريد أن أفصح عن بعض الأسرار التى ظلت فى طى الكتمان مدة طويلة ، فمن حق التاريخ أن يدوّن هذه الأسرار ، ومن حق الشعب العربى أن يعرفها .

- لقد كنا فى سنة ١٩٥٤ نعد لثورتنا الكبرى ولم نجد أحدا فى الشرق أو الغرب يؤازرنا ويقف بجوارنا ويؤيدنا إلا شخصا واحدا هو الرئيس جمال عبد الناصر ، الذى أحسن استقبالنا ، وأحسسنا ونحن نكلمه أنه يحمل معنا العبء ، وسرعان ما أيدنا تأييدا مطلقاً ، وأمدنا بالسلاح والمال والرجال .

- ويوم كان فى الجزآئر جزائريون لا يرون احتمالا للنصر ، ويوم كانت الأحزاب - كعادتها - تتصارع من أجل الكسب السياسى ، وجدنا فى القاهرة رجلا لم يتردد لحظة فى أن يضع كل الإمكانيات المادية والمعنوية لمصر تحت تصرف ثورة الجزائر ومن أجل انتصارها .

- أيها الجزائريون ، إن معنا الآن رجالا من مصر خاضوا معنا معارك الاستقلال فوق أرض الجزائر .

- إن السفن المصرية طالما شقت عباب البحر الأبيض المتوسط تحمل لنا الأسلحة والدواء والطعام ، وكان بعضها يرسو فى ليبيا وبعضها فى الريف (بالمغرب) ويفرغ رجالنا حمولتها ويتسلمون منها امداداتها الضخمة .

إن اشتراك فرنسا فى معركة بورسعيد كان انتقاما من مصر بسبب مساعدتها للجزائر ، وبذلك ارتبط مستقبل الجزائر بمستقبل مصر إلى الأبد .

- إن من يريد أن يستفيد عليه أن يرجع إلى التاريخ والتاريخ ، القريب

وبيس ابعيد . . ارجعوا إلى التاريخ وهو ينطق بحروف من نور ، ونحن نقول بصراحة إننا فى هذه البلاد نعرف هذا التاريخ ، نعلنها صراحة أنه لا يوجد انسان خلصنا ونصرنا مثل جمال عبد الناصر .

– ونحن نقول لمن يريدون استغلال هذه البلاد فى مناوراتهم التى ترمى إلى تفكك العرب والوحدة العربية . . ونقول لمن يدبرون هذه المناورات ... هيهات ، هذا البلد عربى ، وهذا البلد يعرف قدر مصر ، وقدر جمال عبد الناصر فى حرب التحرير » .

ونحبُّ أن نضيف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى هى أن فرنسا ظلت تؤيد إسرائيل ماديا وأدبيا لتوقف نشاطنا فى الجزائر ، وأنها أشارت أحيانا إلى استعدادها لإيقاف مساعدتها لإسرائيل لو أوقفنا مساعداتنا للجزائر ، ولكن مصر أعلنت أنه لا مساومة فى الحقوق العربية ، ولم تُستأنف علاقتنا السياسية مع فرنسا – التى قُطعت عند الاعتداء الثلاثى – إلا بعد تسوية مسألة الجزائر.

المعركة :

زمجرت المعركة كما قلنا من قبل في غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ وحسبتها فرنسامن تدبير رجال السياسة القدماء فألقت القبض عليهم ، ولكن سرعان ما أدركت بأن رجال السياسة – مثل فرنسا – لايعرفون مركز هذه الصيحة ولا مدبر هذه الثورة العارمة ، فأطلقت سراحهم .

وحشدت فرنسا جيشها وعتادها لمقاتلة الثائرين وتدميرهم ، ولكن راعها أن الثورة هذه المرة لم تكن فى مكان واحد ، بل انبثقت فى كل مكان ، وأشعلت النار فى كل ركن من أركان الجزائر ، وحاولت فرنسا أن تبعث بجندها هنا وهناك ولكن كان معنى ذلك تشتيت قواها من جهة ، ومن جهة أخرى مواجهة الثائرين فى ميدان حرب وهو ما كان يتحاشاه الجنود الفرنسيون ، الذين اعتادوا أن يوجهوا عتادهم إلى حرب الآمنين وهجمات الغدر والخيانة .

وتعاون الغرب مع فرنسا لقهر الجزائر ، فأمدت أمريكا الجيش الفرنسي بما شاء من ذخائر ، واستُعملت فى الجزائر أسلحة الأطلنطى ، وأيدت الدول الغربية فرنسا فى الأمم المتحدة عدة مرات فأقرت معها أن مشكلة الجزائر مشكلة داخلية لا يجوز لهيئة الأمم المتحدة أن تعرض لها ، ولعبت الخيانة دورا هاما حينما أرغمت فرنسا طائرة كانت تحمل بن بيلا وأربعة من رفاقه إلى النزول حيث أرادت فرنسا ، وقبضت عليهم فرنسا وزجّت بهم فى السجون .

وهب الشعب الجزائرى كله فى لون من البطولة قل أن شهده التاريخ ، دفعت الأم أبناءها لخوض معركة الشرف ، ودفعت الزوجة زوجها ، وأصبح من العار ألا يشترك رجل فى ميدان القتال ، وحملت النساء عبء العمل فى الحقل بدل الرجال ، بل لبسن السلاح وحملن القنابل ودخلن المعركة مع الرجال كما سنوضح ذلك فيما بعد .

واستعمل الثائرون البطش بالعدو الغادر ، أنزلوا به الضربات القاسية ، وهجموا على حاناته فى أعياده ومواسمه ، وفاجأوا معسكراته ، ونسفوا خيامه ومعداته ، وكان جل اعتماد الجزائريين على الأسلحة التى ينالونها من الفرنسيين القتلى أو الفارين .

واتجه الجزائريون إلى محاربة الاقتصاد الفرنسى وهو من أهم الأسس الاستعمارية ، فدمروا مزارع المحتلين وحرقوا مصانعهم ، واختطفوا معداتهم ، واستولوا على كثير من أموالهم وسياراتهم ، ولم تعد المستعمرات الفرنسية بالجزائر إلا جحيما لا يأمن فيها إنسان على نفسه أو ماله أو ذويه .

والخونة الذين وقفوا سلبيين أو عاونوا الاستعمار من أبناء الجزائر تخطفتهم أسلحة الثورة وأردتهم قتلى وصرعى .

ومرت الأيام ، وأخذ جانب الجزائريين يشتد ويقوى ، وجانب المحتل يضعف ويتدهور ، واستطاعت الثورة الجزائرية أن تستولى على كثير من بقاع الجزائر

وأن تقيم بها سلطة جزائرية تجبى الضرائب وتنشر الأمن ، وتنظم المرافق العامة ، وقاد هذا إلى إعلان قيام جمهورية الجزائر وتأليف وزارة مؤقتة بالقاهرة برياسة عباس فرحات سنة ١٩٥٨ وقد اعترفت بها الدول العربية وبعض الدول الاسلامية ، وانضمت الجزائر لجامعة الدول العربية وظل عباس فرحات رئيسا للوزارة المؤقتة حتى سنة ١٩٦١ حيث خلفه يوسف بن خده ، وقد ظل هذا رئيسا للوزارة المؤقتة حتى تمَّ تشكيل المكتب السياسى الذى كان مرحلة انتقال بين الوزارة المؤقتة والوزارة الأولى بعد الاستقلال برئاسة أحمد بن بيلا .

ولنعد إلى فرنسا لنراها إثْر ما نزل بها من هزائم تلقى بآخر سهم فى جعبتها ، وكان هذا السهم أن تترك المجال للجنرال شارل ديجول ، وجاء هذا الرجل يصرخ ويزمجر ، ويهدد ويتوعد ، وابتدأ حكمه بالاستفتاء الذى أراد أن يسجل به أن الجزائر تريد الوحدة مع فرنسا ، وأجرى الجنرال العجوز الاستفتاء فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٨ وأعلن النتيجة التى يريدها هو ، لا التى يريدها الجزائريون، وسخر العالم من هذه النتيجة ، واستمرت المعارك تصرخ ، فإن الجزائريين كانوا قد عقدوا العزم على أن يحصلوا على الاستقلال بجهودهم ، لا أن يأخذوه منحة من أحد .

ومرت السنون ويبلغ شهداء الجزائر مليونا أو أكثر من مليون ، وروّى الأبطال أرضهم الحبيبة بالدماء ، واختلطت أشلاء القتلى بالتراب الجزائرى ، وأصبح واضحا للعالم كله ألا مناص من هزيمة فرنسا ، ولم تعد فرنسا بمستطيعة أن تواصل القتال بعد أن سقط آلاف من جنودها فى الميدان ، وبعد أن اضطربت ميزانيتها وتهدم اقتصادها من جراء تكاليف الحرب التى بلغت أحيانا ما يعادل مليونا من الجنيهات الاسترلينية كل يوم ، وصرخت الأمهات هناك ، وقامت الثورات بمدن فرنسا تنادى بالجلاء عن الجزائر .

ودخل العام الثامن ، والأبطال يقوون والمحتل يضعف وترق عظامه ولم يجد السياسى العجوز بدا من أن يحنى الرأس وأن يطأطئ للحق ، فأعلن الرغبة فى

المفاوضات ، وقبل أن نتكلم عن المفاوضات يجدر بنا أن نسجل حلقة هامة من حلقات هذا الصراع الطويل ، ذلك هو دور المرأة الجزائرية فى هذه المعارك .

المرأة الجزائرية فى حرب التحرير :

سبق أن ذكرنا أن فرنسا أرادت أن تقضى على المرأة الجزائرية عن طريق محاربة العباءة والخمار ، والزج بالمرأة فى المحيط الغربي ليتبعها الرجل ، وقد فشلت هذه المحاولة كما قلنا ، ونريد أن نعتمد على التحقيق الصحفى الذى كتبه من الجزائر الاستاذ أحمد بهاء الدين عن دور المرأة فى النضال الوطنى قال تحت عنوان « قصة فاطمة » (١) :

« فاطمة » هو الاسم الذى تعود الفرنسيون أن يرمزوا به للمرأة الجزائرية ، فالكتاب الفرنسى إذا قال « الفاطمات Les FATMAS » فهو يعنى الجزائريات . وحتى سنة ١٩٥٥ كانت الثورة الجزائرية ثورة الرجل فقط . فالطابع الثورى الفدائي لهذه الثورة فى أيامها الأولى والحاجة إلى السرية المطلقة ، جعلت المناضل يحمل وحده مسئولية هذا العمل الخطير الذى يشترك فيه. ولكن تطور الثورة أدي إلى تطوير أشكال الإرهاب ضد فرنسا ، وبالتالى أصبحت الحاجة ماسة إلى تطوير أساليب النضال ذاتها . فلم يعد هناك بُدٌّ إزاء تشبث العدو ووحشيته من الحرب الشاملة ، الحرب التى لا تستثنى أى عنصر أساسى من عناصر الأمة .. وهكذا برزت ضرورة إشراك المرأة الجزائرية فى المعركة ، ولم يكن هذا القرار سهلا .

كان لابد من تحقيق هدفين : الأول إشراك المرأة فى المعركة ، والثانى هو الاحتفاظ للمعركة بمستواها العالى من الاستعداد للتضحية والفداء وتحمل كل

---

(١) عدد أول ديسمبر سنة ١٩٦٢ من أخبار اليوم بتصرف . وقد وصف بعض الأخوة الجزائريين هذه الملاحظات بعدم الدقة والشمول عقب أطلاعهم عليها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب. ورأيى أن الاستاذ أحمد بهاء الدين دون ملاحظاته كما رآها أو سمعها ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن استقراء كامل ، فقد تكون هناك صور تخالف هذه الملاحظات ، وخيال الكاتب فى مثل هذا الموقف ضرورى للغاية .

آلام الكفاح الهائل ، أى أن المرأة سيكون عليها أن تقدم نفس ما يقدمه الرجل من تضحيات ... كيف :

كيف تواجه المرأة الجزائرية المستعمر ، وتتصدى له ، وهى التى تربت على أن تتجنبه ؟

المرأة التى تعودت الحجاب وجدار البيت وأمان العزلة .. كيف تتحمل مواجهة السفور ، والطريق المزدحم ، والخطر المتربص ، والمكائد ، والطلقات القاتلة ، بهذه السرعة ؟

وقد رأى رجال الثورة وحشية المستعمر .. إذ مروا جميعا بسجونه ومعسكرات اعتقاله ، وغرف التعذيب فيها .. ولن يتردد المستعمر فى ارتكاب نفس الوحشية مع النساء . المرأة التى تقع سوف تعذب بالتأكيد حتى الموت ، كالرجل تماما .

ألا يمكن أن يكون قرار إدخالها المعركة ذا أثر قاتل على الثورة ذاتها ؟

إن المرأة الجزائرية لم تدرب على القتال كالرجل ، ولم يسبق لها مواجهة الموت فى صفوف الجيش الفرنسى كبعض المناضلين ، ولم تفكر قط فى العمل السرى، بل أنها لم تقرأ قصص البطولة فى الروايات ، ولم تشاهدها فى السينما حتى يقال إنها اندفعت وراء الخيال .. لا شئ من هذا قط ، ومع ذلك فقد فوجئ العالم بهذه المرأة تخرج للصراع ، وفى طيات ثيابها قنابل يدوية ، أو رسالة سرية ، تواجه أقسى تجربة : تجربة التآمر ، فى الشارع الصاخب .. ، المزدحم ، الذى يعج بالجنود وبنظرات الأعداء الفاحصة .. أقصى تجربة يمكن أن تتعرض لها الأعصاب .

ثم إن الثورة - فى تطورها - تحتاج إلى مهمات جماعية كثيرة غير القتال فى ساحات القتال ، كجمع الأموال ، والتجسس ، ومقاومة التجسس ، ونشر الوعى السياسى ، وتكوين التشكيلات السرية الواسعة ، وإعداد خلية احتياطية

لكل خلية تناضل فعلا ، لتحل محلها إذا ضربت أو انكشفت .. مَن هذا أجبر رجال الثورة على البحث عن عنصر جديد يقوم بالمهمات ذات الطابع الفردى . وهكذا تقرر ، بعد تردد طويل ، أن تدخل المرأة ساحة النضال والشرف .

وفى البدء تقرر ألا يشترك فى التنظيمات السرية إلا زوجات المناضلين ثم أدى اتساع الثورة إلى إشراك الأرامل والمطلقات ، ثم كل النساء دون الفتيات ، لأن البنت الجزائرية التى لم تتزوج قلما يكون قد سبق لها الخروج إلى الشارع على الإطلاق ، ولكن الفتيات بدأن يتطوعن بكثرة ، ويثرن إذا رفض تطوعهن ، ويروى شهود العيان أن البنات الشابات كن يجتمعن ويقسمن أن لا يتزوجن إلا إذا كان العريس عضوا فى جبهة التحرير . وهكذا اتسعت الثورة فشملت كل نساء الجزائر ، دون قيد ، كما شملت من قبل كل رجالها .

وفى البدء ، كانت المرأة المناضلة تقوم بمهمة ضابطة اتصال بين خلايا ، أو ناقلة لرسائل ومعلومات ، أو حاملة لمتفجرات أو بطاقات شخصية مزورة بالمئات أو أموال الثورة بالآلاف ، أو تقوم بمهمة السير فى الطريق عشرات من الأمتار أمام مناضل رئيسى أو فرقة من المناضلين لتسرع بتحذيرهم إذا اكتشفت حركة غير عادية أو كمينا معدا .. كانت المرأة تقوم بكل هذا وهى مازالت فى حجابها وعباءتها التقليديتين .. ولكن ضراوة المعركة كسرت كل قيد .. لم يعد حى « القصبة » حصنا طبيعيا للنساء . لقد اقتحم الغزاة حى القصبة كما أصبح على المناضلين أن يقتحموا أحياء الغزاة .

إن الأوروبيين والجزائريين لم يعيشوا مختلطين ، فقد كان لكل من الفريقين أحياء خاصة به تماما . وعلى ذلك فالمرأة التى تؤدى مهمة فى حى أوروبى ، إذا لبست عباءة وحجابا فسوف تلفت الأنظار .. وسوف تسقط فى الحال ، لابد لها إذاً أن تسير فى الزحام كما تسير الأوروبيات ، حتى لا يعرف حقيقتها أحد . لابد إذا أن تخلع الحجاب والعباءة ، خصوصا إذا كانت شقراء حتى يحسبوها فرنسية عابرة .

لم تكن المرأة الجزائرية تعبر الأحياء الأوروبية قبل الثورة قط إلا لضرورة ماسة كالذهاب إلى المقابر فى أقصى المدينة إذا مات أحد أهلها ، ويومها تعبر الحى الأوروبى فى سيارة ، وفى الصباح الباكر جدا على الأغلب ، لأنها تعبر أرضا حراما ، تخشاها . فأصبح عليها الآن أن تخلع حجابها وتقتحمها وحدها ، متخفية ، ففى طيات ثيابها حيثيات عذابها وموتها .

وفى بعض الأحيان ، كان يحدث أن يقع على عاتق امرأة جزائرية لم تعرف القراءة والكتابة قط ، أن تستظهر تعليمات دقيقة معقدة ، حتى تحفظها عن ظهر قلب ، ثم تخترق بها – فى ذاكرتها – الأحياء الأوروبية ، لتصل إلى خلية أخرى فى أقصى المدينة فتبلغها التعليمات المعقدة ، التى قد تؤدى غلطة واحدة فيها إلى ارتباكات خطيرة ، ثم تعود ، حتى لا تحمل ورقة تدينها أوتكشف اتصالاتها .

وقد يحدث أن يكون على فتاة ألا تبتعد كثيرا عن مبنى معين يجتمع فى داخله المناضلون حتى تنبههم إلى ما قد يلم من خطر ، وعليها أيضا ألا تقف ساكنة لا تستلفت النظر .. وعلى هذا كان دور المرأة معقدا ، وكان لابد من البراعة لتقوم المرأة بهذا الدور .

وعندما مرت السنوات ، كان كل الرجال الجزائريين الأبطال فى أى مدينة من المدن قد أصبحوا معروفين للبوليس الفرنسى ، فإذا مر واحد منهم فى الطريق فتشوه أكثر من مرة ، لهذا ابتكر المناضلون طريقة هى أن يسير المناضل الذاهب إلى مهمة مسلحة ، دون أن يحمل أى سلاح فالذاهب إلى مقهى لينسفه بقنبلة مثلا ، أو إلى أى مكان يحتشد فيه الجنود الفرنسيون ليطلق عليهم مدفعه الرشاش ، لا يحمل سلاحا قط ، أما السلاح فتحمله فتاة جزائرية بريئة ذات مظهر عادى ، لا يفكر البوليس فى خطرها ، وفى لحظة معينة ، وفى نقطة قريبة من مكان العمل المسلح تسلم الفتاة السلاح للرجل ، الذى يستخدمه خلال لحظات فى أداء المهمة ، هذه الفتاة تكون أشبه بقائد الأوركسترا . إنها

تستطلع، وتقيس الخطر ، وتتصرف ، لأن الاستشارة مستحيلة ، تتصرف سواء بأن تسلم السلاح للرجال فلا يكون هناك مجال للتراجع عن المخاطرة ، أو تتصرف بالعودة بسلاحها إذا اكتشفت أن الظروف غير ملائمة .

وهكذا وصلت المرأة الجزائرية إلى قلب عمليات النضال المسلح ذاتها ، وأصبح الكثير من خطط المقاومة يعتمد أساسا عليها ، ولم تمض سنوات قليلة حتى خطت المرأة الجزائرية خطوتها الأخيرة : أصبحت تقوم هى بنفسها بتفجير القنابل بين البوليس الفرنسى ، وضباط الباراشوت ، ومراكز تجمع المستعمرين .

وحتى فى العلاقات الاجتماعية ذاتها ، حدث تغير كبير .

ففى حالات كثيرة كان ينزل أحد المناضلين ضيفا على أسرة ، ويقوم أفراد الأسرة بالعناية به المناضلين وإخفاء سره حتى يتمكن من العودة لنشاطه .

علاقات انسانية جديدة تماما على البيت الجزائرى المحجب ، المنفصل ، أحاطتها الثقة والشرف والفداء .. وحررت النفسية الجزائرية تحريرا سليما عميقا.

ولعل من اللحظات التى لا تنسى ، تلك الأيام الأولى لدخول المرأة ساحة النضال .. حتى كان الناس يصادفون فتاة جزائرية تسير سافرة ، دون أن يعرفوا أنها فى مهمة . فيتهامسون عن سيرتها وعن تقليدها للفرنسيات . ويصل الهمس إلى الأب . وحين يواجهها الأب بغضبه ، يكتشف بعد اللحظة الأولى - من عينها - أن الأمر ليس أمر سفور . إنما الأمر هو أن ابنته الشابة قد دخلت التنظيم السرى ، ويحل محل خوف الأب التقليدى على سمعة ابنته خوف من نوع جديد .. خوف عليها من الموت ، أو من التعذيب الرهيب ، وفى أيام تصبح الأسرة كلها ، بما فيها الأب القديم صاحب الأمر والنهى ، واقفة خلف البنت الشابة ، كل أعصابها مشدودة إليها ، ويكون التطور الطبيعى أن تصبح الأسرة كلها أعضاء فى التنظيم السرى ، بعد أن دخلته أضعف عناصر الأسرة .

وهكذا ، فوق موج الأحداث ، دخلت الجزائر كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها ، بوتقة الثورة ، لتصهرها الأحداث ، كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط .

وأصبح جنود الاستعمار يطاردون الجميع : السافرة والمحجبة .. والجزائرية التى تشبه الأوروبيات ، والأوروبية التى تشبه الجزائريات .

وهكذا قدمت الجزائر فى معركة التحرير أغلى ما عندها من دماء وأرواح ، ولم تضن الجزائر فى سبيل استقلالها بالرجل المثقف ولا بالأم المحجبة ، ولا بالعذراء الفاتنة . إن الحرية مطلب غال ، ومن أجل هذا لم تبخل الجزائر فى سبيله بشئ ، ولابد عند الحديث عن نساء الجزائر أن ندون بحروف من نور اسم جميلة بوحريد وجميلة بوباشا كرمز للمرأة الجزائرية المناضلة ، وللأولى ذكر عمَّ الدنيا بسبب بطولتها الرائعة وشخصيتها الفذة ، وموقفها الباسل عندما حكم عليها القضاء الفرنسى بالإعدام ، ولكن ضمير الإنسانية حكم عليها بالنجاة وحكم على القضاة ودولتهم بالموت ، وكان لضمير الإنسانية ما شاء .

المفاوضات وأسسها ونتائجها :

فى التمهيد للمفاوضات وقف الجانب الجزائرى موقف المنتصر فرفض بإباء أنصاف الحلول ، وأصر قبل البدء فى المفاوضات أن تستبعد فكرة الاستقلال الذاتى للجزائر ، أو الحكم الذاتى ، وأصر على الاستقلال التام ، وأصر الجانب الجزائرى كذلك على أن تسير المفاوضات فى ظل قصف المدافع ، ولم يقبل قط أن يوقف نشاط جيش التحرير قبل أن تنجح المفاوضات ، وأصر الجانب الجزائرى أيضا على أن تستبعد فكرة ضم مفاوضين آخرين لهيئة المفاوضات غير مندوبى جبهة التحرير ، وقال ان الجبهة وحدها هى التى تتكلم باسم الجزائر ، وأصر أخيرا على أن تستبعد فكرة اقتطاع الصحراء ، أو خضوع الصحراء إلى أى اتفاق آخر فالوحدة الوطنية كانت الأساس للمفاوضات .

وفى ظل هذه الشروط بدأت المفاوضات فى إيفيان على الحدود السويسرية ودام الاجتماع عدة أسابيع ، ودارت المباحثات بين صلابة الوفد الجزائرى ومساومة الوفد الفرنسى ، وانتصر الحق فى النهاية على المساومة الرخيصة ، وأصدر المؤتمر قرارات تحقق الكثير من أمل الجزائر ، وقد تولت الوزارة الفرنسية لشئون الجزائر إذاعة هذه القرارات يوم ١٩ مارس سنة ١٩٦٢ ، وفيما يلى موجزها :

(أولاً) وقف إطلاق النار :

وقف جميع المعارك المسلحة داخل الجزائر وعلى حدودها ، والإفراج عن جميع أسرى الحرب خلال ٢٠ يوما ، وإعلان عفو عام عن المسجونين . وإبعاد القوات المسلحة عن السياسة ، وأخيرا إلغاء جميع التدابير التى اتخذت لمواجهة الطوارئ بصفة تدريجية .

(ثانياً) فترة الانتقال :

تبقى الجزائر تحت السيادة الفرنسية خلال فترة انتقال ، وتنتقل سلطات الحكومة الفرنسية إلى المندوب السامى الفرنسى . ويعاونه فى المحافظة على الأمن القائد الفرنسى الأعلى ، ويتم تأليف هيئة تنفيذية تضم ١٢ عضوا يمثلون الجماعات السياسية المختلفة فى الجزائر ، وتقوم هذه الهيئة بإدارة البلاد ومساعدة المندوب السامى الفرنسى فى الإعداد للاستفتاء على تقرير المصير . وتشرف الهيئة التنفيذية على الادارات المحلية فى الجزائر وعلى قوات الأمن المحلية التى تتألف من المجندين الوطنيين الذين دربوا تحت إشراف الضباط الفرنسيين وتضم هذه القوات أيضا وحدات من جيش التحرير الوطنى الجزائرى .

(ثالثاً) تقرير المصير :

سيدلى المواطنون الجزائريون بأصواتهم فى الاستفتاء الذى سيختارون فيه بين:

(أ) بقاء الجزائر كجزء لا يتجزأ من فرنسا .

(ب) الاستقلال وقطع كل علاقة تربط بين الجزائر وفرنسا .

(جـ) الاستقلال والتعاون مع فرنسا .

وقد تم الاتفاق على أن يجرى هذا الاستفتاء بعد فترة لا تقل عن ثلاثة أشهر من إعلان وقف إطلاق النار ، وعلى أن يشمل الاستفتاء جميع أنحاء الجزائر ومنطقة الصحراء . ثم تذاع نتيجة الاستفتاء فى جميع هذه المناطق دفعة واحدة.

وقد تم الاتفاق أيضا على اعتبار جبهة التحرير الجزائرية حزبا سياسيا معترفا به خلال فترة الانتقال . كما تقرر السماح لجميع اللاجئين الجزائريين فى الخارج بالعودة إلى الجزائر ، وإقامة لجان فى المغرب وتونس لتنظيم عودتهم .

واتفق الجانبان على تخفيض القوات الفرنسية فى الجزائر إلى ٨٠ ألف جندى فى خلال سنة واحدة من إعلان نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير . على أن يتم سحب هذا العدد من القوات الفرنسية خلال مدة أقصاها ٢٤ شهراً ، كما يتم الجلاء عن المنشآت العسكرية تبعا لذلك .

ونص الاتفاق أيضا على استخدام فرنسا لقاعدة المرسى الكبير لمدة ١٥ عاماً، واستخدام عدد آخر من المطارات والمنشآت العسكرية .

استقلال الجزائر :

نفذت هذه القرارات بدقة ، فأطلق سراح بن بيلا وزملائه حيث عادوا إلى وطنهم يباشرون مسئولياتهم ، وقررت الجزائر مصيرها فاختارت الاستقلال الكامل ، واعترفت به فرنسا فى ٢ يوليو سنة ١٩٦٢ ، وانضمت الجزائر لهيئة الأمم المتحدة ، وبدأت الجزائر عهد النور .

صراع مع المستوطنين :

نزح المستوطنون من فرنسا وغيرها من دول أوروبا معتقدين أنهم يزحفون إلى

ارض فرنسية ، أو على الأقل إلى أرض يسود بها النفوذ الفرنسى ، ثم شملت هؤلاء جميعا الجنسية الفرنسية كما أوضحنا من قبل ، فلما احتدمت الحرب بين فرنسا والجزائر ، وقف هؤلاء بجانب دولتهم وأخذوا دوراً كبيراً فى الحرب الاستعمارية ، ولم يضنوا بجهد أو مال لترجح كفة المستعمرين ، ولكن هذه الجهود ذهبت هباء أمام إصرار الجزائريين ، وبدأت فرنسا تتجه للاستسلام وتسوية المشكلة التى أكلت الشبان الفرنسيين وأرهقت ميزانية فرنسا ، وغضب المستوطنون لاتجاه فرنسا الجديد ، وعارضوه ، ووقف ديجول بين نارين ، ولكنه كان يدرك أن نار المستوطنين سرعان ما تخبو ولن يكون لها صبر الأبطال العرب، فاستمر ديجول فى سياسته الجديدة التى ترمى إلى إعطاء الجزائريين الحق فى تقرير مصيرهم ، واحتدم غضب المستوطنين ، فدبرت مؤامرة قادها ثلاثة من الجنرالات الفرنسيين بالجزائر برياسة الجنرال سالان قائد المنظمة الإرهابية ، وكانت هذه المؤامرة ترمى إلى الاستقلال بالجزائر لمصلحة المتآمرين .

وفى اليوم الذى أعلن فيه اتفاق إيفيان أذاع الجنرال سالان قائد المنظمة الإرهابية سالفة الذكر بيانا من الإذاعة السرية للمنظمة أعلن فيه أن الحرب الحقيقية قد بدأت ، وأنه أصدر أوامر لقواته بمهاجمة «مراكز العدو» فى المدن الجزائرية الكبرى ، ودعا أنصار الهيئة إلى التعبئة وحمل السلاح ، وعلقت المنظمة إعلانات بهذه الدعوة فى جميع أنحاء وهران ، كما وزعت منشورات بمختلف البلاد تحمل هذه التعليمات ، وطغت هذه المنظمة طغيانا عنيفا ، فهددت الحريات وحرقت المزارع ، واعتدت على الأبرياء ، وكان من خططها الفاشلة محاولة خطف زعماء الجزائر عقب إفراج فرنسا عنهم ، وقد اشتركت فرنسا من جهة ، وأبطال الجزائر من جهة أخرى فى مناهضة هؤلاء المارقين ، حتى خروا مهزومين بسرعة عجيبة ، ممثلين آخر حلقة من حلقات الأمل الفرنسى لاستعمار الجزائر الخالدة .

الجزائر بعد الاستقلال

لقد تم استقلال الجزائر بعد جهاد طويل تحدثنا عنه فيما سبق ، واستقبلت الجزائر عهد الحرية ، ولكنها استقبلت معه المسئوليات الضخمة ، تلك المسئوليات التى خلفها الماضى أو التى تتطلبها مواجهة المستقبل .

لقد خلف الاستعمار عبئا ثقيلا ، وخلف الكفاح مسئوليات ضخمة ، وبناء الدولة يتطلب جهادا وصبرا ، ولكن أبناء الجزائر جديرون بحمل هذا العبء ، والعمل الدائب للوصول ببلادهم إلي بر السلامة .

وكان أمام أولياء الأمر بالجزائر مشكلة تكوين جيش وطنى يحرس الاستقلال من أعدائه بالخارج وأعدائه بالداخل ، وقد كان للجزائر جيش أو قل عصابات مسلحة كسبت للجزائر معركة الحرية ، ولكن الجيش الجديد مسئولياته أكبر وتنظيمه أدق ، ويحتاج إلى مطارات وطائرات ، ويحتاج إلى عتاد هائل وعدد كبير من الجنود والضباط الفنيين ، وقد أخذت الجزائر تكون جيشها ، ووصلت أو قاربت الغاية التى ترجوها .

وكان أمام الجزائر مشكلة التعليم وهى مشكلة معقدة عنيفة تطلبت أبنية للمدارس والمعاهد ، وتطلبت الأساتذة والمدرسين واحتاجت إلى الكتب والمعامل ، وكان هناك بجوار ذلك مشكلة تعريب التعليم أو قل تعريب اللسان الجزائرى الذى – كما قلنا – أرغمه الاستعمار على اطراح لغته الأصلية وتعلم اللغة الدخيلة ، وقد سارت الجزائر شوطا طويلا فى هذا المضمار ، وستبلغ فيه غايته.

وكان أمام الجزائر مشكلة اجتماعية قاسية خلفها الطغيان الفرنسى ، هي مشكلة الآلاف من اليتامى أبناء المليون شهيد ، ولم يكن لهؤلاء عائل إلا الدولة التى ضحى الشهداء من أجلها بأرواحهم ، وقد اتجهت الدولة لهؤلاء اليتامى بكل أحاسيسها وعواطفها ، فأسست لهم جمعية اسمها « جمعية الجيل الجديد » ، وأشرفت عليها المجاهدة جميلة بوحريد ، ومن أجل هذه الجمعية

تنازلت المجاهدة جميلة عما كان يمكن أن تناله من مناصب سياسية براقة لتتفرغ مع زميلات لها لخدمة هؤلاء وللعمل على كفكفة دموعهم وجعلهم يتطلعون إلى المستقبل بأمل ورجاء ، وطافت المجاهدة البلاد العربية الشقيقة تدعو لهذا المشروع الانسانى ، فاستجاب لها العرب فى كل مكان ، ومد الغنى والفقير لها يده ليحمل نصيبا من هذا العبء الكبير ، وتقول المجاهدة جميلة بوباشا فى حديث لها مع مندوبة جريدة الأهرام (١) : انتهت الجمعية من تنفيذ مشروعها الأول وهو جمع كل طفل يهيم على وجهه فى شوارع المدن والقرى بالجزائر وتم إنشاء مدرستين داخليتين فى كل حى إحداهما للأولاد والأخرى للبنات ويسير البرنامج اليومى للمدرستين حسب خطة ترمى إلى إعادة بناء هؤلاء الأطفال بدنيا وعقليا .

وكان امام الجزائر مشكلة أخرى أهم وأشمل وهى بناء الدولة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية ، فجهاز الحكم كان يحتاج إلى إعداد ، والمشروعات الصناعية والزراعية تحتاج إلى تصميم ورعاية ، والأسرة والمواصلات ومياه الشرب والمساكن والكهرباء وغيرها من المسائل الاجتماعية كانت تنتظر جهدا ودراسة لإعادة بنائها وتنظيمها وهناك كذلك التصدير والاستيراد والقروض والتمثيل السياسى وهى مسائل اقتضت حلا سريعا .

والحق يقال لقد استطاعت الجزائر أن تحقق هذه الأهداف التى تطلعت لها ، ولكن هدفا واحدا وقف عقبة لم يستطع الذين قهروا فرنسا أن يقهروه ، ذلك هو العودة فى نظم الحكم إلى الشورى الإسلامية ، أو ما يسمى فى العصر الحديث بالديمقراطية السليمة ، لقد تعلم الجزائريون من الإسلام آفاق الجهاد ضد العدو فانتصروا ، ولكنهم لم يتعلموا آفاق الديمقراطية ليعودوا للشعب - لا للقوة - ليختار الحاكم .

وهذا - للأسف - هو ما حدث فى أفغانستان أيضا ، فقد حقق الأفغان

(١) عدد ٢١ مايو سنة ١٩٦٣ .

معجزة الانتصار على الاتحاد السوفيتي وأعوانه ، ولكنهم عقب ذلك وقفوا يحارب بعضهم بعضا ، لأنهم يتعلموا من الإسلام الجهاد والتضحية وعجزوا عن استيعاب روح الإسلام في موضوع الشورى ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن المفاخر التي يسجلها التاريخ للعرب الأمجاد أن الدول العربية - وبخاصة جمهورية مصر العربية - وقفت مع الجزائر تحل معها مشكلاتها وتؤازرها في كفاحها السلمي كما آزرتها في كفاحها الحربي ، وقد قدمت الكويت مليون جنيه استرليني هدية لشعب الجزائر (١) ، أما جمهورية مصر العربية فأهدت الجزائر بعض السفن الحربية لتكن نواة أسطول الجزائر ، وأهدت معها كثيرا من الأسلحة والعتاد الحربي ، كما قدمت وتقدم أعداداً ضخمة من المدرسين الذين سيوكل لهم تعريب اللسان الجزائري والتدريس في مدارس الجزائر، وقدمت قرضا قدره عشرة ملايين من الجنيهات بدون شروط وبدون فوائد، وفي المشروع الاجتماعي الذي ترعاه المجاهدة جميلة ، أسهم الشعب كله في اكتتاب واسع ، كما أسهمت الحكومة بدورها بمبلغ كبير .

الجزائر المستقلة والوحدة العربية :

لقد وضح رئيس حكومة الجزائر دور هذه البلاد في موكب الوحدة العربية فقال:

- إن الجزائر المستقلة ترحب بالوحدة العربية ، وتراها أملا للعرب ، وتأمل الجزائر أن تضم قريبا لعلم الجمهورية العربية المتحدة نجمة رابعة ترمز للجزائر . (كان ذلك أيام الوحدة التي ضمت مصر وسوريا واليمن) .

- نحن شعب عربي لا عنصري ، فالعروبة دم وتاريخ وفلسفة .

- وحدة المغرب العربي خطوة في سبيل الوحدة العربية الشاملة ولا نريد مغربا عربيا يعزلنا عن باقي الشعوب العربية .

---

(١) أذيع في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢ أن حكومة الكويت ستقرض الجزائر عشرة ملايين دولار بدون فائدة وعشرة ملايين أخرى بفائدة .

- كان الفرنسيون هنا يمثلون اسرائيل أخرى بالجزائر ، وقد انتهينا منهم وسنتجه بكل قوانا لنأخذ دورنا فى تخليص فلسطين العربية للعرب .

الاشتراكية فى الجزائر :

حدد الرئيس أحمد بن بيلا فى حديث له مع مندوبى الصحف عقب توليه السلطة بالجزائر أن الوصول إلى السلطة ليس غاية فى حد ذاته ، وإنما السلطة مقدمة للمسئولية الثورية الفعلية ، وقال : إننا لم نصل إلى السلطة لنحكم وإنما وصلنا إلى السلطة لنعمل ولنحقق الغاية الحقيقية من الثورة وهى خدمة الشعب ، وأعلن بن بيلا أن ثورة الجزائر ثورة الفقراء وليست ثورة الاقطاعيين ، وأن ارادة الشعب والثورة كانت قبل ٢ يوليو الماضى سنة ١٩٦٢ - ، وهو تاريخ حصولنا على الاستقلال - تنصبُّ على الانتصار ضد الاستعمار ، ولكنها بعد الاستقلال - مركزة على بناء الاشتراكية [١] فى البلاد ، وهذا يتطلب نضالا أكثر قداسة وأهمية من نضالنا السابق . وإن تنمية الجزائر - لكى تكون تنمية سريعة ومنتظمة وموجهة نحو سد احتياجات الشعب الأساسية - يجب أن تتم فى إطار الاشتراكية ، والملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ، والتخطيط العلمى .. وهذه المهام ، لا يمكن أن تتحقق على يد طبقة الرأسماليين ، مهما كان تبصرها ، فهذه الطبقة إن تقلدت زمام الحكم لا تلبث أن تمارس مصالحها الخاصة ، وإن الطموح نحو الاشتراكية هو هدف أساسى لكل الشعوب المتخلفة ، والتى كان تأخرها وكانت أوضاعها السياسية والاقتصادية من صنع الاستعمار .

وفى ضوء هذه الاتجاهات افتتح ابن بيلا التنظيمات الاشتراكية بالجزائر ، وبدأها بتأميم ما يسمى « الأملاك الشاغرة » فقد انسحب من الجزائر إبان المرحلة الانتقالية وعقب الاستقلال أكثر من ستمائة ألف مستوطن ، كانوا يملكون جزءا كبيرا من ثروة البلاد ، وقد انسحب هؤلاء من أراضيهم ومصانعهم وتركوها

---

(١) كان ما يسمى « الإشتراكية » هو أغنية ذلك العهد فى كثير من البلاد وقد تراجعت هذه الأغنية الآن ، لأن الاشتراكية أفقرت الأغنياء ولم تغن الفقراء .

وقد توقف فيها كل نبض للحياة ، كما تركوا آلاف العمال دون عمل ، وتسبب عن ذلك خطر الضائقة الاقتصادية الناتجة عن توقف الإنتاج وانتشار البطالة .

وتكرر نداء الحكومة الجزائرية إلى من يريد منهم أن يعود ويقبل قوانين البلاد ، فلم يستجب أحد ، وعندئذ كان لابد من خطوة ثورية ، وقد خطت حكومة الجزائر هذه الخطوة ، فحددت وقتا ليعود خلاله أصحاب الأملاك الشاغرة، وأعلنت ذلك ، ولما لم يستجب أصحابها لنداء العودة اتخذت الحكومة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٦٣ قرارها الحازم الذى يغلق الباب نهائيا فى وجه أصحاب هذه الأملاك .. فلقد انتهت الفرصة الطويلة الكريمة التى منحتها لهم الثورة ، دون أن يعودوا . فكان لابد أن تنتهى ملكيتهم لها إلى الأبد ، وتتحول إلى ملكية الشعب ... سواء كانت منشآت صناعية أو تجارية أو مالية أو معدنية ، وكذلك الضياع الزراعية وأرض الغابات ، وكل المساكن والعمارات.

وهكذا تهيأ الجو لكى يقف أحمد بن بيلا ، أمام ميكروفونات وعدسات التليفزيون ليعلن القوانين الجديدة : القوانين الاشتراكية ... القوانين التى تجعل كل ما كان يسمى «أملاكا شاغرة» مؤسسات مملوكة للمجتمع ، يديرها - نيابة عنه - عمالها وموظفوها .

واحتجت فرنسا على هذه الإجراءات الاشتراكية . ووصفتها بأنها انتهاك لاتفاقية إيفيان ، وجاء فى البيان الذى أصدرته الحكومة الفرنسية عقب اجتماع ديجول بأعضاء لجنة الشئون الجزائرية بأن التعاون بين الجزائر وفرنسا أصبح معرضا للخطر نتيجة لهذه الاجراءات .

وكان رد حكومة الجزائر على هذا الاحتجاج أن أعلن رئيسها أحمد بن بيلا أن الثورة الاشتراكية ستعم الجزائر ، وأن هذه الثورة التى بدأت بتأميم الأملاك الشاغرة ستدعم بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى ابتداء من عام ١٩٦٤ على أساس تحديد الملكية بنحو خمسين هكتارا ، وأن الحكومة وضعت يدها فعلا

على مليون ومائتى ألف هكتار من الأراضى ، وستأخذ من المستوطنين والاقطاعيين الذين يملكون الكثير مزيدا مما يفيض عن حاجتهم .

دستور الجزائر :

فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ أقر الشعب الجزائرى أول دستور للجزائر وانتخب الرئيس أحمد بن بيلا رئيسا للجمهورية الشعبية الجزائرية ، وعقب انتخابه أصدر قراره بتأميم أهم الصحف الرئيسية بالجزائر ، ووعد بتأميم الإقطاع والحد من سلطة رأس المال .

مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر:

يمكن القول إنه بسبب العلاقات الوثيقة على مر التاريخ بين دول الشمال الإفريقى ، وبسبب الطبيعة الصحراوية فى المنطقة الجنوبية لهذه الدول ، ثم بسبب خضوع المغرب والجزائر وتونس لمستعمر واحد هو فرنسا ، لهذه الأسباب تداخلت الحدود أو أزيلت الحدود فى بعض المناطق .

وتم استقلال المغرب قبل أن يتم استقلال الجزائر ، وفى خلال حرب التحرير الجزائرية لم تكن هناك فرصة للاتفاق على الحدود ، فلما انتهت هذه الحروب بانتصار الجزائر بدأت المشكلة تظهر وبخاصة حول منطقة «تندوف» فى الجنوب من المغرب .

وهذه المنطقة غنية بمناجم الحديد ، ثم هى حد فاصل بين المغرب وبين موريتانيا، وترى المغرب أن موريتانيا جزء منها لا يتجزأ ، ولكن هذا الرأى يصعب التدليل عليه ما دامت منطقة تندوف ليست تابعة للمغرب ، فهذه المنطقة بمناجمها ومواقعها تبدو ضرورية لمملكة المغرب ، ولدى دولة المغرب بعض خرائط تبين أن «تندوف» جزء منها ، ولديها كذلك بعض وثائق تثبت استغلال المغرب لهذه المنطقة .

والجانب الجزائرى يرى أن هذه الخرائط والوثائق مصطنعة لغرض الاستيلاء على المنطقة الغنية .

مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر

ولسنا - هنا - نحب أن ندخل معركة التحرى والفحص والجدل ، ولكننا نكتفى بأن نقول إن الدولتين لم تستطيعا - للأسف - أن تصلا إلى اتفاق وهبت معارك بين الدولتين الشقيقتين فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ وسقط على أرض المغاوير قتلى من هؤلاء وأولئك ، وتوقفت المعارك بعد أن سالت الدماء الطاهرة على الأرض الزكية .

حركة يونيو ١٩٦٥ وعزل بن بيلا :

فى أواخر يونيو ١٩٦٥ حدث تغيير فى قيادة الجزائر ، فقد تألف مجلس ثورة برئاسة العقيد هوارى بومدين وقرر هذا المجلس عزل أحمد بن بيلا والقبض عليه ، ونشر من أسباب ذلك اتهامه بالإسراف فى بعض النواحى ، واستخدام أموال الدولة فى غير وجوهها ، والارتجال ، وعدم التخطيط [١] ، وقبض معه على بعض أشخاص أهمهم عبد الرحمن الشريف مدير مكتبه ، وابن علا الحاج الأمين المساعد للحزب ورئيس المجلس الوطنى ، وتولى مجلس الثورة الجزائرى حكم البلاد برياسة الرئيس هوارى بومدين ، الذى يمثل البلاد باسم هذا المجلس .

* * *

وفى الثانى من فبراير سنة ١٩٦٨ تسلمت الجزائر القاعدة البحرية الكبرى فى المرسى الكبير ورفرف عليها علم الجزائر ، وكانت اتفاقية ايفيان بين فرنسا والجزائر تنص على أن تحتفظ فرنسا بهذه القاعدة حتى سنة ١٩٧٥ : ولكن فرنسا رأت أن تسلم القاعدة قبل الموعد كبادرة ودية .

* * *

العهد الجديد ومنجزاته :

حققت الجزائر فى المجال الداخلى كثيرا جدا من الانتصارات أمام المشكلات التى واجهتها بعد الاستقلال ، وكانت عزيمة الشعب قوية توفف فى كل ميدان

---

(١) صحيفة الأهرام يوم ٣١ يونيو ١٩٦٥ .

يناضل حتى قهر هذه المشكلات ، وحتى رفرف الخيرَ والاطمئنان والثراء على السكان .

وفى المجال العربى حملت الجزائر مسئولياتها بجدارة وثقة ، وقفت إبان هزيمة ١٩٦٧ قوة صامدة كما وقفت عند الانتصارات مشاركة مؤيدة ، ولم تبخل بمال أو دماء على معركتنا ضد العدو الصهيونى ، وكانت سياستها من الوسائل التى تجمع الشمل ، وتقوى العزم ، وتذيب الصعاب .

وفى المجال الدولى أصبح صوت الجزائر مجلجلا ، جريئا يعمل حسابه ، ويخطب وده ، وسارت سياسة الجزائر فى طريقها تعمل علي تحرير الدول التى تأخر تحريرها ، وكانت نموذجا طيبا أمام الشعوب التى تسعى لتحطم قيود الاستعمار ولتنال الحرية .

وفاة بومدين وانتخاب الشاذلى بن جديد :

فى أواخر سنة ١٩٧٨ مرض الرئيس هوارى بومدين فجأة ، وسرعان ما اشتد عليه المرض ، ثم أسلم الروح ، وانطوى بموته بطل كافح الاستعمار حتى انتصر، ثم كافح الاتجاهات للفرنسة التى كانت على وشك أن تشمل الجزائر ، وكان نجاح بومدين عظيما فى بث الروح العربية والإسلامية بين الجزائريين ، رحمه الله وأجزل ثوابه .

وفى مطلع عام ١٩٧٩ اختير العقيد الشاذلى بن جديد رئيسا للجمهورية الجزائرية ، وأدى اليمين الدستورية فى قصر الشعب يوم الجمعة التاسع من فبراير ، وقد دعونا له بكل التوفيق والسداد ليحقق لبلاده ما تتمناه من عز ورفاهية .

من الشاذلى بن جديد إلى بوضياف :

فى خلال عهد الشاذلى بن جديد الذى زاد عن اثنى عشر عاما طرأت على

الجزائر ظروف اقتصادية أليمة ، ظروف سياسية تدعو للحسرة وبين الضغط السياسى والاقتصادى قامت جبهة إسلامية أسمت نفسها جبهة الإنقاذ الإسلامية ، وكان الشعب محتاجا لمثل هذه الجبهة ، وعندما سمح للأحزاب بدخول الانتخابات بالجزائر لأول مرة فى ديسمبر سنة ١٩٩١ اكتسح هذا الحزب الإسلامى الميدان ونال أكثر الأصوات وأكثر الدوائر على الرغم من أن الحكومة هى التى كانت تدير الانتخابات ، وانصرف الشعب تماما عن الحكومة واتخذ الشعب جانبَ جبهة الإنقاذ فحصلت جبهة الانقاذ فى الجولة الأولى على ١٨٨ مقعدا وحصلت الحكومة على ١٦ مقعدا لا غير وكان ذلك بسبب الاتهامات والشبهات التى ثارت ضد الحكام.

ولكن الحكومة العسكرية لم تقبل هذه الهزيمة القاتلة ، فألغت نتائج الانتخابات ، وثار الرأى العام ، واستقال الشاذلى بن جديد أو أرغم على الاستقالة واعتذر عبد المالك بن جبليس وهو الشخص الذى كان يلى الشاذلى فى الرتبة أو الوضع السياسى فلم يقبل أن يتولى منصب رئيس الجمهورية فى هذه الفترة الحالكة وجئ برجل اسمه محمد بو ضياف ، كان من زعماء ثورة الاستقلال ولكنه أبعد عن البلاد وعن السلطة وراح يعيش فى المنفى منذ ٢٨ عاما وللأسف قبل أن يتحمل مسئولية فترة طويلة كان فيها طريدا وغائبا عن البلاد وفى عهده فتحت معتقلات للشبان ، وانتهى الرجل بأن أطلق عليه الرصاص وهو يلقى خطابا فى بلدة « عنابة » شرقى الجزائر بعد ستة أشهر من توليه منصبه ، ولم تستقر أصابع الاتهام على القاتل .

وينبغي أن نذكر أنه فى هذه المحنة لعبت الاتجاهات المختلفة بكلمة « الديمقراطية » فقد أعلنت السلطات الحاكمة بالجزائر أن إلغاء نتائج الانتخابات كان يرمى لحماية الديمقراطية ، وأعلنت جبهة الإنقاذ أن إلغاء نتائج الانتخابات كان ضربة للديمقراطية .

مسكينة كلمة «الديمقراطية» كأنّ الحكام المسلمين لا يعرفون حقيقة مدلولها .

على كافى رئيسا للجزائر :

وهناك مجلس أعلى للأمن يدير شئون البلاد ، بعد اغتيال بوضياف ، وقد أختار هذا المجلس « على كافى » رئيسا للمجلس الحاكم بالجزائر بعد بو ضياف.

واللهم نسأل أن توفق هذه البلاد الشقيقة لما يجلب لها ولشعبها الحرية والأمان .

ثالثاً

تــونــس

مقدمة :

للحديث عن تونس مقدمة نوضح بها حدود تونس فى التاريخ الإسلامى الوسيط ، وبخاصة فيما يتعلق بصلتها بليبيا الحالية .

تقدمَ الفتح الإسلامى من مصر فاستولى على برقة وطرابلس فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وكان يقصد بهذا الفتح تأمين سلامة مصر ، ومن ثم فقد جعلت هاتان المنطقتان تابعتين لولاية مصر . ولكن البيزنطيين أخذوا يجددون حصونهم على الساحل الإفريقي ويرسلون الجيوش لهذه الحصون مهددين المناطق الإسلامية بالزحف ، فاستقر رأى المسلمين - وكان الأمر قد آل إلى معاوية - أن يطرد الروم من الشمال الافريقى كله ، وتم للمسلمين ما أرادوا خلال العهد الأموى ، ولم يعد شمالى إفريقية تابعا لمصر بل أصبح ولاية خاصة يعين عليها والٍ من قبل الخليفة متخذا « القيروان » التى أنشأها عقبة بن نافع بتونس عاصمة له ، ولما آل هذا المنصب إلى موسى بن نصير كان يلقب « أمير القيروان » (1) .

وهكذا أصبحت القيروان عاصمة للشمال الافريقى كله ، فلما استقل الأدارسة وآل رستم بالجزء الغربى من الشمال الافريقى بقيت القيروان عاصمة لما تبقى من شمالى افريقية ، إلا أن ولاة مصر كانوا يتطلعون لبرقة على أنها امتداد للصحراء الغربية ، وكثيرا ما امتد لها سلطانهم ، وعلى هذا بقيت طرابلس وتونس تكونان إمارة واحدة فى أغلب فترات التاريخ ، وكان يطلق على هذه الإمارة « افريقية » وظلت القيروان عاصمة لها . وهكذا كان الأمر فى عهد الأغالبة والعبيديين وآل زيرى والموحدين وبنى حفص .

وكان أمير القيروان يعين من قبله واليا على طرابلس ، وقد بلغ الاهتمام بطرابلس مبلغا عظيما ، فكان ولاتها يختارون من خيرة الرجال ، وكانوا فى عهد الأغالبة يختارون من البيت الأغلبى نفسه غالبا ، وعلى هذا فحديثنا عن تونس فى هذه الفترة سيشمل الكلام عن طرابلس .

(1) المقرى : نفح الطيب ٢ : ١٣٢ وابن خلدون : العبر جـ ١ ص ١٠٨ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣١ وانظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة فى الصفحات ٩ ـ ١٢٢ .

على أن طرابلس أحيانا نزعت نفسها من تونس وحققت لنفسها استقلالا عاشت فيه فترة قصيرة أو طويلة ، وكثيرا ما عادت بعد هذه الحركات الانفصالية لتلتقى مرة أخري بتونس فى « إفريقية » بيد أنها ابتداء من عهد الأتراك العثمانيين أخذت فى الاستقلال عن تونس ، وسنتحدث عن فترات استقلالها عند حديثنا عن «ليبيا» فيما بعد .

وشملت تونس كذلك منطقة فزان فى بعض فترات التاريخ ، فامتد لها سلطان أمراء القيروان ، على أن منطقة فزان فى الغالب كانت تتبع نظاما قبليا لا يعرف الاستقرار ، وسنتحدث عنها عند حديثنا عن « ليبيا » .

والآن نبدأ حديثنا عن الأغالبة الذين حققوا أول حركة استقلالية فى «افريقية» :

الأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م :

تكونت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وظهر نفوذ بنى رستم فى المغرب الأوسط ، وخاف العباسيون على سلطانهم بإفريقية وبخاصة أنه بدأ يتزعزع عقب وفاة الوالي العباسى القدير يزيد بن حاتم المهلبى سنة ٧٠ [١] ، وفى وسط هذه الاضطرابات ظهر القائد إبراهيم بن الأغلب الذى استطاع أن يعيد للعباسيين سلطانهم على هذه البلاد ، وقد تقدم إليه السكان أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم ، فكتب إبراهيم إلي الرشيد فى ذلك على أن يستغنى إبراهيم عن المائة ألف دينار التى كانت تحمل من مصر إلي إفريقية كل عام ، وأن يحمل هو من إفريقية إلى بغداد أربعين ألفا ، وبلغ الرشيدَ غناؤه فى ذلك ، واستشار فيه أصحابه فأشاروا عليه به ، فكتب له بالعهد فقام إبراهيم بالولاية ، وضبط الأمور ، وسكنت البلاد بولايته ، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وظهرت فيها المبانى الشاهقة وألوان من النشاط العلمي والاقتصادى [٢]

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ من ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٩٦ ومروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٢٣٨ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا جـ٢ ص ٣ .

وقد تم الاتفاق على أن تكون هذه الولاية دائمة طيلة حياة إبراهيم ووراثية في أولاده ، على أن يتولى الخليفة فى بغداد اعتماد الولاة واحدا بعد الآخر ، وبدأت بذلك أسرة الأغالبة التى حققت لهذه المنطقة أول استقلال يكاد يكون تاما .

وفيما يلى قائمة ملوك الأغالبة :

إبراهيم (الأول) بن الأغلب	١٨٤ = ٨٠٠
عبد الله (الأول) بن إبراهيم	١٩٦ = ٨١١
زيادة الله (الأول) بن إبراهيم	٢٠١ = ٨١٦
الأغلب السعدى بن إبراهيم	٢٢٣ = ٨٣٧
محمد (الأول) بن الأغلب السعدى	٢٢٦ = ٨٤٠
أحمد بن (محمد الأول)	٢٤٢ = ٨٥٦
زيادة الله (الثانى) بن (محمد الأول)	٢٤٩ = ٨٦٣
محمد (الثانى) بن أحمد	٢٥٠ = ٨٦٤
إبراهيم (الثانى) بن أحمد	٢٦١ = ٨٧٤
عبد الله (الثانى) بن إبراهيم (الثانى)	٢٨٩ = ٩٠٢
زيادة الله (الثالث) بن عبد الله (الثانى)	٢٩٠ = ٩٠٣
	إلى ٢٩٦ = ٩٠٩ [١]

جهود الأغالبة فى الداخل وفتوحاتهم فى جزر البحر المتوسط :

وقد حقق الأغالبة نجاحا رائعا فى الداخل والخارج ، ففى الداخل كمل انتقال إفريقية إلى المحيط الإسلامى ، وطرحت إلى الأبد بقايا الدين المسيحى ، كما تم

(١) معجم الأنساب لزامباور جـ ص ١٠٦

انتشار اللغة العربية بها مكان اللغة اللاتينية واللغات المحلية ، التى كانت منتشرة قبل الأغالبة [1] .

واستطاع الأغالبة كذلك أن يقضوا على الفتن والقلاقل فى ربوع افريقية ، وأن يعيدوا إلى البلاد الأمن والاطمئنان ، وتم فى عهد الأغالبة امتزاج واسع بين العرب وبين السكان الأصليين بسبب المصاهرة ونشر الثقافة العربية والإسلامية ، ومما ينسب للأغالبة أنهم أدخلوا للشمال الافريقى فنون العمارة التى كانت معروفة فى دمشق وبغداد والقاهرة آنذاك ، وقد أنشأوا مدينة رقادة التى خلدها ابن هانئ فى شعره فيما بعد ، كما شيدوا بالمدن التى كانت موجودة كتونس والقيروان وطرابلس كثيرا من المبانى التى لاتزال آثارها باقية ، واهتم الأغالبة بالطرق والبريد والمواصلات ، وفى ظلهم ازدهر كثير من العلماء والباحثين والفنانين .

وفى الخارج ذاع صيت الأغالبة وأصبحوا مركز قوة هائلة بالشمال الإفريقى والبحر المتوسط . ويقول عنهم Stanley Lane - Poole [2] : إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطانا وطيدا فى البر ، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضا ، فكانوا سادته والمسيطرين على الملاحة فيه ، وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب فى سواحل فرنسا وايطاليا وكورسيكا ، واحتلت صقلية ومالطة وسردينية وبعض المدن الساحلية بفرنسا وإيطاليا ، وهددت ضواحى روما ، وسنرى فيما يلى أهم فتوحات الأغالبة فى البحر الابيض المتوسط وجنوب أوروبا :

صقلية : ٢١٢ - ٤٨٣ (٨٣٧ - ١٠٩٠) :

كانت صقلية خاضعة للإمبراطورية البيزنطية ، وقد شملها اضطراب وفوضى فى مطلع القرن التاسع الميلادى ففر منها أحد القادة البيزنطيين واتجه إلى افريقية وحسّن لحاكم إفريقية (زيادة الله بن إبراهيم) أن يفتح هذه الجزيرة ، وكانت بحرية الروم قد أغارت من صقلية على الساحل الافريقى ، فخربت بعض منازل

(١) أنظر. Hitti; History of the Arabs p. 458

(٢) . Muh. Dynasties pp. 36 - 37

المسلمين وألقت الرعب فى قلوبهم [1] ، وقد رأى زيادة الله أن الفرصة سانحة ليثأر للمسلمين ، فأعد حملة كبيرة بقيادة قاضى القضاة (الامام أسد بن الفرات) وأبحرت فى ربيع الأول سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ووصلت الحملة إلى الجزيرة فاستولت على مدينة مازورة ، ثم تقدمت فحاصرت سرقوسة حيث مات الإمام أسد وكثير من رجاله حول أسوارها ، فتولى القيادة محمد بن الجوارى الذى استطاع أن يقتحم الحصار ويدخل سرقوسة ، وتقدمت الحملة بقيادة زهير بن عوث الذى تولى القيادة بعد موت ابن الجوارى فاحتلت العاصمة (بلرم) وتهاوت مدن الجزيرة بعد ذلك فى أيدى المسلمين ، وأسندت ولاية الجزيرة إلى أمير أغلبى هو أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله .

وكانت مدنيّة المسلمين آنذاك فى أوج عظمتها ، فانسابت إلى الجزيرة ألوان الثقافة والفن من العالم الإسلامى ، وتعتبر صقلية لذلك مركزا هاما من مراكز نقل الفكر الإسلامى والعربى إلى الغرب ، وحظيت الجزيرة بتقدم زراعى باهر خلال العصر الإسلامى ، وقد جاء فى دائرة معارف لاروس ما يلى : [2]

أن صقلية مدينة للعرب بأسمى ما عرفته من تقدم زراعى ، فالقطن وقصب السكر والفستق وغيرها لم تعرفه الجزيرة إلا باحتلال العرب .

وقد زار ابن حوقل جزيرة صقلية فى أثناء حكم المسلمين لها وتحدث عن مساجدها الكثيرة ومدنيتها الراقية ، كما تحدث عن معلمى الصبيان ومؤدبيهم [3] .

وقد دام بقاء المسلمين فى صقلية حتى سنة ١٠٩٠ حيث اغتصبها النورمانديون . ولكن حضارة المسلمين بصقلية عاشت بعدهم زمنا طويلا ، وقد كان روجر الأول (المتوفى سنة ١١٠١) عربى المظهر ، اعتمد على المسلمين فى جيشه ، وشمل العلوم العربية برعايته ، وقرب الفلاسفة الشرقيين ، وقلد المسلمين فى التسامح الدينى ، فسمح لكل سكان صقلية بممارسة طقوسهم

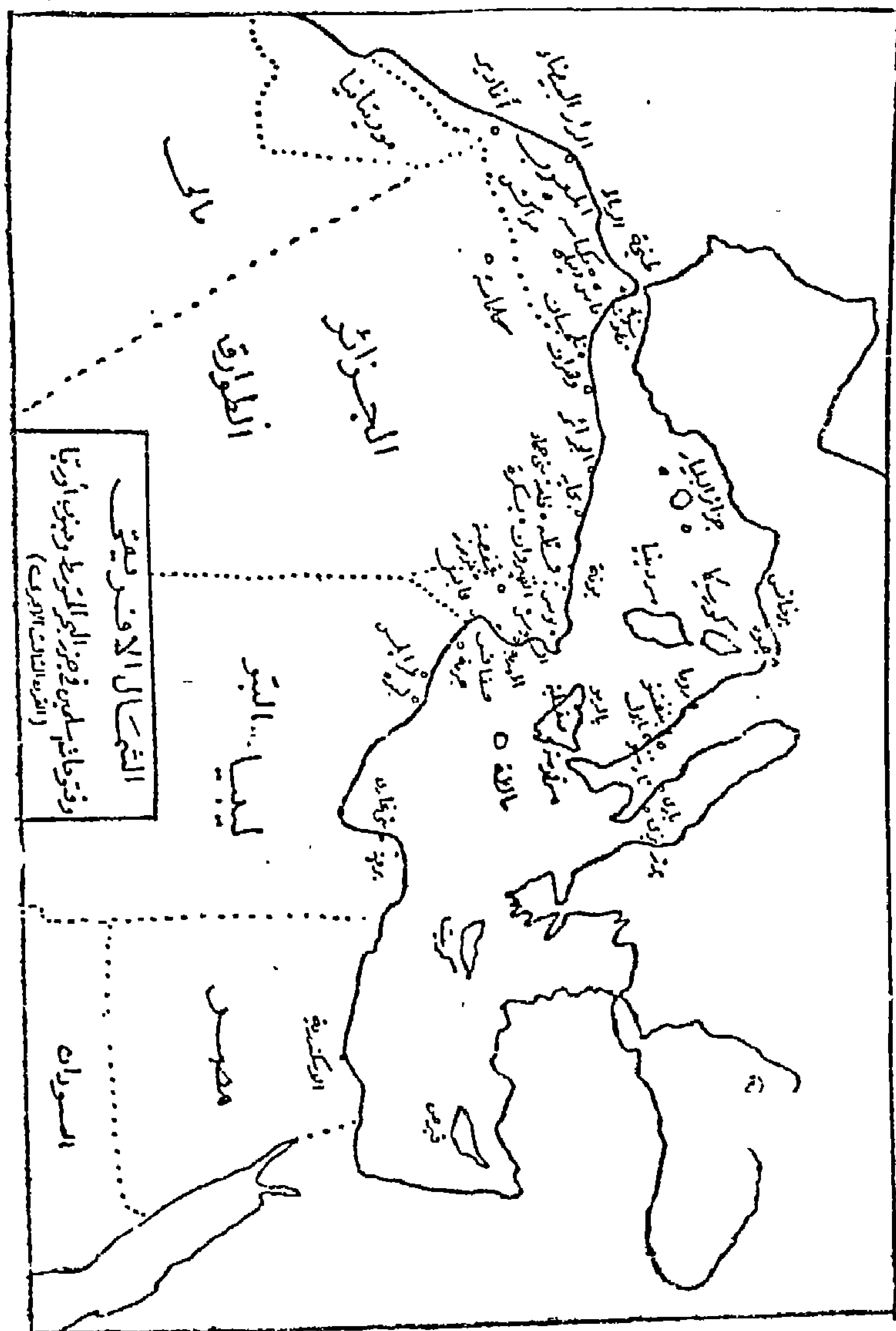
---

(١) ابن الاثير حوادث سنة ٢١٢ .

(٢) المجلد ٤ ص ٦٧٩ .

(٣) أنظر كتاب صورة الأرض ص ٢٦ ـ ١٣٠ .

الدينية بحرية تامة ، واحتفظ روجر بنظام الإدارة الاسلامى ، واستعان فى إدارة شئون الدولة بالموظفين المسلمين بحيث كان بلاطه فى بلرم شرقيا أكثر منه غربيا ، وبقيت صقلية إلى ما بعد هذا العهد بنحو قرن ،وهى فى وضع فذ نادر من حيث أنها كانت مملكة نصرانية أسندت فيها بعض الوظائف العليا إلى المسلمين (١)



(١) Hitti; History of the Arab p 720 .

وقد زار ابن جبير صقلية فى القرن الثانى عشر الميلادى فرأى الأزياء الإسلامية مستعملة شائعة ، فقد كان روجر الثانى يلبس الجبة المطرزة بالحروف العربية ، كما رأى ابن جبير النساء النصرانيات ترتدين أزياء المسلمات [1] .

جزر إسلامية أخرى بالبحر المتوسط :

توالت هجمات بنى الأغلب على جزر البحر الأبيض المتوسط منذ مطلع دولتهم ، وما جاءت سنة ٨٠٩ حتى نازعوا الفرنجة فى كورسيكا ونازعوا البيزنطيين فى سردينيا ، وابتداء من سنة ٨٢٥ مكنوا لمسلمى كريت فاستطاع هؤلاء - فى حماية بنى الأغلب - أن يكون لهم نفوذ بالجزيرة ، أما مالطة فقد بدأ هجوم الأغالبة عليها ابتداء من سنة ٨٢٤ وظلوا يهاجمونها حتى تم لهم النصر بها سنة ٨٦٩ ، وقد ظل لهم السلطان بالجزيرة حتى انتزعها الفاطميون منهم سنة ٩٠٩ ، واستمر ملك الفاطميين لمالطة حتى سنة ١٠٩٠ عندما أغتصبها النورمانديون .

المسلمون فى جنوب أوروبا :

شهد القرن التاسع والعاشر غارات ناجحة قام بها بنو الأغلب على جنوبى فرنسا وجنوبى إيطاليا ، وقد استطاع المسلمون أن يحتلوا ساحل بروفانس الفرنسى سنة ٨٩٠ وظلوا أصحاب النفوذ بهذا الساحل حتى سنة ٩٧٥ ، على أن أعظم ضغط بنى الأغلب كان ضد إيطاليا التى تعرضت لهجوم متصل من صقلية وتونس ، وقد فتح العرب برنديزى سنة ٨٣٦ ونابلى سنة ٨٣٧ وكالبريا سنة ٨٣٨ وتارنتو سنة ٨٤٠ وبارى سنة ٨٤١ وبنفنتو سنة ٨٤٢ وهوجمت روما سنة ٨٤٦ ونهب أسطول الفاطميين جنوة سنة ٩٣٤ على أن هذه الفتوحات لم تكن طويلة العمر ، ولعل أطول مدة قضاها المسلمون بإيطاليا هى احتلاهم لمدينة تارنتو الذى دام من ٨٤٠ إلى ٨٨٠ .

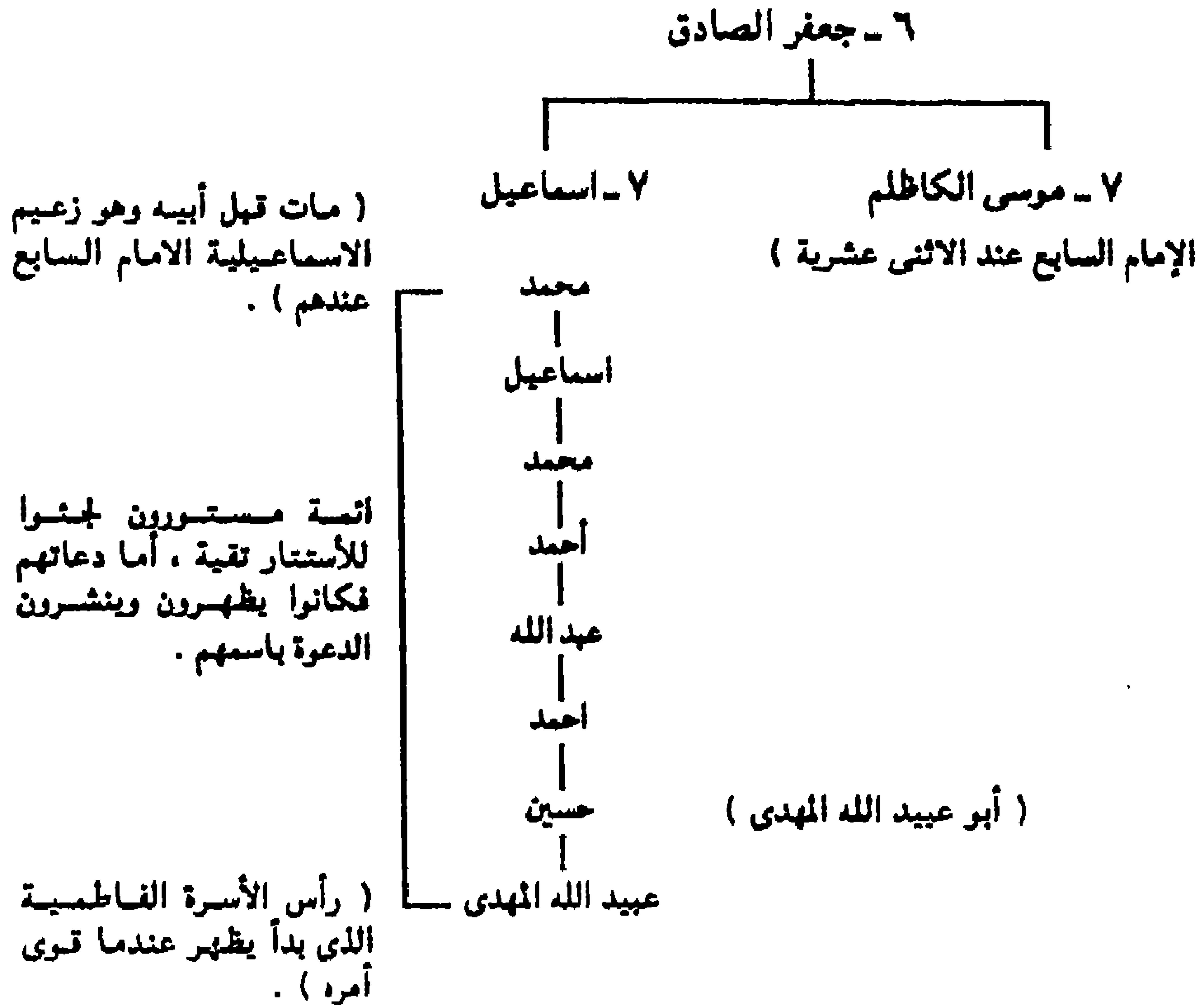
---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٣٣ .

الفاطميون فى شمالى افريقية

نسب الفاطميين :

أوردنا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة [1] قائمة بفروع الشيعة التى تسلسلت من على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن هذه القائمة تظهر صلة الفاطميين بإسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنسب إليه طائفة الإسماعيلية ، ونعيد هنا من هذه القائمة ما يتصل بنسب الفاطميين مع التذكير بأن أول هذه القائمة هو الإمام على كرم الله وجهه ، ويجئ بعده ابناه الحسن ، فالحسين ، ثم على زين العابدين ، فابنه الباقر :



(١) ص ١٦٨ من الطبعة السابعة .

وليس من الحقائق التاريخية المقطوع بها ربط الفاطميين بإسماعيل بن جعفر ، أو ربط الإسماعيلية الحالية بالفاطميين أو بإسماعيل بن جعفر هذا ، بل إن هناك من ينكر نسب الفاطميين ولا يراهم ينحدرون من فاطمة ، ويحاول هؤلاء أن يربطوا نسب الفاطميين بجد يهودى أو نصرانى .

وكان قد شاع ببغداد إنكار نسب الفاطميين ، وأراد الخليفة العباسى القادر (٣٨١ - ٤٣٢) أن ينتفع بهذه الإشاعة فى النضال السياسى بين العباسيين والعلويين ، فجمع جماعة من أئمة أهل السنة والشيعة حيث وقعوا على محضر سنة ٤٠٢ هـ يشهدون فيه أنهم سمعوا مما شاع وعرف وتواتر بين الناس أن الفاطميين لا يتصل نسبهم بعلى بن أبى طالب وإنما ينسبون إلى ديصان بن سعيد الخارجى (١) .

ومما ساعد على التشكيك فى نسب الفاطميين اتصالهم الذى لا ينكر بالإسماعيلية ولم يكن الإسماعيلية يستمتعون بسمعة طيبة ، ومن أجل هذا كان الطعن فى أية فكرة اسماعيلية يلاقى قبولا من الجمهور ، ومما ساعد على التشكيك كذلك فترة الستر التى اختفى فيها الأئمة وظهر الدعاة ، ولذلك لم يتفق المؤرخون الذين قالوا بصحة النسب ، على التسلسل بين جعفر الصادق وعبيد الله المهدى (٢) .

وكثير من الباحثين لا يقبلون الطعن فى نسب الفاطميين ، وينفرون من هذا التشكيك ، ويرون أن أسسه باطلة : وأنه ليس إلا من المناورات التى تدفع لها السياسة لا البحث العلمى الصحيح ، وقد أنكر هذا التشكيك من كبار المؤرخين ابن الأثير (٣) وابن خلدون (٤) والمقريزى (٥) ، واتخذ ابن خلدون هذا التشكيك مثالا من أمثلة الوهم التى يضل بها بعض المؤرخين فقال : ومن الأخبار الواهية

---

(١) انظر : أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٢) قارن التسلسل السابق بما اورده ابن خلدون فى الجزء فى الجزء الثالث من العبر ص ٣٦٠ .

(٣) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ١٧ .

(٤) العبر جـ ٣ ص ٣٦٠ وجـ ٤ ص ٣١ وما بعدها .

(٥) الخطط جـ ١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات فى العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة فى نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الامام بن جعفر الصادق ويعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا فى الشمات بعدوهم [1] .

ثم راح ابن خلدون بعد ذلك يفند هذا التشكيك الظالم :

وأول ما يذكره ابن خلدون هو الكتاب الذى أرسله المعتضد العباسى (٢٧٩ - ٢٨٩) إلى ابن الأغلب بالقيروان ، وابن مدرار بسجلماسة يأمر بالقبض على الثائر العلوى الذى سار من الشام إلى المغرب ، وقد تم القبض عليه فعلا وأودع السجن ولم يخرج منه إلا بعد أن تم النصر للداعى أبى عبد الله الشيعى كما سيأتى ، ففى هذا الكتاب اعتراف بأن الثائر علوى .

وثانى أدلة ابن خلدون تلك القصيدة الرائعة التى قالها الشريف الرضى ، وهو من خيرة العلماء والأدباء والنسابة ، وهو كذلك من المقطوع بنسبهم العلوى ، وقد جاء فى هذه القصيدة ما يلى :

ما مقامى على الهوان وعندى ... مِقـْوَلٌ صارم وأنف حمى ؟
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى ؟
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى ؟
لف عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعاً : محمد وعلى

وأما المحضر الذى وقعه الأئمة والأعلام فلا يقيم له ابن خلدون وزنا لأنه شهادة على السماع ، فهؤلاء شهدوا أنهم سمعوا .. والشهادة على السماع فى مثله جائزة ، وطبيعى أن هذه الشهادة لا تفيد عدم النسب إلا عند الجماهير التى لا تفكر ولا تبحث عناصر الموضوع ، فهؤلاء الأئمة لم يذكروا أنهم تأكدوا من عدم صحة النسب أو لم يذكروا النسب الذى يرونه صحيحا ، بل اكتفوا بقولهم

---

(١) مقدمة المقدمة .

أنهم سمعوا ، وذلك ليس دليلا ، هذا بالإضافة إلى أن هذا المحضر تم سنة ٤٠٢ هـ أى بعد أكثر من قرن على ظهور الفاطميين بالشمال الافريقى ، ولو كان الفاطميون كاذبين حقيقة لبادر أعداؤهم العباسيون يعلنون ذلك عند ظهور حركتهم فى أواخر القرن الثالث . ويقرر ابن خلدون أن طبيعة الوجود فى الانقياد إليهم وظهور كلمتهم أدل شئ على صحة نسبهم ، ويضيف قائلا : وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية أو النصرانية لميمون القداح وغيره فكفاه إثماً تعرضه لذلك [١] .

ولا يستساغ أن يكافح الدعاة هذا الكفاح القاسى ، وأن يبذل أبو عبد الله الشيعى كل هذا الجهد لتكوين دولة كبيرة بالعرق والدم ثم يسلمها إلى رجل يهودى أو نصرانى ، وكيف جاز أن يخفى هذا السر فى الشرق والغرب مع أن إيضاحه كان كافيا للقضاء على محاولات الفاطميين إقامة دولة لهم فى ميدان الشمال الافريقى ومصر .

الدعوة الفاطمية ووسائل نجاحها :

من المحقق أن دعاة الإسماعيلية كانوا يعملون بصبر وجلد لتنتشر دعوتهم فى ربوع الأرض وليسقطوا الخلافة العباسية ، وكانوا يتخذون من مشاهد كربلاء والنجف مراكز يتعرفون فيها على المتحمسين من شيعة آل البيت ليضيفوهم إلى موكب الدعاة ، كما كانوا يدركون أن فرص النجاح أقوى لو انتشرت آراؤهم بالأماكن النائية عن مركز الخلافة .

وهكذا كان اليمن وشمالى افريقية من أهم الأمكنة التى وجهوا لها عنايتهم ، فكان لهم باليمن داعية شهير اسمه أبو عبد الله الحسين بن أحمد وشهرته : أبو عبد الله الشيعى ، وكان لهم بالشمال الافريقى داع اسمه الحلوانى وآخر اسمه أبو سفيان ، ونجحت الدعوة فى المكانين ، غير أن الشمال الافريقى كان أهم للدعوة من جهة أنه يتمتع - بالإضافة إلى عزلته - بانفساحه واتصاله بمصر مما يجعل الأمل أفسح فيما يتعلق بمستقبل الدعوة ، وقد نجح أبو سفيان

(١) أنظر النص فى مقدمة ابن خلدون .

والحلواني نجاحا كبيرا ، وبعد وفاتهما اختير أبو عبد الله الشيعي ليواصل جهده هناك ، وكان أبو عبد الله عالما ذكيا لسنا ، مع تعصب للتشيع وإخلاص لآل البيت ، وسافر أبو عبد الله من اليمن للحج حيث التقى بمكة مع وفد من كتامة جاءوا من المغرب ، وطلبوا منه أن يصحبهم إلى بلادهم ليواصل دعوة أبى سفيان والحلواني ففعل ، وفى افريقية أعلن أبو عبد الله أنه يدعو إلى « أبى عبيد الله المهدى » من نسل على بن أبى طالب ، وأنه يقيم بالشام ، وقد نجحت دعوة أبى عبد الله بإفريقية نجاحا عظيما على الرغم مما واجهه من مشكلات ، وسرعان ما نقل دعوته من الكلام للعمل ، فأعد من كتامة جيشا عظيما ، زحف به على مدن إفريقية وأخذ يحتلها واحدة بعد واحدة ، وساعده على النجاح أن السلطان الأخير من أسرة الأغالبة زيادة الله الثالث كان قليل الكفاءة سيئ السلوك ، فلم يستطع أن يصمد أمام القوة الشيعية النامية بهذه البلاد ، فأفسح لها الطريق .

وفى خلال هذه الانتصارات مات أبو عبيد الله المهدى ، وقامت الدعوة لابنه عبيد الله المهدى ، ولكن سرعان ما أحس الخليفة العباسي (المكتفى) بالخطر ، وعرف أن عبيد الله المهدى هو مركز هذه الحركات ، فأرسل إلى واليه بالشام يطلب منه أن يقبض على عبيد الله الذى كان يقيم فى (سلمية) بالقرب من حماة ، ولما عرف عبيد الله هذا فر من سلمية متجها نحو المغرب ومعه ابنه أبو القاسم وخاصة مواليه ، وقد تزيا عبيد الله بزى التجار ، وعبر القاهرة واتجه إلى الاسكندرية فبرقة فطرابلس ، وكتب المعتضد لزيادة الله بن الأغلب ولابن مدرار يطلب منهما القبض علي هذا العلوى كما مر ، فبث هذان العيون وأصدروا التعليمات لولاتهما بالقبض عليه ، وقد نجا عبيد الله من أتباع زيادة الله بالتخفى أحيانا وبالرشوة أحيانا أخرى ، ولكنه فى النهاية وقع فى يد عامل سجلماسة الذى قبض عله وعلى ابنه وأودعهما السجن .

ولكن أمر أبى عبد الله الشيعى كان يزداد قوة ، وجيوشه توالى زحفها هنا وهناك ، ولم يستطع زيادة الله الأغلبى أن يقف فى وجهه ، فهوى جيشه وفر الأمير الأغلبى ، وتم النصر لأبى عبد الله الشيعى الذى أسرع إلى السجن فأخرج سيده وبايع إليه فى حفل كبير ، وكان أول ظهور عبيد الله بسجلماسة سنة ٢٩٦ ، ثم دخل رقادة سنة ٢٩٧ حيث تسلم مخلفات بنى الأغلب ، وبويع

عقب ذلك بيعة عامة بالقيروان ، وبدأت دولته في الظهور والاستقرار .

ويقال أن عبيد الله أوجس عقب ذلك خيفة من الداعى أبى عبد الله الشيعى ، ومن أخيه أبى العباس ، فقبض عليهما وأمر بقتلهما سنة ٢٩٧ ، ومثل هذا الحادث كثير الوقوع في التاريخ ، فمؤسس الدولة الحقيقى يرى لنفسه حقا يعارض أطماع من قامت الدعوة باسمه ، كما حدث بين المنصور العباسى وبين أبى مسلم الخراسانى ، أو بين المعز لدين الله الفاطمى وبين جوهر الصقلى مع تفاوت في النتائج بحسب الظروف .

وتولى عبيد الله المهدى زمام الأمور بالقيروان ، وكانت دول افريقية الثلاث آنذاك تتدهور أحوالها وتضعف قواها ، فورثها العبيديون جميعاً [١] . وقد بدءوا بتونس كما ذكرنا فأسقطوا ملك الأغالبة ، ومنه مدوا نفوذهم إلى الجزائر وأسقطوا ملك آل رستم ، فمراكش حيث قضوا على بقايا الأدارسة ، ودان لهم الشمال الافريقى كله ، وبنى عبيد الله المهدية سنة ٣٠٢ واتخذها عاصمة لملكه الكبير . كما اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين وإمام الملة [١]

وخلفاء الفاطميين بالشمال الإفريقي هم :

عبد الله المهـدي ٢٩٧ = ٩٠٩

أبو القاسم القائم بن المهدى ٣٢٢ = ٩٣٤

المنصور بن القائم ٣٣٤ = ٩٤٥ بني مدينة المنصورية واتخذها عاصمة له

المعز لدين الله ٣٤١ = ٩٥٢ [١]

(انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ = ٩٧٢ حيث سنواصل الكلام عنه عند حديثنا عن مصر فيما بعد) .

(١) يعرفون بالعبيديين نسبة إلى جدهم عبيد الله ، ويفضلون هم أن ينسبوا إلى فاطمة فيقال : فاطميون .

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبى جـ ٣ ص ٨٤ .

الفاطميون فى أفريقية :

ورث الفاطميون ملك الأغالبة وأسطولهم ، وبهذا استطاعوا أن يواصلوا نشاط الأغالبة بالبحر الأبيض المتوسط وأن يوسعوا نفوذهم فى الشمال ويتطلعوا إلى فتح مصر .

على أن الفاطميين فى شمالى أفريقية قابلوا عدداً من الثورات فى أمكنة مختلفة ، ومن أصعب الثورات التى قابلها الفاطميون تلك الثورة التى أشعلها أبو زيد مخلد بن كيداد الذى يلقب بصاحب الحمار ، وكان يتخذ جبال أوراس مركزاً له ، وقد تبعه كثير من المغاربة وبخاصة من الخوارج الذين كانوا لا يرون رأى الشيعة فى الاعتقاد ، وقد بدأت هذه الثورة سنة ٣٢٦ هـ على أثر تعليمات أصدرها الخليفة أبو القاسم القائم بسب الصحابة [٢] وظلت هذه الثورة عشر سنوات فاشترك فى مقاومتها الخليفة القائم وابنه الخليفة المنصور ، ويروى أنه لما مات القائم أخفى المنصور موته حتى لا يتقاعس جنده ، وقد كسب الفاطميون الحرب فى النهاية ، ولكن بعد أن كبدتهم كثيراً من الخسائر فى الأرواح والأموال .

ولم يتمكن الفاطميون من نشر التشيع فى شمالى إفريقية لأن الحرب التى أشرنا إليها آنفاً علمتهم أن استقرارهم السياسى يتوقف على تنازلهم عن بعض معتقداتهم المذهبية ، فآثر الفاطميون السلامة ، وقللوا تحمسهم المذهبى ، وكان هذا مما دعاهم إلى نوع من الاعتدال الذى ظهر عليهم عندما دخلوا مصر ، وبخاصة أنهم قابلوا فى مصر جماعات مثقفة ظهر أنها لن تتقبل بسهولة مزاعم الشيعة التى كانت تنشط فى بعض الأحيان .

زحف الفاطميين إلى مصر :

تطلع الفاطميون منذ سنيهم الأولى إلى مصر ، ولم تكد تظهر دولتهم بشمالى أفريقية حتى أخذوا يعدون العدة للزحف إلى المشرق ، والإستيلاء على وادى

---

(١) زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ١٤ .

(٢) أنظر تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٨٤ .

النيل الخصب ذى الحضارة العتيدة . وساعدهم على ذلك أن مصر كانت تمر بمرحلة من الفوضى والاضطراب خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ (٩٠٦) وقيام الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ (٩٣٥) إذ عادت مصر خلال هذه الفترة إلى سلطان العباسيين المباشر وكان العباسيون آنذاك يمرون بفترة قاتمة انعكست على كل البلاد التابعة لهم .

وفى خلال هذه الفترة قام الفاطميون بمحاولات ثلاث لاقتحام مصر ، كانت الأولى سنة ٣٠١ (٩١٣) بقيادة أبى القاسم بن عبيد الله المهدي يعاونه حباسة بن يوسف ، واستطاعت أن تستولى على برقة والاسكندرية ، ولكن الخلافة العباسية دافعت عن مصر دفاعاً صارماً فأرسل الخليفة المقتدر مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير أنزل الهزيمة بالجيش الفاطمى وأعاده إلى المغرب [١] . وكانت الحملة الثانية بقيادة أبى القاسم أيضاً سنة ٣٠٧ وكان الزحف بجيش برىّ تعاونه بعض السفن الحربية التى ورثها الفاطميون من الأغالبة ، واستولت هذه الحملة على الاسكندرية ولكن مؤنسا الخادم جاء لمصر مرة أخرى فانتصر على المهاجمين وأرغمهم على الجلاء عن الاسكندرية [٢] ، وجاءت الحملة الثالثة سنة ٣٢١ ورحب بعض المصريين بها فراراً من الفوضى التى كانت تعانيها مصر ، فاستطاعت أن تدخل الإسكندرية وتستقر بها ثلاث سنوات ، ولم يجد الخليفة العباسى بدأ من أن يكل مصر إلى والٍ قوى يستقر بها على أن تكون له وأولاده ، فاختار لذلك الاخشيد سنة ٣٢٣ واستطاع الاخشيد أن يرد الفاطميين [٣] وأن يهب مصر نوعاً من الاستقرار والهدوء أرغم الفاطميين على إيقاف زحفهم على مصر ، وتأجيل أطماعهم فى ضمه لدولتهم .

ومما ساعد على توقف الزحف الفاطمى على مصر قيام ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد التى سبق أن تحدثنا عنها والتى استمرت عشر سنوات (٣٢٦ - ٣٣٦) أكلت خلالها كثيرا من الرجال وابتلعت أموال الدولة وكان لابدّ من فترة هدوء بعدها لإصلاح الأحوال وإعادة بناء الدولة وتكوين الجيش .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤١ والخطط جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٢٧٧ - ٢٨٧ ووفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٩ .

وآلت الخلافة الفاطمية إلى المعز لدين الله سنة ٣٤١ وتجمعت الظروف التى توحى بإمكان النصر لو حاول الفاطميون من جديد زحفهم إلى مصر ، وكانت شخصية المعز هى مفتاح النصر ، فقد كان واسع الثقافة يعرف كثيرا من اللغات ، شديد الولع بالعلم والأدب ، كما كان حسن التدبير مهيب الجانب (١) .

وكانت الخلافة الفاطمية في عهد المعز قد استعادت أنفاسها بعد أن زالت الآثار التي سببتها ثورة أبي يزيد ، وأعادت البلاد الي الاستقرار والرخاء واستطاعت الخلافة في عهد المعز أن تمتد غربا حتي وصلت المحيط الاطلسي وقضت على بقايا الأدارسة وعلي سلطان القبائل الذي كان قد انتشر بمراكش علي إثر ضعف الأدارسة وكانت جيوش الخلافة الزاحفة الي الغرب يقودها جوهر الصقلي الذي أرسل الي مولاه المعز هدية من سمك المحيط الاطلسى إيذانا ببلوغ نفوذه شاطيء البحر (٢) .

وهكذا أمن الخليفة ظهره فاتجه بكل قواه تجاه الشرق وساعده علي ذلك أن الدولة الإخشيدية كانت قد انقرضت وأن أمور القاهرة كانت في اضطراب واضح وأن الضعف العباسي كان بارزا لن يستطيع أن يهدىء الاضطراب أو أن يرد عن مصر جيوش الطامعين وكان من آثار هذا الاضطراب أن كتب بعض المصريين الي المعز يرحبون بالتقاء مصر بإفريقية تحت سلطانه وغادر مصر الي افريقية يعقوب بن كلس الذي كان وزيرا لكافور ، فأغرى المعز بفتح مصر وجَعْلها مركز سلطانه (٣) فأخذ المعز يعد العدة لهذه الجولة فأنشا الطرق وحفر الآبار . وأعد العتاد والزاد والرجال الأشداء ، وجعل علي رأس جيشه كاتبه جوهر الصقلي الذي بدأ الزحف في الرابع عشر من شهر ربيع الأولي سنة ٣٥٨ ، وسرعان ما استولي علي برقة ، ثم استولي علي الاسكندرية بدون مقاومة ، وفى الاسكندرية تمت المفاوضة بين جعفر بن الفرات نائبا عن شعب مصر وبين جوهر الصقلى ، وانتهت المفاوضة بالترحيب بالجيش الزاحف على أن يضمن جوهر للمصريين حرية العقيدة

---

(١) وفيات الأعيان :جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١

(٣) يراجع هذا العهد فى المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ ـ ٧٨ وأقرأ ابن خلكان جـ ٢ ص ١١٨ ـ ١٣٠ .

، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس وضمن الاستقرار الداخلي والدفاع عن البلاد ضد أي عدوان خارجى ودخلت مصر بذلك في ظل الفاطميين .

المعز لدين الله يتجه الي مصر :

واتجه جوهر الي الاصلاح الداخلي ، ومن أبرز منشآته بناء الأزهر الشريف ومدينة القاهرة التى بناها في منطقة العواصم الاسلامية والفرعونية [1] ، وما إن انتهى جوهر من دعم ملك الفاطميين أرسل الى مولاه بذلك ، فانتقل الخليفة الى مصر ومعه أسرته وخدمه وأتباعه وأمواله وجثث آبائه الخلفاء الذين ماتوا في افريقية ودخل المعز القاهرة سنة ٣٦٢ وخرّ لله ساجدا علي هذا الفتح العظيم ، وسنوقف الآن حديثنا عن الفاطميين في مصر لنستأنفه فيما بعد عند الكلام عن مصر وسوريا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ونستمر في حديثنا الآن عن الشمال الافريقى بعد انتقال مركز الخلافة الفاطمية الى القاهرة .

---

(١) من أجل هذا عارض كثير من الباحثين الاتجاه الى الاحتفال سنة ١٣٥٩ هـ بمرور ألف سنة على إنشاء القاهرة لالحقيقة أن القاهرة الآن ملتقى عواصم مصرية عديدة بعضها اسلامى كالفسطاط والعسكر والقطائع وبعضها فرعونى كمنف أو منفيس على النيل ، وهى تمتد من الفسطاط الحالية الى موقع أبى الهول ومن بقاياها ميت رهينة .

(التاريخ الإسلامى جـ ٤ م ٢٢)

إفريقية بعد انتقال المعز لمصر :

كان خلفاء الفاطميين ينوون الاحتفاظ بمنطقة « افريقية » تابعة لهم فاستعمل المعز بلكين بن زيرى الصنهاجى واليا عليها ، ولكن سرعان ما قامت حركة استقلالية بمراكش قوامها القبائل التي استقلت بمكناسة ومغراوة وغيرها وتم سلطان آل زيرى فيما تبقى من الشمال الافريقى ، ثم انقسمت هذه الأسرة الحاكمة الي فرعين ، فرع بنى حماد فى الجزائر وينسب هذا الفرع إلى حماد بن بلكين بن زيري ، وفرع المنصور بن زيري الذي بقي يحكم من المنصورية عاصمة الفاطميين بالشمال الإفريقى ، واتجة الفرعان خطوة خطوة إلى الاستقلال ، بل اتجها - أكثر من ذلك - إلى التخلص من الشيعة وإعادة ربط بلادهم ببنى العباس فى بغداد كما سبق القول ، واتجهت حكومة الفاطميين الي تحدّى آل زيري وبخاصة في تونس إذ أن تونس متاخمة لمصر لأنها كانت تشمل طرابلس المجاورة لبرقة التي كانت تعد جزءا من مصر ، ثم إن تونس كانت مقرا للخلافة الفاطمية عدة سنوات قبل فتح مصر وبها عاصمتان هامتان سميتا باسم خليفتين من خلفاء الفاطمين ، وهاتان العاصمتان هما المهدية والمنصورية ، ومن أجل هذا ظل الفاطميون متمسكين بسلطانهم علي « افريقية » وكان لهم النصر في أكثرها وعلي كل حال فما جاءت سنة ٤٣٥ حتي اجتاحت « افريقية » ثورة ضد المذهب الشيعي ، وبدأ السكان يعودون الي المذهب المالكي ، وفي سنة ٤٤٠ كان هذا الاتجاه قد قوي فأبطلت الخطبة للفاطميين وأقيمت الخطبة لبني العباس ، وفي سنة ٤٤٣ أعلنت برقة أيضا هذا الاتجاه [1] واعتبر هذا تهديدا لملك الفاطميين ، فكتب الخليفة المستنصر الفاطمي للمعز بن باديس يتودده ويتهدده ، وكان مما جاء من رسالة المستنصر للمعز : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ... ؟ ولكن رد المعز بن باديس كان جافاً وشديداً [2] فاستشاط الخليفة الفاطمى غضبا واستشار وزيره أبا محمد اليازوردي فيما يمكن أن يفعلة فأشار عليه باصطناع القبائل العربية من بني سليم وبني هلال الذين كانوا يعيشون غير مستقرين بصعيد مصر ، شرقي نهر النيل ، فوافق علي ذلك ، وأرسل وزيره

(١) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

اليهم بينبئهم بأن لهم عمالة افريقية ، وأن الخليفة قلدهم أمرها ، وأرضخ الخليفة للأمراء العطاء ، ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل منهم ، قال لهم أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى ، فطمعت العرب في ذلك وجاوزوا النيل الي برقة سنة ٤٤٤ ونزلوا بها واقتحموا أمصارها واستباحوها وكان عددهم أربعمائة ألف [١] .

ويعلق الدكتور حسن سليمان [٢] على هذا الحادث بقوله أنه كان انتقاما شنيعا قام به الخليفة الفاطمي ضد المعز بن باديس ، وقد حاربه العرب حربا لا هوادة فيها وأنزلوا به الهزائم عدة مرات ، كما أن هؤلاء الغزاة أحدثوا انقلابا كبيرا في شمالى افريقية من حيث الاقتصاد والسياسة والسلالات ، فقد استعربت البلاد ، وغلبت عليها البداوة ، واضطرب الأمن ، وتقوض سلطان الحكومة المركزية . وسقطت بعض المدن الكبيرة فى يد العرب ، واستقلت غيرها بأمر نفسها يحكمها أمراء من أهل البلاد ، أو عمال جهروا باستقلالهم .

وقد ارتدع بعض أمراء آل زيرى من هذا الحادث فعادوا للاعتراف بخلفاء القاهرة ، ومن هؤلاء يحيي بن تميم ثم ابنه على . ولكن سلطان الفاطميين علي كل حال كان ضئيلا على الشمال الافريقى منذ نزحوا إلى مصر ، ولذلك يعتبر المؤرخون أن آل زيرى كانوا هم الحكام الحقيقيين لهذه البلاد بعد الفاطميين ، ومن أجل هذا ننتقل من الحديث عن الفاطميين لنسجل كلمة قصيرة عن آل زيرى .

آل زيرى ٣٦٢ - ٥٤٣ = ٩٧٢ - ١١٤٨ :

عندما أزمع الخليفة المعز لدين الله أن يرحل الى مصر استشار خاصته فيمن يوليه علي الشمال الافريقي ، وانتهت المشاورة باختيار بلكين بن زيري ، وهو من قبيلة صنهاجة التي ينتهي نسبها الي حمير وقد أسند المعز اليه ولايه افريقية وأوصاه [٣] ، واستثني من ولايته طرابلس وسرت برقة حيث ألحقها

(١) ابن خلدون : العبر ٦ ص ١٢ والنائب الأنصارى جـ ١ ص ١١٦ .

(٢) ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٩.

(٣) اقرأ هذه الوصية فى ابن خلكان جـ ١ ص ٩٣ .

بحكم مصر وولي عليهاعبد الله بن يخلف الكتامي الذي اتخذ طرابلس مقرا له وفي عهد العزيز بن المعز أرسل له بلكين هدية ثمينة سنة ٣٦٧ هـ وطلب منه أن يضم إلى إمارته المقاطعات الثلاث . فاستجاب العزيز لذلك واستدعي عبد الله الكتامي وأخذ بلكين يولي عليها من عنده ، وكان أول ولاته عليها عوصلة بن بكار .

وأمراء آل زيرى هم :

يوسف بلكين بن زيرى	٣٦٢ =٩٧٢
منصور بن يوسف	٣٧٣ = ٩٨٣
باديس بن منصور	٣٨٦ = ٩٩٦
المعز بن باديس	٤٠٨ = ١٠١٧
تميم بن المعز	٤٥٣ = ١٠٦١
يحيى بن تميم	٥٠١ = ١١٠٧
على بن يحيى	٥٠٩ = ١١١٥
حسن بن على	٥١٥ = ١١٢١
	الى ٥٤٣ = ١١٤٨ [١] .

وضعف شأن آل زيرى بسبب خلافاتهم مع الفاطميين وحروبهم مع بنى هلال وبني سليم كما مر ، ومما أضعف آل زيرى بشمالى افريقية أيضا أن قوة النورمانديين [٢] بدأت تنمو وتهدد سلطان المسلمين ، كما استطاعوا أن يستولوا على بعض مدن الشمال الافريقى كالمهدية وتونس وطرابلس ، وفى الوقت نفسة بدأت قوة الموحدين في النشاط بالشمال الإفريقى كله ، مما أذن بنهاية آل زيرى

---

(١) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٠٩ .

(٢) النورمانديون قوم جاءوا من شمالى أوربا فى القرن التاسع واجتاحوا بلاد فرنسا وانجليرا وظهروا أمام القططنطينية وأسسوا إمارات فى جنوب إيطاليا وصقليه و وينسب لهم أقليم النورماندى فى شمال غرب فرنسا .

الموحدون :

سبق أن تكلمنا عن الموحدين وأبنآ أنهم مدوا نشاطهم حتي تاخم حدود مصر شرقا وأشرف علي المحيط الاطلسي غربا ، فكانت تونس إحدى ،مناطق سلطانهم الفسيح ، ولكن ثار عليهم ثائر اسمه يحيى بن غانية ينتمي الي المرابطين (غانية جدة يحيي وهي احدي أميرات المرابطين) سنة ١١٩٠ وجرت بينه وبين الموحدين حروب انتهت بهزيمته سنة ١٢٠٧ ، وكان ذلك من الاسباب التى جعلت الموحدين يلجأون الى بطل من أبطال دولتهم لتكون له ولاية تونس ليحميها من أمثال هذه الحركات ، وهذا البطل هو عبد الواحد بن أبى حفص جد الاسرة الحفصية التى سنتحدث عنها فيما يلى [1]

بنو حفص : (٦٢٥ ـ ٩٤١ هـ = ١٢٢٨ ـ ١٥٣٤ م) :

إن بنى حفص جديرون بكلمة أطول ، لأن رقعة ملكهم امتدت على مساحة أوسع من سواهم ، ولأنهم حملوا لقب الخلافة ، واعتبرو أنفسهم ورثة الموحدين .

ويُنسب بنو حفص الى الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى من قبيلة هنتاتة ، وقد كان هو وبنوه من خيرة رجال الموحدين ، فكان بينهم الوزراء وعندما هبت ثورة ابن غانية فى تونس قاد الخليفة الناصر جيشا عظيما لمحاربة هذا الثائر ، واصطحب معه قائدا من قواده الابطال هو عبد الواحد ابن أبى حفص ليساعده فى تحقيق هذا الهدف ، وقد أبلى عبد الواحد فى ذلك بلاء حسنا حتى انتهت هذه الحروب بهزيمة ابن غانية سنة ١٢٠٧ م كما ذكرنا آنفا .

واتجه الخليفة الناصر الى عبد الواحد بن أبى حفص فعينه والياً على تونس ليحميها من الحركات المعارضة للموحدين واستطاع عبد الواحد أن يحكم تونس بمهارة وحكمة ، وأن يؤمنها من كل الثورات حتى مات سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

وبعد عبد الواحد عيَّن الموحدون على تونس ولاة من الأسر الحاكمة فلما جاء عهد الخليفة العادل الموحدى عاد هذا الى أبناء عبد الواحد ابن أبى حفص فعين

(١) أنظر العبر لابن خلدون جـ ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها .

منهم والياً على تونس وكان اسمه « عبّو » .

وبدأ الضعف في أوصال الموحدين ، ووصل الخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة إلي درجة شديدة ، حتي صار هناك خليفتان من الموحدين فى آن واحد هما المعتصم والمأمون ، حوالى نهاية الربع الثانى من القرن السابع الهجرى .

وهنا قفز من الحفصيين بطل اسمه « أبو زكريا » وهو أخو الوالي « عبّو » فاستغل لصالحة الشخصي خلافات الموحدين ، وبايع للمأمون سنة ٦٢٥ هـ ، وباسمه استطاع أن يتغلب علي أخيه عبو ويأخذ منه ولايه تونس .

وباستيلاء أبى زكريا على ولايه تونس سنة ٦٥٢ يبدأ عهد الدولة الحفصية فإنه سرعان ما تطلع للاستقلال ، وخطا نحوه فرفض العمال الذين أرسلهم الخليفة الموحدي المأمون ثم خطا خطوة أخري ، فأعلن عدم تبعيته لدولة الموحدين

واتجه أبو زكريا الي توسيع حدود إمارته شرقا وغربا فمد سلطانه من مقره في طرابلس إلى قسنطينة وبجاية والجزائر وتلمسان ، وعدة مناطق أخري ، كما ذاع صيته في المغرب والاندلس في القرن السابع الهجري وجاءته وفودُ عدة بلدان تحمل له البيعة ، ويحفظ لنا الشعر العربي وثيقة تبين أنه كان ملاذ المسلمين إذا نزلت بهم نازلة ، فعندما حاصر الفرنجة مدينة بلنسية بالأندلس هتف شاعرها بالأمير الحفصى قائلا :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست

فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وقد استجاب الأمير أبو زكريا لهتاف الشاعر ، وأرسل أسطولا حافلا بالطعام والسلاح والرجال ، ولكن حصار بلنسبة كان محكما فوصلها الأسطول وهي تستسلم ، فلم يتمكن قائده من إنقاذها [١] .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣٨٣ وما بعدها .

ويعتبر الأمير أبو زكريا الحفصي واحدا من الشخصيات البارزة في القرن السابع الهجرى ، كما يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الحفصية ، وإن كان قد اكتفى بلقب الأمير ولم يتلقب بلقب الخلافة .

وتوفي أبو زكريا سنة ٦٤٧ هـ ، وقد دعم أركان الدولة الحفصية ليأتي من بعده ابنه الأمير المستنصر والموحدون على وشك السقوط فأعلن سنة ٦٥٠هـ أنه أصبح خليفة المسلمين ، وكان قريب الشبه بأبيه من حيث سياسته وعدله وتعتبر مدة حكمه فترة ازدهار للدولة الحفصية و فى عهد المستنصر هذا تعرضت تونس للحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ، وقد سبق أن تكلمنا عنها .

ويتحدث ابن خلدون [١] عن الآثار التي أظهرها المستنصر فيذكر منها بناءه للمصيد بناحية بنزرت ويصف كيفية الصيد فيه وموكب الصائدين الذي كان يضم البازات والصقور والكلاب السلوقية والفهود المدربة على الصيد ومن آثاره إيوانه الذي يعتبر من أفخم الإيوانات .

ومن الآثار التي تدل علي عظم مكانة الدولة الحفصية الحنايا التي كانت توصل المياه الى البساتين وتستفيد مدينة تونس من جزء من مياهها .كما يقدم لنا ابن خلدون وصفا رائعا لبستان أبى فهد أحد هذه البساتين ، ويذكر أنه كان آيه من آيات الجمال فى المغرب .

وقد اهتمت الدولة الحفصية فى عهد المستنصر بالمدارس ، وكان من مدارس ذلك العهد مدرسة السيدة « عطف » أم الخليفة الحفصي المستنصر وقد أمرت ببنائها وأسمتها المدرسة التوفيقية وألحقتها بالمسجد الذي شيدتة ، وأطلق عليه اسم جامع التوفيق [٢] .

ومن الإصلاحات المالية التى نفذت فى أوائل عهد الدولة الحفصية ما ذكره ابن خلدون [٣] من استحداث عملة جديدة اسمها « الحندوس » سكت من

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٢٨٢ .

(٢) انظر ابن دينار المؤنس ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٨ ص ٢٨٨ .

النحاس بقيمه العمله الفضيه التي كانت متداوله انذاك والتي لحقها الغش من قبل اليهود القائمين بصرفها وسكها وكان غرض الدولة من سك هذه العملة كذلك التسهيل علي الناس في المعاملات .

واستمر حكام الدولة الحفصية يحملون لقب الخلافة حتى آخر أيامهم ، وقد قلنا إنهم كانوا يطمعون فى الاستيلاء علي مكانة الموحدين ويعدون أنفسهم ورثتها ، ولكن بنى زيان الذين آل لهم السلطان بالجزائر وقفوا فى طريقهم مما سبب حروبا عنيفة بين القوتين سبق أن تحدثنا عنها [1] ثم إن بنى مرين ورثوا عاصمة الموحدين فنافسوا بنى حفص فى أمنيتهم في التسلط على الشمال الإفريقي كله ونجحوا فترة من الزمن إذ مدوا سلطانهم الى تونس سنة ٧٤٧ (١٣٤٦) وظل لهم السلطان بضع سنوات كان حكام بني حفص خلالها يعترفون لبنى مرين بالسيادة [2] .

ويلاحظ في تاريخ بنى حفص كثرة الخلافات والانقسامات بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، كما يلاحظ خضوع بعضهم أحيانا للملوك المسيحيين ، وفيما يلى قائمة ملوك بنى حفص :

أبو زكريا يحيى (أول)	٦٢٨ = ١٢٢٨
أبو عبد الله محمد (المستنصر الأول)	٦٤٧ = ١٢٤٩
أبو زكريا يحيى (الثانى)	٦٧٥ = ١٢٧٧
أبو إسحق إبراهيم	٦٧٨ = ١٢٨٩
أبو حفص عمر (المستنصر الثانى)	٦٨٣ = ١٢٨٤
أبو عبد الله محمد (الثانى)	٦٩٤ = ١٢٩٥
أبو بكر (الأول) شديد	٧٠٩ = ١٣٠٩

(١) انظر تفاصيلها فى ابن خلدون جـ ٨ ٨١

(٢) ابن خلدون : الرجع السابق ١٨٢

أبو البقا خالد (الأول)	٧٠٩ = ١٣٠٩
أبو يحيى زكريا	٧١١ = ١٣١١
أبو ضربة محمد (الثالث)	٧١٧ = ١٣١٧
أبو يحيى أبو بكر (الثانى)	٧١٨ = ١٣١٨
أبو حفص عمر (الثانى)	٧٤٧ = ١٣٤٦
أبو عباس أحمد (الأول)	٧٥٠ = ١٣٤٩
أبو إسحاق إبراهيم (الثانى)	٧٨١ = ١٣٥٠
أبو البقا خالد (الثانى)	٧٧٠ = ١٣٦٨
أبو العباس أحمد (الثانى)	٧٧٢ = ١٣٧٠
أبو فارس عبد العزيز	٧٩٦ = ١٣٩٤
محمد (الرابع)	٨٣٧ = ١٤٣٣
أبو عمر عثمان	٨٣٩ = ١٤٣٥
أبو زكريا يحيى (الثالث)	٨٩٣ = ١٤٨٨
أبو عبد الله (الخامس)	٨٩٩ = ١٤٩٣
أبو محمد الحسن	٩٣٢ = ١٥٢٥
إلى	٩٤١ = ١٥٣٤

فى هذه الفترة كانت طرابلس هى قاعدة امارة « إفريقية » بدلا من تونس كما سيأتى .

وأزهى عصور بنى حفص هو عصر أبي زكريا وعصر ابنه المستنصر ثم عصر أبى العباس أحمد ، وعصر ابنه (أبو فارس عبد العزيز) الذي استراح الناس إلي حكمه الطويل إذ بلغت مدة حكمه أكثر من إحدى وأربعين سنة ولعل في طول المدة التى قضاها أبو العباس أحمد وابنه أبو فارس عبد العزيز - والتى بلغت حوالي ستة وستين عاماً - ما يكشف عن هدوء الدولة في ذلك الوقت ، ويصف ابن أبى دينار أبا العباس بأنه كان شجاعاً ديناً عاقلاً صفوحاً . كما ذكر

عنه أنه هو الذي شيد رسوم بنى حفص بعد اندراسها ، وأقام منار بني حفص فى الخلافة ودعم أساسها [1] .

ويصف صاحب المؤنس أبا فارس بأنه واسطة بنى حفص ، وأنه الذي أكمل ما بدأ أبوه من تقدم وعمران ، وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر فى خلافتهم النقص ، ومما يدل على عظم مكانة الخليفة اهتمامه بالعلم والكتب وإنشاؤه مكتبة ضمت العديد من أمهات الكتب ، وقد أوقف هذه المكتبة علي طلبة العلم ينتفعون بها ، وقد رتب لهذه المكتبة موظفين يناولون الطلاب ما يريدونه من كتب ، وكانت هذه المكتبة تفتح يومياً فى أوقات معينة .

ويتهاوي مستوي الحكام الحفصيين بعد ذلك لكثرة الخلافات بين أبناء الأسرة ولكثرة الثورات ضد الحاكم ، وفي عهد أبى محمد الحسن الذى بويع في ربيع الثانى سنة ٩٣٢ هـ زاد الأمر سوءاً ، وخرجت عن طاعته عدة مدن ، وكان الأتراك يجاورونه على حدود بلاده الغربية ، إذ كانوا قد مدوا سلطانهم حتي قسنطينة ، وانتهز الأعراب فرصة الاضطراب فعاثوا فساداً بالبلاد ، واستعان الحسن بالأسبان ليثبت ملكه ، وانتهز الأسبان هذه الفرصة فأنزلوا بالناس ألواناً من الهوان ، واضطر ابن الحسن أن يثور علي أبيه لهذا الموقف ، والتف كثير من الناس حول الابن ونشبت معركة بين الابن والتونسيين من جهة ، والأب والأسبان من جهة أخري ، وقد قبض على الأب الخائن وكان جزاؤه سمل عينيه ، ولعل البيت الذي أنشده ذلك الخليفة بعد خلعه لما استخف به الناس هو خير دليل علي ما وصلت إليه حالة الدولة الحفصية إذ نراه ينشد متمثلاً :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشي الأرانبا

وقام الأسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١ وبعدها جاءت فترة اضطراب كان السلطان خلالها غير مستقر تبعاً لنفوذ العثمانيين أو الأسبان بالمنطقة ، ودام ذلك حتى سنة ٩٧٦ (١٥٦٨) حيث رجحت كفة الأتراك العثمانيين [2] .

---

(١) المؤنس : ١٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

الأتراك العثمانيون بتونس (٩٧٦ ـ ١٢٩٩ = ١٥٦٨ ـ ١٨٨١) :

ضعف شأن بني حفص كما ضعف شأن الدول الإسلامية الأخرى بالشمال الافريقى أمام هجمات الفرنجة ، مما استلزم دماً إسلامياً جديداً ينقذ المنطقة من هجمات المسيحيين وتمثل هذا الدم في الأتراك العثمانيين كما ذكرنا من قبل ، وكان احتلال الأتراك العثمانيين لتونس سنة ١٥٣٤ ، ولكن الحسن الحفصى لجأ إلي الأسبان فاستعادوا له تونس فى العام التالى ووضعوه على كرسى السلطان الزائف ، وأصبحت تونس « مستعمرة » أسبانية تحت إمرة أمير حفصي ، وقد التزم الأمير الحسن بدفع غرامة مالية سنوية لأسبانيا وتنازل لها عن موانى عنابة وبنزرت ، وبقيت البلاد التونسية بعد ذلك مسرحاً للفتن والثورات أكثر من ثلاثين سنة ، حتى عاد لها السلطان العثمانى سنة ١٥٦٨ [١] .

وكانت تونس في بدء أمرها تعتبر تابعة للإدارة العليا العثمانية بالجزائر ، وظلت الحال كذلك حتي سنة ١٥٩٠ حيث انفصلت تونس عن الجزائر وأصبحت يحكمها الباشوات الذين يعينهم الباب العالى وبجوارهم الدايات الذين يختارهم الجيش ، وسرعان ما استبد الداى بالأمر وأصبح الداي هو الباشا ، ومن دايات العهد الأول الداى عثمان (١٥٩٤ ـ ١٦١٠) ومرجع شهرته عنايته بالعمران وتنظيم الأسطول التونسى ، وإقرار المسلمين الفارين من الأندلس ومساعدتهم . وجاء بعده صهره الداى يوسف ، فكان كسابقه في نشاطه وإخلاصه . وظل فى منصبه حتى سنة ١٦٣٧ ، وزحف للسلطان بعده الباى أسطا مراد ، وكان مديراً مالياً ولكنه بقوته وصل إلى السلطان ، وظل محتفظا بلقب « راى » وقد بقى هذا لقباً لحكام تونس حتى إعلان الجمهورية ، وفى سنة ١٧٠٥ اختير الحسين بن على التركى « باياً » لتونس واستمر فى منصبه ثلاثين سنة ثبت فيها السلطان لأسرته ، وتوارث أولاده وذووه هذا المنصب مكونين الأسرة الحسينية .

وحكام تونس في العهد العثماني قبل الأسرة الحسينية عددهم ستة وعشرون ، ويقل أن توجد صلة نسب بين بعضهم والبعض الآخر سواء منهم من عينه الباب

---

(١) إحسان حقى : تونس العربية ص ٨٦ .

العالى أو من اختارته الحامية العسكرية ، وكالحال في الجزائر لا يورد زامباور إلا اسماً واحداً لكل منهم مثل : موسى ـ حاج شعبان ـ أحمد جلبى ، ومن بين هؤلاء الحكام واحد تولى ثلاث مرات وهو محمد طبق ، ولا نرى فى ذكر أسمائهم كبير فائدة [1] .

والبايات الحسينيون هم :

حسين (الأول) بن على	١٧٠٥ = ١١١٧
على بن محمد بن على (ابن أخى حسين)	١٧٣٥ = ١١٤٨
محمد بن حسين	١٧٥٦ = ١١٧٠
على بن حسين	١٧٥٨ = ١١٧٢
حمودة بن على	١٧٨١ = ١١٩٦
عثمان بن على	١٨١٣ = ١٢٢٩
محمود بن محمد بن حسين	١٨١٤ = ١٢٣٠
حسين (الثانى) بن محمود	١٨٢٣ = ١٢٣٩
مصطفى بن محمود	١٨٣٥ = ١٢٥١
أحمد بن مصطفى	١٨٣٧ = ١٢٥٣
محمد (الثانى) بن حسين (الثانى)	١٨٥٤ = ١٢٧١
محمد الصادق بن حسين (الثانى)	١٨٥٩ = ١٢٧٦
(بدأت الحماية الفرنسية فى عهده)	
على بن حسين	؟ ؟

(١) انظر هذه الأسماء فى معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى لزامباور جـ ١ ص ١٣٠.

محمد الحاج بن علي	١٣٢٠ = ١٩٠٢
الناصر بن محمد	١٣٢٤ = ١٩٠٦
الحبيب بن الناصر	١٣٤١ = ١٩٢٢
محمد المنصف بن الناصر	١٣٦١ = ١٩٤٢

(عزله الاستعمار الفرنسي ونفاه)

محمد الأمين (ابن عم المنصف)	١٣٦٢ = ١٩٤٣ (١)

(حتى يونيو سنة ١٩٥٧ حيث أعلنت الجمهورية)

ويتضح من هذه القائمة أن البايات عاصروا العهد التركي وعهد الحماية الفرنسية وأسهم بعضهم في حركات التحرير ، وسنورد فيما يلي لمحات عن تونس في العهد العثماني :

عندما استبد الجيش الانكشاري بتعيين حاكم تونس أصبحت العلاقة بين العثمانيين وبين تونس ضئيلة ، فلم يبق إلا الرباط الديني والموافقة على اختيار الداي أو الباي ونحو ذلك من الأمور التي تمس السيادة ، فلما قامت الأسرة الحسينية زاد اتجاه تونس نحو الاستقلال ، ولم يبق عليها إلا رابطة الولاء للخلافة .

ويسجل عهد البايات محاولات متكررة للإصلاحات الدستورية والاجتماعية وتنظيم العلاقات مع الدول الأجنبية ، وينسب إلي حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية القضاء علي العصابات المسلحة التي لم تكن تدين بالولاء للحكومة المركزية ، وإخضاع القبائل العاصية ، كما عمل هو ومن جاء بعده على استقرار الأمن الداخلي والعناية بالجيش من ناحية العدد والعتاد ، وباشر البايات ألواناً من النشاط الزراعي والتجاري ، وعقدوا المعاهدات مع الدول الأجنبية ، واستقبلوا الفنيين الأجانب وقناصل الدول الأجنبية .

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسر الحاكمة جـ ١ ص ١٣١ حتى الحبيب بن الناصر والتكملة من متابعة التاريخ الحديث .

وينسب إلي الباي أحمد بن مصطفي وخلفه محمد الثاني محاولات هامة للإصلاح الإجتماعي ، ولكن هذه الإصلاحات استلزمت مالاً كثيراً مما دفع إلي الاستدانة من فرنسا وإلى فرض الضرائب ، وكلا الطريقين وضع الأشواك في طريق تونس .

ومن الإصلاحات السياسية ذلك الدستور الذي أصدره الباي محمد الصادق سنة ١٨٦١ الذى اعترف فيه باستقلال القضاء ، ويتكون بمقتضاه مجلس أعلى يعين الباىُ أعضاءه ، ويكون لهذا المجلس حق التشريع وإقرار الضرائب والاشراف علي أعمال الباى والوزراء ، ولكن فرنسا وايطاليا عارضتا هذا الدستور لأنه حدد امتيازات رعاياهما بتونس ، وسوى بينهم وبين التونسيين ، وهكذا كان الدستور قصير العمر .

ومن بين بايات تونس يبرز الباي محمد المنصف الذي - بجوار نضاله لتحرير بلاده كما سنشرح ذلك فيما بعد - كان مصلحاً اجتماعياً ، وكان يسير سيرة خلفاء المسلمين الأول فى أخلاقه وفي القيام بتبعات منصبه ، فكان ينزل إلى الأسواق يتفقد أحوال الرعية ، ويدخل الجوامع فيبث روح الوطنية والدين فى نفوس المصلين ، ويزور المعاهد والمدارس ليرعى التطور العلمى وما يجب أن يصحبه من تطور فى الوطنية .

وفى القرون التي سبقت احتلال فرنسا لتونس سجل التاريخ ألواناً من التقارب والتعاون بين فرنسا وتونس ، فقد عينت فرنسا أول قنصل لها فى تونس سنة ١٥٧٧ في عهد الملك هنري الثالث بعد موافقة الآستانة ، وفى عهد هنري الرابع أوفدت فرنسا بعثة إلي الآستانة ، وبعد مفاوضات دامت عدة شهور نجحت فى الحصول على عدة امتيازات تجارية فى تونس ، وفى سنة ١٦٦٥ تم توقيع معاهدة بين فرنسا والوالي مصطفى ، أصبح للقنصل الفرنسي بمقتضاها الأسبقية علي القناصل الأجانب كافة ، ثم عقدت بعد ذلك عدة معاهدات أخري بين البلدين وظلت العلاقات ودية خلال القرن الثامن عشر [١] .

---

(١) سعيد العريان وآخران ، شمال إفريقية ص ٩٤ .

الاحتلال الفرنسي لتونس

قبل الاحتلال :

هناك ظروف مهدت لفرنسا أن تحتل تونس ، وبعض هذه الظروف مرجعه تونس نفسها ، وبعضها ظروف فرنسية ، كما أن هناك ظروفاً عالمية ساعدت على تحقيق هذا الاحتلال :

فمن ناحية تونس يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل من أن بعض البايات أرادوا أن يقفزوا بتونس ، وأن يحققوا لها ألواناً من الإصلاحات الاجتماعية والإدارية ، ولكن المال أعوز هؤلاء نظراً للطفرة التي أرادوا أن يتبعوها .، فلجأ هؤلاء إلى فرض ضرائب جديدة وإلى عقد قروض من الخارج ، وقد أدت الضرائب الجديدة إلي ثورة داخلية عارمة سنة ١٨٦٤ واستطاعت الثورة أن تنتصر وأن تستولي علي بعض الموانى ، ولم تهدأ إلا بعد تدخل سلمي قامت به الدولة العثمانية ، وأما القروض الخارجية فكانت خطوة تجاه الاحتلال ، إذ حدث أن توقف النشاط البحري الذى كانت تزاوله تونس فتكسب عن طريقه حصيلة مالية كبيرة ، وتلا ذلك مجاعة حدثت بالبلاد وبخاصة في السواحل ، وعجزت تونس عن الوفاء بتعهداتها المالية للدولة صاحبة القروض ، فتألفت لجان مختلفة لدراسة مالية تونس وعمل تنظيم لها ، وتهيأ للأجانب بذلك أن يتدخلوا بعنف فى الشئون التونسية .

أما الظروف الفرنسية فتتلخص فى أن فرنسا كانت تنظر إلى تونس علي أنها امتداد طبيعي للجزائر ، وكانت فرنسا تدرك أن احتلالها للجزائر الذى كان قد تم سنة ١٨٣٠ لا يكتمل بدون احتلال تونس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت فرنسا تتطلع للاستفادة من ثروة تونس الطبيعية التى لو أحسن استغلالها لكانت مصدر خير وفير لفرنسا وللفرنسيين ، فأرض تونس خصبة للغاية ، وحاصلاتها من القمح والشعير والزيتون والبلح وافرة ، وتربة تونس غنية بالمعادن كالفوسفات والحديد والرصاص مما تعد فرنسا فى أشد الحاجة إليه

أما الظروف العالمية فخلاصتها أن الموقع الاستراتيجى الذى تحتله تونس بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط يجعل السيطرة عليها هدفاً هاماً من أهداف

فرنسا ، إذ أنه من الواضح ان السيطرة علي تونس معناها السيطرة علي ا...
الوسطي لهذا البحر ، هذا إلى أن تونس قريبة من الساحل الايطالى ومن جز...
صقلية ، ولايطاليا مصالح فى تونس ورعايا كثيرون ، ولذلك كانت فرنسا
تخشي أن تسبقها ايطاليا إلى احتلال تونس .

ومن الظروف العالمية التى ساعدت فرنسا علي احتلال تونس موقف انجلترا
وموقف ألمانيا ، أما الأولى فقد كانت تعد العدة لاحتلال قبرص ، واحتلتها فعلا
سنة ١٨٧٨ ، ووافق اللورد سالسبورى رئيس وزراء بريطانيا آنذاك علي ...
تغض بلاده الطرف عن أطماع فرنسا فى تونس نظير سكوت فرنسا علي
استيلاء بريطانيا علي قبرص ، أما ألمانيا فقد كانت تشجع الفرنسيين علي
التوسع فى المغرب العربى ، لتصرفهم عن توجيه نشاطهم نحو الحدود الألمانية
بعد أن فقدوا الألزاس ومعظم اللورين في الحروب السبعينية ، وقد قال بسمارك
في يناير سنة ١٨٧٩ للسفير الفرنسي « أعتقد أن تونس الآن أصبحت
كالكمثرى الناضجة آن الأوان لقطفها ، وليس الباي جديراً بها ، فإذا لم تسارع
فرنسا إلى التقاطها قطعتها يد أخرى ، ولست أدرى فى الواقع ماذا تنوى
فرنسا أن تفعله بإزائها ولكننى أنتهز الفرصة لأكرر رغبتي في إظهار حسن نية
ألمانيا ، وليس لها أية مصلحة في الوقوف في طريقكم إلى تونس » [١] .

وهكذا دفعت هذه الظروف المختلفة فرنسا إلي العمل لاحتلال تونس .

عملية الاحتلال :

كانت الخطوة الأولى التى خطتها فرنسا للسيطرة على تونس أن أخذت
تعامل الباى علي أنه ملك مستقل ، قاصدة بذلك نزع تونس من تركيا ، وقطع
كل العلاقات بينهما ، ممهدة للخطوة الثانية ، وهى خطوة الانقضاض على تونس
بعد أن تقف فى الميدان وحدها ، وبدأت فرنسا تبحث عن المناسبة التي تهيىء
لها الاعتداء الأثيم ، وكانت جيوش فرنسا ـ بعد احتلال الجزائر ـ تقف علي
الحدود بين الجزائر وبين تونس ، فحدث احتكاك بين القبائل التى تسكن الشمال
الغربي لتونس وبين دورية فرنسية ، فأصدرت فرنسا الأمر لجيشها أن يزحف

(١) نقلا عن الأمة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٦ .

على تونس بحجة تأديب هذه القبائل ، التي كانت في الحقيقة تدافع عن نفسها ، ولم تشأ تونس أن يقع صدام مسلح بين القوتين ، فلم تعترض طريق الزحف الفرنسي ، وحسبت أن القوة الفرنسية ستعود بعد انتهاء مهمتها ، ولكنها واصلت تقدمها حتي احتلت العاصمة ، كما أن بعض وحدات الأسطول الفرنسى اقتحمت ميناء بنزرت وأنزلت بالمدينة بعض فصائلها وأصبح واضحاً أن الزحف الاستعمارى مقصود ، وأن الأسباب التي تذرعت بها فرنسا أسباب مفتعلة ، واتضح من الظروف التي لابست هذا الحادث أن الزحف كان صليبياً دينياً ، إذ يروي أن الأسقف الكاثوليكى أصدر أمراً إلي جميع المبشرين ورجال الدين ليصحبوا الجيش الزاحف ليكونوا فى خدمته ، وكان احتلال تونس في أبريل سنة ١٨٨١ .

واتضحت بذلك نيات فرنسا تجاه تونس وتخلت عنها تركيا ، وكان العالم العربى يعانى فترة قاسية من الضعف والهوان ، فلم تنل تونس أى عون خارجى ووقفت وحدها في الميدان ، فلم يكن فى طاقتها الصمود ، وأرغم الباى أن يوقع معاهدة (باردو) في مايو سنة ١٨٨١ التي نصت على حق فرنسا في احتلال المراكز التى تراها لازمة لاستتباب الأمن والسلام والهيمنة علي الإدارة المحلية ، وحماية الرعايا الفرنسيين ومصالح فرنسا الخارجية .

وفى سنة ١٨٨٣ عقدت معاهدة (المرسى) التي وضعت البلاد بموجبها تحت الحماية على أن يمثل فرنسا مقيم عام توضع فى يده السلطات التى تضمن له تقديم المشورة ، ولم تعترف تركيا آنذاك بالاحتلال الفرنسى لتونس ، ولكنها في الوقت نفسه لم تعاون تونس في محنتها ، علي أن حكومة تركيا عادت فالتزمت في معاهدة (سيفر) التى عقدت سنة ١٩٢٠ برفع يدها عن البلاد العربية ، وكان معنى ذلك اعترافها بالأمر الواقع وبالاحتلال الفرنسى لتونس .

فرنسا فى تونس :

بادرت فرنسا بعد أن احتلت تونس إلى إعلان أنها حلت محل الأتراك العثمانيين فى سيادة البلاد ، وتنفيذاً لذلك عينت لها « مقيماً عاماً » يباشر

سلطات الوالى العثمانى أيام قوة العثمانيين ، فأخذ يتولى تتويج الباى ولكن سرعان ما تجاوزت فرنسا الحدود التى كان سلطان الأتراك يقف عندها ، فمدت أطماعها نحو كل شيء رغبة فى تمكين سلطانها بالبلاد وتثبيت أقدامها بها ، ففى الناحية السياسية والإدارية أخرجت الدولة التونسية من الأسرة الدولية مخالفة بذلك وعودها فى معاهدة (باردو) ، وقبضت على السلطة التنفيذية والتشريعية بالبلاد ، وأفقدت الباى شخصيته كحاكم ، وإنتقل سلطانه من الناحية العملية إلى المقيم العام ، وأصبح المديرون والمحافظون خاضعين للمراقبين الفرنسيين الذين جعلت تعليماتهم واجبة التنفيذ ، وألغت فرنسا المجلس التشريعى ونقلت سلطانه إلى الباى اسمياً وإلي المقيم العام من الناحية العملية ، إذ اشترط لتنفيذ القوانين التي يصدرها الباى أن يوافق عليها المقيم العام .

وفي الناحية الإقتصادية أسرعت فرنسا فاتخذت طريقها للإستيلاء على الاقتصاد التونسي ومصادر الثروة بالبلاد ، فاستولت على أملاك الدولة من الأرض البور ، ثم استولت علي الغابات والأراضي المملوكة للأفراد الذين لا يستطيعون إثبات ملكيتهم لها ، ثم أراضي القبائل والأوقاف ، وسلمت هذه المساحات الشاسعة للشركات الفرنسية والمهاجرين الفرنسيين ، وعمدت إلي الثروة المعدنية فأسندت إلي الشركات الفرنسية مهمة البحث عنها والحصول عليها ، وركزت كل النشاط الصناعي في يد الشركات الفرنسية ، ووضعت نظاما جمركياً جعل تونس سوقاً للبضائع الفرنسية وحدها ، كما جعل صادرات تونس لا تتجه لغير فرنسا [1] .

واحتضنت فرنسا كل أفراد الجاليات الأوربية من مالطيين وروس وأسبان وإيطاليين ويهود ، بل منحتهم الجنسية الفرنسية ليكبر عدد رعاياها ، واتجهت إلى هؤلاء بالرعاية على حساب شعب تونس ، فجعلت الوظائف الكبري في أيديهم ، واتجهت بالميزانية إلى مرتبات الموظفين مهملة كل المنشآت العمرانية والثقافية والصحية ، حتى أنه خصص أكثر الميزانية التونسية للموظفين أو بعبارة أخرى إلي جيوب الفرنسيين والمتفرنسين ، ويدل الإحصاء الرسمي عن سنة

---

(١) دكتور عبد العزيز الرفاعي : الحركة القومية فى افريقيا ص ١٤١ .

١٩٥١ أن عدد موظفى الحكومة التونسية في هذه السنة كان ٣١،٦٩٦ موظفاً منهم ٢٢ ألف موظف من الفرنسيين والمتجنسين بالجنسية الفرنسية ، وهم الذين يشتغلون بالوظائف الهامة ، ويتقاضي الموظفون ٨٢٪ من مجموع اعتمادات ميزانية ذلك العام ، والعجيب أنه عندما تذمر التونسيون لأن الوظائف الكبري لا تعطي لهم ، ولأنهم لا تتساوي مرتباتهم من الفرنسيين والمتفرنسيين حتي إذا تساوت المناصب ، كان جواب فرنسا حث هؤلاء التونسيين علي التجنس بالجنسية الفرنسية ليكسبوا لأنفسهم هذه الامتيازات الأدبية والمادية ، وربما أغري هذا بعض ضعاف النفوس ، لولا أن الصحافة هبت في وجه هذه القحة ، ولولا فتوي المفتي العام الذي أعلن ضرورة مقاطعة الذين يتجنسون بالجنسية الفرنسية ، وعدم جواز دخولهم المساجد وعدم مصاهرتهم وعدم دفنهم في مقابر المسلمين ، وعلي هذا انعقد إجماع الشعب علي مقاطعة هذا الاتجاه الغاشم .

وفى الناحية العلمية والثقافية اتجهت فرنسا إلي محاربة اللغة العربية والفكر الإسلامى ، كما اتجهت لنشر اللغة الفرنسية وتشجيع التبشير المسيحي ، وقطعت الاعانات عن المدارس الرسلامية ، فضعفت وانقرض أكثرها ولم يبق إلا جامعة الزيتونة تصارع الأحداث وتناضل للبقاء ، وفرضت فرنسا الأحكام العرفية على تونس أكثر من عشرين عاماً صادرت خلالها حرية الفكر وحرية النشر والاجتماع إلا ما يؤيد أغراضها ويحقق أهدافها .

وهكذا عبرت تونس فترة طويلة من الزمن ، وهى تتلظى بنار الاستعمار الفرنسى ، وتكتوي بلهيبه ، حتي هب أهلها يناضلون للحرية والاستقلال ، ذلك النضال الذى آتى ثماره وحقق لشعب تونس ما هو جدير به من حرية وإستقلال .

حركات التحرير

ترتبط الحركات الفكرية بتونس بالحركات الفكرية بمصر ارتباطاً كبيراً ، وقد تم احتلال مصر وتونس فى عامين متتاليين ، وضغط الاحتلال الانجليزى على الفكر المصرى حيناً من الزمن فلم تظفر تونس بأى عون مادي أو أدبى يذكر من شقيقتها الكبرى ، وكان هذا بالإضافة إلي قسوة الاحتلال الفرنسى من الأسباب التى أبطأت البدء نوعا ما فى حركات التحرير بتونس .

ولكن مصر سرعان ما استردت أنفاسها واستعادت نشاطها وانعكس ذلك علي تونس التى كانت تتدفق عليها صحافة مصر ومطبوعاتها العلمية والأدبية بطريق أو بآخر ، بل أكثر من ذلك زارها الزعيم محمد فريد والامام محمد عبده واتصلا بالزعماء والمصلحين ونشرا بتونس أفانين الفكر المصري واتجاهاته فى الساسية والإصلاح الدينى ، ولعل هذا كان من الأسباب التى اتجهت بالحركات التحررية بتونس فى فترة من الزمن إلى الاستقلال فى نطاق الولاء للخلافة العثمانية على نمط ما كان ينادى به مصطفى كامل بمصر ، وسيأتى بيان ذلك عند الحديث عن تركيا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ولعله كذلك هو الذي دفع إلى تأسيس حزب تونس الفتاة سنة ١٩٠٨ ، ويتضح من التسمية ومن تاريخ تأسيسه صلته بحركة تركيا الفتاة وبالحزب الوطنى المصرى ، وكان هذا الحزب برياسة على باش حمبه أحد الزعماء النابهين .

وسنلم فيما يلى بأبرز الحركات التحررية بتونس ، وتشمل هذه الحركات المقاومة التى بها طابع العنف والقوة كما تشمل المقاومة السياسية والعملية ، ومع أن تونس سارت فى الطريقين وأسهمت بالدم والجهد لنيل حريتها إلا أن الظروف خدمتها فقللت من ضحاياها فى ميدان العنف ، ومرجع ذلك أولا إلى حرب الجزائر التى استنفدت جهد الفرنسيين ونشاطهم كما سبق ، فلم ترد فرنسا أن تحارب فى جبهتين ، وتساهلت فى تنظيم علاقاتها بتونس ، وترجع ثانياً إلى السياسة التى اتبعها قادة تونس وهى « الاستقلال على مراحل » وانتهاز الفرص تبعاً للمبدأ القائل « ما لا يدرك كله لا يترك كله » . وقد برهنت الأحداث على نجاح هذا المبدأ فى تونس أروع نجاح ، وعلى أن الخطوة الأولى وهى الحكم الذاتى سرعان ما أسلمت للخطوة الثانية وهى الاستقلال التام فى مدى أسرع جداً مما توقع المتفائلون .

وعلى هذا سيكون اهتمامنا أكبر بحركات المقاومة السياسية ، ولكنا على كل حال سنذكر أبرز الحركات العسكرية :

ثورة القيروان :

ثارت منطقة القيروان عقب الاحتلال ثورة عارمة وامتدت الثورة على الساحل ، من سفاقس حتى حدود طرابلس ، واحتل الثوار ميناء سفاقس وطردوا نائب الباى إذ اعتبروا الباى خائناً لقبوله معاهدة الحماية ، وعينوا أحد رؤساء القبائل وهو على بن خليفة أميراً عليهم ، وقد شغلت هذه الثورة فرنسا عدة شهور واستنفذت كثيراً من الجهد الحربى الفرنسى، ولم يستطع الفرنسيون احتلال القيروان إلا بعد أن هجرها الثوار واتجهوا إلى داخل البلاد وكان ذلك فى ٢٧ أكتوبر ١٨٨١ .

جيش التحرير التونسى :

وأبرز حركات المقاومة التونسية قادها جيش التحرير التونسى فى مطلع النصف الثانى من هذا القرن ، وأكثر قادته من الذين مارسوا النضال فى حرب اليهود بفلسطين ، وعلى الرغم من أن عدد هذا الجيش لم يكن كبيراً إلا أنه استطاع أن ينزل الرعب فى قلوب الفرنسيين حتى ظنوه كبير العدد كثير العدة ، وكان هذا الجيش يتبع السياسة التى سارت عليها فرق الارهاب الفرنسية التى أنزلت الرعب فى القلوب بالاغتيالات السياسية التى قامت بها وتستر عليها البوليس الفرنسى أو شجع عليها ، ومن أجل هذا قام جيش التحرير التونسى بألوان من حرب العصابات واغتيال الخونة من التونسيين واغتيال المستوطنين الذين يتحدون الحركات الوطنية ، وتدمير ممتلكاتهم والقضاء على مصالحهم ، حتى شعر هؤلاء بأن حياتهم فى تونس أصبحت مليئة بالكدر وغير باعثة على الاطمئنان ، وقد دفع هذا حكومة فرنسا أن تبحث عن حل للمشكلة التونسية لا خدمة لمصالح تونس بل خدمة لمصالح المستوطنين ومحاولةً لخلق جو من الاستقرار والأمن لها .

المقاومة السياسية :

اتخذت المقاومة السياسية خطتين ، خطة المقاومة من الداخل وخطة المقاومة من الخارج ، ففى الداخل تكونت النقابات والأحزاب ولعبت هذه وتلك دوراً

بارعاً فى الحركات الوطنية ، وفى الخارج اتجه الزعماء إلى الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية ، والكتلة الآسيوية الأفريقية ، والصحافة العربية ، وقد كانت الأخيرة كبيرة النفع فى الصراع الطويل وظلت تهتف بإخلاص ومثابرة لصالح القضية ، فنشرت ألواناً من ظلم المستعمر وسوء تصرفه ، ودفعت الرأى العالمى إلى التألب ضد الاستعمار الفرنسى ، وكانت صحافة مصر على الخصوص لساناً عالياً لم يضعف ولم يهدأ حتى أعيد الحق لأصحابه . وكان الزعيم الحبيب بورقيبة يعيش فى مصر فى هذه الأثناء ، ويمد الصحافة المصرية بكثير من الأنباء ، كما كان يجد من بنى مصر كل عون وتأييد .

أما جامعة الدول العربية فقد كان دورها فى خدمة تونس أقل مما يرجى منها ، ويقول الباحثون إن الجامعة فى ذلك الحين كانت مشغولة بقضية فلسطين ، والدماء التى تنزف فيها فلم يكن عونها على النحو المأمول منها ، ولعل هذا الذى دعا زعيم تونس بعد الاستقلال إلى عدم المشاركة الفعالة فى نشاط هذه الجامعة .

أما الكتلة الآسيوية الافريقية فقد حاولت معاونة تونس فى نطاق سلطاتها ، فرفعت الأمر لهيئة الأمم المتحدة ، ولكن هذه كانت لا تزال تئن تحت سلطان الغرب المستعمر ، ولم تكن قد انهالت لها الأصوات المتحررة بعد ، ومن هنا لم يكن تدخلها ذا نتيجة تذكر .

عاملان هامان لم يكونا فى الحسبان دفعاً قضية تونس إلى نهايتها الحميدة ، وقد أشرنا إلى أولهما من قبل وهو حرب التحرير الطاحنة فى الجزائر التى كانت ميدانا ابتلع كل نشاط الفرنسيين وجهدهم ، والعامل الثانى هو ثورة الجيش فى مصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقد أمضت هذه الثورة فترة من الزمن تدعم نفسها فى الداخل وتقضى على أعدائها ثم اتجهت لتكون ثورة عربية تدافع عن الدول العربية وقضايا شعوبها بحماس يفوق اهتمامها بشعب مصر فى كثير من الأحيان .

والآن نتحدث بشىء من التفصيل عما أوجزناه فى السطور السابقة :

حزب تونس الفتــاة :

سبق أن أشرنا إليه وقد ألفه على باش حمبه سنة ١٩٠٨ وكان نضاله متصلاً بالحركة الإسلامية التى كانت تنادى بالتحرر فى نطاق الجامعة الإسلامية ، وكان من رجال الحزب البارزين عبد العزيز الثعالبى ، وهو من خريجى جامعة الزيتونة ، وكان يحمل اتجاهات شيوخها السياسية والدينية ، تلك الاتجاهات التى تعارض الاحتلال الأوربى وترى فيه عدواناً صليبياً ، واضطهاداً دينياً ، وقد أزعجت هذه الحركة فرنسا وسببت لها كثيراً من المتاعب ، فحلت الحزب سنة ١٩١١ وشتتت شمل القائمين به ، فإذا بهم بين مبعد ومعتقل .

الحزب الدستورى :

حملت نهاية الحرب العالمية الأولى نهاية الامبراطورية العثمانية ، فلم يعد هناك أمل فى مواصلة الجهد الذى كان يرمى إلى الاستقلال فى محيط الاطار العثمانى ، فاتجهت الحركة التونسية إتجاهاً جديداً يرمى إلى الاستقلال التام ، وحمل عبء هذا الاتجاه الزعيم عبد العزيز الثعالبى سالف الذكر ، وقد خدع الثعالبى كما خدع سواه من قادة الحركات التحريرية العربية بمبادىء ولسن ، فتقدم لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ يطلب استقلال تونس ولكن العصابة التى كان بيدها الأمر كانت نفس العصابة المستعمرة التى يهمها الاستمرار فى احتلال الدول الصغيرة واستنزاف ثرواتها ، ومن ثم فقد أبعد طلب الثعالبى كما أبعدت مطالب الدول العربية المماثلة .

وقد ظهر آنذاك اتجاهان ، أحدهما اتجاه الثعالبى الذى يطالب بالاستقلال التام ، ويرى فى الاحتلال الفرنسى لتونس عدوانا صليبيا كما سبق القول ، أما الاتجاه الثانى ويقوده بعض الشبان ذوى الثقافة الغربية فيرمى إلى المطالبة بالإصلاحات الداخلية أولا ، على أن يُنال الاستقلال على مراحل ، وعلى الرغم مما بين الاتجاهين من خلاف فقد تعاونا ، وقدم الجميع مطالبهم موحدة إلى الباى وإلى المقيم العام ، وخلاصتها منح البلاد نظاما دستوريا ، وقيام حكومة مسئولة أمام مجلس تشريعى منتخب ، وإنشاء جيش قومى ، وفتح جميع الوظائف أمام التونسيين . ولما كان الدستور هو المطلب الرئيسى لهذه الجماعة فقد ألفوا حزبا

أطلقوا عليه « الحزب الدستورى » سنة ١٩٢٠ وكان موقف الباى محمد الناصر وديا من هذه الإصلاحات ولكن فرنسا ثارت عليها ورفضتها ، واتخذت قرارات لصالح الاستعمار والمستوطنين غلفتها ببعض الإصلاحات ، ولم يقبلها من الوطنيين إلا قلة ضئيلة ارتبطت مصالحهم بمصالح الاستعمار ، وأعلن الوطنيون تأليف حزب اسمه « حزب الاصلاح » ومرت فترة من الزمن ضعف خلالها الحزب الدستورى من كثرة ما تحداه المستعمر وضغط عليه وعلى رجاله ، وانتهى الأمر بأن حلت السلطات الفرنسية هذا الحزب سنة ١٩٣٣ .

الحزب الدستورى الجديد :

كان « الحزب الدستورى » غير موحد الصفوف بسبب النزعتين اللتين ذكرناهما فيما سبق ، لذلك ما كادت السلطات الفرنسية تحله حتى هبت جماهير الشبان فيه بتأليف حزب جديد اسمه « الحزب الدستورى الجديد » سنة ١٩٣٤ وانتخب الدكتور الماطرى رئيسا له والزعيم الحبيب بورقيبة أمين سر له ، وكان من أعضائه صالح بن يوسف والدكتور تامر وكثيرون من الشباب المتحمسين لبلادهم ، وبدأ الحزب يهتم بالتحرير السياسى وبالتقدم الاجتماعى فى نفس الوقت ، ووضح بورقيبة سياسة الحزب فى عبارته الشهيرة « إن الحزب يجاهد لترشيد الشعب التونسى » . وتقدم الحزب بمطالبه الإصلاحية وكان فيها كثير من التساهل رجاء السير بالقضية خطوة الى الأمام ، ولكن المستعمر أصاخ لنداء المستوطنين الذين كانوا لا يريدون التنازل قيد أنملة عما نالوه من حقوق جائرة ، وقد رفضت مطالب الحزب ، وبدأ أنصار « الحزب الدستورى » القدماء يظهرون مرة أخرى ويعيبون على الحزب « الدستورى الجديد » ما سموه بالتهاون فى حقوق البلاد ، وأذاعوا أن المستعمر لن يعطى شيئا مهما كان ضئيلا ، وأن الحقوق تؤخذ من الغاصب لا ترجى منه . وإزاء ذلك خاف الحزب الدستورى الجديد أن تضيع شعبيته ، وأن يتهم بالتساهل فى حقوق البلاد فدعا الحبيب بورقيبة إلى مؤتمر سنة ١٩٣٧ حيث ظهر خلاف بين الماطرى الذى كان يتزعم سياسة الاستمرارفى التساهل وبين بورقيبة الذى وجد ألا مناص من التشدد مع المستعمر ، وتغلبت وجهة نظر بورقيبة ، وتأكدت زعامته واختفى الماطرى من الميدان ، وقد أثبت بورقيبة جدارة ومقدرة فى تسيير الأمور . ومن أبرز ما ذكر

له أنه عارض - فى أثناء الحرب - الاتجاه الذى كان يرمى الى التعاون مع المحور (المانيا وايطاليا) وكتب بذلك رسالة الى زميلة الدكتور تامر ، وقد عرّض نفسه الى خطر كبير إذ كتب هذه الرسالة فى وقت كان المحور مسيطراً على الأمور فى أوربا وفى الشمال الافريقى [1] .

الباى محمد المنصف :

ارتقى الباى محمد المنصف عرش تونس فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وكانت فرنسا آنذاك جريحة صريعة أمام القوة الألمانية ، وفى نوفمبر من العام نفسه دخلت القوات الألمانية تونس ، وقد انتهز الباى هذه الفرصة فلعب دورا هاما فى حركة التحرير ، وساند القائمين بالحركة و استقل باختيار الوزراء ، ولكن الحلفاء عادوا فدخلوا تونس سنة ١٩٤٣ فأعلن الجنرال جيرو خلع الباى محمد المنصف ونفيه .

الميثاق الوطنى (أغسطس سنة ١٩٤٦) :

وفى أغسطس سنة ١٩٤٦ وجه الحبيب بورقيبة الدعوة لعقد مؤتمر وطنى ، وعقد هذا المؤتمر فى ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ وكانت توافق ليلة القدر واشترك فيه الحزب الدستورى ، والحزب الدستورى الجديد ، والاتحاد النقابى التونسى للعمل ، وأساتذة جامعة الزيتونة واتحاد الموظفين و قد هاجم البوليس المؤتمر واعتقل عددا كبيرا من أعضائه ، ومع ذلك فقد أصدر المؤتمر ميثاقا أعلن على العالم « أن نظام الحماية نظام سياسى واقتصادى لا يتفق مطلقا مع سيادة الشعب التونسى ومصالحه الحيوية ، وأن هذا النظام استعمارى قضى على نفسه أمام العالم بالإخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة ... والشعب التونسى عقد العزم على استرجاع استقلاله التام وانضمامه لجماعة الدول العربية ولهيئة الأمم المتحدة » وكان رد فرنسا على هذا القرار أن ألقت بهم فى السجون وكان رد فرحات حشاد رئيس اتحاد العمال أن أعلن الإضراب العام فى جميع المرافق العامة ما عدا المستشفيات ، فقبضت فرنسا على فرحات حشاد مما زاد الحركة

---

(١) انظر هذه الرسالة فى « تونس العربية » ص ١٥٩ ـ ١٦٤

التهابا .

خطوات التسوية وورد الرئيس بورقيبة :

خرجت فرنسا من الحرب العالمية جريحة ، وعلى الرغم من أن الانتصار قد تحقق للحلفاء إلا أن الحرب ضعضعت المنتصر والمنهزم على السواء ، وواجهت فرنسا في مستعمراتها حركات تحررية أدركت أنها لا تستطيع قتلها ، فإن الحرب العالمية الثانية غيرت ميزان القوى وأظهرت على بساط السياسة العالمية قوى جديدة ومنظمات حديثة تنصف الدول الصغيرة الى حدٍ ما وتسمع صوت المظلوم ، فأرادت فرنسا أن تسوى أمورها مع مستعمراتها الثائرة ومنها تونس رغبة في الاستقرار .

وذهب بورقيبة بوصفه رئيسا للحزب الدستورى الجديد إلى فرنسا سنة ١٩٥٠ فأعلن علي الرأى العام الفرنسى مطالبه ، وهى إرجاع السيادة التونسية ، وتشكيل حكومة تونسية من التونسيين فقط ، يكون رئيسها من أبناء تونس يعينه الباى ، وإلغاء بعض المناصب التى يحتلها الفرنسيون وقلى السلطان على الوزارات والشعب كمناصب المراقبين الفرنسيين والدرك الفرنسى ، وتشكيل مجلس وطنى ينتخب انتخابا عاما ، ثم وضع نظام يحدد العلاقات بين فرنسا وتونس[1] .

ووافقت هذه المقترحات اتجاهات فرنسا الجديدة وألفت وزارة برياسة ابن شنيق فى أغسطس سنة ١٩٥٠ واشترك فيها صالح بن يوسف ، كما وافقت فرنسا على الاصلاحات الدستورية والديمقراطية التى أعلنها الباى فى فبراير سنة ١٩٥١ .

المستوطنون يناهضون الاستقلال :

هبت آنذاك حركة قام بها المستوطنون لمناهضة استقلال تونس ، وهى حركة شبيهة بحركة المستوطنين بالجزائر التى سبق أن تحدثنا عنهم و المستوطنون فى كل مكان طفيليات تعيش على حساب الشعب الأصلى ، تسرق قوته وتقتل حرياته ، وهم يدركون أن أية حرية ينالها الشعب المكافح سيكون معناها الحد

من جشعهم وستؤدى الى مساواتهم بأصحاب البلاد الأصليين و تلك غاية لا يرضى بها هؤلاء المستغلون ، إنهم يرون أنفسهم أحق بخيرات البلاد من أهل البلاد ، ويرون أن ثراءهم الواسع لن يدوم إلا فى أرض يكبّل سكانها بالحديد ، وتنعدم فيها الحريات وقد عرف العالم الاسلامى والعربى هذه الطفيليات وعانى منها ألوانا من الجشع والمرارة ، عرفتها مصر العزيزة وعرفتها اندونيسيا ودول الشمال الافريقى والدول العربية جميعا ، فإذا كان المستوطنون يهودا ازدادت الكارثة وكان الطوفان .

وقد رأى المستوطنون بتونس أن البلاد على وشك أن تنعم بالحرية ، فبدأت حركاتهم تعارض هذا الاتجاه ، وأرسل زعيم الجالية الفرنسية الى مسيو شومان وزير خارجية فرنسا احتجاجا على سياسة اللين التى تنتهجها فرنسا ويسير عليها المقيم العام ، وطالب بتغيير المقيم العام ، وإعادة الرقابة على الصحف ، والقبض على الزعماء الوطنيين ، كما هدد بأنه إن لم تستحب الحكومة الفرنسية إلى مطالبه فإنه سيعلن العصيان المدنى ويقاوم بالقوة هذه الاصلاحات الحديثة .

والعجيب أن فرنسا أصاخت لهذا النداء الأبله ، فعادت إلى سياسة العنف والطغيان ، وكان رد تونس أن أعلن فرحات حشاد الإضراب العام لأجل غير مسمى ، فاستدرات فرنسا تضرب المواطنين بالحديد والنار وزمجرت المدافع وسارت الدبابات تحصد الناس وتريق الدماء فى الشوراع ، فكانت مجزرة شنيعة ، وامتدت اليد الأثيمة الى البطل المجاهد فرحات حشاد فقتلته اغتيالا فى ٥ ديسمبر ١٩٥٢ ، وقتل كذلك الهادى شاكر من زعماء الحزب الدستورى الجديد ، وأقيلت وزارة ابن شنيق وألفت وزارة برياسة صلاح الدين بن باكوش أحد الإقطاعيين الزراعيين الذين ترتبط مصالحهم بمصالح الاستعمار ، وقد أنف جميع المثقفين من الاشتراك معه ، فألفها من الملاك الزراعيين [1] .

دور الدول العربية والأسيوية :

تحركت الدول العربية والأسيوية للدفاع عن الشقيقة تونس ، وهبت الصحافة العربية وفى مقدمتها صحافة مصر تنشر على العلم صور الطغيان الفرنسى و

---

(١) نقلا عن الحركة القومية فى المريقية : للدكتور عبد العزيز الرفاعى ص ١٥٠ ـ ١٥١

واتجهت الكتلة الأسيوية والإفريقية إلى مجلس الأمن لينصف تونس ، ولكن مجلس الأمن رفض فى ١٤ ابريل سنة ١٩٥٢ هذه الشكوى بحجةأنها مسألة داخلية لفرنسا ، ولكن هذه الكتلة استطاعت إدراج المشكلة فى جدول أعمال الأمم المتحدة ، وطالبت بحضور الباى ليتكلم باسم بلده ولكن هيئة الأمم المتحدة خذلت أيضا هذه القضية واكتفت بأن أوصت بمفاوضات مباشرة بين فرنسا وتونس.

النضال الأخير :

أدرك المواطن التونسى أن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، ورأى من الضرورى أن ينزل إلى ميدان الصراع ضد القتلة والسفاكين الفرنسيين الذين أرقوا دماء الأبرياء ، وأزهقوا الأرواح الطاهرة ، فنشطت حركة الفدائيين كما سبق ، وانضم اليهم كثير من الجنود والضباط التونسيين الذين كانوا أعضاء فى الجيش الفرنسى خلال الحرب ، وهكذا استعمل التونسيين السلاح الذى يستعمله المحتلون وأنصارهم ، فهز هذا السلاح قوى المستعمر حتى وجد ألا مناص من العودة لمحاولة الحل السلمى وبخاصة أن الدول العربية كانت مستمرة فى مساعداتها لتونس وأن الكتلة الأسيوية والافريقية تهدد بإعادة القضية لمجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة وقد خرجت فرنسا من مشكلة الهند الصينية سنة ١٩٥٤ مرهقة كسيرة الجناح ، فأرادت أن تسوى مشكلاتها الأخرى بطريقة سلمية [1] .

---

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٣٣٧ .

خطوات الاستقلال

تصريح يوليو سنة ١٩٥٤ :

لم تجد فرنسا فى ضغط هذه الظروف بدا من الرجوع لبعض الرشد ، فقدم رئيس وزرائها (منديس فرانس) إلى تونس لإجراء مباحثات مع بعض الزعماء ، وصدر تصريح رئيس الوزراء فى ٣١ يوليو سنة ١٩٥٤ وهو يقضى بمنح الحكم الذاتى لتونس على أن تبقى شئون الدفاع والأمن والشئون الخارجية فى يد فرنسا ، وجاءت وزارة إدجار فور الذى استدعى الحبيب بورقيبة وأصدر معه تصريحا مشتركايؤيد تصريح منديس فرانس على أن يلقى الثوار التونسيون السلاح ، ونشط الجانبان لتنهى المعارك الحربية واستجاب الثوار لنداء بورقيبة فى تسليم السلاح وكان آخر موعد لذلك هو التاسع من ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

اتفاقية بورقيبة سنة ١٩٥٥ :

وفى ضوء هذا صدرت اتفاقية ٣ يونيو سنة ١٩٥٥ وهى تتكون من عشر مواد وأربع ملاحق وأربع اتفاقيات وقد نظر لها الناس باتجاهين : رآها بعضهم خطوة الى الأمام تمهد لما بعدها وتزعم بورقيبة هذا الاتجاه ورآها آخرون نكسة للحركة الوطنية وخيبة أمل فى ميدان الكفاح الوطنى ، وتزعم هذا الاتجاه صالح بن يوسف كما سنشرح ذلك فيما بعد .

ونرى أن كلا الاتجاهين صحيح ، فالأول صحيح وبخاصة فى ميدان التفاؤل ، وهو يعطى فرصة للإمساك بالخيط ، والثانى صحيح إذا درست المعاهدة فى ذاتها لأنها أعطت قليلا واحتفظت بالكثير ، وقد احتفظت - بالإضافة الى الدفاع والشئون الخارجية - بامتيازات ضخمة للرعايا الفرنسيين ، وباللغة الفرنسية لغة أصلية إذ نص على أنها لا تعتبر لغة أجنبية وعلى أن يكون وزير الدفاع التونسى فرنسيا ، ونصت الملاحق على أن تسيطر فرنسا على جميع أنواع المواصلات والمناجم والموانى لصلتها بالدفاع عن البلاد وعلى إعفاء قواتها من الرسوم الجمركية وعلى أن يبقى رئيس الشرطة فرنسيا مدة عشر سنوات .

وضمنت الاتفاقية الأولى حقوقا ضخمة للمستوطنين جعلتهم دولة داخل الدولة وضمنت الاتفاقية الثانية حقوقا قضائية لفرنسا ولموظفيها بتونس ، وكانت الاتفاقية الثالثة ثقافية تحتم الاستمرار فى تعليم اللغة الفرنسية لتضمن بعض الحقوق للبعثة الفرنسية . أما الاتفاقية الرابعة فاقتصادية تعطى فرنسا حق الإشراف على إصدار أوراق النقد التونسى ، وتسيطر على نواحى الاقتصاد الوطنى بتونس .

بين بورقيبة وصالح بن يوسف :

اتسعت هوة الخلاف بين الزميلين و لم يرد أحدهما أن يقرب من الآخر ، فدعا الزعيم بورقيبة الحزب الى اجتماع فى أكتوبر سنة ١٩٥٥ ولكن صالح بن يوسف رفض حضور الاجتماع ، وكان صالح يعارض مسألة تسليم الثوار أسلحتهم ، كما عارض الاتفاقية السابقة ، والتف حوله بعض الشبان وبدا وكأنه سيؤلف قوة جديدة يناضل بها زملاءه السابقين ، وأخذ يطعن فى المفاوض التونسى ، وظل على موقفة على الرغم من أن الحزب فى اجتماعه السابق أيد الحبيب بورقيبة ، وتطورت الأمور فرفع الزعيم بورقيبة دعوى ضد ما وجه اليه من قذف من صالح بن يوسف ، ولكن هذا لم يمثُل أمام المحكمة ليدافع عن نفسه ، وفر خارج البلاد ، وفى الجلسة حكمت المحكمة علية بالإعدام غيابيا .

الاستقلال التام :

انتهز الزعيم بورقيبة فرصة هذه المعارضة الصلبة ،كما انتهز فرصة الحرب الدائرة بالجزائر وطالب بتعديل اتفاقية ١٩٥٥ واستطاع فى ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ أن يحقق هذه الغاية فتوصل إلى اتفاقية مع فرنسا نصت على أن تونس دولة مستقلة ذات سيادة تتولى شئونها الخارجية وشئون دفاعها بنفسها وسيعاد النظر فى الامتيازات التى منحتها فرنسا سنة ١٩٥٥ ، وأعيد النظر فعلا بعد ذلك فى هذه الامتيازات فألغى بعضها ونظم بعضها الآخر بما لا يتنافى وسيادة البلاد .

تونس بعد الاستقلال :

كان طاهر بن عمار قد اختير رئيسا للوزارة الانتقالية ، وقد أجرت حكومته الانتخابات في مارس سنة ١٩٥٦ ففاز فيها الحزب الدستورى الجديد وحلفاؤه من المستقلين والنقابيين بجميع مقاعد الجمعية التأسيسية البالغ عددها ثمانية وتسعين ، وبذلك آلت رياسة الحكومة للزعيم الحبيب بورقيبة فألف أولحكومة له فى أبريل سنة ١٩٥٦ .

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٩٥٧ أعلن بورقيبة إسقاط أسرة البايات ومدد بمساوئها ، وقد لاقى هذا القرار كثيرا من الترحاب من كل الدوائر التونسية .

ونظرا لأن القائمة التى تقدم بها الحبيب بورقيبة لانتخابات نجحت كلها فقد أعلن سيادته تأليف الاتحاد الوطنى سنة ١٩٥٩ بدلا من الحزب الدستورى الجديد تبعا الأوضاع فى البلاد .

وصدر الدستور الجمهورى سنة ١٩٥٩ واختير الحبيب بورقيبة رئيسا لجمهورية تونس بالتزكية كما اختير مرشحوه جميعا لأول مجلس نيابى فى نفس الانتخابات .

ومنذ استقلت تونس بدأت تحمل مسئولية الاستقلال ، وقد كانت مسئولية ثقيلة ، ومن أهم ما بادرت به تونس أن طلبت الانضمام لجامعة الدول العربية ، وقد قبل طلبها فى الحال طبعا ، ولا يعنينا أن مندوب تونس صاح فى أول جلسة حضرها باحتجاج بلاده على سير الجامعة فى فلك مصر ، وقاطعت تونس احتماعات الجامعة عقب ذلك ، لا يعنينا هذا فلا شك أن الأيام سرعان ما برهنت لتونس أن مصر تخدم الجامعة ودولها أكثر مما يمكن أن يُدَّعى أن مصر تنتفع بهذة الجامعة ، وكان هذا البرهان عمليا بالنسبة لتونس ، كما سنرى فى مشكلة بنزرت وقد قلت إنه لا يعنينا هذا ، إذا وَضَعَ انضمامُ تونس لجامعه الول العربية حدا لكل المحاولات التى كانت ترمى إلى التفريق بين دول المغرب العربى والمشرق العربى ، أما أن ترضى تونس على سياسة الجامعة أو لا ترضى . فهذا موضو ع يمكن إصلاحه وإبانة الحق فيه .

واتجهت تونس إلى تعريب التعليم ولا تزال تكافح لبلوغ هذه الغاية ، وإن كانت لم تتجه إلى الاستعانة بشقيقاتها الدول العربية على نحو ما اتجه المغرب والجزائر .

وكما حدث فى الجزائر لم يستطع كثير من المستوطنين أن يعيشوا فى بلاد الأحرار فهاجروا ، وتركوا أرضهم بدون زراعة ، وطال انتظار تونس لعودتهم واستغلال أرضهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان توزيع الأرض الزراعية غير عادل ، وكان للأجانب نصيب الأسد فى هذا التوزيع ، ولهذا أعلن الرئيس الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦٠ استرجاع ١٠٠,٠٠٠ هكتار من المستوطنين أو الملاك غير الشرعيين ، وكانت هذه خطوة أولى ثم تلتها خطوات من هذا النوع أعادت أكثر الأرض إلى الفلاح التونسى .

القوات الفرنسية فى تونس ونهايتها :

عالجت تونس هذه المشكلة بالقوة حينا وبالسياسة حينا ، ولم يكن المستعمر ـ كعادته دائماً ـ يتوقع أن يكون استقلال الشعوب الصغيرة كاملا ، ولكن هذه الشعوب تصر أن يكون استقلالها تاما لا تشوبه شائبة ، ولم تضع معاهدة مارس سنة ١٩٥٦ حلا حاسماً لجلاء المستعمر ، فكان ذلك من المواقف التى رأت تونس أن تؤجلها إلى حين ، وبقيت القوات الاستعمارية موزعة فى عدة معسكرات فى تونس ، واشتعلت الحرب الواسعة بين فرنسا والجزائر ، وأسهمت تونس فى عون الجزائر بطرق متعددة ، فأثار هذا قوات الاحتلال واعتدت على قرية تونسية هى ساقية سيدى يونس بحجة مطاردة العسكريين الجزائريين الذين يتخذون منها معسكراً لهم ، وتأزمت الأمور بين تونس وبين فرنسا إثر هذا الهجوم حتى قطعت العلاقات الديبلوماسية بين البلدين ، وأصرت تونس على جلاء المستعمر عن أراضيها جلاء تاماً ، ولم يتحقق لتونس نجاح فى هذا المجال حتى جاء ديجول إلى الحكم فعقد مع تونس اتفاقية فى يونيو سنة ١٩٥٨ نصت على الجلاء عن القواعد العسكرية فى تونس إلا قاعدة بنزرت البحرية التى اتفق الطرفان على تأجيل النظر فيها بصفة مؤقتة .

وظلت البحرية الفرنسية تتخذ من ميناء بنزرت مرسى لها حينا من الزمن ،

وذلك قد جعل استقلال تونس غير تام ، وحاولت تونس التخلص من هذا القيد ليتم لها انطلاقتها التحررية، وقد أثار هذا الاحتلال للميناء التونسي عاصفة سخط سنة ١٩٦١ فحصل صدام قاس بين جنود الاحتلال وبين الشعب سقط فيه مئات من المناضلين التونسيين ، وعلى الرغم من الجفوة التي أشرنا لها من قبل والتي كانت موجودة آنذاك بين القاهرة وتونس ، وإلا أن هذه الحالة أنست زعماء مصر هذه الجفوة ، فانطلق صوت الرئيس المصرى يعلن أن مصر تؤازر تونس بكل طاقاتها المادية والأدبية في هذا الصراع ، وتضع كل إمكانياتها تحت تصرف تونس الشقيقة ، وقد قضت هذه الوقفة الكريمة على تلك الجفوة التي كانت قائمة ، ولم يكن عرض مصر كلاما ، إنما أصبح عملا فأمدت الحكومة التونسية بألوان من المساعدات قوت جانبها في هذا الصراع ، وانسحبت فرنسا إلى قواعدها الأولى تاركة الأمكنة الجديدة التي كانت قد مدت نفوذها إليها في أثناء هذه المعركة .

وقد تم جلاء هذه القوات في أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، وأعلن الحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس أنه في منتصف أكتوبر سنة ١٩٦٣ تم جلاء آخر جندي فرنسي عن تونس بعد احتلال دام نحو ٨٢ عاماً وقد تم استلام قاعدة بنزرت من القوات الفرنسية .

وأقيم احتفال لرفع العلم التونسي على ميناء بنزرت في ١٩٦٣/١٢/١٣ وحضره الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أحمد بن بيلا .

تأميم المزارع التي يملكها الفرنسيون :

وفي الحادي عشر من مايو سنة ١٩٦٤ وافق مجلس الأمة التونسي على قانون بتأميم جميع المزارع التي يملكها الأجانب ، وهذا القانون يطبق على حوالي ٦٧٠ ألف فدان يمتلكها الفرنسيون وحوالي ٧٥ ألف فدان يمتلكها إيطاليون ومالطيون ، وفي اليوم التالي ألغت فرنسا مساعدتها إلى تونس وهددت وصاحت ، ولكن تونس ظلت على موقفها غير آبهة بهذا التهديد [١] .

---

(١) جريدة العمل التونسية صادرة في ١٤ مايو سنة ١٩٦٤ .

من بورقيبة إلى زين العابدين بن على :

تقدمت السن بالرئيس الحبيب بورقيبة ، ويقال إنه وصل إلى درجة التخليط وعدم الأتزان وحدثت أحداث فى أسرته ، وكل هذا وصل الأمر الى حال استدعت التغيير ، وكان زين العابدين بن على وزيرا الداخلية ، فعينة بورقيبة رئيسا للوزراء ولم يكن ينال هذا المركز حتى جمع قيادات الدين والقيادات السياسية والعسكرية وقرر المجتمعون عزل بورقيبة وتعيين زين العابدين بن على رئيسا للجمهورية ، وكان ذلك فى ٧ / ١١ / ١٩٨٧ .

وللأسف الشديد يسجل الباحثون المسلمون المخلصون جانبا من عدم اهتمام قادة تونس فى العهدين السابق والحالى بالدراسات الاسلامية و الفكر الإسلامى ، وباتجاه تونس إلى العلمانية .

وثقتنا أن الإسلام لا يُغْلب إن شاء الله ، ولا بدٌ لهذا الليل من آخر .

رابعـــا

لـيبـيـا

تقديم : ـ

١ـ عن تسمية ليبيا تقول دائرة المعارف الايطالية : « اسم ليبيا قديم ينحدر من الجغرافيا القديمة ، وأول من أخرجة إلى الاستعمال العالم الجغرافى مينوتلى فى كتابه (جغرافية ليبيا) المطبوع فى تورينو سنة ١٩٠٣ ليدل به « على الولاية التركية التى تشمل طرابلس وبرقة ، ثم اتخذته إيطاليا اسما رسميا لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها ، ومن ذلك الحين شاع استعماله شاملا طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها » [١] .

وعند إعلان استقلال ليبيا سنة ١٩٥١ رؤى أن يظل هذا الاسم علما على الدولة الجديدة ، ولم يؤخذ باقتراح أن تسمى « الدولة البرقاوية » تحاشيا لإغضاب طرابلس وفزان .

ولعل هناك صلة بين تسمية « ليبيا » وبين منطقة « لوبيا » الواقعة بين حدود مرسى مطروح الغربية وبين حدود برقة الشرقية ، وسكانها يسمون اللوبيين ، ويرجح أن يكون بعض سكان « لوبيا » قد ساروا غربا واتخذوا فى مقامهم الجديد نفس تسميتهم القديمة ، وهذه المنطقة تابعة لمصر الآن ، وكانت هى وبرقة تابعتين للاسكندرية فى أثناء حكم الروم قبل الاسلام [٢] .

٢ ـ عن أقسام ليبيا نقول إنها تتكون الآن من المنطقة الشرقية (برقة) والغربية (طرابلس) والجنوبية (فزان) وإن تكوين قطر واحد من هذه المناطق قد ظهر إبان حكم الأتراك العثمانيين تحت اسم « طرابلس الغرب » أما قبل ذلك فكان لهذه المناطق شأن آخر سنتحدث عنه فيما بعد ، على أن تكوين قطر واحد من هذه المناطق فى عهد العثمانيين لم يستقر تماما ، وإنما حدثت بعض حركات انفصالية من حين لآخر ،

وجاء الاحتلال الإيطالى فوحَّد هذه المناطق فى « ليبيا » وقبيل إعلان الاستقلال جرت محاولات هدفها الفصل بين أجزاء الوطن الواحد ، ولكنها فشلت ، وأعلن قيام « المملكة الليبية المتحدة » من الولايات الثلاث ، وبعد

(١) دائرة المعارف الايطالية نقلا عن تاريخ الفتح العربى فى ليبيا للاستاذ الطاهر الزاوى ص ٣

(٢) الطاهر الزاوى : المرجع السابق ص ٢٠ .

اثنتى عشرة سنة تمت الوحدة الشاملة بين هذه الولايات ، وذابت الحدود بينها ، فقد أعلن جلالة الملك محمد إدريس السنوسي فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٣ انتهاء الحكم الاتحادى فى ليبيا ، وبدء نظام الوحدة الشاملة ، وكان البرلمان الاتحادى والمجالس التشريعية للولايات قد وافقت على هذه الوحدة فى الأسبوع السابق لهذا الاعلان

ذلك مفتاح القول عن هذا القطر العربى ، وسنشرح ما ذكرناه آنفا ، فيما يلى من سطور :

طرابلس قبل عهد الأتراك العثمانيين :

كانت طرابلس فى عهد الأتراك العثمانيين تكّون مع تونس ولاية «إفريقية» كما سبق القول ، فكان أمراء تونس يعينّون من قبلهم حكام طرابلس ، وقد دام ذلك أغلب فترات هذه الحقبة ، وحدثت فترات استقلالية ، كما حدث أحيانا أن انتقلت زعامة ولاية « إفريقية » إلى طرابلس .

برقة قبل عهد الأتراك العثمانيين :

برقة يفصلها عن طرابلس صحراء سرت ، وعندما فتح المسلمون برقة ألحقت بمصر ، ثم تنازعتها السلطات القبلية وسلطة الأغالبة ولكنها كانت فى الغالب تابعة لمصر ومرتبطة بها ، وظلت كذلك حتى اقتحمها بنو هلال وبنو سليم سنة ٤٤٤ كما سبق القول ، فأصبحت خاضعة للحكم القبلى حتى قبيل منتصف القرن السادس الهجرى ، ثم زحف عليها الموحدون ، ومدوا إليها سلطانهم ، ولكن سلطان الموحدين عليها لم يكن طويلا ، ففى سنة ٥٦٨ استعادها الأيوبيون بمصر ، وفى عهد المماليك تراخت قبضتهم عليها إثر الضعف الذى نزل بهم نتيجة الاضطراب الاقتصادى الذى نتج عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد تسبب عن تراخى قبضة المماليك أن تأرجح السلطان على برقة بين المماليك وبين الحكم القبلى [1] .

ويقول الدكتور حسن سليمان [2] إن قبائل بنى سليم تفرعت ببرقة إلى بطون

(١) See " Atlas of Is'amic History " Passim

(٢) ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٢٢ .

وأنخاذ ، واستقل كل بطن بما تحت يده ، واتجه الولاء لشيخ القبيلة دون الاعتراف بأية سلطة أخرى ، واعتمدت كل قبيلة منها على القوة والتحالف مع غيرها فى سبيل الاحتفاظ بكيانها القبلى والدفاع عنه أمام أى طارىء يهددها ، وظلت الحال كذلك حتى ضمها العثمانيون لإمبراطوريتهم .

فزان قبل عهد الأتراك العثمانيين :

خضعت فزان فى أكثر فترات هذه الحقبة للحكم القبلى ، وفى عهد المرابطين خضعت فزان لسلطانهم ، وامتد لها ملك الموحدين كذلك ، وتبعت بنى حفص إبان قوتهم ، ولكنها كانت دائما تنتهز الفرص للاستقلال الذى تقضى به طبيعة الحياة فى الصحارى ، وقد ظهر بفزان من بين القبائل أسرتان كان لهما السلطان فى فترات طويلة نوعا ما ، وهما أسرة بنى خطاب وأسرة بنى محمد ، وسنتكلم عنهما فى حينهما .

ليبيا من العهد التركى :

قلنا آنفاً إن تكوين قطر واحد من طرابلس وبرقة وفزان إبان حكم العثمانيين لم يستقر تماما ، فإن العثمانيين لم يحكموا فزان حكما مباشرا ، بل أقروا أسرة بنى محمد التى كانت ذات سلطان على فزان عند زحف العثمانيين ، واعتبر العثمانيون على أى حال أصحاب السيادة العليا ، وكان بنو محمد يدينون لهم بالولاء ، فلما استقل آل قره مانلى بالأمر فى طرابلس وبرقة بقى بنو محمد بجوارهم أنداداً لهم لا يدينون بالولاء إلا للخلافة العثمانية ، وتسبب عن ذلك خلاف بين الجانبين لم ينته إلا فى عهد يوسف باشا القره ما نلى الذى قتل آخر أمراء بنى محمد سنة ١٨١١ ، أى بعد قرن من قيام أسرة القره مانلى ، وعادت ليبيا متحدة تحت سلطان القرمانليين . وكذلك فى أثناء الحكم العثمانى بعد سقوط آل قره مانلى .

وجاء الاحتلال الايطالى الذى شمل المناطق الثلاث باسم « ليبيا » وظل حتى جاء عهد النور والحرية .

ذلك موجز القول عن تاريخ ليبيا الإسلامية وسنشمله بدارسة مفصله فيما بعد

، الا حيث يقوم الحكم القبلى ، فإننا نكتفى بهذا التعبير الذى يحمل فى ثناياه معالم هذا الحكم ، الذى يخضع لنظام القبيلة فى نظمها السياسية و الاقتصادية والاجتماعية ، الذى يختلف قليلا أو كثيرا باختلاف القبائل .

٣ ـ اتضح مما سبق أن تاريخ ليبيا يحوطه شيء من الغموض ، ولعل هذا هو الذى دعا كثيرين ممن كتبوا تاريخ الشمال الافريقى أن يقصروا كلامهم على المغرب والجزائر وتونس ، ومن هؤلاء :

الدكتور صلاح العقاد فى كتابه « المغرب العربى » .

الأستاذ سعيد العريان وآخران فى كتاب « شمال افريقية » .

وأما الدكتور حسن سليمان الذى أرَّخ لـ « ليبيا بين الماضى والحاضر » فقد أورد أكثر كلامه عن طرابلس تابعة لتونس أو مستقلة عنها . ولم يخصص لبرقة وفزان إلا مساحة ضئيلة (١) .

وقد كتب الدكتور صلاح العقاد السبب الذى من أجله لم يضمّن كتابه سالف الذكر شئيا عن ليبيا ، ولم يقنعنى اعتذاره ، وفيما يلى كلماته :

وقد يتساءل القارىء : لماذا لم يشمل الكتاب ليبيا وقد جرى العرف على حسابها من بلاد المغرب ؟ والجواب على ذلك ينطوى على حقيقة مؤسفة ، هى أن الاستعمار ترك فى بعض البلاد العربية آثاراً بعيدة ، بحيث أوجد رابطة خاصة من نوع جديد بين البلاد التى خضعت لاستعمار واحد ، ولم تشارك ليبيا جيرانها فى الخضوع للاستعمار الفرنسى ، وتتضح هذه الحقيقة من مؤتمر طنجة الذى انعقد سنة ١٩٥٨ لبحث وسائل التقريب بين أقطار المغرب ، مع أن ليبيا قد دُعيت إليه إلا أنها لم تلعب فيه دورا يذكر (٢) .

وعندى أن هذا الاعتذار قد تكون له قيمة لو أن المؤلف يكتب عن « المغرب العربى المصبوغ بالصبغة الفرنسية » لتخرج بذلك ليبيا إذ كانت ـ فى رأيه ـ لها صبغة إيطالية ، وعندى كذلك أن الصبغات الأجنبية بالعالم العربى لم تكن قط

(١) ص ١٧٢ وسطور قليلة فى صفحات أخرى .

(٢) المغرب العربى ص ٥ .

بعيدة الغور، أما أن ليبيا لم تلعب دورا في مؤتمر طنجة ، فهذا ليس سببا لاستبعادها من دول المغرب العربي .

وفي رأى الدكتور محمد فؤاد شكرى أن التعبير الذى يستعمل قديما وهو طرابلس الغرب يساوى التعبير الذى يستعمل حديثا وهو ليبيا ، وكلا التعبيرين يشمل المناطق الثلاث : طرابلس وبرقة وفزان [1] .

ويقول الأستاذ محمود الشنيطى [2] : إن ليبيا كانت تسمى طرابلس الغرب أيام العثمانيين ، وهو رأى أقرب للصواب فيما نرى من رأى الدكتور فؤاد شكرى ، فقد حدده بالعهد العثمانى ، أما الدكتور شكرى فقد أطلقه .

والآن نبدأ حديثنا عن ليبيا مستقلة أو تابعة ، ومن الواضح أن الدول التى قامت بتونس كان لها السلطان على طرابلس فى أغلب فترات التاريخ كما سبق القول ، وسنعرض لهذه الدول هنا من ناحية صلتها بطرابلس فقط .

صلة ليبيا بتونس قبل الأغالبة :

بعد أن استقر فتح افريقية على يد موسى بن نصير ، أخذ أمراء القيروان يعينون الولاة على طرابلس ، ومن أشهر ولاة طرابلس فى هذه الحقبة بكر بن عيسى وقد ولاه عليها موسى بن نصير ، ومعاوية بن صفوان الذى عينه حنظلة بن صفوان أمير القيروان من قبل هشام ابن عبد الملك .

وكان أول أمير للعباسيين بالقيروان هو عبد الرحمن بن حبيب الذى عين أخاه إلياس بن حبيب عاملا علي طرابلس ، ولكن هذا اصطدم بالإباضية فعزله أخوه وولى حميد بن عبد الله العكى ثم يزيد بن صفوان المعافرى ، فعمرو بن سويد المرادى .

وأشهر أمراء العباسيين على « إفريقية » يزيد بن حاتم المهلبى ، وقد اصطدم بالإباضية الذين كان نفوذهم قد انتشر بالشمال الافريقى بقيادة أبى حاتم الإباضى الذى كان قد اتخذ طرابلس مركزا له ، وقد هزمه يزيد هزيمة ساحقة

---

(١) ليبيا الحديثة ص ٧٤ .

(٢) قضية ليبيا ص ١٦ .

ودعم ملك العباسيين بطرابلس وولى عليها سعيد بن شداد . وجاء بعد يزيد أخوه روح بن حاتم فابنه الفضل بن روح الذى ولى على طرابلس يحيى بن موسى ، و قَتَل الفضلَ ـ ثائرٌ ،عربىٌ « اسمه عبد الله ابن الجارود » وأراد أن تصير له ولاية « افريقية » ولكن الرشيد رفض ذلك وولى هرثمة بن أعين الذى ولّى على طرابلس سفيان بن أبى المهاجر .

وفى أيام هرثمة ثار البربر ثورة عارمة برز فى إخمادها ابراهيم بن الأغلب الذى آل له حكم « افريقية » بعدها على نحو ما ذكرنا من قبل .

طرابلس فى عهد الأغالبة :

امتد سلطان الأغالبة الى طرابلس كما ذكرنا من قبل ، وكانت طرابلس أهم مناطق سلطانهم ، لذلك كانوا يعيّنون عليها الولاة من أسرتهم غالباً ، وقد بدأ إبراهيم بن الأغلب هذه السياسة فعين ابنه عبد الله والياً على طرابلس ، وقامت حروب طويلة بين الإباضية وبين عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، ولم يكن النصر حاسما فى هذه الحروب لأحد الجانبين ، وحدث أن مات ابراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ والحرب دائرة ، وكان من الضرورى أن يرحل عبد الله إلى تونس ليتولى إمارة إفريقية بعد أبيه ، فصالح آل رستم على أن تكون مدينة طرابلس لبنى الأغلب ، وأن يكون لآل رستم باقى الاقليم حتى سرْت [1] .

ومن الأغالبة الذين أسندت لهم ولاية طرابلس عبد الله بن محمد بن الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب ، وقد ولاه أخوه أحمد الذى آلت له إمارة « افريقية » سنة ٢٤٢ ومنهم كذلك أحمد بن عبد الله بن الأغلب وقد عينه أخوه زيادة الله الثالث ، وفى هذا العهد ظهر أبو عبد الله الشيعى ، ولم يستطع بنو الأغلب أن يُخفتوا صوته ، إذ كان سلطانهم بدأ يتدهور بسبب الترف الذى شمل قصورهم والانحلال الذى عم سلطنتهم ، وهُزمت جيوش زيادة الله أمام جيوش أبى عبد الله الشيعى ، وفر زيادة الله إلى مصر ، وأرسل لأخيه أحمد حيث لحق به ، وانقضى بذلك عهد الأغالبة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٦ ص ٩٨ وانظر المنهل العذب جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٥ .

ومن ولاة طرابلس المشهورين من غير أسرة بنى الأغلب سفيان ابن أبى المهاجر ، وقد أسندت له هذه الولاية ثلاث مرات ، كانت أولاها فى عهد هرثمة بن أعين قبل بدء حكم الأغالبة ، وقد أقره ابراهيم بن الأغلب عندما بدأت إمارته ، وقد ظل فى ولايته هذه حتى سنة ١٨٩ حيث ثار عليه أهل طرابلس وأخرجوه منها ، ولكن بنى الأغلب أعادوه لهذه الولاية بعد ذلك .

ومن ولاة طرابلس كذلك محمد بن قهرب وقد ولاه أبو الغرانيق محمد ابن أحمد بن الاغلب [١] وولاه معها برقة [٢] ، وفى أثناء ولايته قدم العباس بن أحمد بن طولون سنة ١٦٥ من مصر يريد اغتصاب افريقية من بنى الاغلب وتكوين إمارة خاصة به إذ كان على خلاف مع والده ، وقد زحف العباس بجيش عظيم وعدة كبيرة ومال وفير وتمكن من الاستيلاء على برقة من ابن قهرب وزحف تجاه طرابلس حتى حاصرها ودخلها ، ولكن العباس وقع فى صراع عنيف من كل جهة ،فأبوه يلاحقه ، والأغالبة يزحفون اليه ، والإباضية بقيادة الياس بن أبى منصور زعيم جبل نفوسه يناصبونه الجلاد ، وقد هزت هذه الأحداث جنده فهزم هزيمة ساحقة أمام الإباضية ، وقبض عليه جند أبيه وساقوه إليه مقيدا بالسلاسل [٣] .

طرابلس تحت سلطان الفاطميين :

وأقام الفاطميون دولتهم فى إفريقية كما سبق القول ، وأخذوا يعينون الولاة على طرابلس ، ومن ولاتهم عليها ماكنون بن ضبارة اللحيانى ، و قد ولاه عبيد الله المهدى ، وفى عهد خلفه محمد بن عبيد الله المهدى شبت بطرابلس ثورة ابن كيداد التى تحدثنا عنها فيما سبق ، ومن ولاة الفاطميين على طرابلس كذلك زيان الـ[illegible] ، وقد ولاه المنصور ، وينسب لزيان إصلاح سورالمدينة والزيادة فيه

---

(١) المنهل العذب جـ ١ ص ٨١ .

(٢) الطاهر الزاوى : الفتح لعربى فى ليبيا ص ٥٠ ـ ١٠

(٣) المنهل العذب جـ ١ ص ٨٢ وما بعدها وتاريخ الفتح العربى بليبيا ص ١٥١ وما بعدها .

ليبيا بين مصر وتونس :

ـ جاءت بعد الفاطميين دولة آل زيرى ، وقد بيّنّا من قبل علاقتها بالفاطميين وذكرنا أن الخليفة المعز حينما ولى بلكين بن زيرى إفريقية لم يجعل له سلطانا على مدينة طرابلس كما استثنى مدينتى أجدابيه وسرت ، وعين عليها عاملا من قبله هو عبد الله بن يخلف الكتامى ، فلما كان عهد العزيز بالله تقدم له بلكين بن زيرى يرغب فى ضم هذه البلاد إلى إمارته فأجابه لذلك ، وعقد له عليها ، ورحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامى [1] . وولى بلكين عوصلة بن بكار .

ـ ظل عوصلة فى عمالته هذه خلال مدة بلكين بن زيرى وابنه المنصور وشطرا من أيام باديس بن منصور ، وفى خلال هذه المدة كان انشقاق آل زيرى عن الخلافة الفاطمية قد بدأ يظهر ، فرأى عوصلة أن يأخذ جانب الفاطميين ، فكتب الى الخليفة الحاكم بأمر الله يبدى رغبته فى العيش فى حضرته ، ويعلن استعداده لتسليم ولايته الى من يعينه الخليفة ، فاستجاب الخليفة لذلك وعين يانس الصقلى واليا على هذه المنطقة ، وسافر يانس فتسلم أمورها من عوصلة سنة ٣٩٠ هـ وسافر عوصلة الى مصر بأهله حيث أقام فى رحاب الحاكم بأمر الله

وقد اعتبر باديس بن منصور هذا التصرف مخالفا للعهد الذى ناله جده بلكين من المعز لدين الله ،ويقضى هذا العهد بضم هذه الولاية لإمارة تونس ، وهكذا وقع خلاف صريح بين القاهرة وبين آل زيرى ، وكانت زناتة تنافس صنهاجة ، فانتهزت هذه الفرصة لتدخل المعركة ضد آل زيرى ، ولم يؤيد خلفاء القاهرة زناته ، فاحتدم نزاع بين القوى الثلاثة امتد حوالى نصف قرن ، وفيما يلى مزيد من الشرح عن هذا الخلاف وعما أسفر عنه من نتائج :

آل خزرون الزناتيون بطرابلس ٣٩٠ ـ ٥٤٠ هـ :

قلنا إن الحاكم بأمر الله عين يانسا الصقلى حاكما لطرابلس بدل عوصلة بن بكار ، ولكن باديس بن منصور لم يقبل هذا الوضع وعين جعفر بن حبيب واليا على طرابلس ، وسار جعفر حيث حارب يانسا وانتصر عليه وقتله .

---

(١) المنهل العذب جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

بيد أن فلفول بن سعيد الزناتي انتهز فرصة الخلاف بين الخلافة الفاطمية وآل زيري فزحف في جيش من قومه و تمرد على آل زيري على الرغم من أنه كان واليا لهم ، واستولى على طرابلس ، ولم يقو جعفر على مناوأته فترك طرابلس وسار إلى قابس حيث اعتصم بها .

وأرسل فلفول للخليفة الفاطمي يعلن ولاءه ويرجو إقراره على ولاية طرابلس ، ولكن الخليفة الفاطمي لم يوافق على ذلك ، وعين يحيى بن علي بن حمدون واليا على طرابلس ، ولما سار يحيى أدرك أنه ـ مع قلة المال والرجال ـ لا يستطيع التغلب على زناتة ، فتعاون مع فلفول فترة ثم رجع الى مصر ، ولما وجد فلفول أن مصر لاتريد الاعتراف به ، وكذلك كان آل زيري يعتبرونه متمردا فإنه بعث إلى خلفاء قرطبة يعلن انضمامه لهم ، ولكن قرطبة كانت في شغل عنه .
وأهم أمراء زناتة على طرابلس هم [1] :

فلفول بن سعيد بن خزرون الزناتي	٣٩٠
ورّو بن سعيد بن خزرون	٤٠٠ ـ ٤٠٣
خليفة بن ورو	٤١٤
سعيد بن خزرون بن سعيد	٤٣٣
خزرون بن خليفة	٤٤٦
المنتصر بن خزرون	٤٥٠
خليفة بن خزرون	٤٦٠
محمد بن خزرون بن خليفة بن ورو	٤٨٨ ـ ٥٤٠

أما الفترة بين ٤٠٣ و ٤١٤ فقد عاد النفوذ خلالها لآل زيري وقد ولوا على طرابلس في هذه المدة محمد بن الحسن ثم عبد الله بن الحسن .

(١) لم يورد زامباور ولا Stanley Lane-pool شيئا عن هذه الأسرة وقد جمعنا أسماء الأمراء وتاريخ حكمهم من أشتات المراجع

ـ ومن الواضح أن إمارة الزناتيين على طرابلس لم تكن مستقرة ، وكانت تبحث لها عن تأييد من القاهرة أو تونس ، وقد استطاع خليفة بن ورو أن يسترضى الجانبين فى وقت ما .

وأهم الأحداث التى انجلى عنها هذا الصراع وأجمع عليها الزناتيون والصنهاجيون جمعيا كان ترك المذهب الشيعى والعودة لمذهب مالك ، وقد أدى هذا إلى أن يدفع الخليفة الفاطمى (المستنصر) بينى هلال وبنى سليم إلى الشمال الافريقى حيث اجتاحوا هذه البقاع كما سبق القول [1] .

ـ وأسلم هذا الخلاف وذلك الاضطراب إلى نتيجة مؤسفة هى طمع الفرنجة فى الزحف على طرابلس .

برقة إبان عهد الزناتيين :

ـ وفى مطلع عهد آل خزرون كانت برقة تابعة لمصر ، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمى يعين عليها من قبله ، وقد ثار بها رجل ينسب الى بنى أمية ،كنيته أبو ركوة ، وانتصر أبو ركوه فى الجولة الأولى على إينال الطويل والي برقة من قبل الحاكم ، وأطمعه هذا النصر ، فظن أنه يستطيع أن يزحف على مصر ، وخدعه قواد الحاكم إذ كتبوا له يعلنون أنهم يؤيدونه ، فسار الى مصر والتقى بجيش مصرى صاخب فتشتت شمله . وهرب أبو ركوة ولكنه طورد وقبض عليه وقتل وصلب سنة ٣٩٧ هـ .

الفرنجة فى الشمال الأفريقى :

قلنا إن الاضطرابات شملت طرابلس وبرقة وفزان قبيل زحف بنى هلال وبنى سليم ، وكان ذلك بسبب الحروب بين الفاطميين والصنهاجيين والزناتيين وابى

---

(١) هذه المعلومات تلخيص لقراءة كثيرة فى مراجع لم توضح الموضوع وأهم هذه المراجع مايلى :

١ ـ ابن الأثير : الجزء السادس .

٢ ـ المنهل العذب : الجزء الأول .

٣ ـ ليبيا فى الماضى والحاضر فى عدة صفحات .

٤ ـ معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى لزامباور .

ركوة ، وقد زاد الاضطراب واستفحل بالزحف العربى الذى أسلم البلاد إلى الفوضى ، فلم يعد آل زيرى قادرين على سياسة البلاد ، ولا استطاع الزناتيون الاحتفاظ بسلطان هادىء ، وكانت الخلافة الفاطمية تمر بفترة من القلق والضعف ، فزادت أطماع الفرنجة فى احتلال أهم بلاد الشمال الافريقى ، وكانت محاولاتهم الأولى لاحتلال طرابلس سنة ٥٣٧ فى عهد محمد بن خزرون بن خليفة ولكنه استطاع بمساعدة آل مطروح أن يرد الفرنجة على أعقابهم إلى صقلية . بيد أن طرابلس اجتاحتها مجاعة قاسية سنة ٥٤٠ فثار بنو مطروح ضد محمد بن خزرون واستولوا على السلطة واستقلوا بطرابلس عن آل زيرى وعن الزناتيين ، ولكن روجر زحف مرة ثانية من صقلية واستطاع هذه المرة أن يستولى على سفاقس ثم على طرابلس سنة ٥٤١ حيث أقر رافع بن مطروح واليا عليها من قبَله ، واستولى روجر كذلك على المهدية سنة ٥٤٣ من الحسن بن على الصنهاجى فقضى بذلك على إمارة الصنهاجيين وامتد ملك الفرنجة على الساحل من طرابلس الى قرب تونس حتى استنقذها منهم الموحدون سنة ٥٥٥ [1] .

الموحدون ٥٥٤ ـ ٦٦٨ :

تحدثنا عن الموحدين عند حديثنا عن المغرب ، وذكرنا أنهم أقاموا دولتهم على أنقاض المرابطين فى المغرب . ثم اتجهوا نحو الشرق استجابة لنداء سكان طرابلس الذين طلبوا عونهم ضد الفرنجة الذين احتلوا المهدية ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس ، ولم يستطع الفرنجة أن يصمدوا أمام زحف الموحدين فَجَلَوا عن الساحل الأفريقى ، وسار الموحدون الى الشرق حتى تاخمت ممتلكاتهم حدود مصر ، وولى الموحدون أبا يحيى ابن مطروح امارة طرابلس فظل أميرا حتى سنة ٥٦٨ [2] .

الأيوبيون فى طرابلس :

لم توضح المراجع التاريخية التى بين أيدينا إيضاحا شافيا ظروف الحملة الأيوبية التى قادها قرة قوش وسار بها إلى إفريقية حتى استولى على طرابلس

(١) المنهل العذب جـ ١ ص ١٣٤ ـ ١٣٦ وليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣ .

، وأقرب ما نستنتجه من قراءة هذه المراجع أن الأيوبيين أرادوا استعادة النفوذ المصري في البلاد المتاخمة لحدودهم الغربية ، فأرسلوا قره قوش بجيش لهذه الغاية سنة ٥٦٨ ، ولكن قره قوش آثر بعد انتصاره أن يكوّن لنفسه سلطانا مستقلا عن سلطان الأيوبيين فخطب للخليفة العباسي ، ولكن الخليفة العباسي لم يوافق على ذلك حرصا على إرضاء الأيوبيين الذين أعادوا الخطبة له في مصر بعد أن كانت للفاطميين حوالي القرنين ، ولما رفض الخليفة العباسي الاعتراف بقرة قوش ضعف شأنه ، وتعرض لهجمات الموحدين وعلى بن غانية وهو من بقايا المرابطين ، وقبض ابن غانية على قرة قوش وكبار رجاله وشنقهم ، وأصبح لابن غانية الأمر في طرابلس ، ولكنه كان متجبرا ظالما ، وساعده على الاستبداد أن زعيم الموحدين كان قد عبر المضيق إلى الأندلس فخلا الجو لابن غانية فزاد طغيانه وظلمه ، ولما عاد زعيم الموحدين قصد هذه البلاد وأوقع بابن غانية وأعاد طرابلس وما حولها لسلطانهم وظلت لهم يولون عليها من قبلهم حتى استبد بها بنو حفص [1] ، أما برقة فقد بقيت تابعة لسلطان مصر كما سبق

ويروى الطاهر الزاوى [2] أن قره قوش خرج مغاضبا ، فقد كان سيده أعد الجيش للزحف على طرابلس ثم عدل عن رأيه ، فخالفة قره قوش وغالبية الجند والقواد وزحفوا الى طرابلس ، وفتحوها باسمه .

بنو حفص في افريقية :

تكلمنا عن بني حفص عند الكلام عن تونس ، وقد أسس هذه الدولة أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي ، وكان في الأصل واليا عليها من قبل الموحدين ، ولما ضعف شأن الموحدين استقل بها مكونا الدولة الحفصية التي دامت أكثر من ثلاثة قرون ، واتخذ بنو حفص تونس مركزا لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس [3] ، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي ، وعبد الله بن ابراهيم بن جامع ، ومحمد بن عيسى الهنتاني ، ويوسف بن طاهر اليربوعي ، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار

(١) انظر المنهل العذب جـ ١ ص ١٤١ ـ ١٥٦ وليبيا في الماضي والحاضر ١٥٢ ـ ١٥٤ .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢١٣ .

(٣) لمزيد من القول عن بني حفص يراجع العبر لابن خلدون جـ ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها .

أعيان طرابلس ضده وقبضوا عليه وقتلوه ، ولم تظهر حركات استقلالية فى عهد الوالى الثانى ، أما الوالى الثالث فقد استقل بطرابلس عن أمراء بنى حفص فى أثناء إمارة أبى عبد الله محمد (٦٤٧ ـ ٦٦٥) وظل مستقلا حتى عهد أبى حفص عمرو (٦٨٣ ـ ٦٩٤) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته ، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعى فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر [١] .

زعامة افريقية تنتقل الى طرابلس :

ذكرنا عند الكلام عن بنى حفص أن الخلافات كانت كثيرة فى عهد هذه الدولة ، وأن الثورات كانت متصلة من أمير ضد أمير ، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة ، وفى مطلع القرن الثامن الهجرى كان الاضطراب قد بلغ أشده ، وكان زكريا بن أحمد اللحيانى أحد أمراء بنى حفص قد عاد حديثا من الحج الى طرابلس ، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميرا لهم سنة ٧١١ ، ورأى اضطراب الاحوال بتونس فعقد العزم على غزوها ، ويقول صاحب المنهل [٢] :

فأغذّ السير إلى تونس ، وصبحوها ثامن جمادى الآخرة من هذه السنة ، وعقدت له البيعة العامة بظاهرها ثم دخل البلد واستولى عليها ... ثم انتقل من تونس بعد أن استخلف ابنه محمد أبو ضربة عليها ، سار شرقا حتى انتهى إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس .

وظلت طرابلس عاصمة النشاط السياسى بإفريقية حوالى ست سنوات ، ثم انهزمت هذه الحركة أمام الزحف الذى قاده يحيى أبو بكر سنة ٨١٨ الذى استطاع أن ينقذ تونس ، ولكنه لم يستطع أن يقضى على استقلال طرابلس ، بل ظل أمراء طرابلس بعد ذلك يهددون تونس من حين الى آخر .

---

(١) المنهل العذب جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٦٩ .

(٢) المنهل العذب ص ١٧٤ وما بعدها .

طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص :

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم [1] آل لهم أمر طرابلس ابتداء من سنة ٧٢٤ هـ وظلوا يحكمونها ـ بدون استقرار وتسلسل على ما سيأتي ـ حتى قبيل غزو الأسبان لها ، ومن ولاة بني ثابت :

ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤

محمد بن ثابت ٧٣٠

[غزا جزيرة جربة وضمها الى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨) .

ثابت بن محمد (الثاني) ٧٥٠

[استولى تجار جنوة على مدينة طرابلس سنة ٧٥٥ وفرّ ثابت وقُتِل وافْتَدَي أبو العباس أحمد ابن مكى والى قابس مدينة طرابلس من تجار جنوة بخمسين ألف مثقال من الذهب ، وصار واليا عليها بعد تطهيرها من الفرنجة حتى توفى سنة ٧٦٦ فخلفه ابنه عبد الرحمن] .

أبو بكر محمد بن ثابت ٧٧٢

[انتزع طرابلس من عبد الرحمن ، وحسّن علاقته ببني حفص واعترف لهم بالولاء] .

على بن عمران بن محمد بن ثابت ٧٧٢

يحيي بن أبى بكر بن ثابت ومنافسون آخرون ٨٠٠ ـ ٨٠٣

---

(١) الزراوى ص ٢٣٤

استعاد بنو حفص سلطانهم على طرابلس سنة ٨٠٣ ولكن بدون استقرار مما هيأ الفرصة للأسبان ليحتلوها] [١] .

الاستعمار الأسبانى فى طرابلس : ٩١٦ - ٩٣٦ = ١٥١٠ - ١٥٣٠ :

شهد القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ميزان القوى بين المسلمين والفرنجة وقد رجحت فيه كفة الفرنجة وشالت كفة المسلمين ، فقد تم النصر للأسبان فى الأندلس ، وأسقطوا آخر معقل للمسلمين بها ،وتملكهم الزهو والأمل ، فوضعوا الخطط ليتعقبوا المسلمين المنهزمين إلى الشاطىء الافريقى انتقاما من الاسلام حيث يكون ، وانتقاما من الشاطيء الافريقى الذى طالما جرد الحملات ضد أسبانيا وساعد المسلمين هناك بالعتاد والرجال .

وفى نفس الوقت كان الشمال الافريقى يمر بفترة هرم وشيخوخة ، وبنو حفص في تونس لم يعد لهم حول ولاطول ، وقد سبق أن تكلمنا عنهم وعن اضمحلال شأنهم ، والاضطرابات فى طرابلس تتجدد كل يوم ، وكثير من مدن الساحل الافريقى أصبحت تحت سلطان الفرنجة كما ذكرنا من قبل .

ومع هذا الضعف السياسى كانت طرابلس تمرّ بفترة رخاء مادى ، وكانت أسبانيا بعد نضالها الطويل تتطلع إلى مصادر ثروة تستغلها فى بناء ما هدمته يد الكفاح والصراع .

كل هذه العوامل هيأت السبيل لزحف الأسبان على طرابلس ، وقد أقلع الأسطول الأسبانى سنة ٩١٦ هـ وكان يتكون من ١٢٠ سفينة بقيادة الكونت نافار نائب الملك بصقلية ، ووصل الأسطول الى المدينة فأطلق عليها نيرانه ، وأنزل القائد جنده على الساحل دون مقاومة تذكر سنة ١٥١٠ ، وكرر المسيحيون المأساة التى لا يغفلون عنها ، فقتلوا آلاف الناس بدون ذنب ، أسالوا الدماء أنهارا ، وقبضوا على كل من عثروا عليه ، ويقدر المؤرخ الهولندى « مارجول »

---

(١) تاريخ الفتح العربى في ليبيا ص ٢٣٤ ـ ٢٤١

عدد القتلى بستة آلاف والأسرى بخمسة عشر ألفا [1] .

وماجت أوربا فرحا وطربا باحتلال الأسبان لطرابلس وبقتل المسلمين ، أما المعسكر الإسلامى فقد بدأت تدب فيه روح اليقظة ، وكان الأسبان يعتقدون أن طرابلس ستكون مركزا ينشرون منه سلطانهم على الشمال الافريقى كله ولكن اليقظة التى أبداها الجانب الإسلامى أظهرت للأسبان أنهم كانوا واهمين ، وأن آمالهم كان مبالغا فيها ، فقد بقى المسيحيون داخل سور المدينة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوها إلى أية بقعة أخرى داخل البلاد ، كما حاولوا أن يفتحوا بعض الجزر القريبة من طرابلس مثل جزيرة جربة ولكن محاولاتهم فشلت كلها ، وتحولت تجارة المسلمين عن طرابلس إلى غيرها من المدن وبهذا اختفى مصدر الثروة بطرابلس ، وأصبح واضحا أن طرابلس تكلف الأسبان مبلغا كبيرا من المال وجهدا واسعا دون فائدة تذكر ، وكان هذا من الأسباب التى جعلت الآسبان لا يجدون مانعا من منحها هبة لفرسان القديس يوحنا بمالطة .

فرسان القديس يوحنا بطرابلس ٩٣٦ ـ ٩٥٨ = ١٥٣٠ - ١٥٥١ :

« فرسان القديس يوحنا » اسم منظمة مسيحية كانت تعيش فى القدس لمساعدة الحجاج المسيحيين الذين يفدون من مختلف الجهات ، وفى أثناء الحروب الصليبية كانت هذه المنظمة تعنى بمعالجة جرحى المسيحيين ، كما كانت تلعب دورا عسكريا تخفيه وراء مظهرها الدينى . ولما فتح صلاح الدين الأيوبى القدس لم يقض على هؤلاء ، واكتفى بإبعادهم عن بيت المقدس ، فلجأوا إلى عكا ، وقاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين ، ولما سقطت عكا انتقل أعضاء المنظمة الى جزيرة رودس وبقوا بها حتى أوائل القرن السادس عشر حين استسلمت هذه الجزيرة للأسطول العثمانى فغادرتها منظمة القديس يوحنا إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع .

ومن ايطاليا طلبوا من شارل الخامس امبراطور أسبانيا أن يمنحهم جزيرة مالطة لتكون مركزا لنشاطهم ضد البلاد الاسلامية ، فوافق الامبراطور على ذلك ،ثم أعطاهم طرابلس لتكون لهم إدارتها المباشرة باسم الامبراطورة . فانتهى

---

(١) نقلا عن راسم رشدى : طرابلس الغرب ص ٨٧ .

بذلك سلطان أسبانيا المباشر على طرابلس ، وبدأ سلطان الفرسان سنة ١٥٣٠ فأخذ هؤلاء يعينون حاكم المدينة من قبلهم (١)

الأتراك العثمانيون فى الشمال الافريقى :

من الواضح أن المسيحيين مثلوا دور الطغاة الجبارين في كل البلاد التى احتلوها بشمال افريقية ، شأنهم فى كل البلاد الإسلامية التى استطاعوا أن يطئوها بأقدامهم ، وقد علت شكوى المسلمين بالشمال الأفريقى مما عانوه من ظلم المسيحيين وطغيانهم ، وكان الأتراك العثمانيون قد وصلوا القمة فى مجدهم السياسى والحربى آنذاك ، إذ تم لهم فتح سوريا ومصر وأصبح سلطانهم يلقب خليفة المسلمين ، ومن أجل هذا تطلع سكان شمالى إفريقية إلى الخلاص على أيدى الأتراك العثمانيين ، كما كان الشمال الإفريقى هو الخطوة التالية الطبيعية للعثمانيين بعد أن أصبحت مصر تابعة لهم .

وقد سبق أن تحدثنا عن النشاط البحرى الذى قام به الأخوان عروج وخير الدين ، وكيف استطاعا أن ينتقما للمسلمين من عدوان المسيحيين ، وأن يهيئا سبل الخلاص لكثير من المسلمين النازحين من الأندلس ، كما تكلمنا عن انضمام خير الدين ـ بعد موت أخيه ـ الى قوة العثمانيين ومواصلة نشاطه البحرى باسمهم بعد أن زودوه بمزيد من السفن والعتاد الحربى ، فاستطاع أن يستولى على الجزائر سنة ١٥١٨ ثم استولى على تونس سنة ١٥٣٤ وكانت هذه هى الجولة الأولى للعثمانيين بالشمال الافريقى .

وحدث فى تونس أن ساعد الامبراطور شارل الخامس امبراطور أسبانيا الملك الحسن آخر ملوك بنى حفص الذى لجأ للأندلس عقب دخول العثمانيين تونس ، وتمكن الامبرطور من إعادة حليفة الى العرش سنة ١٥٣٥ وكان هذا الحليف للأسف يعمل بما توحى به مصالح سيده الامبراطور الأسبانى . ثم جاء الطغيان الذى عاناه سكان طرابلس من فرسان القديس يوحنا ، مما حدا بوفد من أهالى البلاد أن يذهبوا للقسطنطينية يطلبون عون الخلافة ليتخلصوا من المستعمرين

---

(١) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٨٢ .

الآثمين ، وقد مهد هذا للجولة العثمانية الثانية بالشمال الافريقي ، وكانت بقيادة سنان باشا يعاونه مراد أغا وطورغود بك ، واستطاعت الحملة أن تستولى على طرابلس سنة ١٥٥١ وأن تطرد فرسان القديس يوحنا شر طردة ، ثم استأنفت الحملة نشاطها فاستعادت تونس سنة ١٥٦٨ .

ومما يذكر أنه عندما كان سنان باشا يحاصر طرابلس استعدادا للهجوم عليها ، وجاءه السفير الفرنسي « دارمون » وقابله في « تاجورة » ورجاه أن يعدل عن احتلال طرابلس وأن يتركها للفرسان ، وتوسل لديه بما بين فرنسا والسلطان العثماني من صداقة ، وبما يتمتع به الفرسان من رعاية دول أوربا لهم ، ولم يجد سنان باشا في هذه الوساطة ما يبررها ، فأجاب بأنه لا محيص من طرد الفرسان وأنه مأمور بذلك من السلطان ، ومن براعة سنان باشا أنه أصدر الأوامر بعدم مغادرة السفير تاجورة قبل إكمال العمليات الحربية خوفا من اتصاله بالأستانة أو بفرسان القديس في طرابلس مما يعرقل أعماله [١] .

ويسجل التاريخ مرة أخرى أن المسلمين لم ينتقموا من المسيحيين المهزومين ، لم يعملوا فيهم السيف ، وسمحوا لهم بمغادرة البلاد .

وأهم ما يذكر عن العهد العثماني أنه فصل طرابلس عن تونس وجعلها ولاية مستقلة ،وحقق بذلك المحاولات الطويلة التي قام بها أهل طرابلس للاستقلال ، ولم تعد طرابلس بعد ذلك لأحضان تونس .

ومما يذكر عن العهد العثماني أيضا أنه أبرز بوضوح وحدة ليبيا ، فقد وضع العثمانيون حدودا واضحة لهذه البلاد ، فأصبحت ولايه « طرابلس العرب » تشمل المناطق الثلاثة « طرابلس وبرقة وفزان » وكانت هذه تثور أحيانا أو تتمرد تلك ، ولكن الجهود كانت تبذل لإعادة الوحدة بين المناطق الثلاثة ، وإخضاعها جميعا للوطن الأم .

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(م ٢٣ ـ التاريخ الاسلامي) .

برقة وفزان فى هذه الفترة :

وقبل أن نتكلم عن العهد العثمانى بليبيا نذكر كلمة عن برقة وفزان قبيل دخول الأتراك ليبيا وعقب دخولهم .

أما برقة فكانت قد عادت لأحضان مصر منذ عهد الأيوبيين وشملها سلطان المماليك ، ولكن تراخت قبضتهم عليها كما سبق القول بسبب الضائقة الاقتصادية التى اجتاحت مصر عقب تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، ونتج عن تراخى قبضة المماليك على برقة أن قوى بها الحكم القبلى ، وجاء الأتراك فجعلوها ولاية من ليبيا .

وأما فزان فقد ذكرنا أن الحكم القبلى كان واسع الانتشار بها ، ولكن انبثق من بين القبائل أسرتان كونتا ما يمكن أن يُعَدَّ من الأسر الحاكمة ، فقد دانت لهما القبائل الأخرى بالولاء ، وهاتان الأسرتان هما أسرة بنى خطاب وأسرة بنى محمد ، وكان بنو خطاب عمالا للمنصور بن بلكين سنة ٣٨١ هـ ثم استقلوا عنه ، واتخذ بنو خطاب « زويلة » قاعدة لحكمهم ، ولذلك تسمى « زويلة بنى خطاب » ، وقد استمر ملكهم حتى دخل قراقوش فزان وقبض على محمد خطاب آخر ملوك بنى خطاب وانتهى حكم هذه الأسرة بزويلة بنى خطاب وبفزان بعد حكم دام حوالى قرنين [١] . وبعد نهاية قراقوش عادت فزان للحكم القبلى .

أما أسرة بنى محمد فقد أسسها منتصر بن محمد أحد أشراف مراكش ، وجعل عاصمتها « مرزق » وامتد نفوذ هذه الأسرة شمالا حتى واحة سوكنه ، وقد بدأت هذه الأسرة تباشر سلطانها قبيل مجىء سنان باشا ، واستمرت فى عهد العثمانيين ، فقد أقرهم العثمانيون على هذا الاقليم (حوالى سنة ١٥٧٢) بعد أن أعلنوا ولاءهم للسلطان العثمانى ، وظلوا يحكمون فزان حتى قَتَل يوسف باشا القرمللى آخر حكام هذه الأسرة سنة ١٨١١ [٢] .

ومن أمراء هذه الأسرة المنتصر سالف الذكر ، وابنه الناصر، والطاهر بن الناصر ،

---

(١) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ص ٧٤ و ٢١٣ و ٢٤١ .

(٢) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٧٢ .

ومحمد بن جهيم ابن أخي الثاهر ، والنجيب بن محمد بن جهيم ، وتمام بن جهيم ،ولم يكن لهؤلاء استقرار ، وكان المفروض أنهم عمال لأمراء طرابلس ولكنهم انتهزوا فرصة الاضطراب فى طرابلس فثبتوا أقدامهم وتوارثوا السلطان ، وأعلنوا التمرد من حين الى آخر ، وكانوا لهذا عرضة للحملات الحربية التى يشنها عليهم أمراء طرابلس قبل العثمانيين وبعدهم ، ومن أجل هذا لم يتسلسل بانتظام الحكام من هذه الأسرة بل كانوا يختفون أحيانا ثم يعودون للظهور ، حتى اختفوا نهائيا فى أيام يوسف القرمللى كما ذكرنا من قبل .

العثمانيون فى ليبيا :

كوّن العثمانيون ولاية ليبيا كما سبق القول من طرابلس وبرقة وفزان ، وينقسم العهد العثمانى بليبيا ثلاثة أقسام هى :

١ ـ عهد الولاة العثمانيين قبل أسرة القرمللى	١٥٥١ ـ ١٧١١
٢ ـ عهد أسرة القرمللى وهو عهد استقلال الى حد كبير	١٧١١ ـ ١٨٣٥
٣ ـ عهد الولاة العثمانيين بعد أسرة القرمللى	١٨٣٥ ـ ١٩١١

وسنتحدث فيما يلى عن كل قسم من هذه الأقسام لنوضح أهم معالمه ، على أن نولى أهم اهتمامنا للقسم الثانى ، فهو ابرز اقسام هذه الحقبة .

١ ـ العهد العثمانى قبل أسرة القرمللى

عين سنان مراد أغا واليا على طرابلس وتركه ومعه حامية عسكرية ، وسار هو ليواصل مسئولياته تجاه تونس ، وكانت طرابلس قد عمّها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان لشأنها ، فشُغل مراد أغا بتعميرها وظل واليا على طرابلس حوالى عام ونصف عام ، وكان تقدمه فى السن وما تستلزمه ولاية طرابلس من جهد ويقظة مادعا الآستانة الى تولية طورغود على طرابلس خلفا لمراد أغا ، وقد امتثل مراد للأمر وسلم الولاية لطورغو دباشا الذى واصل الجهود لحماية الولاية وبعث روح التقدم فيها .

واشترك طورغود في الحملة البحرية التي بعثت بها الآستانة لغزو مالطة ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، ثم استشهد في إحدى معاركها سنة ٩٧٣ وجيء بجثمانه لطرابلس حيث دفن بها [1] .

وولاية طرابلس لم تسر في الطريق الذي سارت فيه ولاية الجزائر وتونس من ناحية استقلال الحرس الانكشاري باختيار والي الإمارة ، بل ظلت طرابلس ـ فيما عدا أسرة القرمللي ـ متصلة بالقسطنطينية ، الى حد كبير فكانت القسطنطينية تعيِّن الولاة لها بفرمان من السلطان ، ويعاون الواليَ مجلسُ الديوان وحامية انكشارية على رأسها الباي [2] .

ولكن الانكشارية على كل حال لم يبقوا بعيدا عن السلطة ، بل اندفعوا أحيانا إليها ، وعينوا من بينهم الوالي ، ولكن القسطنطينية ظلت تصدر الفرمان بتعيينه وتنتهز الفرصة من حين الى آخر لتعيين وال من غير الانكشارية كلما ظهرت الخلافات أو الهزائم بين طوائف الانكشارية .

وبهذا يمكن القول أن ليبيا وقفت في هذا المجال في منتصف الطريق بين مصر من جانب وتونس والجزائر من جانب آخر ، ففي مصر ظلت القسطنطينية تعين الولاة ، وفي تونس والجزائر استقلَّ الحرس الانكشاري باختيار ولاة الإمارة ، ووقفت ليبيا بين بين ، وعانت صراعا بين رغبة القسطنطينية في الإبقاء على السيادة الكاملة ، وبين تمرد الحرس الانكشاري الذي كان يريد أن يستبد بالسلطة وبتعيين الولاة .

ومن أشهر الولاة الانكشارية جعفر باشا « ١٥٦٩ ـ ١٥٨١ » وقد استطاع أن يقضي على الثورة التي قامت في طرابلس بقيادة يحيى السويدي ، كما قضى على التمرد الذي ثار في فزان ضد الحاكم التركي ، ومن أشهرهم كذلك محمد الساقذلي (١٦٣١ ـ ١٦٤٩) وقد بذل جهدا كبيرا لنشر الأمن والقضاء على المتمردين وقطاع الطرق ، وقضى بوجه خاص على الثورة الاستقلالية التي قادها أحمد بن عبد الهادي ببرقة سنة ١٦٣٣ ، وقد استطاع بذلك أن يضم برقة

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) محمود الشنيطي : قضية ليبيا ص ١٦ .

إلى طرابلس ، وكانت برقة كثيرة الثورات والتمرد عليها ، ولمحمد الساقذلى هذا عناية خاصة بالحركة العمرانية .

ويمكن القول إن الجهود التى بذلها محمد الساقذلى آتت ثمارها في عهد خلفه عثمان الساقطى (١٦٤٩ ـ ١٦٧٢) فقد عرف عهده وبخاصة فى مطلعه باستقرار الأحوال فى الداخل ، وبنشر العلم ، وبكثير من المشروعات العمرانية والاقتصادية ، كما عرف عهده باستقرار خارجى نتيجة للمعاهدات التى جرت بينه وبين الدول ذات الشأن فى المنطقة وبخاصة بريطانيا .

وكلمة أخيرة عن وال مهم من الولاة الانكشارية ذلك هو محمد إمام (١٦٨٧ ـ ١٧٠١) وهو المعروف بشائب العين ، وقد كان عهده حافلا بالإصلاحات الاقتصادية والعمرانية ، كما عرف عهده بالاهتمام بالعلم وبإنشاء المدارس ، وله مسجد مشهور يحمل اسمه حتى الآن فى سوق الترك بطرابلس .

وشائب العين يمكن أن يعد المنعرج الذى نقل الحكم فى ليبيا إلى أسرة القرمللى ، كما سنرى عند الحديث عن هذه الأسرة .

وقد بلغ عدد الولاة فى العهد الأول ثلاثة وأربعين واليا من أشهرهم محمد التركى الذى أخضع فزان ومن أشهرهم كذلك الولاة الانكشارية الذين سبق الحديث عنهم .

٢ ـ أسرة القرمللى

حققت أسرة القرمللى لليبيا استقلالا يكاد يكون تاما ، واستطاع مؤسسها أحمد باشا القرمللى أن يستصدر فرمانا من الآستانة بأن تكون ولاية ليبيا وراثية لبنيه من بعده ، ومن أجل هذا لزم أن نقف عندها وقفة تناسب هذا العهد الاستقلالى للقطر العربى الحبيب .

تعريف بأسرة القرمللى :

أسرة القرمللى أسرة تركية من قرمان بآسية الصغرى ، ولذلك ينسب لها بـ « قرمانلى » أو تخفف فتصير « قرمللى » وقد وفد جد الأسرة إلى طرابلس

الغرب واستقربها ، وأول القرمانليين الذين توجد معلومات أكيدة عنهم هم محمود الذى كان ضابطا فى انكشارية عثمان باشا السافذلى ، ومنهم يوسف الذى لا يعلم عنه شيء إلا أنه مات فى ريعان شبابه تاركا ابنه أحمد فى سن الطفولة ، ولقد تزوجت أرملة يوسف القرمللى من الحاج يوسف الذى كان يحمل لقب « بك » فى عهد محمد باشا شائب العين ، الذى قام بتربية أحمد الصغير كما لو كان ابنه ، وكان أحمد القرمللى أول حكام هذه الأسرة يكن أعظم احترام لزوج والدته كما يبدو من لقب « الأب المحترم » الذى كان يخلعه عليه فى الوثائق الرسمية ، كما يبدو أيضا أنه ترك له وظيفة الداى ،ولو اسميا مع لقب شرف هو « دولتلو » أى صاحب الدولة ، واحتفظ الحاج يوسف بهذا اللقب الى يوم وفاته سنة ١٧٢٤ م ، ولقدكان أحمد القرمللى يعز كل الإعزاز أخاه من أمه ورفيق صباه الحاج شعبان الذى أنجبته والدته من زوجها الحاج يوسف .

ظروف قيامها :

تولى خليل باشا ولاية طرابلس فى أكتوبر سنة ١٧٠٩ عقب وفاة والد زوجته محمد شائب العين ، وكان شديدا قاسيا ، كثير الجشع ، فدبرت مؤامرة للتخلص منه عقب توليته ولكن أمرها كشف ، فأعْدَم خليل باشا زعماء المؤامرة ومدبريها ، وأنزل الرعب بطوائف القولوغية (أى العسكريين أبناء الانكشارية) وبغيرهم من الطوائف ، وصادف أن وقعت هزيمة ببحرية الباشا ثم ثارت بعض قبائل الجنوب عليه ، ولما ذهب لإخماد هذه الثورة هبت بطرابلس ثورة أطاحت بحكم خليل باشا وأبرزت بعض الزعماء الجدد ، ولكن أحد معاونية واسمه محمود أبو مويس دبر حركة عكسية فقَتَل الداى الجديد ومهد لإعادة خليل باشا وتطلع الطرابلسيون إلى من ينقذهم من هذه الاضطرابات ، ويحول دون عودة خليل باشا الطاغية ، فاتجهت الأنظار الى أحمد القرمانلى ، وأدرك أبو مويس ذلك ، فأراد أن يتخلص من القرمانلى الذى كان يتظاهر بالولاء والهدوء ، فأرسله الى غريان بقصد قتله بواسطة الجنود المقيمين فى تللك البلدة ، ولكن النبأ تسرب الى أعضاء الديوان والرؤساء العسكريين وأعيان المدينة ، فأرسلوا الى القرمللى

(١) رودلفوميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمللى ص ١١ .

حتى يعود إلى طرابلس للاعتراف به زعيما ورئيسا ، فلما تلقى القرمللى هذه الدعوة عاد فى ٢٨ يوليو سنة ١٧١١ ودخل السوق ، ونادى به سكان الساحل والمنشية الذين كانوا موجودين إذ ذلك وأعضاء الديوان أميرا على البلاد دون أية مقاومة (١) .

أما محمود أبو مويس فإنه شنق نفسه لما رأى إعراض الناس عنه خوفا من أن يقع فى يد أحمد القرمانلى .

القرمانلى يثبت سلطانه : ـ

كان أمام أحمد القرمانلى ألوان من المتاعب والعقبات التى يلزم أن يتخطاها حتى يكتمل له السلطان ، وقد وفق أحمد القرمانلى أيما توفيق فى القضاء على هذه العقبات واحدة بعد الأخرى :

وأهم هذه العقبات كان القضاء على خليل باشا الذى استعدى الآستانة عليه وعاد يقود جيشا يريد أن يقتحم به طرابلس ، ولكن أحمد القرمانلى استطاع أن ينتصر على الجيش بعد معركة طاحنة قُتلَ فيها خليل باشا نفسه .

ولكن قتل خليل باشا أثار الآستانة ، إذ كان تحديا لإرادتها ، فأرسلت الآستانة مندوبا للتحقيق فى مقتله . ولكن أحمد القرمانلى لعب دوراً كبيرا فى استرضاء المندوب ، وقدم له من المعلومات ما يقرب الصلة بينه وبين سلاطين الأتراك ، وشفع ذلك بأن أرسل وفدا رسميا إلى القسطنطينية لتبرير مقتل خليل باشا الذى قال عنه إنه كان فريسة لكراهية سكان الإقليم له ، وأعلن من جهته الولاء الكامل للسلطان ، وكان ذلك مصحوبا بإرسال كمية من الهدايا الثمينة .

ومن المشكلات التى عاناها عدم اطمئنانه لولاء الحامية التركية له ، وقد عالج هذا بنوع من الغدر أقرته شريعة السياسة فى كثير من الحالات ، فقد أقام مأدبة كبيرة فى بيته الريفى ودعا إليها عددا كبيرا من الضباط الأتراك ، وانتهز هذه الفرصة فذبح حوالى ثلاثمائة منهم وتخلص بهذا من شرهم ، وكان لا يزال يوجد حتى النصف الثانى من القرن الماضى تل صغير بالقرب من ضريح سيدى

(١) طرابلس الغرب تحت أسرة القرماللى ص ٦ ـ ١٠ .

الهاني تبدو فيه أطلال هذا المنزل الذى تمت فيه المجزرة ، ويعتبر مكانا مخيفا لا يجرؤ أحد من الناس على الاقتراب منه بعد أن يرخى الليل سدوله [1] .

واستطاع أحمد كذلك أن يخضع الثورات الداخلية التى هبت فى وجهه من حين لآخر . كما استطاع أن يحصل على المال الذى احتاجه لسد حاجة الإصلاح بالبلاد وتقوية الجيش وإرضاء الباب العالى ، وكانت التجارة والغنائم البحرية مصادر ما احتاج له من مال .

أمراء أسرة القرمانلى :

أمراء أسرة القرمانلى هم :

أحمد القرمانلى	١١٢٣ = ١٧١١
محمد بن أحمد	١١٥٨ = ١٧٤٥
على بن محمد	١١٦٧ = ١٧٥٤
	حتى سنة ١٢٠٧ = ١٧٩٣ حيث اختلف أعضاء أسرة القرمانلى وكثر الشغب ، واستولى على باشا برغل على الزمام بموافقة الباب العالى
أحمد (الثانى) بن على	١٢٠٩ = ١٧٩٥

[استولى على السلطة بمساعدة حمودة باشا باى تونس وفرّ على برغل]

يوسف بن على [2]	نفس العام .

[استبد بالسلطان مع أخيه فى نفس العام وهرب أحمد الى صبراته]

على (الثانى) بن يوسف	١٢٥٠ = ١٨٣٤

---

(١) فيرو : حوليات طرابلس ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) لم يذكره زامباور فى كتابه عن الأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى انظر ص ١٣٢ والتصحيح من المنهل العذب ومن طرابلس الغرب تحت حكم إسرة القرمانلى .

[نافسه ابن عمه محمد بن أحمد ، وفى خلال هذا التفكك استطاع الأتراك أن يستردوا سلطانهم المباشر على ليبيا فى العام التالى ١٢٥١ = ١٨٣٥]

مآثر أسرة القرمللى :

من أهم ما يؤثر عن أسرة القرمانلى وبخاصة عن مؤسسها أحمد باشا أنه جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وكان ذلك دليلا على أنه عد نفسه وعد أسرته جزءا من الشعب العربى بطرابلس ،كذلك اهتم أحمد باشا بالجيش والأسطول واعتمد على العنصر الوطنى فى الجيش وإدارة البلاد ، وفتح باب الترقية أمام الليبيين .

وحصن الباشا سواحل البلاد ، وأعاد ترميم القلاع ، وأسّس (ترسانة) لصناعة السفن و وبنى مسجده الشهير على أنقاض مسجد عمرو بن العاص و ألحق بهذا المسجد مدرسة لا تزال عامرة بالطلاب حتى الآن .

ونجح أحمد باشا فى إنشاء دولة مستقلة فعلا عن أى نفوذ أجنبى ، ونهض بالأحوال الاقتصادية فى ليبيا ، إذ شجع الأهالى على زراعة الأراضى ، كما شجعهم على التجارة ، كذلك شجع الأجانب على الإقامة فى طرابلس وعلى إدخال بعض الصناعات فيها .

واستبد بالحكم فلم يجعل للديوان الذى كان يتألف من الوزراء والقواد وكبار الموظفين أى سلطان ، وأصبح الديوان لا يُدْعى إلا إذا رأى الباشا لزوما لذلك ، و كان « البيك » فى المرتبة الأولى من رجال الدولة ، وهو رئيس كل القوات المسلحة ، ويقع على عاتقة أمر استتباب الأمن وتحصيل الضرائب ، وقد شغل أحمد هذا المنصب بمجرد استيلائه على السلطة . ثم منح هذا اللقب لأخيه لأمه ، ثم لابنه بعد أن أصبح باشا .

أما الشئون المالية فكان يشرف عليها الخازندار أو أمين الخزانة ، وكانت مصادر الدخل هى الضرائب على الواردات ، وضريبة الرأس على بعض الاشخاص كاليهود ، والجزية التى كانت تدفعها القبائل العربية بالداخل فى طرابلس وفزان ، والمبلغ السنوى الذى كانت تدفعه البندقية لاستغلال الملاحات

فى « بوكماش » وغزوات المغامرة البحرية .

وكان القاضى يفصل فيما يقع من خصومات بين القبائل ، وكان عليه إطاعة قوانين الباشا وأوامره ومعاقبة مخالفيها ، وكان يحلو للباشا أن يفصل بنفسه فى الخصومات بين رعاياه ، وكان يساعده آنذاك المفتى والقاضى (١) .

ويؤخذ على يوسف باشا القرمللى أنه تعاون مع فرنسا عقب استيلائها على مصر سنة ١٧٩٨ وسمح للفرنسيين بأن يتخذوا ميناء درنة منفذا لتلقى الإمدادات الآتية لهم من فرنسا والتى يراد إدخالها لمصر عن طريق البر .

نهاية الأسرة القرمانلية :

قبيل نهاية عهد يوسف باشا كانت فرنسا قد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد كانت هذه ضربة قوية لا للجزائر وحدها بل للشمال الافريقى كله ، فقد قوى بهذا الاحتلال الجانب الأوربى والنفوذ الأجنبى ، وبدأ النفوذ الوطنى يتضاءل ويضعف ، وتعاونت الدول الأوربية فلم يبق إلا الزمن فقط ليكمل احتلال الشمال الافريقى كله ، وكان من نتيجة هذا الاحتلال أن توقفت الدول الأوربية عن دفع الإتاوات التى كانت تدفعها لطرابلس ، وقلت التجارة المربحة التى كانت تتم مع طرابلس وتحولت تجارة افريقية مع أوربا الى شواطىء المحيط الأطلسى ، مما سبب عسرا ماليا ثقيلا .

واستغل الفرنسيون فرصة ذلك العسر وطالبوا بسداد ديون رعاياهم ، وتبعهم البريطانيون ، فلجأ يوسف الى إرهاق رعاياه من سكان المنشية بالضرائب ، حتى ضج الناس وجأروا بالشكوى ، واشتعلت الثورة ضده ، وثارت العصبيات المحلية بزعامة عبد الجليل سيف النصر وغومة المحمودى وعثمان الأرغم وغيرهم ، وفى وسط هذه الاحداث كان يوسف قد تقدم فى السن فلم يعد يستطيع حمل هذه الأعباء الثقيلة ، فتنازل عن العرش لابنه علي (الثانى) ، ولكن نافسه محمد بن أحمد وانقسمت البلاد بين الأميرين المتنازعين وأصيبت البلاد بألوان من التدهور واختلال الأمن ، فلجأ الطرابلسيون إلى الباب العالى أن يريحهم من

(١) طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى ص ٢٢٨ ـ ٢٣٣ بتصرف .

حكم القرمانلية ، وكان هذا مايتوق له السلطان ، فأرسل الفريق نجيب باشا فى أسطول كبير إلى طرابلس ، وتظاهر نجيب باشا بأنه زائر للسواحل العثمانية . فاحتفى به على باشا وأكرمه ، وزار على باشا الأسطول فصدرت الأوامر بالقبض عليه ، وأعلن نجيب باشا ولايته وأظهر فرمانا بذلك من الباب العالى (١) وعادت ليبيا تحكمها الأستانة حكما مباشرا كما كانت قبل أسرة القرمانلى . وقد ظل حكم العثمانيين لليبيا حتى الاحتلال الإيطالى سنة ١٩١١ .

٣ ـ العهد العثمانى بعد أسرة القرمللى

ولاة العهد الأخير بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين واليا حكموا حوالى تسعة وسبعين عاما وليس من بينهم من يستحق الذكر إلا المشير على رضا باشا الذى عين سنة ١٢٨٣ واليا وقومندانا على الفرقة العسكرية بليبيا .

ويقول عنه النائب الأنصارى ما يلى (٢) : وكان حريصا على ترقية الولاية وتوسيع نطاق التجارة والصناعة والزراعة بها . ومن آثاره الحميدة تسوية الطرق والمعابر بداخل الثغر وخارجه وتنظيم البوستة ومدّ سلك التلغراف براً من نفس الولاية إلى أن شارف متصرفية لواء الخمس مصمما على إيصاله إلى الحدود المصرية ، ولما علم ما تقاسيه سكنة الثغر من قلة الماء وشدة احتياجهم إليه لعدم وجود الأنهر وندرة العيون الجارية تشبث بإخراجه من أعماق الأرض بواسطة القوانى والأدوات الجديدة الحديثة الاختراع وقتئذ ، فأخرج عينا بخارج الثغر وجعل عليها سبيلا ، وربط الأودية وجعل لها ترعا وسواقى ، وسلط مياهها على المزارع ، وأباح للعموم البناء بخارج الثغر ، وأسس سوق العزيزية متصلا بحديقة عامة ، وأنشأ ساعة كبيرة ذات ناقوس جسيم يسمع صوته من بُعد أميال ، كما شيد مسجدا عظيما .

ومن ولاة هذه الفترة الذين يستحقون الذكر المشير رجب باشا الذى عين والياً سنة ١٩٠٤ وبقى فى الولاية ست سنوات كان خلالها من أشد الولاة وطأة على السياسة الايطالية ، حتى طالبت إيطاليا بتنحيته ، إذ كان عقبة فى سبيل

---

(١) المنهل العذب : حـ ١ ص ٣٥٦

(٢) المنهل العذب : حـ ١ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩

مشروعاتها الاستعمارية ، وينسب له القيام ببعض الاصلاحات فى النظام القضائي وتحسين الحالة الاقتصادية ، والحد من امتيازات قناصل الدول الاجنبية التى حصلوا عليها فى العهد القرمللى [1] .

أحوال ليبيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية
خلال العهد العثمانى

لم تشترك ليبيا اشتراكا فعليا فى حكم نفسها خلال العهد العثمانى ، وكان الولاة وكبار الموظفين يختارون من غير الليبيين ، وربما اختير بعض رؤساء القبائل فى الهيئات الاستشارية التى كان يكوِّنها بعض الولاة ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم فى الواقع أى نفوذ ، وذلك هو الطابع العثمانى الغالب فى كل الولايات العربية.

وضعف الاقتصاد الليبى ضعفا ملحوظا لأن عناية الولاة بأمور الزراعة كانت ضئيلة ، كما أن الثورات كانت متتابعة مما لم يهئ للزراعة وسائل النمو والتقدم.

ومن الواضح أن الزراعة فى ليبيا تعتمد على الأمطار أو على الآبار ، والوسيلتان لا تضمنان تطورا فى المجال الزراعى ، هذا بالإضافة إلى أن ملكية الأراضى لم تكن مستقرة ولا موثقة ، بل كانت ملكية حيازة ووضع يد ، وكانت القبيلة الأقوى تستطيع أن تزحزح القبيلة الأضعف وتسيطر على ما تحت يدها من أطيان ، وهذا لم يتح الفرصة الكاملة لا ستغلال الأراضى .

وفى السنوات التى انتشر فيها الأمن من جانب وغزارة الامطار من جانب آخر ، كانت أرض ليبيا تجود بكثير من الحبوب التى كانت تكفى الاستهلاك المحلى وتصدر الفائض منها للخارج .

وتشتهر ليبيا كذلك بالتمور فى طرابلس وحول بنغازى ودرنة وفى واحات برقة وفزان .

---

(١) الطاهر الزاوى : جهاد الأبطال ص ٩ وما بعدها .

وتكثر أشجار الزيتون فى الجبل الغربي ومنطقة الجفارة .

وتعد الثروة الحيوانية مصدرا من المصادر الاقتصادية فى ليبيا حيث تكثر قطعان الأغنام والماعز والابل والبقر ، وكانت تصدر للخارج حية كما كان الصوف والوبر والجلود من مصادر الثروة كذلك .

وكانت التجارة مصدرا مهما من مصادر الثروة الليبية ، وتعد ليبيا بابا مهما يصل العالم بقلب افريقية ، وقد وجدت من عهود قديمة علاقات تجارية بين ليبيا وبين قلب القارة ، وكانت ليبيا تلعب دور الوسيط فى هذه العلاقات التجارية ، كما كانت تبيع الفائض من حاصلاتها وتشترى ما يلزمها من منتجات هذه البلاد

ومن الناحية الاجتماعية عانت ليبيا أكثر من سواها من الدول العربية خلال العصر العثمانى ، صحيح أن كل الدول العربية اقتسمت التخلف الاجتماعى والثقافى فى ذلك العهد ، ولكن كان هناك بصيص من الضوء يندفع على مصر من الازهر ويندفع علي تونس من جامعة الزيتونة ، ولم يكن لدى ليبيا ما ينافس هذه المعاهد الكبرى ، وإن كان من الحق أن نقرر أن أشعة الضوء التى كانت تنبعث من الأزهر أو من الزيتونة فتضىء الحياة الاجتماعية والثقافية ، هذه الأشعة كانت تمتد إلى ليبيا وتتسرب إلى كثير من أنحائها .

الاحتلال الإيطالى لليبيا

قبيل الاحتلال :ـ

عادت ليبيا إلى حكم الآستانة ، وكانت الآستانة تتهادى وتترنح أمام أثقال التاريخ ، ويصور الأستاذ طاهر الزاوى فى تقديمه لكتاب « المنهل العذب » [1] حالة ليبيا تحت السلطان التركى بقوله : إن الصورة التى كانت عليها ليبيا فى العهد التركى ، صورة الفوضى ، والاستبداد بالشعب الليبى ، وإهمال مصالحه ، تلك الصورة التى فهمتها أنا وفهمها غيرى من المنهل العذب ، كانت صورة مفزعة كئيبة ، تمثل ليبيا فى ذلك العهد تمثيلا صحيحا ، وأنا أعتقد أنها كانت تمثل كذلك دور الانحلال الذى طوح بالدولة العثمانية إلى الهاوية .

والذى يقرأ المنهل العذب ويقرأ كذلك طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى وهما من أهم مراجع تاريخ ليبيا فى هذه الحقبة يدرك أن السكان كانوا يعيشون تحت ضغط قاس جعلهم أحيانا يتنازلون عن جنسيتهم ويتلمسون جنسيات أجنبية يحتمون فيها من العسف والطغيان ، ويقول صاحب المنهل العذب فى ذلك : كان بعض أشخاص مسلمين وموسويين من أهالى مركز الولاية قد راجعوا قناصل الدول الأجنبية الموجودين هنا ، وتمكنوا ـ كيفما كان ـ من قيد أنفسهم فى سجلات الحماية الأجنبية ، فأحرزوا رسميا صفة تبعية الدولة المدعى حمايتها ، وذلك بسبب ما كانوا يقاسونه إذ ذاك من التضييق والأذية [2] والعجيب أن يكون من بين من سلكوا هذا السبيل كاتب مسلم له فضل يذكر على المدارس القرآنية وهو من خيرة من أرخوا لليبيا ذلك هو اسماعيل كمالى ، وكان ممن تجنسوا بالجنسية الإيطالية [3] .

ويصور الدكتور نقولا زيادة [4] ما عانته ليبيا من حكم العثمانيين بقوله : وإذا تذكرنا أنه فى مدة السبعين سنة التى خضعت فيها ليبيا للحكم العثمانى

---

(١) مقدمة الجزء الثانى من المنهل العذب ص ٩ وما بعدها .

(٢) المنهل العذب ص ٥ .

(٣) رودلفوميكاكى : طرابلس الغرب ص ٣ .

(٤) ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص ٥٨ .

المباشر في القرن التاسع عشر كانت تتعرض للكثير من نهب أولى الشأن من الوالي الى الشرطي ، لا نجد أي غرابة فيما آلت له الحال .

ويصور الأستاذ محمود الشنيطي [1] تدهور ليبيا في العهد العثماني بقوله : وقد أخذت هذه الولاية العثمانية تنحدر مع الامبراطورية إلى خاتمتها ، وتجمعت لذلك عناصر أهمها فساد الحكم التركي فسادا ساعد عليه بُعْدُ الولاية عن مركز الدولة ، وصعوبة المواصلات ، وكثرة النزاع بين الولاة ورؤساء الجند ، وكثرة الفتن الداخلية ، وسوء الأحوال الاقتصادية نتيجة القحط والإسراف والإهمال .... و كانت موارد البلاد الطبيعية مهملة ، تستولى الدولة على كل ما تستطيع منها ، فهي تحتكر الملح والإسفنج والتبغ ، وتفرض الضرائب الباهظة على الاراضي والتجار ورءوس الماشية ، والعشر على الحبوب ، عدا ما يبتزه الموظفون والحكام وهناك وثيقة هامة قدمها محمود ناجي بك وصادق بك مبعوثا طرابلس إلى رياسة مجلس النواب العثماني توضح مدى الإهمال الذى أنزلته الحكومة التركية بليبيا ، وتشمل الوثيقة قسمين ، أو لهما عن الإهمال العسكري ، والثاني عن الإهمال السياسي والاداري ، أهم ما جاء بالقسم الأول ضعف الحامية التركية ، وعدم السماح لأبناء ليبيا بالانتظام في الجندية ، وقلة الأسلحة ، وفي القسم الثاني ترك الولاية فترات كثيرة بدون والٍ ، وعدم الدقة في اختيار الولاة ، وعدم مراقبتهم [2] .

وهكذا تدهورت أحوال ليبيا نتيجة للسلطان التركي الغاشم ، وأطمع هذا التدهور قوى الغرب التي تتربص لتجد الفرصة التي تساعدها على مد سلطانها على الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط .

وكانت إيطاليا بعد وحدتها السياسية التي تمت سنة ١٨٧٠ قد نزلت ميدان الاستعمار وتطلعت الى منافسة فرنسا في مد نفوذها بإفريقية ، وكانت تونس هي البلد التي تطمع ايطاليا في احتلاله لقربه من الاراضي الايطالية ، ولكن بينما كانت هذه لا تزال تعمل ـ في السنين التي تلت الوحدة ـ على حل

---

(١) قضية ليبيا ص ١٩ و ٢٦ .

(٢) محمود الشنيطي : قضية ليبيا ص ٤٦ .

مشكلاتها الداخلية قفزت فرنسا فاحتلت تونس سنة ١٨٨١ ، وكانت قد احتلت الجزائر قبل ذلك ، وتركز التنافس حول ليبيا ، بيد أن هذا التنافس قد سوِّى بين الدول الأوربية فى المعاهدات السرية التى اقتسمت بها البلاد العربية ، فقد تم اتفاق سرى بين فرنسا وايطاليا سنة ١٩٠٠عزز باتفاق آخرسنة ١٩٠٢ أطلقت بمقتضاها يد ايطاليا فى ليبيا ويد فرنسا فيما عدا ذلك من المغرب العربى [١] .

وأخذت ايطاليا ترسم الطريق الذى تستطيع به أن تصل إلى هذه الغاية ، فكان من وسائلها أن أكثرت من فتح المدارس المجانية بطرابلس وبنى غازى لتجذب إليها شباب المستقبل وتصبغهم بالصبغة الثقافية والاجتماعية التى تريدها ، ودفعت ايطاليا بالمبشرين المسيحيين إلى ليبيا حيث كوَّنوا الدعاية ، وأخذوا الدين وسيله لربط السكان الليبيين بالمسيحيين الأوربيين ، وغصت ليبيا بوسائل النشر الإيطالية من كتب وصحف ومجلات ، وكان القائمون بها يبذلون أقصى الجهد للتأثير فى الجماهير ، « وكانت القنصلية الايطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى مركزا للنشاط السياسى والدعاية الإيطالية ، والتجسس على أهل البلاد ، وعلى مراكز الدفاع عنها ووسائله » [٢] .

وشيدت إيطاليا بليبيا كثيرا من المستشفيات ، وأخذت ترسل البعثات المختلفة عن طريق الجمعية الايطالية للكشوف الجغرافية والتجارة بميلانو ، وكان آخرها بعثه اشترك فيها الكونت سفورزا للبحث عن الفوسفات ، وانضم اليها ضباط من المهندسين العسكريين الطليان ، فاستطاع أعضاؤها أن يضعوا المصورات والخرائط الحربية [٣] .

ويجىء بنك روما فى القمة من الوسائل التى إصطنعتها إيطاليا ، فقد افتتح البنك له فرعا بليبيا سنة ١٩٠٤ واتخذ وسيلتين هامتين للسيطرة على الاقتصاد الزراعى بالبلاد ، ، إحداهما شراء الأراضى الزراعية بأثمان مغرية ، والثانية الإقراض بشروط ميسرة للغاية خَدعَتَ الكثيرين من الناس للحصول على

---

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

(٢) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص ٨٠ .

(٣) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص٤٦

القروض نظير رهن أطيانهم للبنك ، ولم يطالب البنك عملاءه بالسداد ، بل أغراهم ليحصلوا على مزيد من القروض ، ثم انقلب عليهم ينزع منهم ملكية هذه الارض المرهونة سدادا للديون ، وتبع ذلك أن دفعت إيطاليا بالأسر والأفراد الطليان ليهاجروا إلى ليبيا حيث منحتهم هذه الأرض وشجعتهم على الاستقرار ، ومهدت لهم طريق الثراء .

ومر الزمن وبدا أن سلطان ايطاليا يرسخ فى ليبيا ويمتد ، وفى نفس الوقت كان سلطان الترك يتقلص ويضعف ، فلم يكن « الرجل المريض » بمستطيع أن يحمى نفسه أو يزود الردى عن حياضه ، أما أهل البلاد فلم ينعموا باستقرار ، وكانوا يعانون من هؤلاء وأولئك حتى مسهم الضر ولحق بهم الأذى .

عملية الاحتلال :

حدث فى محيط الشمال الافريقى حادث دفع الطليان إلى الخطوة العملية نحو احتلال ليبيا ، فقد بدأت فرنسا وأسبانيا فى الزحف على مراكش واحتلال بعض مدنه ، فخطت ايطاليا أيضا نحو هذه الغاية بالنسبة إلى ليبيا ، وأرسلت للباب العالى إنذارا فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ جاء فيه « إنه نظراً لسوء الحالة فى طرابلس الغرب-وبنغازى ، وحرصا على مصالح إيطاليا الحربية ، وتهديد طرابلس لها لقربها من سواحلها ، ونظرا لتجاهل الدولة العثمانية رغبات إيطاليا فى طرابلس وإهمالها مصالح إيطاليا الاقتصادية ، ونظرا لحرص ايطاليا على الرعايا الأوربيين بصفة عامة والايطاليين بصفة خاصة ، قررت ايطاليا احتلال ليبيا ، وعلى الخلافة العثمانية أن تسهل ذلك ، ومدة هذا الإنذار ٢٤ ساعة » .

وقد ردت الحكومة التركية ردا متخاذلا ضعيفا جاء فيه « إن وزر تأخر طرابلس راجع الى الحكم السابق ، وإنها لا تقوم بأية عرقلة فى سبيل رءوس الأموال الإيطالية ودورها فى ترقية شئون الولاية ، إنها ترغب فى إعطاء امتيازات للحكومة الإيطالية ، وإنه ليس هناك أى اضطهاد للأوربيين ولا للإيطاليين ، وإنها مستعده للتفاهم ما دامت إيطاليا لا تلجأ للاحتلال . وطلبت

من إيطاليا أن تقدم بيانا بمطالبها [1] .

ولكن ذلك الرد لم يُثْنِ إيطاليا عن احتلال ليبيا ، بل لعله شجعها بضعفة واستسلامه ، فأعلنت إيطاليا الحرب على تركيا فى التاسع والعشرين من نفس الشهر وأرسلت أساطيلها وقواتها تزمجر وترعد ، فاحتلت طرابلس والخمس وبنى غازى ودرنه وطبرق فى مدى وجيز لأن استعداد الأتراك كان لا بلاغ فيه ، وكان الليبيون عزلا أو شبه عزل ، ولم تكن المعارك التى خاضها الأتراك ضد الطليان ذات بال [2] .

ومما يذكر أنه اشترك فيها أدهم باشا الحلبى ، وأنور بك ، ومصطفى كمال زعيم تركيا فيما بعد ، وعزيز على المصرى ، ولكن سرعان ما رأت تركيا أنها غير مستعدة لمواصلة القتال ضد الإيطاليين لا نعدام الوسائل التى تربط بين تركيا وبين ليبيا ، ولضعف الأسطول التركى إذا قورن بالأسطول الإيطالى ، ولأن الحرب فى البلقان بدأت تظهر ، ثم لأن إيطاليا بدأت تضرب الجزر الخاضعة لتركيا بالبحر الأبيض وتهدد موانى البحر الأحمر التابعة للدولة العلية ، وأصبح واضحا أن الحرب ستتسع ، وأن تركيا ذاتها فى حاجة للدفاع عن نفسها ، فعقدت صلحا مع ايطاليا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ هو صلح أوشى (لوزان) وبمقتضى هذا الصلح تقرر وقف القتال وسحب تركيا جنودها من ليبيا ، وصدر ملحقان لهذه المعاهدة ، الأول أصدره الجانب العثمانى وينص على أن تركيا تتخلى عن السيادة على طرابلس وبرقة وتمنح أهل البلاد استقلالا ذاتياً وتحتفظ بروابط تربطها بطرابلس تتمثل فى تعيين نائب للسلطان يرعى المصالح العثمانية ، وتعيين قاض للبلاد ، وتدفع الدولة راتبهما .

وأصدر ملك ايطاليا الملحق الثانى الذى يؤكد القانون الذى كان قد أصدره فى ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ بجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعا مطلقا للسيادة الملكية الايطالية [3] .

---

(١) طاهر الزاوى : جهاد الأبطال ص ٢٦ ـ ٢٧ وقضية ليبيا لمحمود الشنيطى ص ٤٨ ـ ٨٤ .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ١٧ .

(٣) اقرأ معاهدة أو شى وملاحقها فى جهاد الأبطال ص ٩٩ ـ ١٠٦ .

وتنفيذا لهذا الاتفاق انسحبت القوات العثمانية من طرابلس ، ولكن جزءا ظل في برقة بقيادة عزيز المصرى الذى صدرت له الأوامر فيما بعد بالانسحاب ، وقبل مغادرة القوات التركية برقة قام مندوب تركيا أنور بك بزيارة السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية وأبلغه « إسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته ، وأخبره بأن الخليفة منح الامة الطرابلسية (الليبية) استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها » [1] .

وكان هذا الاعلان اعترافا بسلطان السنوسيين ، وسنفرد عنهم حديثا فيما بعد ، والمهم هنا أن هذا الموقف من تركيا ألقى على الليبيين عبء نضال مرير ، وخلق صراعا بين قوتين بعيد ما بينهما كل البعد فى ميزان التكافؤ العسكرى ، وقد ضحت ليبيا بآلاف الشهداء ، وأغرقت أرضها بدماء الأبرياء ، ولكنها فى كثير من الحالات ثأرت لنفسها واستطاعت أن تغتصب السلاح من الايطاليين لتضربهم به ، ولتوقع بهم بعتادهم .

إيطاليا فى ليبيا : –

سلكت إيطاليا فى ليبيا نفس الطريق الذى سلكته فرنسا فى الجزائر ، فادّعت أن أرض ليبيا امتداد لشبة الجزيرة الإيطالية ، ولجأت إلى حرب الإبادة بالنسبة لأغلب السكان ، كما لجأت الى « طلينة » الباقين بحملهم على ترك اللغة العربية و تعلم اللغة الايطالية ، ودفعت بجماعات الطليان للهجرة الي ليبيا ، وهيأت لهم حياة طيبة على حساب أملاك ليبيا وثرائها ، وأساءت معاملة الموظفين الليبيين ، وأغرتهم بالتجنس بالجنسية الإيطالية ليحصلوا على امتيازات خاصة ، وبذلت الادارة الإيطالية جهدا كبيرا لتنصير الليبيين ، كما كانت تعد اقتناء الكتب عملا يخالف القانون ويستحق مرتكبه العقاب القاسى [2]

واهتمت إيطاليا اهتماما كبيرا بعزل ليبيا بكاملها عن العالمين العربى والإسلامى ، وحتى طلاب الدراسات الإسلامية منعتهم من السفر لمصر للالتحاق

---

(١) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الإيطالى للاستقلال ص ٨٤ ودكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ٢٢٥ .

(٢) انظر ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال للدكتور نقولا زيادة ص ١١٧

بالأزهر أو إلى تونس للالتحاق بجامع الزيتونه (١) واتجهت إيطاليا إلى القضاء على الثقافة العربية والإسلامية ، ولم تسمح بحلقات العلم بالمساجد (٢)

وبين أيدينا كتاب هام نشرته هيئة تحرير ليبيا يصور « الفظائع السود الحمر » التى ارتكبتها إيطاليا فى ليبيا خلال فترة الاستعمار المقوت ، ومن هذا الكتاب نقتبس بضع فقرات تشرح لنا ما أوجزناه فى السطور السابقة عن حماقات الطليان وطغيانهم .

لقيت المنشية ، وهى إحدى ضواحى طرابلس ، أقسى معاملة تخطر ببال بشر عقب الغزو الإيطالى ، فقد أباحها الجنرال (كانيفا) قائد الحملة لرجاله ، فانهال الموت على السكان حتى انقرض أكثرهم ولم يبق بالحى كله إلا بضع مئات ، واستولت الحملة على المزارع والبساتين والدور وسلمتها للمهاجرين الطليان ، أما هتك الأعراض ، وحرق المنازل ، والتلهى باصطياد الأطفال بالرصاص ، فكان عملا عاديا على الرغم من جرمه وفظاعته (٣) .

وقد كتب المراسلون الأجانب الذين كانوا مرافقين للحملة عبارات استنكار لما شاهدوه ، وترك بعضهم الحملة وغادر ليبيا ، ومن هؤلاء فرانسز ماكولا الذى كتب للجنرال كانيفا يقول وهو يودع ليبيا : إننى أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشاً ، ولكن عصابة من قطاع الطرق والقتلة .

وكتب المراسل الألمانى فون جوتنبرج يقول : إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس ، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ، ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء قبض عليهم فى الميدان أو فى بيوتهم (٤) .

وحتى الرهبان الذين يتظاهرون بخدمة الإنسانية أسهموا فى تعذيب المرضى ، وفى ذلك يقول هرمان ونول المراسل النمساوى : وأحرق الطليان فى ٢٦

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢) انظر قضية ليبيا الاستاذ محمود الشنيطى ص ١٣٥ .

(٣) الفظائع السود الحمر ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣١ .

أكتوبر سنة ١٩١١ حيا بأكمله خلف بنك روما ، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه وبينهم النساء والشيوخ والأطفال ، وشاهدت عربيا يحتضر فرجوت راهبا من خدمة الصليب الأحمر اسمه (بافيلاكو) أن يعطيه بعض الماء ولكنه حول نظره وقال : « لا تزعج نفسك به ، دعه يموت » (١) .

وراح الطليان يخربون المساجد ويتخذونها إسطبلات للدواب ، كما راحوا يدوسون القرآن الكريم كلما وجدوه ويهتفون : هاتوا نبيكم البدوى يحميكم أو يحمى كتابكم (٢) . ويروى لنا الأدب الإيطالى أنشودة كان الجنود الإيطاليون يحفظونها وهاك نصها : أنا ذاهب إلى ليبيا فرحا مسرورا لأبذل دمى سبيل سحق الأمة الملعونة ، ومحو القرآن ، وإذا مت يا أماه فلا تبكينى ، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولى : لقد مات وهو يحارب الاسلام (٣) .

ومن الفظائع التى ارتكبها الجنرال جرازيانى سنة ١٩٢٩ أنه كان يجمع العلماء وشيوخ القبائل ويضعهم فى الطائرات ، ثم يأمر بإلقائهم واحدا بعد الآخر على مقربة من أهليهم الذين جمعهم ليشهدوا مصرع رؤسائهم ، وكلما سقط واحد من هؤلاء هتف الجنود الطليان وصفقوا (٤) .

ويصف شاهد عيان معركة الكفرة التى حدثت سنة ١٩٣١ فيقول :

ودخل الطليان الكفرة ولم يبق بها إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، فانتشر الطليان فيها وفى قرية التاج مستبيحين كل حرمة ، نهبوا الأموال ، وذبحوا الشيوخ والأطفال ذَبْحَ الخراف ، وبقروا بطون الحوامل ، وهتكوا الأعراض ، وحرقوا المساجد ، وداسوا المصاحف (٥) .

---

(١) المرجع السابق ٣٣ .

(٢) الفظائع السود ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٤) المرجع السابق ٤٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٥ ـ ٧٦ .

كفاح الليبيين للاستقلال

أجمع الباحثون العرب والأجانب على بطولة أبناء ليبيا رجالا ونساء ، فلقد وقفوا مدافعين عن بلادهم في صلابة وإصرار وعناد قلّ أن يوجد لها مثيل في التاريخ ، وواضح من سَيْر الأمور التاريخية أن المستعمر الإيطالي لم ير في ليبيا لحظة هدوء ، ولم ينعم بصفو العيش طرفة عين ، وقد قدمت ليبيا حوالي نصف سكانها شهداء في المعركة ولكنها استمرت تمد المعركة بأزهى شبابها وشيوخها .

وللمرأة الليبية دور رائع يسجله لها التاريخ بفخر واعتزاز ، فقد اشتركت في المعارك اشتراكا فعليا يثير الدهشة ، لم تكتف بالخدمة والتمريض بل حملت المرأةُ السلاحَ وألقته بنجاح في قلب غريمها الإيطالي المسعور ، ويحكي اللواء محمد صالح حرب وهو ممن اشتركوا في هذه المعارك أنه في بعض الحالات صدرت الأوامر بعدم اشتراك المرأة ، إذ كانت المعركة المرتقبة مريرة وقاسية ، وشكر القائد النساء وودعهن ، وفي غسق الليل سار الركب يحثُّ الخطا ، يصعد النجاد ويخترق الوديان ، وبعد أن وصلت القافلة المكان المرسوم بدأت معركة عنيفة طويلة ، وانجلت عن تحرير واحدة من واحات الجنود ووقوع كل الحامية الإيطالية بين الموت والأسر ، وفجأ انطلقت صيحة فرح (زغرودة)لفتت نظر الرجال ، وتساءلوا : أين هذه المرأة ! واكتشف الرجال أن معهم عددا كبيرا من النساء استعملن الأذقان الصناعية ولباس الرجال ليشتركوا في المعركة التي أريد لها أن تكون خاصة بالرجال .

ويمكن إجمالا قسمة فترة الحرب بين ليبيا وإيطاليا إلى دورين رئيسين يمتد أولهما من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٧ ويقع الثاني منهما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٢ أما الفترة الفاصلة بينهما أي من عام ١٩١٧ إلى ١٩٢٣ فقد كانت فترة هدنة واتفاقات ومعاهدات (١) ، وسنذكر فيما يلي الخطوط العريضة لهذين الدورين ، ولكنا نبادر فنوضح أن القيادة الوطنية بعد تخلي تركيا عن البلاد كانت فيها نزعة العودة إلى تجزئة ليبيا ، إذ لم يستطع العهد التركي أن يحقق

---

(١) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالي إلى الاستقلال ص ٨١ .

وحدة شاملة فى البلاد ، وعلى هذا كانت هناك قيادتان إحداهما فى برقة وفزان ويتولاها السنوسيون والأخرى فى طرابلس ويتولاها الشيخ سليمان البارونى ، على أن روح الوحدة كانت تطل من حين لآخر ، وكان التعاون واضحا نحو الهدف المشترك الذى أعلن فيما بعد كما سيأتى القول .

وقد خَلَقَ انسحاب تركيا اتجاها استقلاليا بالبلاد ، وفى الوقت نفسه ألقى عبء حرب مريرة على الليبيين ، أما الاتجاه الاستقلالى فتمثل فى طرابلس من جانب وفى برقة وفزان من جانب آخر :

ففى طرابلس عقد الزعماء الوطنيون اجتماعا أعلنوا فيه وثيقة استقلال طرابلس التى جاء فيها : بناء على الفرمان العثمانى القاضى بمنح بلادنا الاستقلال قد اتفقنا على الرضا به وقبوله مع كمال السرور ، وكلفنا مبعوث الجبل سليمان بك البارونى بإعلان استقلالنا وتبليغه إلى من يلزم التبليغ اليه وتشكيل حكومة ... مع قيامها بكل ما يلزم اتخاذه من وسائل المدافعة كالمال والرجال والسلاح [1] .

وألف البارونى حكومته بطرابلس وقام بكثير من الإصلاحات فى المناطق التى كان النفوذ الإيطالي لم يصل اليها ، وأخذ يقوم بمقاومة الإيطاليين ، ومن أهم المعارك التى حدثت فى طرابلس فى هذا الدور معركة العصبات فى ديسمبر سنة ١٩١٢ وبنى الوليد فى فبراير سنة ١٩١٣ ، ولم يطل على العموم صمود البارونى أمام الضغط الإيطالى ، فسرعان ما غادر طرابلس إلى تونس ومنها إلى الآستانة فى أواخر عام ١٩١٣ .

وفى برقة اتسع نفوذ السنوسيين وأصبح لهم وحدهم الأمر ، وتولوا عبء مقاومة الطليان فى هذه المنطقة ، ومن المعارك التى حدثت بينهم وبين الإيطاليين معركة درنة سنة ١٩١٣ وقد انتصر فيها السنوسيون بمساعدة العثمانيين الذين كانوا لم يرحلوا بعد إلى الاستانة ، ومنها كذلك معركة مرسى سوسا والبورات والزاوية البيضاء [2] .

---

(١) أمين سعد : الدولة العربية المتحدة جـ ٢ ص ٥٠٠ .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٥٩ .

وفى فزان تجمع المجاهدون الوطنيون بقيادة محمد بن عبد الله اليوسفى الذى خاض بهم ضد الايطاليين ثلاث معارك كبيرة هى سرير الشيب وشيدة ومحروقة ، وقد سقط فيها القائد العربى ، فتولى مكانه سالم بن عبد النبى الذى حقق نصرا كبيرا ضد العدو فى موقعة القاهرة « ربوة جبلية عالية » وأخذ العتاد والطعام من الجيش المنهزم ، وكان لنضال المجاهدين فى فزان أثر كبير فى انسحاب الطليان من فزان وإخلائهم مرزق سنة ١٩١٤ بعد أن احتلوها فترة من الزمن [١] ، على أن قيادة فزان سرعان ما اندمجت مع قيادة برقة تحت سلطات السنوسيين ، وكان معسكر السنوسيين أو حكومة السنوسيين أكثر دقة ونظاما وصمودا من أى معسكر آخر فى ليبيا .

الحرب العالمية الأولى :

وجاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) واشتركت فيها إيطاليا بجانب الحلفاء ، واشتركت فيها تركيا بجانب ألمانيا ، واضطرت إيطاليا لسحب بعض قواتها من ليبيا لتواجه التزاماتها فى الميادين الأخري ، وفي الوقت نفسه عادت تركيا تجدد صلاتها بليبيا وترسل لها بعض العتاد وبعض الرجال ، ومن أهم المعارك الحربية الليبية التي تتصل بالحرب العالمية الأولي معركتا القرضابية والحملة السنوسية علي مصر ، وسنتكلم عن كل منها كلمة موجزة :

معركة القرضابية :

قلنا إن الطليان اضطروا لسحب بعض جيوشهم وإخلاء بعض المناطق علي إثر قيام الحرب العالمية الأولي ، وقد انتهز السنوسيون هذه الفرصة واستعدوا لمهاجمة بعض الجهات من اقليم طرابلس ، وأعد المستعمر حملة لصد هذا الخطر قادها الكولونيل « ميامى » وحشد المستعمر فريق الشباب الليبي في هذه الحملة لقلة رجاله في ليبيا آنذاك ، والتقت هذه الحملة بقوات السنوسيين وأشياعهم عند بئر القرضابية فى ٢٩ أبريل سنه ١٩١٥ وما لبثت القوات العربية التى جنّدها الطليان أن انقلبت عليهم بقيادة رمضان بك السويحلي زعيم مصراته ، فحوصر الطليان ومُزقوا شر ممزق ، واستولي الليبيون علي ذخيرتهم

(١) الطاهر الزاوى : جهاد الابطال فى طرابلس الغرب ص ١٢٠ ـ ١٣٢ .

وأسلحتهم وخزائنهم ، وقد دفع هذا الموقف الكريم رمضان السويحلي إلى صفوف الأبطال الوطنيين [1] .

الحملة السنوسية على مصر :

قلنا إن الاتراك جددوا علاقاتهم بليبيا بعد قيام الحرب العالمية ، وكانت خطة الأتراك والألمان أن يهاجموا بريطانيا في مصر ، وكانت السويس هي النقطة التي حددت للهجوم ، وأوعز الأتراك والألمان للأمير السنوسي السيد أحمد الشريف أن يهاجم مصر من الغرب حتى يشغل الجيش البريطاني في حرب لعلها تساعد على الغزو الذي دبره الألمان والأتراك ، واستجاب الأمير السنوسي لذلك وهاجم مصر في نوفمبر سنة ١٩١٥ واحتل السلوم



البطل رمضان السويحلي

(١) انظر قضية ليبيا ص ٦٢ ، ٦٣ وليبيا بين الماضي والحاضر ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

ومرسى مطروح ، ولكن القوات البريطانية والمصرية استردت هذه الأماكن فى مارس سنة ١٩١٦ وقد سببت هذه الحملة تغييراً فى قيادة السنوسيين ، فإن السيد أحمد الشريف تنازل على أثرها عن القيادة السياسية والعسكرية للسيد إدريس السنوسى (ملك ليبيا سابقاً) واحتفظ لنفسه بالزعامة الدينية ، ثم غادر برقة سنة ١٩١٨ فأصبح السيد إدريس زعيم السنوسيين المطلق [1] .

ويرجع سبب هزيمة السنوسيين السريعة فى نضالهم ضد الانجليز بمصر إلى عوامل نفسية وعوامل حربية ، والعوامل النفسية تسببت عن الدعاية ضد السنوسيين الذين يهاجمون قطرا عربيا مسلما ، وبخاصة أن الجيش المصرى تصدى للدفاع عن مصر مع الجيش الانجليزى ، فكان لابد من التوقف فى هذا الميدان حتى لا يسقط عربى بسلاح أخيه العربى ، وأما العوامل الحربية فمرجعها أن المعارك دارت بالقرب من الساحل ، وكان ذلك موضع نقد من بعض العسكريين الذين أسهموا فى المعركة ، لأن الانجليز فى المنطقة الساحلية ينتفعون بالأسطول ، ولأن هذه المنطقة صلبة تسير فيها الدبابات والسيارات ، ولو كانت المعركة فى الجنوب حيث لا توجد هذه الميزات لكان الأمل فى النصر أقوى .

ولقد لجأ الأتراك بليبيا أحيانا إلى حرب العصابات ، ولكن طبيعة الارض الليبية لا تساعد على النجاح فى هذا النوع من الحروب ، بسبب السهول وعدم وجود الغابات التى يحتمى بها عادة من يقومون بهذا النوع من المعارك .

فترة الهدنة والاتفاقات :

لم تكن المعارك التى دارت منذ الاحتلال حتى سنة ١٩١٧ حاسمة ، ولم يحصل هؤلاء ولا أولئك على نصر مؤزر ، وأرهقت الحرب العالمية إيطاليا ، ولما انتهت الحرب تركت دولا جريحة سواء فى ذلك المنتصر والمهزوم ، ومن ثم لجأ الطليان والليبيون إلى المفاوضات لعلها تحل ما عجزت الميادين الحربية عن حله ، وفيما يلى معاهدات هذه الفترة ونبذة عن كل منها :

---

(١) دكتور نقولا زيادة ليبيا من الاحتلال الايطالى إلى الاستقلال ص ٨٦ ـ ٨٧ .

طرابلس : خرج العثمانيون نهائيا من طرابلس سنة ١٩١٨ و اجتمع زعماء العرب فى مسلاتة فى نوفمبر من نفس العام ، وأعلنوا قيام الجمهورية الطرابلسية واختير أربعة لإدارة شئون الجمهورية هم رمضان السويحلى وسليمان البارونى وأحمد المريض وعبد النبى بلخير ، كما قرروا تأليف مجلس استشارى للجمهورية مكون من أربعة وعشرين شخصا من أعيان البلاد ، وبدأ ممثلو الجمهورية يتصلون بالدول لتعترف بجمهوريتهم ، كما بدءوا يتصلون بإيطاليا للوصول إلى اتفاق معها ، وقد استطاع مندوبو الفريقين الوصول إلى عقد صلح فى ٢١ أبريل سنة ١٩١٩ عرف بصلح بنيادم وأهم ما جاء فيه ما يلى :

١ ـ إنشاء حكومة للقطر الطرابلسى يتكون مجلسها من ثمانية أعضاء وطنيين وعضوين إيطاليين ويرأسها حاكم عام يعينه ملك إيطاليا .

٢ ـ ينتخب الأهالى مجلس نواب لمدة أربع سنوات ويتولى سن القوانين وتنظيم الميزانية ومراقبة أعمال الحكومة .

٣ ـ التعليم الأهلى حر تحت إشراف الحكومة واللغة العربية رسمية كالإيطالية

٤ ـ المساواة بين الإيطاليين والطرابلسيين ، وإباحة الوظائف والمهن الحرة للطرابلسيين ذوى المؤهلات .

٥ ـ الحرية الدينية مكفولة والأوقاف تدار بمعرفة هيئة إسلامية .

برقة : جرت مفاوضات بين السنوسيين والإيطاليين ، وعلى الرغم من تعثرها فقد انتهت بالاتفاق الذى عقد فى عكرمة (قرب طبرق) سنة ١٩١٧ وأهم ما فيها ١ ـ يقف كل من الطرفين حيث وصل سلطانه فى أبريل سنة ١٩١٧ .

٢ ـ قبلت إيطاليا أن تفتح المدارس العلمية والمهنية ، وتعهدت بأن تكفل الحرية الدينية وأن يتولى القضاء للمسلمين علماء منهم يحكمون حسب الشريعة الإسلامية .

٣ ـ تعيد إيطاليا الزوايا السنوسية وأراضيها ، وتعفيها من الضرائب ، وتدفع مرتبات مشايخها .

٤ ـ يتعهد السنوسيون بحل معسكراتهم ، ويتم تجريد القبائل من السلاح .

اتفاق الرجمة :

كان الاتفاق السابق يقصد إيقاف القتال ، ولكنه لم يحل كثيرا من المسائل ، لذلك عقد الطرفان اتفاق الرجمة سنة ١٩٢٠ وأهم ما جاء فيه :

١ ـ اعتراف السلطات الإيطالية بإمارة السيد محمد إدريس السنوسى ، وجعل أجدابية عاصمة له .

٢ ـ تبعية الأماكن الداخلية للأمير السنوسى والساحلية للسلطات الايطالية ، مع حفظ الحق له في التجول فى أنحاء البلاد وخدمة المصالح العربية .

اتفاق بومريم :

لم تحل فى الموعد المحدد المعسكرات السنوسية التى تعهد السنوسيون بحلها فى اتفاق عكرمة ، ولذلك رأى الطرفان تعديل هذا الاتفاق ، فتم اتفاق جديد فى بومريم سنة ١٩٢٠ يؤجل حل هذه المعسكرات حتى يتوطد الأمن ، ويقرر إنشاء معسكرات مختلطة فى أربعة أماكن هى : عكرمة وسلطنة والأبيار وتكنس ، وإقامة (دوار) إيطالى خاص فى المخيلة [١] .

الوحدة الليبية ومؤتمر غريان :

لم تستطع هذه الاتفاقيات أن تصل بالبلاد إلى الاستقرار والهدوء ، إذ كان الحل الوحيد هو وحدة البلاد الليبية ، وقد أحس الجميع بذلك ، ولما كان للأمير السنوسى سلطان أكثر قوة وشعبية ، فقد اتجهت الأنظار لاختياره زعيما للبلاد كلها ، وعلى ه[illegible]د مؤتمر غريان سنة ١٩٢٢ وفيه زعماء الحركة الوطنية بطرابلس للعمل على توحيد البلاد وقبول السيد إدريس السنوسى زعيما لها ، وقبل الأمير هذه الرغبة وسارت البلاد نحو الوحدة الشاملة [٢] .

---

(١) أوجزنا هذه المعاهدات من ١ـ دكتور حسن سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر ١٢٨ ـ ٢٣٦

(٢) عن مؤتمر غريان أقرأ الشنيطى فى المرجع السابق ص ٩٤ وما بعدها .

استئناف القتال :

شهد عام ١٩٢٢ حادثين كبيرين يتصلان بليبيا ، أما الأول فهو الوحدة التى نادى بها جميع الليبيين والتى تتعارض مع الاتجاه الاستعمارى الذى يرمى دائما للتفتيت وإثارة الفرقة بين الصفوف الداخلية . أما الحادث الثانى فاستيلاء الفاشيست على شئون إيطاليا فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ وقد جاء الفاشيست يحملون آراء استعمارية متطرفة ، ومن أجل هذين السببين أعلنت إيطاليا إلغاء كل الاتفاقات السابقة وأعدت العدة لحرب مدمرة وبدأ بذلك الدور الثانى فى الصراع الإيطالى الليبى .

عمر المختار

وفى مطلع هذا الدور أحس الأمير إدريس السنوسى أن إيطاليا تنوى أن تنكل به ، فغادر ليبيا إلى مصر ، وعهد إلى السيد عمر المختار بالنيابة العامة عنه فى قيادة الجهاد ببرقة ، وقد بعد السيد إدريس السنوسى عن المقاومة قبل أن تتم تنظيمات الوحدة التى أعلنها مؤتمر غريان ، لهذا سارت المقاومة فى مطلع هذا الدور ذات شقين وكان من أعلام المقاومة فى طرابلس فرحات الزاوى ومحمد سعدون السويحلى ، ولكن مقاومة طرابلس كانت قصيرة العمر إذ كان ضغط الفاشست عنيفا قاسيا هناك ، ولذلك قضى الطليان على آخر محاولة للمقاومة فى طرابلس فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وأخرج الطرابلسيون الأحرار من بلادهم فلجأوا إلى تونس ومصر ، وتدفق كثير من المجاهدين إلى برقة حيث تركز النضال بقيادة عمر المختار [1] .

وعمر المختار من أسرة فرحان من قبيلة المنفة ، ولد سنة ١٨٦٢ وتعلم فى مدرسة زترور السنوسية ، ثم أتم تعليمه فى الجغبوب ، واختاره السيد أحمد الشريف ليتولى مشيخة زاوية القصور ، واشترك فى الجهاد ضد الفرنسيين فى واداى ، وعمل على نشر الإسلام فى تلك الربوع ، ثم آلت له القيادة العامة لمقاومة الإيطاليين سنة ١٩٢٣ وكان اختيارا موفقا لما كان يتحلى به من صدق العزيمة ، وقوة الشكيمة ، وكبر التضحية ، وعلو الخلق ، ورباطة الجاش ،

---

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ١٠٤ .

والإيمان بالله ، والاخلاص للوطن [1] .

وقد حشد الفاشست آلاف الجنود وأضخم المعدات لمقاومة عمر المختار ، وحشد لهم عمر المختار إيمانا ووطنية وحسن تصريف للأمور ، أما أسلحته الحربية فلم تكن بذات غناء ، وكان شعب برقة كله يؤيده ويقف صامدا فى هذه الحرب المريرة ، وقد اعترف بذلك قادة الطليان مثل جرازيانى وبيايوباتش الذى أثر عنه قوله : كان جميع سكان برقة تحت نفوذ قادة الثورة ، وكان الجنود والأهالى يكوّنون وحدة شعبية سياسية مالية ، تقف فى صف واحد لتمكين القوة المقاومة من الصمود [2] .

وقد عانت برقة الكثير من عسف الطليان فى هذه الفترة ، وكانت الحرب تدميرا وإفناء ، طائرات ترسل الموت ودبابات تسحق القرى ومدافع تحصد الناس ، سجون يلقى فيها الأبرياء . كما شملت مصادرة الأموال وهتك الاعراض ، وكان مما فعله جرازيانى أن أنشأ « المحكمة الطائرة » وهى محكمة عسكرية متنقلة تحكم بالشبهة وينفذ حكمها فى الحال بمرأى من الناس ، ومع هذا فقد ظل عمر المختار يقاوم بصلابة ، وطالما أوقع بأعدائه الهزائم وأنزل بهم الموت واستولى على أسلحتهم ، ولكنه فى النهاية وقع أسيرا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ وكان جرازيانى فى إيطاليا فلما بلغه ذلك الخبر عاد مسرعا إلى ليبيا وأمر المحكمة الطائرة أن تطير إلى حيث قبض على البطل العربى بالقرب من سيدى رافع ، وجرت محاكمة صورية للبطل العظيم ، ثم صدر الحكم بإعدامه وحشد الآلاف من أهل برقة ليشاهدوا إعدام البطل فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٣ وبموته فقدت الثورة حياتها وهدأت المعركة مؤقتاً [3] .

الدفاع عن ليبيا من خارج ليبيا :

منذ بدأ الغزو الإيطالى لليبيا وقف العالم العربى والإسلامى يؤيد القطر العربى ويمده بالعتاد والزاد ، كما سافر إلى ليبيا كثير من المتطوعين العرب ،

---

(١) نقولا زيادة فى المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٢) نقولا زيادة ص ١٠٥ رانظر كتاب « عمر المختار » ضمن المكتبة الأسلامية لكل الأعمار للمؤلف .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣١٨ ـ ٣٣٩ .



البطل عمر المختار

وحملت الصحافة العربية نصيبها فى الكفاح ، فأثارت سخط الرأى العام العالمى ضد الأعمال الوحشية الإيطالية ، كما شدت أزر المجاهدين بمقالاتها وحملاتها .

فلما خر البطل عمر المختار وضعفت المقاومة الحربية فى الداخل ، بدأت مراكز الكفاح فى الخارج تنشط من أجل الدفاع عن ليبيا ، وكانت نواتها من الليبيين المهاجرين والمنفيين والفارين من وجه الظلم والطغيان ، وكان هناك مركزان قويان واصلا الدفاع ، أحدهما فى القاهرة حيث يوجد السيد محمد ادريس السنوسى والآخر فى سوريا حيث يوجد السيد بشير السعداوى ، ويجدر بنا أن نسجل بمزيد الفخر أن السيد بشير السعداوى الذى كان يمثل طرابلس أظهر ألوانا من النشاط والتضحية والإيثار جديرة بالاعجاب والخلود ، وكذلك فعل السيد ادريس السنوسى ولكن يبدو أن الضغط السياسى من قبل انجلترا التى كانت محتلة لمصر آنذاك قد فرض عليه أحيانا نوعا من الصمت [1] .

الحرب العالمية الثانية :

وقامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ودخلتها إيطاليا مع ألمانيا ، واتجة الحلفاء لتعضيد الحركات الوطنية المعارضة لإيطاليا ، ومنها حركة التحرير الليبية ، كما اتجه الليبيون لمساعدة الحلفاء فى حروبهم ضد إيطاليا العدو المشترك ، وقد انضم حوالى ١٤ ألف ليبى للجيش البريطانى الذى يحارب إيطاليا فى شمالى أفريقية ، وأظهر هؤلاء ألوانا من البطولة ، وانهزمت قوات المحور أمام قوات الحلفاء بعد معركة العلمين الشهيرة ، ولم يأت شهر يناير سنة ١٩٤٣ إلا وقد تم تطهير الأراضى الليبية تماما من قوات المحور ، واحتل الجيش الثامن مدينة طرابلس واحتلت فرنسا إقليم فزان ، وبدأ بذلك عهد جديد لليبيا سنتحدث عنه فيما بعد .

ويجدر بنا أن نسجل أنه فى مطلع الحرب العالمية الثانية اتجهت كل الأنظار إلى زعامة السيد محمد ادريس السنوسى ، ومن أبرز الاعمال التى أظهرت فى هذا الاتجاه اجتماع الطرابلسيين والبرقاويين فى دار الأمير السنوسى بمصر فى

(١) سعد البهنيهى : خفايا القضية الليبية ص ٣١ .

أكتوبر سنة ١٩٣٩ حيث اتخذ قرار إجماعي وقعه ٥١ من مشايخ القبائل ينص على وحدة البلاد واختيار السيد السنوسي ممثلا لهم فى كل الأمور [1] .

الإدارة الإنجليزية الفرنسية

حكمت ليبيا حكما إدارياً بعد تخلصها من إيطاليا ، وقد قسمها الاحتلال الجديد إلى ثلاث إدارات تولت بريطانيا السلطة فى اثنتين منها هى طرابلس وبرقة ، وتولت فرنسا إدارة فزان ، وقد واجهت السلطات الانجليزية والفرنسية حالة بؤس صارخة وجهل شامل ، فعملت على علاج الأحوال خطوة خطوة ففتحت بعض المدراس ونظمت الاقتصاد والزراعة بعض الشىء . ولكن الحريات بليبيا ظلت مكبوتة ، فالاجتماعات العامة كانت بإذن ويمكن فضها دون إبداء الأسباب ، وللبوليس سلطة واسعة يدخل فيها القبض على الأشخاص والتفتيش دون أمر قضائى ، ولم تكن هناك إلا صحافة هزيلة يصدرها قلم الاستعلامات البريطانى ، أما فزان فلم تكن بها صحافة على الإطلاق .

وانتهت الحرب ولم يُبْدِ الانجليز والفرنسيون استعدادا للجلاء وإعلان استقلال البلاد ، وكان واضحا ان التقسيم الإدارى كان تفتيتا للبلاد وتمكينا للنفوذ الأجنبى ، ومن أجل هذا بدأت الحركات الوطنية تظهر ، فظهرت الأندية ثم الجبهات الوطنية ثم الأحزاب ، وكانت الوحدة والاستقلال والانضمام للجامعة العربية هدف الجميع دون استثناء ، وكان الهدف الرابع اختيار الأمير السنوسى ملكا للبلاد وكانت الغالبية العظمى تنادى به ، وفى فبراير سنة ١٩٤٦ قامت مظاهرات صاخبة فى طرابلس تنادى بهذه الأهداف .

وفى سنة ١٩٤٧ اجتمع وكلاء وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى (انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا) لبحث مصير المستعمرات الإيطالية ومن بينها ليبيا ولم يستطع هؤلاء الوكلاء الوصول إلى قرار ، فتقرر إحالة الموضوع إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

---

(١) نص القرار فى « ليبيا من الاحتلال الايطالى حتى الاستقلال » ص ١١٩ .

وقد تمت في هذه الأثناء اجتماعات بين بيفن وسفورزا وزيري خارجية بريطانيا وإيطاليا واتُّخذ قرار بإعطاء إيطاليا حق الوصاية على طرابلس ،وانجلترا حق الوصاية على برقة وفرنسا حق الوصاية على فزان ، ولكن الشعب الليبي سخر من هذا القرار وقاومه ، وذهب وفدليبي إلى الامم المتحدة ليشرح قضية الشعب الليبي لأعضاء المنظمة الدولية ، وكان من نتيجة ذلك أن رفضت الأمم المتحدة قرار بيفن ـ سفورزا ، واتخذت في ٢١ فبراير سنة ١٩٤٨ قرارا ينص على « أن تصبح ليبيا المكونة من ولاية طرابلس الغرب وبرقة وفزان دولة مستقلة ذات سيادة على أن يصبح هذا الاستقلال نافذا في أقرب وقت بحيث لا يتأخر عن أول يناير سنة ١٩٥٢ » وعينت الأمم المتحدة مندوبا لها هو مستر بلت الهولندي، يعاونه مجلس استشاري من مندوبين عن مصر والباكستان وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا .

ودرس مندوب الأمم المتحدة المشكلة واتصل بالزعماء الليبيين والشعب الليبي ، فاتضح له أن جميع الليبيين على اختلاف طبقاتهم يريدون السيد محمد ادريس السنوسي ملكا على ليبيا كلها ، وأن النظام الاتحادي هو أنسب نظام لهذه البلاد

وتم عقب ذلك تأسيس جمعية وطنية تأسيسية من ٦٠ عضوا ، عن كل ولاية ، واجتمعت في طرابلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٠ وفي جلستها الثانية التي عقدتها في ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ أصدرت الجمعية قراراتها التي كان من أهمها اختيار سمو الأمير ادريس السنوسي ملكا ، وأن يطلب جلالته من انجلترا وفرنسا تمكينه من عمله بتسليمه زمام الامور ، وفي ٢٩ مارس اتخذت قرارا بتأليف حكومة اتحادية مؤقتة ، وفي ٧ أكتوبر أصدرت الجمعية دستور البلاد .

اعلان الاستقلال

وفى ديسمبر سنة ١٩٥١ أعلن جلالة الملك أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة ، وأن الدستور أصبح سارى المفعول ، وانضمت ليبيا لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ ، ولهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ ، وأخذت تزاول نشاطها الكامل في المشكلات العالمية .

ويجدر بنا أن نقرر أن دولتى الحكم الثنائى لم تظهرا حسن النية مع ليبيا ، وأنهما وضعتا ألوانا من العراقيل فى سبيل استقلال ليبيا ولكن يقظة الشعب الليبى والعربى والأمم المتحدة تغلبت على هذه العراقيل

بعد الاستقلال

مصر وليبيا وبقايا النفوذ الأجنبى :

بين ولائى وحبى لبلادى ، وبين الحق والعدل ، وبين صلة العروبة والدم والدين والجوار التى تربطنا بليبيا ، وبين هذا كله ، وبين التاريخ الذى ندونه نرجو به حسن التوجية وزيادة القرب لا التنفير والبعد ولا إثارة المشكلات ، بين كل هذه العوامل أحس بحاجتى أن أدع الكلام لسواى فى مجال الحديث عن جهود مصر فى قضية ليبيا .

يقول الاستاذ عبد الرحمن عزام الليبى الأصل : أنا أعرف أن مصر قد أدت واجبها كاملا فى مدى أربعين سنة للدفاع عن حرية جارتها ليبيا ، وابتدأت ذلك عام ١٩١١ فكانت تبذل المال والنفوس حتى تحول دون سقوط بلد عربى شقيق للاستعمار الأوربى ، وفى عام ١٩١١ تبرع الشعب المصرى للمجاهدين فى ليبيا بنحو ٦٠٠,٠٠٠ جنيه من الذهب ، أى مايوازى عدة ملايين من الجنيهات الآن .... ولم تنقطع هذه الإعانة فى أى وقت ، بل إنها استمرت وبكيفية مكّنت الليبيين من مداومة كفاحهم فى سبيل الحرية .

ويقول الدكتور عزه النص [1] عن ليبيا : مملكة جارة لمصر ، جارة عزيزة ،

---

(١) الوطن العربى ص ٧١ .

وبالإضافة إلى الأخوة العربية لم تمسك عنها مصر ما يفرضه الجوار وتقتضيه صلة القربى من عون وضيافة ومناصحة ، رفدتها بالمال حين كان المال لديها عزيزا ،ولم تقبض عنها مكرمة ، ..... وعلمت أجيالا من بنيها .

وعند اتخاذ إجراءات استقلال ليبيا أثار مندوب مصر فى الهيئة الدولية مسالة العجز المرتقب في الميزانية الليبية بعد الاستقلال ، ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن ينظر مجلسها الاقتصادى والاجتماعى فى أمر ليبيا ابتداء من عام ١٩٢٥ إلا أن الحكومة الليبية طلبت تأجيل بحث الأمر ، وتقدمت مصر إلى الحكومة الليبية منذ عام ١٩٥٢ عارضة تسديد عجزها المالى المتوقع على شرط ألا تنفق المعونة المصرية فى دفع رواتب الموظفين البريطانيين ، قال محمود منتصر رئيس الحكومة الليبية ان العرض المصرى جاء متأخرا ، وقد رافقه اشتراط إعادة النظر فى تخطيط الحدود بين البلدين [١] وقد ردت مصر على هذا ، وبينت موقفها تماما وشرح المتحدث باسم مصر أن مصر لم تتأخر لحظة فى تقديم هذا العرض وقد سبقت به كل الهيئات ، وليس لمصر أطماع اقليمية تتعلق بالوطن الليبى [٢] .

والذى يعنينا من هذا كله أنه يلزم أن نصحح أخطاءنا أيا كان مصدر هذه الاخطاء ، ولا يهمنا أن نلقى التهم ، وإنما الذى يهمنا هو تحرير الوطن العربى من بقايا الاستعمار التى لا تزال عالقة به ،وإننا نقرر مع الأسف الشديد أن الوسيلة التى اتبعتها ليبيا لسد العجز المالى وسيلة انقصت استقلالها وفرضت عليها التزامات ما أحوجها إلى التخلص منها ، فلقد عقدت ليبيا مع بريطانيا معاهدت في سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، وهى معاهدة « تكبل ليبيا بمواثيق استعمارية ثقيلة ، فتجعل مرافقها نهبا للبريطانيين ، وتلزمها بعهود عسكرية خطيرة ، وتبيح للجيوش البريطانية أن تقيم على أرضها ... وتضع الجيش الليبي الفتى بأيد بريطانية ... ومدة المعاهدة عشرين عاما .وعقدت ليبيا كذلك معاهدة مماثلة مع الولايات المتحدة فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ تسمح نصوصها للولايات المتحدة أن تحتفظ على الارض الليبية بعدة قواعد ومطارات عسكرية

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) اقرا الرد كاملا فى « خفايا القضية الليبية » للاستاذ سعد البهنيهى ص ٨٦ وما بعدها .

وخاصة مطار الملاحة »[1] .

ومدة هذه المعاهدة أيضا عشرون عاما . وكل ذلك بثمن بخس ، لا يوازى ١ ٪ مما تدفعه بريطانيا أو أمريكا لاسرائيل دون احتلال ، ونحن لا نطالب بمزيد من المال ، ولكننا نطالب بالحرية الكاملة ، فالقيود لا يعدلها ثمن عند الأحرار .

ونرجو أن تكون ليبيا قد استردت أنفاسها بعد الجهاد الطويل ، وأن تبدأ دون تواني فى تنقية استقلالها مما يشوبه من أكدار ، فالوطن العربى واحد من المحيط إلى الخليج ، والأحرار العرب لا يريدون به أجنبيا يستغل أو يتحكم .

وبعد مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى ١٣ يناير سنة ١٩٦٤ اتجهت الآراء نحو تصفية كل القواعد الأجنبية بالوطن العربى ، وفى مقدمتها القواعد البريطانية والأمريكية بليبيا ، وفى الاحتفال بعيد الوحدة بالقاهرة (فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٤) جاء فى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر أن القواعد الغربية بليبيا تهدد استقلالنا ومنها اعتدى علينا سنة ١٩٥٦ ، وكان لهذا الخطاب صداه فأصدرت الحكومة الليبية بيانا فى اليوم التالى بأنها لن تجدد اتفاقية القواعد ، ولم يكتف البرلمان الليبى بهذا بل اتخذ بالإجماع قرارا فى ١٦ مارس بإلغاء هاتين المعاهدتين وتصفيه القواعد دون إبطاء .

وفى فبراير سنة ١٩٦٦ تسلمت حكومة ليبيا من القوات البريطانية معسكر « ميامى » بطرابلس استعدادا لجلاء القوات البريطانية عن البلاد ، وتسلمت كذلك فى نفس الشهر مستشفى « كانيفا » العسكرى بطرابلس ، ثم جلت القوات البريطانية عن قاعدة طرابلس فى آخر مارس سنة ١٩٦٦ .

ومما يذكر أن البترول تدفق فى أرض ليبيا فغطى حاجاتها الاقتصادية ولم تعد فى حاجة إلى أى عون مادى .

الوحدة الكاملة فى ليبيا :

مرت اثنتا عشرة سنة على اعلان استقلال ليبيا وإقامة حكومة اتحادية من الولايات الثلاث ، وفى أثناء هذه السنوات ازداد التقارب بين سكان ليبيا وتم الامتزاج ، فخطت البلاد خطوة حاسمة إلى الأمام أشرنا إليها من قبل ، وهى إنهاء الحكم الاتحادى فى ليبيا ، وبدء نظام الوحدة الشاملة وقد أعلنت هذه الخطوة المباركة فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٣ ، وأصبح يوم ٢٧ أبريل عيدا رسميا بالمملكة الليبية لذكرى هذه المناسبة السعيدة .

(١) دكتورعزه النص : الوطن العربى ٧٦ ـ ٧٧ .

نهاية الملكية وقيام ثورة الفاتح وإعلان الجمهورية

لم يطل العهد الملكي بليبيا ، وكان محمد إدريس السنوسى هو الملك الأول والأخير ، وقد تدفق كما ذكرنا آنفا النفط ـ بغزارة خلال عهده ، فانتقلت ليبيا من الفاقة إلي الثراء ومن التبعية الاقتصادية إلى مكان تستطيع فيه أن تقدم العون قرضا أو إعانة ولكنها لم تفعل .

وتغير وجه الحياة تبعا لذلك فانتشرت المدارس والمستشفيات وبدأت الجامعات تظهر ، وكثرت الأعمال لطالب الأعمال . ولكن الغنى الذى جلب هذا الجانب المضيء على البلاد جلب عليها جانبا آخر قاتما سنوضحه فيما بعد فاضطر الجيش الليبى إلى القيام بثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ وقد ألغت هذه الثورة الملكية وأعلنت الجمهورية ، كما أعلنت أن مجلس قيادة الثورة سيحكم البلاد برياسة العقيد معمر القذافى .

وأعلن قادة الثورة أن أسباب ثورتهم ترجع إلى الاستبداد ، وانتشار المحسوبية والرشوة ، وسيطرة النفوذ الأجنبى على مقدرات الشعب والمعاهدات غير المتكافئة التى عقدها حكام ذلك العهد مع الولايات المتحدة الامريكية ومع بريطانيا والتى خولت لهاتين الدولتين أن تحتل قواتهما بعضَ القواعد الليبية .

كما أعلن القادة أهداف ثورتهم متخذين من ثورة ٢٣ يوليو نبراسا لهم ، ولهذا كان شعار ثورتهم : الحرية والاشتراكية والوحدة ، ومن أجل هذا سرعان ما بدأت هذه الثورة تدخل فى مفاوضات لإنهاء الوجود الأجنبى بليبيا ونجحت هذه المفاوضات وتمَّ توقيع اتفاقيتين للجلاء إحداهما مع بريطانيا والثانية مع الولايات المتحدة الامريكية وتم ذلك الجلاء فى النصف الاول من العام التالى لعام الثورة (أى فى سنة ١٩٧٠) وشهدت ليبيا يوما حافلا هو يوم إنزال العلم الامريكى من قاعدة هويلس ورفع العلم الليبى على هذه القاعدة التى سميت منذ ذلك اليوم « قاعدة عقبة بن نافع » وقد حضرت الصحف المصرية هذا اليوم المشهود ونقتبس فيما يلى سطورا قليلة مما ذكرته صحيفة أخبار اليوم فى ١١ / ٦ / ١٩٧٠ .

في دقائق ، ولكنها مشحونة بأروع الأحاسيس والانفعالات ، تسلمت السلطات الليبية قاعدة هويلس . ووقف القائد الامريكى يقول :

« الآن أسلم قاعدة هويلس رسميا إلى حكومة الجمهورية العربية الليبية » لحظات كان لا يمكن أن تصدق . فقد استمر اسم هويلس طيلة عشرين عاما يرمز للقلعة المحاطة بالأسوار ، والتى لا يدخلها أى انسان ليبى ...وفى لحظات يختفى اسم هويلس ، ويأتى اسم عقبة بن نافع . فى لحظات ينزل العلم الامريكى ويرتفع علم ليبيا الثائرة بألوانه الثلاثة . فى لحظات تتحول الأرض المحرمة إلى ناد كبير يعج بالآلاف من أبناء الشعب الليبى حلال عليهم دخولها ، بعد أن كان ما يجرى بداخلها كالأسطورة ! » .

واتجهت الثورة للوجود الفاشيستى الاستعمارى الايطالى المتمثل فى الجالية الإيطالية فأنهت وجود هذه الجالية فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠ .

ومنذ قيام الثورة اتجهت الجهود للإصلاحات الداخلية فظهرت الجامعة الليبية فى أبهى مظهر ، وكانت بعض كلياتها فى طرابلس وبعضها فى بنغازى وفى سنة ١٩٧٤ أصبحت هناك جامعة مستقلة فى كل من المدينتين وقد شاهدت الأبنية الشاهقة التى بنيت لجامعة طرابلس فوجدتها تضارع أرقى المبانى الجامعية فى العالم ، أما عن المدارس والمستشفيات وأنواع العمران الأخرى فالبلاد تعج بها مما يدل على تطوير واسع فى كل اتجاه . ومن الناحية الدستورية أصدر مجلس قيادة الثورة « الاعلان الدستورى » فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٦٩ واهتمت الثورة اهتماما كبيرا بالجيش الليبى ومعداته وتدريبه ، كما اهتمت برخاء الشعب وإسعاده .

ومن الناحية الاقتصادية أخذت الثورة خطوات مهمة للقضاء على سيطرة الشركات المستغلة للبترول ولضمان الحقوق الليبية ، ولتلبيب المصارف .

وقد توفى الملك إدريس السنوسى فى القاهرة يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٨٣ ودفن بالمدينة المنورة طبقا لوصيته .

ليبيا فى المجال العربى :

أعلنت الثورة منذ قيامها أنها تنتهج منهج الوحدة العربية ، وتؤيد كل الجهود التى تبذل فى هذا المجال ، وسيراً فى هذا الاتجاه تحققت النتائج التالية :

١- عقد مؤتمر بمدينة طرابلس فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٩ حضره رؤساء ليبيا ومصر والسودان وأسفر عن صدور « ميثاق طرابلس » للتنسيق الوحدوى بين الأقطار الثلاثة .

٢- تكوّن اتحاد الجمهورية العربية بين ليبيا ومصر وسوريا ، بعد مباحثات جرت فى بنغازى وصدر بذلك « اعلان بنغازى » واعتبر قيام هذا الاتحاد خطوة فى طريق الوحدة العربية الشاملة ، وقد أجرى استفتاء على قيام الاتحاد من هذه الأقطار الثلاثة فى الفاتح من سبتمر سنة ١٩٧١ ، وقد وافقت عليه أغلبية ساحقة فى كل قطر .

٣- فى الفاتح من سبتمبر من العام الثانى (١٩٧٢) صدر بيان بإعلان الوحدة بين مصر وليبيا ، ونقتبس فيما يلى بعض فقراته :

إن ثورة الثالث والعشرين من يوليو وثورة الفاتح من سبتمبر تصدران عن نبع واحد ، وتسيران فى طريق واحد وتتجهان إلى هدف واحد ، هدف الحرية والاشتراكية والوحدة .. الذى تتمثل فيه تاريخيا وإنسانيا ونضاليا كل المعطيات التى تريدها الأمة العربية .. أساسا لمستقبل عزيز تتحقق به آمالها

والشعب المصرى والشعب الليبى تجمعهما عوامل وثيقة ..وصلات متعددة .. جغرافية وتاريخية واقتصادية وسياسية وبشرية وفكرية .. تلقى عليهما إزاء الأمة العربية مسئوليات والتزامات .

وهذه المسئوليات ليست دورا متميزا للشعبين .. ولكنها التزام محدد لخدمة الأهداف القومية العليا .. مهما تكن العوائق .. وهى تدعوهما إلى بذل جهد مشترك . لتحقيق آمال الامة العربية فى إقامة وحدتها .

وإن السير على هذا الطريق .. قد حدا بقيادتى الثورتين إلى ضرورة

التحمل بأمانة العمل القومي الوحدوى لتقوم الثورتان باجتهادهما المشترك باختيار طليعى لآفاق العمل الوحدوى فى ظروف تحقق لأول مرة مناخا ملائما لهذا الاتجاه .

وانطلاقا من الأهداف والمبادىء التي نص عليها إعلان بنى غازى عن قيام اتحاد الجمهوريات العربية .. وفى اطار احترام دستور دول الاتحاد ومسئوليات وصلاحيات السلطات التى حددها ذلك الدستور ..واستمرارالهذه المباحثات ....

اجتمع السيد الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية والعقيد معمر القذافى رئيس مجلس قيادة الثورة فى الجمهورية العربية الليبية فى طبرق وبنى غازى فى الفترة من ٢١ إلى ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٩٢ هجرية الموافق ٣١ يوليو إلى ٢ أغسطس سنة ١٩٧٢ ميلادية .

واشترك معهما فى المباحثات وفد من جمهورية مصر العربية ووفد من الجمهورية العربية الليبية .

وانتهت المباحثات إلى إصدار القرارات الآتية :

١ - إنشاء قيادة سياسية موحدة بين الجمهوريتين ويصدر بتشكيلها قرار من الرئيسين .

٢ - تضع القيادة السياسية الموحدة بأسرع وقت مستطاع الأسس لاقتراح الوحدة الكاملة بين الجمهوريتين ، وتشرف على تنفيذ الخطوات اللازمة لتحقيقها.

٣ - تنشىء القيادة السياسية الموحدة لجان مشتركة من الجمهوريتين لدراسة وضع الأنظمة التى على أسسها تقوم الوحدة بين الجمهوريتين فى المجالات الآتية :

(أ) الشئون الدستورية .

(ب) التنظيمات السياسية .

(حـ) الدفاع والأمن القومى .

(د) النظم الاقتصادية .

(هـ) التشريع والقضاء .

(و) النظم الإدارية والمالية .

(ز) التعليم والعلوم والثقافة والإعلام .

٤ ـ تقدم هذه اللجان تقارير بما تتمه من أعمالها أولا بأول إلى القيادة السياسية الموحدة لتتخذ بشأنها ما تراه للتنفيذ .

عرض الوحدة فى استفتاء شعبى

خامسا ـ تقوم القيادة السياسية الموحدة بإقرار وإعلان الصيغة النهائية لمشروع الوحدة وذلك لعرضه على السلطات المختصه فى كل من الجمهوريتين وطرحه للاستفتاء الشعبى .

سادسا ـ تتم هذه الاجراءات فى موعد أقصاه الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٧٣

ولكن للأسف لم توضع فى الوقت المحدد الأسس اللازمة لضمان وحدة سليمة بين البلديين ، فأهل الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٧٣ دون أن تخطو الوحدة خطواتها المرجوة ، وانفتح الباب لشيء من الخلاف بل الجفاء ، شاهدتُ مظاهره فى ليبيا حينما كنت أستاذا زائرا بجامعة طرابلس خلال شهر مايو سنة ١٩٧٤ وليس من الممكن أن تقوم وحدة فى جو من الجفاء الذى نراه فى الصحافة والإذاعة ، ومع عدم التعاون الصحيح العميق فى الشدة والرخاء .

وهنا أرفع القلم لأنا من دعاة الوحدة ولا أريد أن أخط ما شاهدت وما عرفت هنا وهناك مما يفتت ولا يؤلف ، ويفرق ولا يوحد ، راجيا أن نصحح أنفسنا لتخطو خطوات سليمة نحو وحدة تنبع من الشعوب لمصلحة الشعوب ، وحدة يسبقها إحساس متدفق بالحاجة إليها وليست وحدة تعمل لخلق هذا الإحساس .

محاولات ليبيا للوحدة مع تونس :

فى ١٢ يناير سنة ١٩٧٤ زار العقيد معمر القذافى تونس واجتمع بالرئيس الحبيب بورقيبة اجتماعا منفردا صدر على إثره بيان يعلن قيام الوحدة بين ليبيا وتونس ويحدد تواريخ متلاحقة لتنفيذ مراحل هذه الوحدة ومن أهمها الاستفتاء عليها ، وحلت هذه المواعيد دون أن تخطو هذه الوحدة أية خطوة للأمام .

وقد سئل الرئيس بورقيبة عن هذا الموضوع فأجاب فى حديث نشرته صحيفة الاهرام يوم١٢ / ٧ / ١٩٧٤ بأنه سبق له عقب مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد بالجزائر فى آخر سنة ١٩٧٣ أن عرض على رؤساء دول المغرب العربى الكبير فكرة « الكونفدرالية » ثم طلب العقيد القذافى الحضور إلى تونس فى ١٢ يناير سنة ١٩٧٤ وفى اجتماعى معه صدر هذا البيان ، ويقول الرئيس بورقيبة انه يبدو أن العقيد القذافى كان يقصد الوحدة الاندماجية وكنت أقصد الوحدة الكونفدرالية التى سبق أن تحدثت عنها فى الجزائر ، وأضاف الرئيس التونسى أن الوحدة الاندماجية خيال ، وأنه لا يمكن أن تتم قبل مراحل طويلة ، وأنه من المهم أولا تغيير الأدمغة حتى يتم التلاقى بين الشعوب ، وذكر سيادته ، أنه قد تبين للجانب التونسى أنه لابد من أجل إجراء الاستفتاء من تعديل الدستور ، وأنه حدثت ملابسات عدة ظهر من خلالها أن هناك عدم التقاء فى وجهات النظر ، فتجمد الموقف .

محاولات ليبيا الاتحاد مع دول أخرى :

وقد ذكرنا بشىء من التفصيل محاولة ليبيا الاتحاد مع تونس ، وقبلها ذكرنا بشىء من التفصيل كذلك حديثا عن « اتحاد الجمهوريات العربية : مصر وسوريا وليبيا » وقد ظل هذا الاتحاد كائنا ميتا حتى انسحبت مصر منه فى سبتمبر سنة ١٩٨٤ وقال رئيس جمهورية مصر عنه « إن الاتحاد ليس أكثر من ورقة لا قيمة لها ، ولابد أن يكون ما هو ثابت فى الوثائق الرسمية انعكاسا صادقا للواقع » .

وفى سنة ١٩٨٠ أعلن اتحاد سوريا وليبيا .

وفي سنة ١٩٨٤ أعلن اتحاد المغرب وليبيا ، وليس هناك أى شعاع من النور لهذه الاتحادات .

إن ليبيا فى الحقيقة هى التى تسعى لهذة الارتباطات ، وبالتالى كان عليها أن تعمل للمحافظة على هذا الغرس وتنميته ، وليتها تفعل .

ليبيا والغرب :

قامت ثورة ليبيا فى الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ وأسرعت مصر بتأييد هذه الثورة شأنها فى الابتهاج بأى أمل فى التطور تتجة له أية دولة عربية أو اسلامية ، وكان جمال عبد الناصر شديد الرغبة فى الثورات لذاتها أى دون أن يتأكد من حسن تخطيطها ومسيرتها ، ولذلك سرعان ما أعلن تأييده لهذه الثورة ووقوفه معها ضد أية محاولة لمقاومتها وزاد على ذلك بأن أعلن أنه يرى فى العقيد القذافى شبابه وطموحه .

وقد ورث العقيد القذافى طموح عبد الناصر وأطماعه و اتجاهاته دون كثير من التفكير فيما أنتجة هذا الطموح من أضرار بمصر والمصريين ، ومن هنا يسجل التاريخ أن العقيد القذافى لم يعمل لتطوير بلاده والرقى بها ، وقد زرت ليبيا حدثيا وأشهد أن البداوة لاتزال تعيش بها على الرغم من أنه مر على هذه الثورة ربع قرن تقريبا وبدل تطوير البلاد نثبت ما يلى :

ـ أسرعت هذه الثورة بإلغاء النظام الملكى كأن الملكية فى ذاتها دليل تأخر .

ـ أعلنت الثورة قيام الجمهورية ، ولم تقنع بأن تكون جمهورية كباقى الجمهوريات فى العالم بل أسمت نفسها الجماهيرية العظمى ، وسخر الزعيم بنظام التعددية الحزبية ووصفة بانه عودة للنظام القبلى ، والقذافى بذلك يسخر من نظام اتبعته عشرات الدول ولاقت فى ظله المساواة والعدالة ولم يستطع أن يخلق نظاما بديلا سوى كائن هذيل يسمى « المؤتمرات الشعبية » وهو كائن تديره أصبع واحدة من أصابع الزعماء .

ـ استطاعت الثورة أن تتخلص من القواعد الأجنبية البريطانية والأمريكية

واستكملت بذلك سيادتها وذلك شيء يحسب لها .

ـ منحت الطبيعة ليبيا ثراء هائلا عن طريق البترول المتدفق بجهود الشركات الغربية ، وقد أممت ليبيا هذه الشركات أو أكثرها .

وكان يمكن أن تخطو ليبيا بذلك إلى درجات عالية من الحضارة بسبب الكسب السياسى والاقتصادى ، ولكن ليبيا اتجهت لأطماع كانت تفوق قدراتها بمراحل واسعة مما سبّب خلافات حادة بين قادة الثورة بعضهم والبعض ، وسبّب خلافات بين ليبيا والآخرين .

– وتطلع زعماء ليبيا إلى حكم بعض البلاد المجاورة ، وكانت مصر من بين هذه البلاد التى تطلع هؤلاء الزعماء لحكمها عن طريق وحدة رأوا أنها تحقق لهم هذا الهدف ، وجهل هؤلاء الزعماء أن ذلك أمل بعيد التحقيق يرفض كل مصرى مبدأ التفكير فيه ، ولذلك سرعان ما ماتت هذه الفكرة وهى فى مطلع بزوغها ، وقد تسبب عن ذلك خلاف أدى إلى اشتباك مسلح سنة ١٩٧٧ ، فاتجه العقيد القذافى إلى محاولات أخرى لوحدة اندماجيه مع أقطار أخرى لعل ذلك يحقق له بعض الأطماع ، فأقام وحدة مع تونس ثم مع مالطة وتشاد والمغرب والسودان وكانت كلها حركات قصيرة العمر ، وفى الوقت الذى كان دائم الحديث فيه عن الوحدة العربية فإنه لم يقدم دولارا واحداً للمساعدة على التنمية فى بلاد تحتاج للتنمية فى الوقت الذى كانت تقدّم دول الخليج التى كان يصفها بالرجعية مساعدات كثيرة فى هذا المجال وهى فى الحق لاتفى بالغرض حقا .. ولكنها جهد يستحق الشكر والتقدير على أى حال.

ويذكر المرحوم الدكتور وحيد رأفت عن هذا الوضوع ما يلى :

واستقر فى ذهن الزعيم الليبى أنه لابد من أجل تحقيق هذه الوحدة بأية صورة ، من أن تصبح الجماهيرية الليبية من أقوى دول الشمال الافريقى إن لم تكن أقوى دول القارة الافريقية جميعا ! كما كان يتمناه جمال عبد الناصر فى أوج عظمته ، لاسيما وأن فرص القذافى فى تحقيق هذا الحلم ربما كانت أكبر من فرص عبد الناصر ، بالنظر إلى الثروة البترولية الهائلة التى تملكها الجماهيرية الليبية والتى كان من الأفضل للشعب الليبى وللشعوب العربية الأخرى فى

المنطقة ، لو استخدمت هذه الثروة فى النواحى الاقتصادية للنهوض بمستوى هذه الشعوب حضاريا واجتماعيا وحياتيا ، بدلا من تبديد هذه الثروات فى شراء السلاح

صلات مع الاتحاد السوفييتي تقلق الغرب :

لقد أعلن في يوليو ١٩٧٥ عن توقيع اتفاق بين الاتحاد السوفييتي وليبيا .. وافقت هذه الأخيرة بموجبه على السماح للاتحاد السوفييتي بإقامة قواعد سوفييتية برية وجوية وبحرية فى ليبيا وموانيها ، وذلك فى مقابل تزويد ليبيا بآلاف الدبابات والطائرات والصورايخ السوفييتية بما قيمته حوالى اربعة الآف مليون جنيه استرلينى ، أى حوالى ١٢ ألف مليون دورلار امريكى ! واشترط الاتحاد السوفيتى عند توقيع الاتفاق ان يبعث إلى ليبيا بخبرائه فى جميع النواحى العسكرية على جميع المستويات لتدريب القوات الليبية على استخدام هذه الأسلحة المتطورة .

وهكذا كرر الاتحاد السوفييتى مع ليبيا نفس الاستراتيجية التى بدأها مع جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ ! ولقد اشارت جريدة الأهرام فى عدد ١٨ ابريل ١٩٧٩ إلى أن ترسانة العقيد معمر القذافى تضم إليوم أسلحة هائلة ليس فى مقدرة الانسان الليبى أن يستعملها

- وهذا التصرف جعل ليبيا تقف وجها لوجه أمام دول الغرب لأنها بهذه الأسلحة وبهذه الاتصالات مع الاتحاد السوفيتى أصبحت تهدد الأسطول الأمريكى بالبحر المتوسط وتهدد دول حلف شمال الأطلسى وأخرجت ليبيا الاستعمار الغربى وفتحت الباب لاستعمار سوفييتى ولم تقنع ليبيا بذلك بل هددت بالانضمام لحلف وارسو

وتحدى العقيد القذافى دول الغرب جميعا ، فقد قدم المساعدات لثورة نيكارجوا التى تحاربها أمريكا ، وقدم المساعدات للجيش الجمهورى الأيرلندى الذى يحارب بريطانيا ، وتدخل فى شئون تشاد وهى من مناطق النفوذ الفرنسية ، وطالب بتعويضات هائلة من إيطاليا ، واعتدى أتباعه

من الإرهابيين على بعض خصومه المهاجرين فى ألمانيا ، وكل هذا خلق عداوات بينه وبين دول الغرب

ارة جوية امريكية على ليبيا :

- ولهذه الأسباب ولغيرها مماخلق عداء سافرا بين ليبيا الدولة الصغيرة التى هى فى عداد الدول النامية المتأخرة وبين الولايات المتحدة والغرب الاثنين ١٤ ابريل سنة ١٩٨٦ وشددت غاراتها على ثكنة باب العزيزية وهى المقر الرئيسى للقيادة الليبية وأسقطت الطائرات الأمريكية وابلا من القذائف دمر وأحرق وصرع حوالى مائة شخص وأصاب الكثيرين بجروح وإصابات مختلفة ، وبعض هؤلاء من الأطفال والنساء ، وكان من بين القتلى بعض أفراد من أسرة القذافى ، أما هو فقد نجا بمعجزة إذ أعلمته المخابرات السوفيتية بتوقع هذه الغارات .

- ونكتفى بأن ننقل هنا العناوين التى ذكرتها صحف القاهرة عن هذه الغارات الأمريكية على طرابلس وبنى غازى .

الأهرام : الطائرات الأمريكية تقصف مواقع ليبية بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل موجهه بأشعة الليزر

تدمير سفارات أجنبية وإصابة اثنين من أولاد القذافى

- ريجان يهدد يضرب ليبيا من جديد اذا اقتضى الأمر

٣٣ طائرة امريكية تقوم بغارات واسعة على ليبيا

- الطائرات استخدمت القنابل التليفزيونية وقصفت مقر القذافى ومطارات طرابلس وبنى غازى .

- مصرع وإصابة ١٠٠ شخص من بينهم بعض أفراد أسرة القذافى

- وكان رد فعل هذه الغارات ضئيلا فى العالم ، فمصر فقط هى التى أعربت عن استيائها الشديد لهذه الغارات

- والفكر العربى والإسلامى يرى فى هذه الغارات أسلوب الغابة وعداوان الكبار من الدول على الدول الصغرى وهو عيب يستنكره الأحرار .

- وللأسف لم يثر أحد ضد هذه الغارات الأمريكية ، وحتى مصر اكتفت بالإعراب عن استيائها الشديد لما حدث ، وكان السبب فى عدم الاكتراث أن صلات ليبيا بالعالم العربى والإسلامى لم تكن قوية ، لأن ليبيا كانت تعدّ الجميع من الدول المتخلفة التى تسير فى نطاق الغرب ، ثم إن العرب والمسلمين لم يكن يرضيهم أن يسير القذافى فى الطريق الوعر الذى سلكه قبله عبد الناصر فجرَّ على البلاد والعباد فيضاً من المتاعب .

- وكان من أسباب عدم اكتراث العالم أن بعض الطائرات الغربية سقطت بفعل إرهابى ومات مئات الأبرياء الذين كانوا فى هذه الطائرات ، واتّهمت ليبيا بارتكاب هذه الجرائم وتُنْكِر ليبيا هذا الاتهام ،ولكنها لم تنكر مساعدتها لثوار ايرلندا بل قامت بتسليم بريطانيا أسماء قائمة من الذين تدربوا فى معسكراتها من الايرلنديين ، واعترفت بأنها كانت الممول الرئيسى للثوار خلال عقد الثمانينات (صحف القاهرة فى ٢٢ /٦/ ١٩٩٢)

حصار حول ليبيا :

- وطالب الغرب بتسليم اثنيين من الليبيين اتهما بتفجير الطائرات ورفضت ليبيا تسليم هذين المواطنين فاتخذت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا موقفا صارما ضد ليبيا فى مجلس الأمن فصدر قرار يقضى بعزل ليبيا وحصارها جويا بحيث لاتنزل الطائرات بمطاراتها ولا تستقبل مطارات العالم الطائرات الليبية .

- وقد تسبب عن ذلك الحصار كثير من المتاعب لليبيا ، وأصبحت مصر هى البلدة الوحيدة تقريبا التى تمد ليبيا بحاجاتها عن طريق البر وحتى كتابة هذه السطور لم توافق ليبيا على تسليم الليبيين لاعتقادها أن هذين الشخصيين قد يقعان تحت أى تأثير فيذكران أشياء تمس الزعامات الليبية من حيث تدبير هذه الانفجارات التى دمرت الطائرات الغربية .

ومع كل الحب الذى يغمر قلوبنا إلى القطر العربى الذى يقع على حدودنا الغربية ويعيش فيه عدد من المصريين ، وتربطنا به روابط عديدة ، مع كل هذا الحب يتحتم علىّ كباحث فى التاريخ أن أقول كلمة صدق بالنسبة للزعامة الليبية لعلها تستجيب فلا يزال هناك أمل فى إصلاح الأحوال ، ولذلك نسجل ما يلى :

انحرافات السياسة الليبية :

ـ اتخذت الزعامة الليبية من جمال عبد الناصر منهجا روحيا ، ونسيت أن المذكور دمّر بلاده وقتل الأبرياء وحكم عليها بهزائم قاتلة سنة ١٩٥٦ وفى اليمن وسنة ١٩٦٧ ولو لا صلابة المعدن المصرى لانهارت البلاد تماما .

ـ فى صور هذه القدوة القاسدة أساءت الزعامة الليبية التصرف مع دول الغرب كما يلى :

أ ـ الارتباط بالاتحاد السوفييتى وتهديد المنشآت الغربية بالبحر المتوسط .

ب ـ إعطاء الاتحاد السوفييتى قواعد برية وبحرية وجوية وهو شىء اكثر مرارة من إعطاء الغرب مثل هذه القواعد ، وكلاهما شر .

جـ ـ انغمست الزعامة الليبية فى مواقف بالغة السوء عندما ساعدت ثوار ايرلندا وتدخلت فى تشاء ضد فرنسا كما ذكرنا .

د ـ اعتدى أتباع الزعامة الليبية على بعض الخارجين على هذه الزعامات اللاجئين إلى دول أخرى فتسبب عن هذا ثورة هذه الدول على ليبيا ، ومصر تحسب من هذه الدول .

ـ تهاجم ليبيا الرجعية العربية كما تسميها ولكنها لم تستطع أن تدخل فى سباق المساعدات التى تقدمها هذه الدول للدول العربية أو الإسلامية الفقيرة .

ـ نضب المعين المالى فى ليبيا لدرجة أن مرتبات المعارين لا تدفع بانتظام ، وقد اضطر بعض المعارين الذين طلبتهم ليبيا أن يعودوا بعد أن يئسوا من نيل حقوقهم .

ـ لم تقم ليبيا خلال ربع قرن من ثورتها برفع شأن الإنسان الليبى كما ينبغى

، واكتفت بتكديس أسلحه بمليارات الدولارات ليأكلها الصدأ .

ـ اتُّهمت ليبيا بإسقاط طائرات غربية قتل فيها مئات الأبرياء وليت ليبيا تستطيع أن تبرىء نفسها من هذا الجرم الكبير .

ـ وشهد شهر ذى الحجة سنة ١٤١٣ (مايو ١٩٩٣) مأساة جديدة قامت بها الزعامة الليبية ، فقد وافقت على قيام حوالى مائتى شخص من الجماهيرية العربية الاشتراكية العظمى كما يسمونها بزيارة اسرائيل لزيارة المسجد الأقصى

والإنسان يعجز عن فهم الدوافع التى أدَّت لهذا العمل الأخرق ، فالمصريون ـ مع وجود معاهده بينهم وبين اسرائيل لم يفكر واحد منهم بالقيام بهذا العمل .

ثم ان جانب التحدى كان واضحا للإسلام والمسلمين ، فلماذا اختير شهر ذى الحجة لهذه الزيارة الغريبة هل يقصدون ضرب الحجاز أو المملكة العربية السعودية ؟

ونأسف أن نقول إنهم ضربوا أنفسهم ، ولم تنل هذه الزيارة إلا السخط والاشمئزاز ، ولم تجن أية ثمرة واضطر رئيس وفدها أن يعلن أن القدس عاصمة فلسطين فأثار بذلك قيادة إسرائيل .

إنها نزعة كالنزعات الليبية التى تتبنى تراث عبد الناصر وهو تراث يخرِّب ولا يعمر لله الأمر من قبل ومن بعد .

وأخيرا نرجو أن تعود ليبيا إلى الرشد وتقنع باسمها « الجمهورية العربية الليبية » وتحذف كلمة « العظمى » والعظمه لله وحده ، وقد حذفت بريطانيا هذا الوصف واقتنعت بأنها المملكة المتحدة ونرجو كذلك أن تسير ليبيا فى نطاق ديمقراطى حقيقى وأن تحذف الاشتراكية فقد اتضح أن الاشتراكية تُفْقِر الأغنياء وتجيع الفقراء وقد أعلن الاتحاد السوفييتى فشلها الذريع .

السنوسية

مقدمة :

لعبت السنوسية دورا كبيرا فى الحياة السياسية والروحية بأكثر أقطار إفريقية الاسلامية وبخاصة ليبيا ، ومن أجل هذا لزم أن نعرض لها بالحديث لنبين بإيجاز مبادئها وتاريخها .

انحلت الدولة الاسلامية ابتداء من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتركت فى نفوس المسلمين آلاما وحسرة ، فقد ضعفت الدول الاسلامية الصغيرة أمام الحركات الهدامة فى الداخل والحركات المهاجمة من الخارج ، ومن أجل هذا رحب المسلمون بالقوة العثمانية التى ظهرت فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وباسم الإسلام وباسم الوحدة الإسلامية استطاع الأتراك العثمانيون أن يسيطروا على أغلب العالم الاسلامى ، وكثيرا ما كان قدومهم لقطر من الاقطار تلبية لهتاف أهله كما رأينا فى الدراسة السابقة .

غير أن الاتراك العثمانيين كانوا عسكريين فقط ، فلم يبذلوا جهدا يذكر فى ترقية الحياة الاجتماعية والثقافية عند المسلمين بالدول التى خضعت لهم ، وكانوا يقنعون من الوالى بأن يدفع لخزانة الاستانة ما التزم به من مال ، ولا يعنيهم ما سوى ذلك ، وتسبب عن ذلك أن انتشر الجهل والتخلف الفكرى فى البلاد الخاضعة لتركيا ، ثم ان الانتصارات العسكرية التركية لم تستمر ، فقد انقلب ميزان القوى ، وتجمعت دول أوربا المسيحية ضد تركيا ، وبدأت الهزائم الحربية تتتابعها ابتداء من القرن السابع عشر ، وشاركتها الدول العربية فى هزائمها وإن كانت لم تشاركها فى أرباحها يوم كان لها النصر (١) .

وهكذا أحست البلاد العربية بأن تبعيتها لتركيا جرّت عليها الخسارة فى الميدانين السياسى والثقافى ، فبدأت فى هذه البلاد حركات بعث سياسى وثقافى ، فظهرت فى اليمن الحركة الزيدية ، وفى مصر حركة على بك الكبير ، وفى فلسطين حركة الزعيم البدوى ضاهر العمر ، وفى لبنان حركة الأمير فخر الدين وحركة الشهابيين ، وفى العراق حركة الباشوات المماليك وفى قمتهم

(١) الحديث عن تركيا أوردناه كاملا فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة

سليمان باشا أبو ليلى ، وفى ليبيا حركة القرمانليين .

ومع هذه الحركات السياسة ظهرت حركات فكرية ثقافية كالحركة الإصلاحية بنجد ، وكحركة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده التى انتشرت فى عدة أقطار عربية ، وكالحركات الصوفية بشمال افريقية ،وكالحركة السنوسية التى نحن بصدد الكلام عنها .

ولكن الحركة السنوسية فى الحقيقة كانت ذات طابع خاص ، فهى تشترك مع الحركة الوهابية وحركة جمال الدين الافغانى فى البعث الثقافى ، ولكن لها وسائلها الخاصة وأهدافها الأكثر عمقا وفاعلية ، وسنوليها عناية فى الدراسة التالية .

مؤسس السنوسية :

مؤسس السنوسية هو محمد بن على السنوسى بن العربى وهو من سلالة الأدارسة الذين يتصل نسبهم بعلى بن أبى طالب وفاطمة الزهراء [١] .

وتنسب السنوسية إلى « السنوسى » جد مؤسس هذا التنظيم . ومؤسس السنوسية يعرف بالسنوسى الكبير ، وقد ولد فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فى بلدة مستغانم بالجزائر ، وبها تلقى مبادئ الدراسة ، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين ، ورحل كذلك إلى الازهر فتعلم به وعلم ، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد منهم وأعجب بالكثيرين منهم وأعجبوا به ، وأدرك السنوسى حاجة الدعوة الاسلامية إلى الإصلاح فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار .

مبادئ السنوسية وسياسة الزوايا :

وضع السنوسى خطة شاملة للإصلاح وأهم عمد هذه الخطة ما يلى :

١- ليست هناك حدود تقسم العالم الإسلامى ، فالحركة الإصلاحية يلزم أن تكون شاملة لكل أقطاره أو أكثرها بقدر الامكان .

(١) انظر النسب كاملا فى « السنوسى الكبير » للطيب الاشهب ص ٧ .

٢- الحركات الإصلاحية يلزم أن تكون سياسية وفكرية فى نفس الوقت ، أما إصلاح جانب بدون الآخر فذلك نقص فى الحركة ، فالإسلام دين ودولة ، عبادة وعمل .

٣- العالم الإسلامى يواجه حركة التبشير المسيحية ، ولذلك يلزم أن تعنى الحركة الاصلاحية بنشر الإسلام وبخاصة بين اللادينيين قبل أن تسبقه المسيحية فى هذا الميدان .

٤- العودة إلى يسر الدين الإسلامى ، والاعتماد على الكتاب والسنة ، والانتفاع بالمذاهب المختلفة فيما يناسب المسلمين وييسر حياتهم ، وتنقيه الإسلام من البدع والضلالات .

٥- الزهد والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية ليست من الإسلام فى شئ .

وكانت وسيلة السنوسى الكبير لتنفيذ ذلك هى إنشاء الزوايا ، والزاوية مركز دينى وثقافى واجتماعى وعسكرى ، فكان السيد السنوسى يرسل أحد أتباعة إلى جهة ما ، أو يطلب سكان الجهة منه أن يرسل لهم أحد أتباعة لنفس الغرض ، ويتم انشاء الزاوية فى الجهة ، وهى عبارة عن فناء واسع تحيط بة مرافق هى مسكن الشيخ ، ومسجد ، ومكان للضيافة وحجرات لسكنى الطلاب والإخوان ، ومحل لإيواء اللاجئين إلى الزاوية ، وتدور هذه المرافق حول الفناء الذى كان محط القوافل ، وبه بئر للسقيا ومخزن للأمتعة ، وتنشأ الزوايا غالبا فى مكان حصين على جبل أو نحوه لتكون أشبه بالقلعة إذا احتاج الأمر للدفاع عنها ، ويختار مكانها فى مفارق الطرق حتى تكون على صلة بالزاويا الأخرى ، ولتكون معها شبكة ضخمة .وكانت القبيلة تنزل للزاوية عن أرض حولها يزرعها الإخوان ، وعلى كل فرد من أفراد الجهة أن يساعد يوما أو أكثر عند الحاجة للعون فى مواسم الحرث والحصاد .

ويقوم على الزاوية « مقدّم » هو شيخها والقيم عليها ، وهو يتولى أمور القبيلة أو الناحية ، ويفصل فى الخصومات بين أهلها ، وله وكيل يتولى الدخل والخرج ، وينظر فى زراعة الاراضى وجميع الشئون الاقتصادية ، ولكل زاوية

شيخ يقيم الصلاة ويعلم الاولاد ويباشر عقود النكاح والصلاة على الجنائز وتشجع السنوسية الإخوان على الزراعة والتجارة ، وتدعو إلى إتقان الرماية والعلوم العسكرية لحماية الطريقة من العدوان (١) .

وهناك جماعة صغيرة يسمون « الخواص » وهم الذين بلغوا درجة عالية في العلم والمعرفة وهم أشبه بمجلس يشرف على ادارة الزوايا كلها

من هذا الوصف الموجز يتضح أن السنوسية دين ودولة (٢) ، ويتضح النظام الذى وضعه السيد لزواياه ويبدو من تتبع الزوايا أن السيد مال للصحارى والواحات والقبائل أكثر من ميله للمدن ، إذ رأى أن صرخة الإصلاح تضيع فى ضجيج المدن وصخبها ، وأنشأ السيد الزاوية الاولى سنة ١٨٣٧ فى أبى قبيس بالقرب من مكة المكرمة ، ثم أتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة وبدر وجدة وينبع .

ولكن السيد أحسَّ أن الشمال الافريقى أولى بحركته ، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس سنة ١٨٤٠ ، وفى سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ، فكانت مركز دعوته ، وفى سنة ١٨٥٦ نقل مركز الدعوة إلى واحة الجغبوب لأنها أكثر توسطا وأسهل اتصالا بأنحاء مختلفة من برقة وطرابلس والسودان الغربى كما كانت مركزا للقوافل ، وأصبحت الجغبوب جنة بعد أن كانت واحة صغيرة ، وأنشأ فيها مدرسة دينية قوامها مكتبة بها ثمانية الآف مجلد ، فيها كتب الفقه والتفسير والحديث والفلك والفلسفة والفنون ،وعمادها أولئك التلاميذ المخلصون الذين رافقوا السيد فى دراسته وأسفاره ، فصاروا ممن يعتمد عليهم فى التدريس ، وكان فى الجغبوب ٣٠٠ طالب يُعَدّون الإعداد الصحيح ليكونوا دعاة هداية وحملة نور الاسلام ، وكان السيد يشرف على كل الأمور إشرافا شخصيا مباشرا ليتأكد من أن كل رجل أعد على خير سبيل قبل أن يوكل إليه القيام بمهمته ، وقد كانت الجغبوب أكبر مركز علمي فى

---

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص٣٦ بتصرف .

(٢) انظر كتاب « السنوسية دين ودولة » للدكتور محمد فؤاد شكرى .

شمالى إفريقية بعد القاهرة [1] .

وانتشرت الزوايا فى نواحى برقة وطرابلس ووادای ، وظهر أثرها واضحا حيث وجدت ، فالتعاون والأمن والخلق الطيب حلت محل القطيعة والحرب والمفاسد التى كانت منشرة بين القبائل ، وفى المجال الخارجى بدأ الإسلام يزحف بواسطة الزوايا نحو الجنوب حتى بحيرة تشاد ووسط افريقية ، ومن وسائل السنوسى الكبير التى اتبعها فى نشر الإسلام بقلب افريقية ، أنه اشترى مرة قافلة من العبيد ، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم فى سوق الرقيق ، ولكن السيد أعتقهم جميعا وأكرمهم وعلمهم الإسلام ، وبث فيهم حبه وتقديره ، ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاة يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين ، فكانوا أساسا هاما لنشر دين الإسلام بين أهليهم وقبائلهم .

زعماء السنوسية :

وتوفى السنوسى الكبير سنة ١٨٥٩ فى الجغبوب وعند وفاته كانت السنوسية قد توطدت أركانها وقويت دعائمها ، وكان ابنة السيد المهدى حدثا آنذاك فأقيم مجلس وصاية عليه حتى أكتمل بعد ذلك بسنوات قليلة (ولد السيد المهدى سنة ١٨٤٤) وعاش السيد المهدى حتى سنة ١٩٠٢ وقد بلغت السنوسية فى عهده أسمى درجاتها ونقل السيد المهدى مركز الدعوة من الجغبوب إلى « الكفرة » سنة ١٨٩٥ التى أصبحت المركز التجارى الرئيسى الذى تلتقى فيه القوافل من جميع إفريقية الوسطى والشمالية وكان هؤلاء التجار وقوافلهم سبيلا لنشر الإسلام فى الجهات النائية ، ومركز الإدارة السنوسية كان فى قرية « التاج » ومنها وصلت الدعوة السنوسية حاملة الإسلام إلى بلاد كور وتبستى وبركو وأندى ودارفور ووادای وكانم وتشاد وأرقر وبغرمى [2] .

وعند وفاة السيد المهدى سنة ١٩٠٢ كان للسنوسية ١٣٦ زاوية موزعة كالآتى : برقة ٤٥ ـ مصر ٢١ ـ طرابلس ١٨ ـ الجزيرة العربية ١٧ـ فزان

(١) دكتور نقولا زيادة . ليبيا من الاستعمار الإيطالى الى الاستقلال ص ٦٦.

(٢) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص ٦٨ .

١٥ـ السودان ١٤ ـ الكفرة ٦ .

وعند وفاة السيد المهدى كان ابنه السيد إدريس السنوسى (ملك ليبيا السابق) حدثا (ولد سنة ١٨٨٩) فتولى ابن عمه السيد أحمد الشريف بن السنوسى الكبير رياسة السنوسية ، وفى عهده خاضت السنوسية غمار حرب ضد الفرنسيين فى سباق السيطرة على قلب افريقية ، وكان زعيما السنوسية الأولان يبتعدان بها عن الحرب وعن المشكلات الدولية ، ولكن الزعيم الجديد وجد ألا مناص من النزول إلى المعركة ولكن الأسلحة الحديثة التى كان يستعملها الفرنسيون كسبت لهم النصر ، وإن كانت قد زادت تدريب جيش السنوسية وأتباعها .

وفى عهد هذا الزعيم جاء الزحف الإيطالى على ليبيا ، وقد تصدر السيد أحمد الشريف للعدو الزاحف كما ذكرنا من قبل وألقت تركيا بمقاليد الآمور للسنوسية ، وأصبحت السنوسية قوة دولية معترفا بها .

وفى سنة ١٩١٨ اعتزل السيد أحمد الشريف زعامة السنوسية إثر الهجوم على مصر ، واتجه إلى تركيا ، وآلت زعامة السنوسية إلى السيد إدريس الذى تولى ملك ليبيا حتى عزلته ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ .

قوة الباطل وصوت الحق

روينا فى هذا الكتاب ألوانا من جهود الفرنسين والطليان للقضاء على الاسلام فى الشمال الافريقى ، ثم انتهى عهد الفرنسيين فى المغرب والجزائر وتونس ، وانتهى عهد الطليان فى ليبيا ، وهب الشعب العربى بعد هذه الكوارث صلب العود متمسكا بدينه وقوميته على أحسن وجه .

لقد كان الله معه فى صراعه ضد الباطل حتى انتهى الليل البهيم إلى غير رجعة ، وأسفر الصبح عن خير عميم ، فالحمد لله .

وإلى اللقاء فى الجزء الخامس

مراجع الكتاب

ملاحظتان :

١ ـ المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ ـ رتبت هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فمثلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) و مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ...... ال) .

١ ـ Encyclopadia of Isiam في عدة مقالات .

٢ ـ وثائق ومعاهدات .

٣ ـ صحف ومجلات كثيرة .

٤ ـ مقابلات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ الحديث .

٥ ـ لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو التليفزيون .

٦ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس (مجهول المؤلف) .

٧ ـ ابن أبي أصيبعة	عيون الأنباء
٨ ـ ابن الأثير	الكامل في التاريخ
٩ ـ أبو الفدا	المختصر في أخبار البشر
١٠ ـ إحسان حقي	تونس العربية
١١ ـ أحمد بن حنبل	المسند
١٢ ـ دكتور أحمد شلبي	موسوعة التاريخ الاسلامي (الأجزاء المختلفة)
١٣ ـ دكتور أحمد شلبي	تاريخ التربية الاسلامية
١٤ ـ دكتور أحمد شلبي	السياسة في الفكر الاسلامي
١٥ ـ دكتور أحمد شلبي	الاقتصاد في الفكر الاسلامي
١٦ ـ دكتور أحمد شلبي	مقارنة الأديان (الأجزاء الاربعة)

١٧ ـ دكتور أحمد شلبى	الفكر الإسلامى : متابعة وآثارة (مترجم عن الإنجليزية)
١٨ ـ دكتور أحمد ضيف	بلاغة العرب فى الأندلس
١٩ ـ أحمد النائب الأنصارى	المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب
٢٠ ـ دكتور أحمد هيكل	الأدب الأندلسى وموجز عن أسبانيا
٢١ ـ الأصفهانى (أبو الفرج)	الأغانى
٢٢ ـ أمين سعيد	الدولة العربية المتحدة
٢٣ ـ أناتول فرانس	الحياة مزدهرة
٢٤ ـ أنجل جونثالث	تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الدكتور حسين مؤنس)
٢٥ ـ Baker	The Legacy of Islam
٢٦ ـ Barthold	Turkestan Down to the mongol Invasion
٢٧ ـ البلاذرى	فتوح البلدان
٢٨ ـ البيرونى	الآثار الباقية عن القرون الخالية
٢٩ ـ التنوخى	مشوار المحاضرة
٣٠ ـ توفيق المدنى (أحمد)	هذه هى الجزائر
٣١ ـ ابن جبير	رحلة ابن جبير
٣٢ ـ دكتور جودة هلال وآخر	قرطبة فى التاريخ الاسلامى
٣٣ ـ ابن الجوزى	المنتظم
٣٤ ـ جوزيف كالميث	تاريخ أسبانيا
٣٥ ـ حتى (فيليب)	تاريخ العرب
٣٦ ـ دكتور حسن سليمان	ليبيا فى الماضى والحاضر
٣٧ ـ ابن حوقل	كتاب صورة الأرض
٣٨ ـ الحميدى (محمد بن فتوح)	جذوة المقتبس فى تاريخ الاندلس
٣٩ ـ الخضرى	محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية
٤٠ ـ ابن الخطيب	الإحاطة فى أخبار غرناطة
٤١ ـ ابن الخطيب	الحلل الموشية

٤٢ ـ ابن خلدون	المقدمة
٤٣ ـ ابن خلدون	العبر وديوان المبتدا والخبر
٤٤ ـ ابن خلكان	وفيات الاعيان
٤٥ ـ ابن دقماق	الانتصار بواسطة عقد الأمصار
٤٦ ـ ابن الدلائى	ترصيع الأخبار وتنويع الآثار
٤٧ ـ دوايت دونلدش	عقيدة الشيعة
٤٨ ـ Dozy	(Eng-Trans) Muslims in Spain
٤٩ ـ Dimand	A Handbock of Muhammadan Arts
٥٠ ـ الذهبى	تاريخ الإسلام
٥١ ـ راسم رشدى	طرابلس الغرب
٥٢ ـ الراوندى	راحة الصدور
٥٣ ـ رودلفو ميكاكى	طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمللى
٥٤ ـ Rum Landa	The Crisis of Morocco
٥٥ ـ زامباور	معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى
٥٦ ـ السبكى	طبقات الشافعية الكبرى
٥٧ ـ Stanley Lane-Poole	The Arabs in Spain
٥٨ ـ Stanley Lane-Poole	Muh. Dynasties
٥٩ ـ سعد البهنيهى	خفايا القضية الليبية
٦٠ ـ سعيد العريان وآخرون	شمال افريقية
٦١ ـ السلاوى	الاستقصاء لأخبار المغرب الاقصى
٦٢ ـ السيوطى	تاريخ الخلفاء
٦٣ ـ ابن الشباط	تاريخ الاندلس
٦٤ ـ الشهر ستانى	الملل والنحل
٦٥ ـ دكتور صلاح العقاد	المغرب العربى
٦٦ ـ الضبى	بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس

٦٧ ـ الطاهر أحمد الزاوى	تاريخ الفتح العربى فى ليبيا
٦٨ ـ الطاهر أحمد الزاوى	جهاد الأبطال
٦٩ ـ دكتور عبد الحميد البطريق	افريقية حلم الاستعمار البريطانى
٧٠ ـ دكتور عبد الحميد البطريق	الأمة العربية
٧١ ـ عبد الحميد العبادى	المجمل فى تاريخ الاندلس
٧٢ ـ ابن عبد ربه	العقد الفريد
٧٣ ـ دكتور عبد الرحمن زكى	إفريقية الاسلامية
٧٤ ـ دكتور عبد العزيز رفاعى	الحركة القومية فى إفريقية
٧٥ ـ ابن عذارى	البيان المغرب فى أخبار المغرب
٧٦ ـ دكتور عزة النص	الوطن العربى
٧٧ ـ علال الفاسى	السياسة البربرية
٧٨ ـ غوستاف لوبون	حضارة العرب
٧٩ ـ ابن الفرضى	تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس
٨٠ ـ فيرو	حوليات طرابلس
٨١ ـ الفيروزا بادى	القاموس المحيط
٨٢ ـ ابن القوطية	تاريخ فتح الأندلس
٨٣ ـ كارك بروكلمان	تاريخ الشعوب الإسلامية
٨٤ ـ الكندى	كتاب الولاة والقضاة
٨٥ ـ Kirk	A Short History of the Middle East
٨٦ ـ دكتور لطفى عبد البديع	الاسلام فى اسبانيا
٨٧ ـ لويس معلوف	المنجد
٨٨ ـ ليفى بروفنسال	الإسلام فى المغرب والأندلس
٨٩ ـ عبد الخالق عامر	أدب الأندلس وتاريخها
٩٠ ـ محمد اسماعيل	قضية موريتانيا
٩١ ـ محمد حبيب أحمد	نهضة الشعوب الاسلامية

٩٢ ـ الإمام محمد عبده	الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة
٩٣ ـ محمد عبد الله عنان	دولة الاسلام فى الاندلس
٩٤ ـ محمد بن الأمير عبد القادر	تحفة الزائر في تاريخ الجزائر
٩٥ ـ دكتور محمد غلاب	الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية
٩٦ ـ دكتور محمد فؤاد شكرى	السنوسية دين ودولة
٩٧ ـ » » » »	ليبيا الحديثة
٩٨ ـ محمد فريد وجدى	دائرة معارف القرن العشرين
٩٩ ـ محمد بن أبى القاسم	المونس فى أخبار افريقية وتونس
١٠٠ ـ محمود الشرقاوى	المغرب الاقصى
١٠١ ـ محمود الشنيطى	قضية ليبيا
١٠٢ ـ المراكشي	المعجب في تلخيص أخبار المغرب
١٠٣ ـ المسعودى	مروج الذهب
١٠٤ ـ المسعودى	التنبيه والإشراف
١٠٥ ـ المقرى	نفح الطيب
١٠٦ ـ المقريزى	الخطط
١٠٧ ـ المقريزى	اتعاظ الحنفا
١٠٨ ـ Muir	The Roman Impire
١٠٩ ـ Neldeka	Skeches from eastern History
١١٠ ـ Nichelson	A Literary History of the Arabs
١١١ ـ دكتور نقولا زياد	ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال
١١٢ ـ Harry Hazard	Atlas of Islmic History
١١٣ ـ هيئة تحرير ليبيا	الفظائع السود الحمر

فهرس الاعلام

ملحوظات : ١ـ تحاشيا للإطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صحفات الكتاب ، كما لم أضمنها أسماء الملوك والسلاطين التي حوتها قوائم الحكام والواردة بالكتاب لسهولة الحصول عليها من هذه القوائم

٢ ـ رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ـال)

٣ ـ حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة علي أن الاسم ورد في الصفحة أكثر من مرة

٤ ـ هذه الفهارس وُضعت للطبعة السابقة ، وقد تغيرت الصفحات في هذه الطبعة قليلا ولم يكن هناك متسع من الوقت للتعديل فابحث عن الكلمة حول هذا الرقم .

(حرف الألف)

(حرف الباء)

(حرف الخاء)

(حرف الدال)

(حرف الراء)

(حرف الزاى)

فهرس الأمكنة

تحاشياً للإطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء الأمكنة التى عقدت االدراسات حولها لورود هذه الاسماء فى كل صفحة تقريباً من صفحات الكتاب ، وهى : أسبانيا أو الاندلس ، والمغرب ، والجزائر وتونس وليبيا (طرابلس ـ برقة ـ فزان) وفرنسا .

رقم الايداع ٢٠٠٣ / ١٩٨٤

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A Study, in Ten Volumes, on History and Civilization of Islam in All Muslim Ages and Lands

IV

MUSLIMS IN SPAIN
MAGHRIB (MOROCCO), ALGERIA, TUNIS AND LIBYA

From the Rise of Islam up to the Present Time.

SANUSI SECT:

Its Principles and History

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,

Professor and Head of the Department of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by:

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo



دكتور احمد شلبي

— تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج.

— زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية

— درس مجموعة من اللغات الأجنبية وبخاصة الانجليزية والاندونيسية.

— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، وقد عمل أستاذا زائرا وخبيرا في جامعة الأزهر، وفي مصر، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية

— مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا وأهم هذه المؤلفات:

١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة مجلدات

٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء.

٣ — مقارنة الأديان في أربعة أجزاء.

٤ . كيف تكتب بحثا أو رسالة.

٥ . المكتبة الاسلامية لكل الأعمار (١٠٠ جزء من السيرة والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال.)

ISLAM BELIEF, LEGISLATION, MORALS

HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

— ترجمت كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية، والفارسية.